موسوعة

أسماء الله الحسنى

وصفاته الفضلى

من الكتاب والسنة

المجلد الثالث

الدكتور

محمد راتب النابلسي

مؤسسة

الفرسان

للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

موسوعة

أسماء الله الحسنى

وصفاته الفضلى

من الكتاب والسنة

الطبعة الأولى
2014 م /1435 هـ

مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع
الأردن – عمان – العبدلي
هاتف 00962 6 5607386
فاكس 00962 6 5653470
صندوق بريد 240664 عمان 11124 الأردن

Al Fursan Est.
Publishers & distributors
Jordan – Amman – Abdaly
Tel : 00962 6 5607386
Fax: 00962 6 5653470
P.O. Box 240664 Amman 11124 Jordan

E-mail: alfursan111@yahoo.com

الكتاب: موسوعة أسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى من الكتاب والسنة
4 مجلدات
المؤلف: الدكتور محمد راتب النابلسي
التخريج والتدقيق: بلال نور الدين
المراجعة النهائية: بلال نور الدين
الخطوط: الخطاط / يعقوب إبراهيم
الإشراف العام: م. حسن صالح

مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع

ردمك ISBN: 9789957570576
رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية: 3 / 1 / 2014

القُدُّوس

الاسم الجليل من أسماء الله الحسنى الذي نحن بصدده في الصفحات التالية هو اسم «القُدُّوس»، ورد هذا الاسم في آيتين قرآنيتين، ورد في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحشر:٢٣].

وورد في قوله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ ﴾ [الجمعة:١].

أمّا في السنة الصحيحة، ففي صحيح مسلم، من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان: «يقولُ في رُكوعِهِ وسُجُودِهِ: سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، ربُّ الملائِكَةِ والرُّوحِ» [أخرجه مسلم، وأبو داود، والنسائي عن عائشة].

وفي حديث آخر أنه ﷺ إذا هب من الليل يقول: «سبحان الملك القدوس» [أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان عن أُبي بن كعب].

من معاني اسم الله القدوس

القُدُّوس: على وزن فُعُّول، وهو من القدس، والقُدُس: الطهارة والتقديس هو التطهير، والأرض المقدسة: الأرض المطهَّرة، وسميت الجنَّةُ حظيرة القُدُس، لأنها مطهَّرة من آفات الدنيا، وسُمي سيدنا جبريل روح القُدُس، قال تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ ﴾ [النحل:١٠٢].

لأنه مطهر من كل عيوب التبليغ، لا ينسى، ولا يغيّر، ولا يبدّل، ولا يضيف، ولا يحذف، ولا يبالغ، لأنّه مطهّر من كلِّ عيوب التبليغ.

القداسة هي الطهارة والبركة، والبركة الخير الكثير، قدّس الرجل ربَّه إذا عظمه، وكبّره، وطهَّر نفسه بتوحيده وعبادته

وفي قوله تعالى حكايةً عن الملائكة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة:٣٠].

ما معنى: ونقدس لك؟ يعني يا ربِّ! نحن نطهِّر أنفسنا، ونقدِّسها كي نكون أهلاً للإقبال عليك، وهذه مهمة الإنسان في الدنيا، يجب أن يُقَدِّس نفسه كي ينال معقد صدق، عند مليك مقتدر.

كلكم يعلم أنه إذا دُعي إلى حفل كريم، أو إلى لقاء خطير، أو إلى مقابلة كريمة، كيف يعتني الإنسان بمظهره، بثيابه، بألوان ثيابه، بكلِّ حركاته وسكناته، فلذلك الملائكة يقولون: ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [البقرة:٣٠].

هل تصدِّقون أن مهمة الإنسان في الدنيا؛ أن يطهِّر نفسه كي تغدو مؤهلة لتكون في جوار الله في الجنة، لأنَّ الله طيِّب، ولا يقبل إلاّ طيِّباً.

الإنسان يطلي بيته، يرى مثلاً أنَّ مدخل البيت يحتاج إلى تعديل فيعدّله، يرتب غرفة الاستقبال، يزيِّن مركبته، يتأنّق في لباسه لماذا؟... هذا منظر الخلق... والله تعالى ينظر إلى قلوبنا. قال ﷺ: «إنَّ الله لا ينظرُ إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» [أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة].

إذاً يجب أن يكون شغلك الشاغل أن تطهِّر نفسك؛ كي يُسمح لك أن تكون مع النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، يوم القيامة، وحَسُنَ أولئك رفيقاً.

الأقوياء في الدنيا، أيُّ إنسان أعلن لهم الولاء يقبلونه ولا ينتبهون إلى سلوكه، أيُّ إنسان رفع صورتهم يقبلونه، أيُّ إنسان أرسل لهم برقية تأييد يقبلونه، لكنَّ الواحد الدّيّان، إن لم تكن مستقيماً، إن لم تكن طاهراً، رحيماً، منصفاً، متواضعاً لا يقبلك، الولاء للأقوياء شيء، والولاء لله عز وجل شيء آخر.

«إن الله طيِّب، لا يقبلُ إلا طيباً» [أخرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة].

القداسة هي الطهر، والله عز وجل لا يقبلك إلا إذا كنت طاهراً، من الذنوب ومن العيوب معاً.

التقديس نفي واثبات، يجب أن تنفي عنه كلَّ ما لا يليق به، نفياً مجملاً، وتثبت له ما أثبته لنفسه إثباتاً مفصّلاً، هو غفور رحيم، واحد أحد، فرد صمد، كبير متعال، يجب أن تفصِّل في إثبات الكمالات له، ويجب أن تجمل في نفي العيوب عنه، وهذا من التقديس.

النقطة المهمة في هذا الاسم، أنه جاء في تعريف هذا الاسم الجليل: أنَّ القُدُّوس هو المنزَّه عن كل وصف، من أوصاف الكمال البشري، شرح هذا الكلام: أنَّ الإنسان حينما أدرك ذاته، رأى في نفسه كمالات ونواقص؛ العلم كمال، الحلم كمال، الصبر كمال، السمع، البصر، الإرادة، الحياة هذه كمالات... الجهل نقص، العمى نقص، الصمم نقص، الخرس نقص، اللؤم نقص، الحقد نقص، الضجر نقص... فالإنسان رأى أنَّ

هناك كمالات، وهناك نواقص، فلما أراد أن يثني على الله عز وجل نسب إلى الله عز وجل الكمالات التي يعرفها هو، إن الله سبحانه وتعالى «القُدُّوس» منزهٌ عن الكمالات التي يتصورها الإنسان لنفسه، فكلُّ ما خطر ببالك عن الله فالله بخلاف ذلك، قال تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى:١١].

الله عز وجل ليس كالأب، ولا كالمعلم، إنه سبحانه أعظم من ذلك، هل الله رحيم كما يرحم الأب ابنه؟ لا... فالأب أحياناً يرحم ابنه رحمة دون علم فيورده المهالك، لكن الله رحيم عليم، فرحمته سبحانه وتعالى مرتبطة بعلم.

لذلك لما أراد الإنسانُ أن يثني على الله عز وجل فقد أثنى عليه بصفات الكمالات البشرية، والله سبحانه وتعالى «قُدُّوس»، أي: منزَّه عن كلِّ وصف من صفات الكمال البشري، إنه سبحانه أعظم من ذلك، هو منزَّه عن صفات كمال الناس، ومن باب أولى منزَّه عن صفات النقائص، بل إنَّه منزَّه عن كلِّ صفة تُتصوَّر للخلق، كلُّ شيء تصوره الإنسان عن الله عز وجل فهو منزَّه عن هذه الصفات.

فمثلاً: من معاني «الله أكبر»، أنّ كل ما عَرفتَ عن الله عز وجل، فالله أكبر من ذلك، أكبر مما عرفت، هذا معنى، كذلك فإن «القُدُّوس» منزَّه ومقدَّس عن كلِّ صفة يمكن لإنسان أن يتصوَّرها، إنّه منزّه ومقدَّس عن كلِّ صفة تشبه صفات الإنسان وتماثلها، ولولا أنَّ الله سبحانه وتعالى سمح للإنسان أن يصفه بصفات كمال البشر، لكان وصفه بصفات كمال البشر ذنباً من الذنوب، تقول: الله رحيم، تقول: الله عادل، الله لطيف، الله حليم، إذا قلت: الله حليم؛ فلعله يدور بخَلَدك أن الإنسان قد يحلم، فقد يُستفز فلا يغضب، هذا حلم الإنسان، والله تعالى قُدُّوس عن هذه الأوهام، وعن هذه الصفات.

عالم قال لآخر: يا فلان، ألا تشتاق إلى الله عز وجل؟فقال: لا والله لا أشتاق إليه، قال الآخر: ما هذا الكلام؟! فأجابه: متى غاب عني حتى أشتاق إليه؟!

ومـــن عجـــبٍ أني أحـــنُّ إلـــيهم وأســأل عــنهم مــن أرى وهــم معــي

وآخر يسأل: يا إمام متى كان الله؟ قال: ومتى لم يكن؟... متى لم يكن حتى تقول لي: متى كان الله؟

الآن مرحلة أخرى القُدُّوس هو المنزَّه عن كلِّ وصف يدركه الحسُّ، عن كلِّ تصوُّر يتصوَّره الخيال، أو يسبق إليه الوهم، أو يختلج به الضمير، أو يقضي به التفكير... أمَّا أن تقول: منزّه عن العيوب والنقائص، فهذا أمر مفروغ منه.

بربك! لو كنت في حضرة إنسان عظيم، وقلت له: يا سيدي حَدَّثْتُ الناس عنك، قال: فماذا قلت لهم؟ قال: قلت لهم: إن جنابك لست بكاذب! ما هذا؟ أيقبل هذا؟ هل تمدح ملكاً بأنه ليس كاذباً؟ قال العلماء: هذا من ترك الأدب، ألم ترَ في الملك شيئاً إيجابياً، حتى نفيت عنه الكذب، وهناك قاعدة: إنّ نفي الشيء أحد فروع تصوره، إذا نفيت عن جهة نقيصةً، إذاً بالإمكان أن تقع منه هذه النقيصة، نفي الشيء أحد فروع تصوّره، إذاً من ترك الأدب أن تقول: الله سبحانه وتعالى منزّه عن النقائص، منزّه عن العيوب، وتقف، هذا من ترك الأدب.

من تعريفات اسم «القُدُّوس» أن القُدُّوس مَن تقدَّستْ عن الحاجات ذاتُه، أما أنت فمحتاج، أنت فقير، كلُّ شخصيتك، وعلمك وذكائك، وقوَّة هيمنتك على الناس، وجلَدك، كلُّ هذه الصفات تتلاشى أمام شربة ماء في ساعةِ ظمأ.

قال ابن السماك: يا أمير المؤمنين بكم تشتري هذا الكأس إذا مُنِعَتْ عنك؟ قال: بنصف ملكي، قال: فإذا مُنع إخراج الماء؟ قال: بنصف ملكي الآخر.

أنت مُحتاج إلى الهواء، فلو مُنع منك الهواء لاشتريته بكنوزِ الدنيا.

هذا الذي كان يقطع الصحارى، يجتاز الصحراء على ناقة عليها زاده وطعامه وشرابه، تعب من السفر، جلس ليستريح فنام، فلما أفاق لم يجد الناقة وعليها طعامه وشرابه، وهو في عرض الصحراء، فأيقن بالهلاك، من شدة البكاء أخذته سنة من النوم،

أفاق فرأى عن بُعد شجرةً، فأشرق في نفسه نور من الأمل، هرعَ نحو الشجرة، فإذا إلى جانبها بركة ماء شرب منها حتى ارتوى، ثم تولّى إلى الظّلّ، فإذا كيس مملوء، ففرح به فرحاً عظيماً، وهو يحسب أن فيه خبزاً، ولكنْ يا للأسف، لقد فتح الكيس فلم يجد فيه إلا لآلئ، فصاح: وا أسفاه هذه لآلئ، اللآلئ لها قيمة في المدينة؟ لو كان في الكيس خبز! أما وقد منع منه الخبز يقول: وا أسفاه هذه ليرات ذهبية. ماذا أفعل بها في الصحراء؟

في الحرب العالمية الثانية كما سمعت: الرغيف بيع بليرة ذهبية.

إذاً فالإنسان ضعيف، مفتقر إلى الهواء، مفتقر إلى الماء، مفتقر إلى الخبز، مفتقر إلى الأهل، مفتقر إلى من يؤنسه، مفتقر إلى من يحبُّه، أنت فقير في الأصل، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ۝١٥﴾ [فاطر:١٥].

القُدُّوس: مَن تقدَّستْ عن الحاجات ذاته، فهو صَمَد، وتنزَّهتْ عن الآفات صفاته.

والقُدُّوس: من تقدس عن مكان يحويه، وعن زمان يبليه.

القُدُّوس عزيز لا يرتقي إلى تصويره وَهْمٌ، ولا يطمع في جواز تقديره فَهم، ولا تنبسط في ملكه يد من دون تقدير.

هو قدُّوس في ذاته، لكنَّهُ يقدّس عباده الطائعين.

أقول لكم هذه الكلمة: فلان مقدَّس، المقدَّس هو الطاهر، تقديس بلا طهارة كلام فارغ، فلان مقدَّس، أي: مستقيم، عفيف، طاهر، سليم الصدر، نيّاته طيبة، ليس في قلبه غلٌّ، ولا حقد، ولا غشٌّ، ولا تخونه عينه، ولا يسبقه لسانه، ولا يعطي أذنه لهجر القول، لا يُقدَّس الإنسان إلا إذا تنزَّه عن النقائص.

والقُدُّوس مَنْ قدَّس نفوس الأبرار عن المعاصي، وأخذ الأشرار بالنواصي.

القُدُّوس من قدَّس قلوب أوليائه؛ فكلُّ إنسان له قلب صنوبري، لا أعتقد أن إنساناً على وجه الأرض ليس له قلب، لكنْ هناك قلب كالجوهر وقلب كالحجر.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)﴾ [الأعراف:١٧٩].

لكنِ كلما اقترب الإنسان من الله عز وجل، صار ذا قلبٍ كبير، ذا قلب صافٍ، قلبٍ ممتلئ حبّاً لله عز وجل.

الفرق كبير جداً بين قلب وقلب، قلب يلامس السماء رفعة، وقلب يلامس الحضيض ضَعَةً، قلب كالجوهر صفا ماؤه ورقّ، وقلب عكر كَدِر، فالقلوب أنواع، ومحصلة إيمانك كلِّه هذا القلب: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩].

القلب السليم كما ذكر ابن القيم رحمه الله هو القلب الذي لا يشتهي شهوة لا ترضي الله، ولا يصدِّق خبراً يتناقض مع وحي الله، ولا يعبد غير الله، ولا يحتكم إلا لله.

إنسان يقول لك: هذه القضية لا تُحلُّ عند المشايخ، بل في القضاء، يقول لك: أحتكم إلى القضاء والقانون، أمّا إن كان القضاء يحمي خصمه فإنّه يلجأ إلى الدين ويأتي إلى المشايخ، إذاً هو مع مصلحته وليس مع الحقّ.

امرأة مسلمة في بلد غربي إذا نشب خلاف بينها وبين زوجها ترفع الأمر إلى القضاء ولا ترفعه إلى القاضي المسلم في المركز الإسلامي، لأنها إذا رفعت قضيتها له يحكم لها بالمهر فقط، أما إذا رفعت قضيتها إلى قاض غربي يحكم لها بنصف أملاك زوجها.

لا بد أن يسعى الإنسان إلى تطهير قلبه من كل درن، وأن يسعى إلى تحليته بكلِّ كمال.

قال العلماء: القُدُّوس مَن قدَّس قلوب أوليائه عن السكون إلى المألوفات، الإنسان مستهلَك، طعامه، وشرابه، وبيته، وأولاده، ورزقه، ودكانه ومتجره، ومعمله،

ووظيفته، ومكانته، وصحته، وقلبه، وشرايينه، مستهلَك، فهموم الدنيا تستهلكه، لكنَّ قلبَ العابد مُستَهلِك وليس مستَهلَكاً، يستهلك الدنيا بمعرفة الله، ولا يسمح لها أن تستهلكه، المؤمن يقود هواه ولا ينقاد له، المؤمن يسيطر على نفسه، ولا يسمح لها بالسيطرة عليه، المؤمن يحتكم إلى القيَم ويحكِّمها، ولا يسخّرها، ولا يسخَرُ منها، المؤمن له مرتبة أخلاقية لا يهبط عنها، وله مرتبة علمية لا يزيغ عنها، وله مرتبة جمالية، المؤمن شخصيّة فذّة.

قال العلماء: القُدُّوس من طهَّر نفوس العابدين بإبعادهم عن دنس المخالفات واتّباع الشهوات، والقُدُّوس من طهّر قلوب الزاهدين من حبِّ الدنيا، والقُدُّوس من طهّر قلوب العارفين مما سواه... طهر قلوب العابدين، وطهّر قلوب الزاهدين.

فالعابدون متَّصفون بطاعة الله، مقبلون على عبادته، متحرِّقون إلى الإقبال عليه.

والزاهدون مقيمون على الاكتفاء بوعد الله، معرضون عما يوجب التهمة من ضمان الله كفايتَهم.

إذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك مما في يديك.

إذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتق الله، إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكَّل على الله، ربنا عز وجل قال: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾ [النمل:٧٩].

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [آل عمران:١٣٩].

مشاعر القهر، مشاعر الخنوع، أحاسيس الذل، لا يعرفها المؤمن الذي يعرف أنَّ أمره كلَّه بيد الله، وأن الله صاحب الأسماء الحسنى والصفات الفضلى.

لذلك، النبي الكريم ﷺ كان يقول عند الكرب: «لا إله إلا الله العليم الحكيم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات ورب الأرض رب العرش الكريم» [متفق عليه من حديث ابن عباس].

لا إله إلا الله كلُّ شيء بيدك يا رب، وأنت رحمن رحيم...

لذلك لا يحزن قارئ القرآن، قارئ القرآن لا يمكن أن يحزن، لأنه يعلم -من خلال القرآن- أنَّ الأمر كلَّه بيد الله، كن فيكون، أمّا عند الإنسان فكلُّ أمر محدود، وكلُّه شحيح، أمَّا ربنا عز وجل ففضله واسع عظيم.

العارفون إذا قاموا قاموا بالله، وإن نطقوا نطقوا بالله، وإن سكتوا سكتوا لله، فكيفما دارت أوقاتهم، وتغيّرت أحوالهم، فالغالب على قلوبهم ذِكر الله عز وجل.

أَوَ مؤمن أنت؟ أوَ عاهدت الله عز وجل؟ في السراء والضراء، في الغنى والفقر، في الصحة والمرض، في عمل وبلا عمل، في زواج وبلا زواج، لك بيت أو بلا بيت، فلعلّ الله أن يصلك: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْـهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب:٢٣].

قال بعض العارفين: أذاقنا الله مما أذاقهم شمّة، إنّه وليّ كلِّ نعمة.

أجل، طعم القرب، فمن ذاق عرف، إنّ الحديث عن القرب شيء، والذوق شيء آخر، وفرق كبير جداً بين أن تقول: ألف مليون دينار ذهبي، وبين أن تملكها.

القُدُّوس يقدِّس من شاء من خلقه، وفق مراده وحكمته، لذلك ورد في الحديث الصحيح: «إن الله لا يقدِّس أمة لا يأخذ الضعيف حقه» [أخرجه الحاكم عن أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب].

يقول ﷺ: «إنَّما أهلك الذين قبلكم: أَنَّهُمْ كانوا إذا سَرَقَ فيهم الشَّرِيفُ تَرَكُوه، وإذا سَرَقَ فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ. وَأَيْمُ الله لَوْ أَنَّ فاطمةَ بنْتَ محمدٍ سَرَقَت لقطعتُ يَدَهَا» [أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن عائشة أم المؤمنين].

نصيب المؤمن من اسم الله القدوس

من عرف هذا الاسم طهَّر نفسه عن متابعة الشهوات، فإذا كنت تَطمع أن تكون مع الله دائماً، فعليك أن تنزِّه نفسك عن الذنوب والعيوب، وعمّا سوى الله كي يقبلك علاَّم الغيوب.

إذاً من عرف هذا الاسم فلا بد من أن يطهِّر نفسه عن متابعة الشهوات، لعله يقارب مرتبة الإحسان: اعبد الله كأنك تراه، خوفاً، حباً، فإن لم تكن تراه فإنه يراك... وهذا حال المراقبة.

قال العلماء: مَن عرف هذا الاسم طهَّر نفسه عن متابعة الشهوات، وطهَّر ماله عن الحرام والشُّبُهات، ومن عرف هذا الاسم طهَّر وقته عن دنس المخالفات... قال أبو حازم لسليمان بن عبد الملك: احرص على أن يراك حيث أمرك، وأن يفقدك حيث نهاك، في وقت مجلس العلم أين أنت؟ في بيت الله... في وقت صلاة الجمعة أين أنت؟... فيما بين الفجر والشمس أين أنت؟ على السرير أم في مصلاك؟ يجب أن يراك حيث أمرك، وأن يفقدك حيث نهاك، في هذه الطرقات المزدحمة بالنساء الكاسيات العاريات، هل أنت في هذا الطريق؟ لا والله، أنت في بيت من بيوت الله.

كما قال العلماء: مَن عرف هذا الاسم طهَّر وقته من دنس المخالفات، وطهر قلبه من مسلك الغفلات، وطهر روحه من فتور المساكنات.

فالمساكنات أن يركن إلى الزوجة، ويركن إلى أولاده، أن يؤثرهم على مرضاة الله عز وجل... يقولون: ابقَ قاعداً معنا الآن، كفاك دروس علم، يركن إلى الأهل والأولاد، يركن إلى نزهة أعاقته عن مجلس علم، لكن من عرف هذا الاسم طهَّر نفسه عن متابعة الشهوات، طهر ماله عن الحرام والشبهات، طهر وقته من دنس المخالفات، طهر قلبه من مسالك المخالفات، طهر روحه من فتور المساكنات، طهر سرَّه من الملاحظات والالتفاتات.

روى ابن خزيمة في صحيحه عن محمود بن لَبيد قال: خرج النبي ﷺ فقال: «أيها الناس إياكم وشركَ السرائر»، قالوا: يا رسول الله وما شرك السرائر؟ قال: «يقوم الرجل فيصلي فيُزَيِّنُ صلاته جاهداً لما يرى من نظر الناس إليه فذلك شرك السرائر».

لا تلاحظ الخلق أبداً، لاحظ الخالق، هؤلاء لا ينفعونك أبداً، أنت لك عند الله مكانة، لا يرفعها مدح المادحين، ولا يخفضها ذمُّ الذّامّين.

أضرب لك هذا المثل، وأنا أردّده كثيراً: معك كيلو معدن، هو ذهب، ظنّه النّاس معدناً خسيساً، فلن تضارَّ فيه، وثمنه موجود، وأمّا لو كان معك كيلو من المعدن الخسيس، بذكاء بارع، وطلاقة لسان، وقدرة إقناع، أقنعت الناس أنّه ذهب، فلن ينفعك إقناعك لهم شيئاً، إن اقتنعوا بأن الخسيس ذهب فإنّك لا تربح، ولا إن اتهموك بأن ذهبك خسيس تخسر، خيرك منك وشرُّك منك.

قال أهل العلم: هذا الذي عرف اسم القُدُّوس لا يتذلَّل لمخلوق، ولا يتضعضع أمام غنيٍّ، قال فرقد السبخي:

قرأت في التوراة:

من أصبح حزيناً على الدنيا أصبح ساخطاً على ربه عز وجل.
ومن جالس غنياً فتضعضع له ذهب ثلثا دينه
ومن أصابته مصيبة فشكا إلى الناس فإنما يشكو ربه عز وجل.

حسناً؛ هذه النفس التي عبدتْ ربَّها، هذه النفس التي أقبلتْ عليه سبحانه، أيليق بها أن تتذلَّل لمخلوق؟... وقد عرفتْ اسم القُدُّوس، هذه النفس التي تقدَّست بمعرفة الله لا يمكن أن تتذلَّل لمخلوق، لذلك من جلس إلى غني فتضعضع له (أي: تمسكن له) ذهب ثلثا دينه.

عن عثمان بن عفان قال: لقد اختبأت عند ربي عشراً: إني لرابع أربعة في الإسلام وما تَعَنَّيْتُ ولا تمنيت، ولا وضعت يميني على فرجي منذ بايعت رسول الله ﷺ، وما مرت عليّ جمعة منذ أسلمت إلا وأنا أعتق فيها رقبة إلا ألا يكون عندي فأعتقها بعد ذلك، ولا زنيت في جاهلية ولا إسلام... لقد صارت يده مكرَّمة مقدسة عنده.

المؤمن له معاملة خاصة عند الله عز وجل والدليل: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٧].

وتعقيب ربك على هذه القصة صيّرها قانوناً: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٨].

والله هذه الآية وحدها تملأ النفس إشراقاً، تملأ النفس طمأنينةً، تملأ النفس عزة، تملأ النفس كرامةً، ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

قال العلماء: هذا الذي عرف اسم القُدُّوس ومَن هو؟ لنْ يتذلَّل لمخلوق بهذه النفس التي تقدَّست بمعرفة الله عز وجل!! مستحيل أن يُذلّ نفسه إلاّ لله سبحانه.

وهذا الذي عرف اسم القُدُّوس لا يعظِّم مخلوقاً بالقلب الذي به شهده، هذا القلب الذي عظَّم الله عز وجل يستحيل أن يعظِّم مع الله أحداً؟

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [التوبة:٦٢].

إنّ إرضاء رسول الله هو عين إرضاء الله.

كما قال العلماء: هذا الذي عرف اسم القُدُّوس حقيقةً يجب ألا يبالي بما فقده بعدما وجده، إنها حقيقة واضحة.

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خراب
إذا صحَّ منك الوصل فالكلُّ هيِّن ... وكلُّ الذي فوق التُّراب تراب

قرأت مرةً عن سيدنا الصديق رضي الله عنه كلمةً لا أنساها، مفادُها: أنه ما ندم على شيءٍ فاته من الدنيا.

وبعد: فلا يرجع مَنْ قَصَدَهُ قبلَ الوصول إليه، بعدما قَصَدَه.

أنت قصدت الله عز وجل، يجب ألّا يثنيك شيء، لا مشكلة ولا خطر، ولا وهم، ولا تهديد، ولا فقر، أبداً، هذا هو الصدق، صدق التوجُّه.

قال أهل الفهم: مِن آداب مَن عرف هذا الاسم أن تسمو همّته، إلى أن يطهّره الله من عيوبه.

عنده عيوبٌ في نفسه، لكن الحقيقة المريحة أن عيوب الجسد تنتهي مشكلتها عند الموت، مهما كانت الآفات، والأمراض، فمثلاً أحدهم يده مصابة، والآخر بصره ضعيف، وثالث آلام في ظهره، إذا جاء مَلَك الموت يُنهي كل المشكلات، ولا يبقَ أثرٌ لأية مشكلة أبداً.

كلُّ أمراض الجسد تنتهي عند الموت، وكلُّ أمراض القلب تبدأ عند الموت، الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا.

انغماس الإنسان في شهواته وهو في الدنيا تحجُبُه عن النظر في عيوبه، لكنه حينما يُحال بينه وبين شهواته تظهر عيوبه فتحرقه.

رويَ في الأثر «إن العار ليلزم المرء يوم القيامة، حتى يقول: يا رب لإِرْسالُك بي إلى النار أهون عليّ مما ألقى، وإنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب» [الحاكم عن جابر].

آلام النفس، آلام الندم، الشعور بالخيبة، الشعور بالخسارة الكبرى، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٦].

قال أهل العلم: من آداب من عرف هذا الاسم أن تسمو همته إلى أن يطهّره الله من كل عيوبه، وأن يطهّره من دنس كلِّ عاهاته، في جميع حالاته، ويطهّر قلبه من كلِّ كدراته، وأن يرجع إلى الله تعالى بحُسْن الاستجابة في جميع أوقاته.

قالوا: فإن من طهَّر لسانه عن الغيبة، طهَّر الله قلبه عن الغيْبَةِ عنه، ويصبح قريباً منه، ومن طهَّر لله طرفه عن النظر بالريبة، طهَّر الله سرَّه عن الحجاب.

إذا حجب الإنسان بصره عن المحرمات، كَشَفَ الله عن بصيرته، فإذا أطلق بصره حجب عن بصيرته.

وإذا طهر لسانه عن اغتياب الناس، قرّبه الله إليه.

وملخص هذا: ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيَ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٣٠].

يعني نطهِّر أنفسنا كي نستحق أن نكون معك يا رب، في جنتك مع أوليائك، مع المؤمنين، مع الأنبياء، مع الصديقين، مع الشهداء، مع الصالحين.

أنت كن عند الأمر والنهي، والله يتولاّك، قف في الصلاة متخشِّعاً لعل الله يتجلّى عليك، حاول أن تصلي مع أولادك، لعلّ الله يهديهم سواء السبيل، طهِّر ظاهرهم لعل الله يطهِّر باطنهم، لك الظاهر والله يتولى السرائر.

لا تيأس، لو رأيت الإنسان في أدنى دركات المعصية أو في أشدها، فالصُّلح مع الله ممكن بلمحة.

«إذا رجع العبد إلى الله، نادى منادٍ في السموات والأرض أن هنِّئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله».

وإليكم هذه الكلمات فاحفظوها:

ألا يتمنى أحدنا أن يكون كذلك، وجه كالشمس منير، قلب مستنير، سعة في الرزق، قوة في البدن، محبة في قلوب الخلق؟!

أحد العلماء بمصر عاش مئة وثلاثين سنة... ورجل من علماء دمشق رحمهم الله تعالى عاش ستاً وتسعين سنة، ويروي عنه تلامذته أنه كان مستقيم القامة، حاد البصر، مرهف السمع، أسنانه في فمه، خدوده متوردة، قوي البنية، كلما سُئل: ما هذه الصحة؟ يقول: يا بني حفظناها في الصغر، فحفظها الله علينا في الكبر والقصة ذكرها ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم.

اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا، وقوتنا ما أحييتنا.

قال ابن عباس: «إن للحسنة ضياءً في الوجه ونوراً في القلب وقوةً في البدن وسعة في الرزق ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة سواداً في الوجه وظلمة في القلب ووهناً في البدن ونقصاً في الرزق وبغضة في قلوب الخلق» وقال عثمان بن عفان: «ما عمل رجل عملاً إلا ألبسه الله رداءه إن خيراً فخير وإن شراً فشر» قال ﷺ: «إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه» [رواه الإمام أحمد في مسنده من حديث ثوبان].

والذنب والسيئة سببُ هوانِ العبد على ربه، وسقوطه من أعين خلقه... هان أمر الله على الناس فهانوا عليه.

اتق الله باجتناب المحرَّمات تكن من التوابين، وتورَّع عن اقتحام الشبهات تكن من المتطهرين، وازهد فيما زاد على قدر الضرورة تنجُ من الحساب الطويل، وأقبل على خدمة مولاك تَنَلِ الثواب الجزيل.

السلام

ورد هذا الاسم في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحشر:٢٣].

وفي صحيح البخاري، أن النبي ﷺ يقول: «فإن الله هو السلام» [البخاري عن عبد الله بن مسعود].

وفي صحيح مسلم كان ﷺ إذا انصرف من صلاته قال: «اللهم أنْتَ السَّلامُ، ومِنكَ السَّلامُ، تَبَارَكتَ يا ذَا الجلالِ والإِكرَام» [رواه مسلم عن ثوبان].

وكان ﷺ يكثر من ذكر اسم «السلام»، وفي صحيح الجامع الصغير: «إنَّ اسم السلام من أسماء الله تعالى فأفشوه بينكم» [أخرجه الطبراني عن أبي هريرة].

من معاني اسم الله السلام

يقول العلماء: هذا الاسم معناه أَنَّه جل جلاله ذو السَّلامة، كأن تقول: الرَّضاع من الرَّضاعة، هذا الاسم أساسه اللغوي «السَّلامة»، ومعنى السلامةِ أنّ ذاته جل

جلاله سلمت من كلِّ عيب، وسلمت صفاته من كلِّ نقص، وسلمت أفعاله من كلِّ شرٍّ، ولكن لا بدَّ من وقفة متأنيّة عند بعض العبارات، سلمت ذاته من كلِّ نقص، وسلمت صفاته من كلِّ عيب، وسلمت أفعاله من كلِّ شرٍّ، أليس في الأرض شرور؟ فكيف يقول العلماء في شرح هذا الاسم العظيم من أسماء الله تعالى: سلمت أفعاله من الشَّرِّ؟

في الإجابة عن هذا السؤال، بادئ ذي بدء أعلق أهمية كبرى على هذه النقطة، لأنك إذا فهمتها -أيها القارئ العزيز- فهماً صحيحاً أحسنت الظَّنَّ بالله عز وجل، وحسن الظَّنِّ بالله ثمن الجنة، لقد سلمت أفعاله سبحانه عن الشّرّ المطلق، فما الشر المطلق؟ هو الذي نفعله لذاته، فمثلاً إذا كان عند الإنسان التهاب حادٌّ في الزّائدة الدّودية، ألا يمسك الطبيب الجرّاح الذي نرجوه أن يجري لنا هذه العملية؟!! ألا يمسك هذا الطبيب المشرط ويشقُّ اللحم، وينبجس الدم، وذلك بعد أن يُخدَّر هذا الإنسان؟ فبعد أن ينتهي مفعول التخدير، ألا يتألم هذا الإنسان؟ هل أردنا أن نجرحه حبّاً بجراحته؟ هل أردنا أن نقطع هذا اللحم حباً بإيقاع الأذى؟ أم أن هذا الطبيب الرحيم البارع أمسك المشرط، وفتح البطن ليستأصِل هذه الزائدة الملتهبة، وفي استئصالها يكون الشفاء والراحة؟ أمّا إذا جاء إنسان ليطعن آخر بالسّكّين بلا سبب وبلا ذنب نقول: هذا فَعلَ الشّرَّ المطلق، أي: أوقع فيه الأذى لذات الأذى، أما حينما يُفْتح جدار البطن لتُستأصل هذه الزائدة الملتهبة، فهذا ليس شرّاً مطلقاً؛ هذا هو الشّرُّ الذي من أجل الخير، هذا هو الألم الذي من أجل الراحة، فتحُ الجلدِ هنا جرى من أجل راحة النفس، فلذلك حينما نقول: من معنى اسم الله السّلام أنّه ذو السّلام؛ والسّلام من السّلامة.

إذاً أفعال الله منزَّهة عن الشر المطلق، أما حينما يُوقع الإنسانُ الشّرَّ لذات الشر فهذا شرٌّ مطلق.

بناءً على ما سبق يجب أن نعتقد ويجب أن نؤمن أنه ليس في أفعال الله سبحانه شرٌّ مطلق.

أجل، ليس في أفعاله سبحانه شرٌّ مطلق، ولكن هناك شرور لا يعلمها إلا الله، وهذه الشرور لا بد منها من أجل إحداث النتائج الطيبة.

خُلِقَ الإنسان ليسعدَ إلى الأبد، فإذا انحرف عن هدفه فلا بدَّ من تصحيح مساره، لا بدَّ من معالجته، لا بدَّ من دفعه، لا بدَّ من ردعه، لا بدَّ من فعل شيء يدفعه إلى هدفه النبيل، فالذي يؤمن بأنَّ في فعل الله شروراً مطلقة، وأنَّه سبحانه يوقعها لذاتها، فهذا لا يعرف الله كما ينبغي، لقول الله عز وجل: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران:٢٦].

مثلاً: هل في الأرض كلِّها أب، إن رأى ابنه مارسَ انحرافاً، أو اقترف ذنباً خطيراً، كأن يكون قد اختلس شيئاً ليس له، أو اغتصب مالاً ليس له، أو كذب كذبة أدّتْ إلى فسادٍ ما، أو اعتدى على أخيه، فهل في الأرض كلِّها أب يقف مكتوف اليدين؟ ألا يعالجه؟ ألا يوبّخه؟ ألا يضربه؟ ألا يحذّره؟ ألا يقرِّعه؟ وهل في الأرض كلِّها أب يتقدّم من ابنه الحبيب، الذي لم يفعل شيئاً أبداً، ويوقع به الأذى حبّاً بالأذى؟ هذا الأب منزَّه عن ذلك، الأب البسيط الذي لا يملك من الرحمة والحكمة إلا شيئاً يسيراً منزّه عن هذه الصفة.

إذاً الشر المطلق لا وجود له في أفعال الله سبحانه، وكلما كان الانحراف أشدَّ كان العلاج أقسى.

هذا أول تعريف، فإن الله جل جلاله من أسمائه السلام، سلمت ذاته من العيوب، وسلمت صفاته من النقص، وسلمت أفعاله من الشر المطلق، إنّ كل شر يوقعه الله سبحانه في خلقه، وتراه أعينكم هو شرٌّ موظَّف لمصلحة الإنسان البعيدة أو القريبة.

مثال ذلك: قد يَفْقِدُ الإنسان ماله كلَّه، وقد يُصاب بمرض عضال، فيذهب المال في العلاج، فهذا الفقد للمال، وهذا المرض العضال، في نظر صاحبه شرٌّ خطير، ولكن

حينما يُخلق الإنسان لسعادة أبدية، ويكون هذا العلاج في خدمة عودته إلى الله عز وجل، وقد تَلِف المال لهذه الغاية النبيلة فهذا هو الخير البعيد.

المعنى الثاني لاسم «السلام»: أي: ذو السَّلامة لعباده، فليس في الوجود كلِّه سلامة إلا معزوّة إليه.

الآن أدخل في موضوع مهمٍّ؛ وأرجو أن نسلك معاً في فهم أسماء الله الحسنى منهجاً واضحاً جداً، دعونا من التعاريف النظرية؛ كونُك إنساناً هل تستطيع أن تكتشف في هذا الكون حوادث، آيات، أدلة، تؤكد أن الله سلام؟ أنا سعيت ببعض الشواهد المنتزعة من حياتنا، من أجسامنا مِمّا حولنا لأؤكد أنَّ هذا الكون كلَّه ما هو إلا تجسيد لأسماء الله الحسنى، وما هو إلا مظهر لصفاته الفضلى.

مثلاً: الإنسان إذا كسرت عظامه كيف تلتئم؟ لا أحد يعرف، إلا أن الخلية العظمية حينما تصاب بالعطب، والعظام حينما تنمو في بدايتها تنمو إلى أن تصل إلى حدٍّ رسمه الله لها لأن الله عز وجل باسط وقابض.

ومن رحمة الله بنا أنَّ الإنسان ينمو، فإذا بلغ في نموه الحدَّ المعتدل المقبول يقف النمو، وهناك مرض خطير جداً، هو أن الإنسان أحياناً ينمو دون توقف، إنه مرض العملقة الذي تنمو فيه العظام بلا توقف، فمن رحمة الله عز وجل توقُّف نموِّ العظام عند حدٍّ معين، وقال العلماء: هذه الخليّة العظميّة تهجع وتنام، وقد يمضي على نومها أربعون عاماً، فإذا كُسِر عظم في إنسان استيقظت هذه الخلايا، وأعادت بناء ذاتها، والتأمت مع أخواتها ونحن لا ندري، وإني لأتساءل: لو أنَّ العظم لا يلتئم فماذا نفعل؟ فالتئام العظم ذاتياً يجسد اسم الله السلام، الله عز وجل خلقك في أحسن تقويم، وخلق في طبيعة الجسم إمكانية الترميم والالتئام والشفاء.

أنت إذا سرت على قدميك اللطيفتين، فما الذي يضمن لك ألا تقع؟ -جهاز للتوازن أودعه الله في أذنك الداخلية، حيث ثلاث قنوات، في كلٍّ منها سائل، وفيها

أهداب، فإذا مِلْتَ على أحد محوريك ارتفع السائل في مكان دون الآخر، وهذه الأشعار الدقيقة أحست بالميل فأعطت أمراً إلى الدماغ كي تعود إلى ما كنت عليه، لولا هذا الجهاز الذي أودعه الله في الأذن الداخلية لاحتاج الإنسان إلى قدمٍ قطرُها سبعون سنتمتراً، تكوِّن لديه مركزاً واسعاً يستند إليه، إذاً من أجل سلامتك جعل الله لك هذا الجهاز، جهاز التوازن في الأذن.

الله سبحانه وتعالى أودع في الإنسان، في عظامه، من داخلها أعصاباً حسية بالغة الحساسية، لماذا؟ لماذا في نقي العظام أعصاب حسٍّ ليس لها وظيفة فيما يبدو، فإذا كُسِرَ العظم فشدَّة الألم تُبقي العظم على حالته لأنَّ إبقاءه على حالته يعني ثلاثة أرباع العلاج، فجعل الله في نقيِّ العظام ذلك العصب الحسيَّ البالغ الحساسية، من أجل سلامتك لأن اسمه «السلام».

وأعصاب الحس في الأسنان، من أجل أن تبادر إلى طبيب الأسنان فتعالج أسنانك قبل أن تفقدها كلَّها، فهذا العصب الحسي البالغ الحساسية في أسنان الإنسان من أجل سلامة الأسنان، وهو تجسيد لاسم الله «السلام».

جهاز المناعة، وهو حديث العالم اليوم، جيش عظيم أودعه الله في الدم: «الكريات البيضاء»، بعض هذه الكريات تستطلع أحوال العدو، وبعض هذه الكريات تصنع المصل المضاد، بناءً على استطلاع الكريات المستطلعة، وبعضها تأخذ هذا السلاح، المضاد الحيوي، وتقاتل به الجرثوم وأنت لا تدري.

من أجل سلامتك أودع الله فيك جهاز المناعة، هذه الكريات البيضاء التي بعضها لاستطلاع بنية العدو، ومراكز ضعفه، وبعضها لتصنيع المصول، وبعضها لمحاربة الجرثوم إذا دخل معتدياً على جسم الإنسان، وما مرضُ الإيدز الذي هو شغل العالم الشاغل إلا ضعف في جهاز المناعة، فمن أجل ماذا خلق الله جهاز المناعة في الإنسان؟ من أجل سلامتك، إذاً هذا يجسد اسم الله «السلام».

القلب: جعل الله عز وجل فيه مركزَ تنبيهٍ كهربائي خاصّاً به، ما من عضلة في جسم الإنسان إلا وتأتمر بعصب حسيٍّ، وعصب محرِّك، فالعصب الحسيُّ ينقل إحساس المحيط إلى الدماغ، والعصب المحرِّك ينقل أوامر الدماغ إلى العضلات، وهذه من بديهيات التشريح، كلُّ عضلات الجسم تتحرَّك بأمر الدماغ، فالشلل من أين؟ من الدماغ، إذا تضيّق شريان في الدماغ في منطقة الحركة يصاب الإنسان بالشلل، إلا عضلة القلب، أجل، إلا هذه العضلة، فقد زودها الله جل جلاله بمركز توليد كهربائي خاص بالقلب؛ لأنَّ القلب خطِر جداً، وأن هذا المركز، مركز التوليد، إذا تعطل فهناك مركز آخر يعمل بعده مباشرة. والدول المتقدمة جداً عندها أجهزة توليد كهرباء احتياطية، فلو أنَّ مراكز التوليد الأساسية أصابها خلل أو عطب عندئذٍ تعمل المراكز الاحتياطية، في القلب ثلاثة مراكز توليد كهرباء خاصة بالقلب، إذا تعطل الأول يعمل الثاني، وإذا تعطل الثاني يعمل الثالث، لماذا خلق الله هذه الاحتياطات؟ من أجل «سلامتك».

قال لي طبيب متخصص في الكليتين: لو أننا جئنا بِمِبضع الجراح واستأصلنا الكلية الأولى، وجئنا إلى الكلية الثانية، واستأصلنا تسعة أعشارها بالمبضع، فإن عشر الكلية الثانية يكفي لتصفية دم الإنسان، إذاً الله عز وجل من أجل سلامتك أعطى كليتيك عشرين ضعفاً عن حاجتك، هذا من أجل سلامتك، فإذا قرأت اسم الله «السلام»... علمت أنه زودك بوسائل السلامة، هذا كلُّه من معاني اسم الله السَّلام جل جلاله.

الأوعية: أوردة وشرايين، ولحكمة، أرادها الله عز وجل، جعل الشرايين في داخل الأعضاء، والأوردة في الظاهر، لأنَّ الشريان موصول بالقلب مباشرة، فإذا أصابه جرح فقد الإنسان دمه كلَّه، لأنه مثل المضخة، ولو أنَّ إنساناً فُتح شريانه هل تدري ما يكون؟ قال لي طبيبٌ جراحُ أوعية: في أثناء بعض العمليات حينما يُفتح الشريان وإلى أن نُغلقَهُ بملقط، فإن الدم يصل أحياناً إلى سقف الغرفة لشدة الضغط، فهذا الشريان الذي أودعه الله في الإنسان حفاظاً عليه وضماناً لسلامة صاحبه جعله في الداخل وجعل الأوردة في الخارج، فعندما تأخذ حقنة في العرق، هذه ليست في

الشريان، ولكن في الوريد، من جعل الشرايين في الداخل والأوردة في الخارج؟ الله تبارك وتعالى السلام ضماناً لسلامتك.

عندما يجوع الإنسان لدرجة أنّه يكاد يموت جوعاً، أنت إنسان عندك مواد غذائية؛ عندك مثلاً بقول، حبوب، وعندك دهون، فأنت مهما أوتيت من علم عظيم، هل بإمكانك أن تحول هذا القمح إلى مواد دهنية، أو إلى لحم؟ هذا شيء فوق طاقة الإنسان، ولكن الجسم مزود بآلية عجيبة جداً، بإمكانه أن يحول المواد النشوية إلى مواد دهنية عند الحاجة، فهذه المرونة في تحويل المواد من أجل سلامتك، والإنسان عندما يجوع يستهلك شحمه، وحينما يجوع بعد ذلك يستهلك عضلاته، في بعض حالات المجاعات تُستَهلَك العضلات، لا يبقى في يده إلا جهازه العظمي وعليه الجلد، العضلات المخططة هذه تستهلك وتذوب، ماذا قال هذا الفتى الشاب درواس بن حبيب لهشام بن عبد الملك حينما دخل مجلسه فغضب هشام حينما رأى حدثاً في مجلسه وقال لحاجبه: ما شاء أحد أن يدخل عليّ إلا دخل حتى الصبيان، فاستأذن واقفاً وقال له: «أيها الأمير: إن للكلام نشراً وطيّاً، وإنه لا يعرف ما في طيّه إلا بنشره، ثم أردف قائلاً: أصابتنا ثلاث سنين: سنة أذابت الشحم، وسنة أكلت اللحم، وسنة دقّت العظم» فأول شيء يُستهلك في الإنسان شَحْمُه، وبعد ذلك تُستهلك عضلاته إلا عضلة القلب، مَنْ أبدع هذا الإبداع؟ الإنسان إذا أردت أن تميته جوعاً يستهلك كل عضلاته إلا عضلة القلب ضماناً لسلامته.

بل إن في مخزون الإنسان الغذائي مخزوناً لا يُستهلك إلا عند المجاعات، الإنسان يجوع، ما معنى أنك جائع؟ يعني أنَّ مخزونك في الكبد نقص، المخزون الغذائي في الكبد لا في الشرايين فلو فحصت دم إنسان جائع لوجدت النِّسب كلّها نظامية في دمه، ولكنَّ المخزون في الكبد هو الذي نقص، هذا كلّه من أجل سلامة الإنسان، وهذا معنى «ذو السلامة».

شيء آخر؛ الإنسان حينما ينام، وزن جسمه الذي فوق عظمه يضغط على العضلات التي تحت العظم، هذا الضغط يسبب ضيقاً في الأوعية وفي التروية، أودع الله

في الإنسان مراكز تتنبه بالضغط، فإذا تنبهت هذه المراكز لضغط الجسم عليها، ولضيق الأوردة والشرايين، وضعف التروية، فالدماغ عندئذٍ يأمر الجسم، وأنت نائم، بالتقليب من شقٍّ إلى شقٍّ، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الكهف:١٨].

والتقليب ذات اليمين وذات الشمال، مرة إلى اليمين ومرة إلى الشمال، لئلا تقع من على السرير، هذا من أجل سلامتك.

في فمك وأنت نائم لعاب، فهذا اللعاب في الفم، إذا ازداد أعطى تنبيهاً للدماغ، والدماغ بدوره يأمر البلعوم فيغلق طريق القصبة الهوائية، ويفتح طريق المعدة فيتسرب هذا اللعاب إلى المعدة، وأنت نائم، هذا من اسم الله السلام.

فمثلاً إن الله عز وجل جعل أخطر عضو عندك هو «الدماغ»، أين وضعه؟ في الجمجمة، ماذا جعل فيه؟ أغشية بعضها فوق بعض، وماذا جعل بين الدماغ وعظام الجمجمة؟ جعل سائلاً، ما وظيفة هذا السائل؟ هذا السائل يمتصُّ الصدمات، إذا تلقى إنسان ضربة على رأسه أو وقع على جمجمته، وإذا فسرنا الضربة بارتجاج في السائل، فهذه الضربة أو هذا الضغط يوزع على سطح السائل كلِّه، فإذا أثرُ الضرب لا يتجاوز عشر الميليمتر فلا يتأثر الدماغ كثيراً، فالله جعل الدماغ في صندوق محكم، وجعل الصندوق له مفاصل ثابتة، هذه المفاصل الثابتة تمتص بعض الصدمات، لولا هذه المفاصل المتعرجة والمتداخلة لانكسرت جمجمة الإنسان لأقل ضربة، أما هذه المفاصل فإنها تتداخل تداخلاً متكيّفاً مع شدّة الضربة، فكلما تعرضت الجمجمة لصدمة تتداخل العِظام بعضها مع بعض، ثم تعود لمكانها، هذا من أجل سلامتك.

أين جعل النخاع الشوكي، وهو أخطر شيء في الإنسان؟ في العمود الفقري.

أين جعل القلب؟ في القفص الصدري.

أين جعل الرحم؟ في الحوض: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [المؤمنون:١٣]. الرحم يقع في الوسط الهندسي تماماً من جسم المرأة.

أين جعلت معامل كريات الدم الحمراء وهي أخطر معامل في جسم الإنسان؟ في نِقْي العظام، أترون كيف هي السلامة؟!

أين وضعت العين؟ في المحجر، العين جَعَلَ الله سبحانه لها محجراً يقيها الصدمات، ولو تلقى الإنسان ضربة على وجهه، فالضربة لا تصل إلى العين، لأنها في حصن، في كوة المحجر، فالعين في المحجر، والدماغ في الجمجمة، والنخاع الشوكي في العمود الفقري، والقلب في القفص الصدري، ومعامل كريات الدم الحمراء، في نقي العظام، والرحم في الحوض، ما هذا الإحكام البديع؟ إنه عمل صانع بديع الصنع.

لماذا جعل الله عز وجل أنف الصغير الرضيع غضروفياً قاسياً؟ لئلا يتطامن (ينحني فيُغلق) فيختنق الطفل في أثناء الرضاعة، كلما كبر الطفل أصبح هذا الغضروف ليناً، هذا من حكمة الله عز وجل.

هذا الرحم إذا تقلص، فتقلُّصُه من أجل سلامة المرأة، فماذا يحصل؟ يتقلّص تقلُّصاً لطيفاً، هذا هو الطلق، فإذا خرج الطفل إلى خارج الرحم، تقلّص الرحم تقلُّصاً حادّاً قاسياً، لماذا؟ قيل: لأن الطفل حينما خرج من الرحم تقطَّعت عشرات ألوف الأوعية الشعرية، فلو تقلَّص تقلُّصاً ليناً لماتت الأم من النزيف، والطبيبة المشرفة على الولادة تجسُّ الرَّحم، فإذا كان صلباً صخرياً تعدُّ الولادة سليمة، ولو أنَّ هذين التقلصين عُكِسا لماتت الأم ولمات وليدها، لو جاء التقلص عنيفاً لاختنق الوليد، ولو جاء رخواً لماتت الأم، فمن أجل سلامة الأم، وسلامة وليدها كان التقلص الأول ليناً، متزامناً متسارعاً والتقلص الثاني عنيفاً، حاداً قاسياً من أجل سلامة المرأة ووليدها.

والله، لو بقينا ساعات كثيرة، أياماً عديدة، وأشهراً مديدة، وسنوات طويلة، لما انتهينا من اسم الله «السلام» إذا أردنا أن نأخذ مدلولاته من خلق الإنسان ومن خلق الحيوان، ومن خلق النبات.

هذا الحوين الذي خلقه الله في الخصيتين، يتم خلقه خلال ثمانية عشر يوماً، هذا الحوين يخزن في الخصيتين وتعطَّل فاعليته، فإذا خرج ليستقر في الرحم، فحالما يبدأ بالانطلاق من مكان مخزنه تبدأ فاعليته، ولولا هذه الصفة لكان كلُّ الرجال عقيمين، يأتي العقم لأنَّ هذا الحيوان له عمر، وعمره عشر ساعات، فإذا صنع في الخصيتين ولم يستهلك يموت، إذاً يُصنع، ويتم صنعه، ويُخزَّن، وتُعطَّل فاعليته، فإذا انطلق من مخزنه ليستقرَّ في الرحم بدأت فاعليته، وعاش عشر ساعات إلى أن يستقرَّ في البويضة، هذا إبداع مَنْ؟ إبداع الله عز وجل «السلام».

فأنا أتمنى أيها القارئ الكريم وقد دخلنا في شرح أسماء الله الحسنى، أتمنى أن ننحو في فهم هذه الأسماء منحى يوازي التعاريف النظرية والشواهد العملية، وأن نفكر تفكيراً ذاتياً حراً في بعض مظاهر خلق الإنسان وخلق الحيوان وخلق النبات.

هذه الشجرة التي عمرُها خمسون سنة، وأنت تأكل منها زيتوناً كلَّ سنة لها إبداع، إبداعها أنك إذا غبت عنها وليس هناك مطر في السماء تستهلك ماء أوراقها، فإذا استهلكت ماء أوراقها، كأنها تقول لك: يا صاحبي أنا عطشى، فأوراقها ذبلت، فإذا ترك أحدنا شجرة دون سقي فأول ماء تستهلكه ماءُ أوراقها، فتجد الأوراق قد ذبلت، فإذا لم تُسقَ فإنها تستهلك ماء أغصانها، فإذا لم تسق تستهلك ماء فروعها، فإذا لم تسقَ تستهلك ماء جذعها، فإن لم تسق تستهلك ماء جذورها، وهذا آخر ماء تستهلكه، ثم تغدو حطباً للإحراق.

لو أن الأمر عُكِس في تلك الشجرة، وتركت الشجرة دون سقي مدة أسبوعين لماتت، لأنها بدأت باستهلاك ماء الجذر، ويبس الجذر، ومن ثم ماتت الشجرة، إذاً من جعل هذه الشجرة تستهلك ماء أوراقها أولاً، من أجل أن تبادر إلى سقايتها؟ هذا خلق الله للشجرة إنه «السلام».

هذا النُّسُغ الصاعد، هناك أوعية صاعدة وأوعية هابطة في الشجرة، فحينما تنمو هذه الشجرة تنمو عرضياً، وربما ضيّق نموها العرضي من سَعة أوعيتها، لذلك هذه

الأوعية ذات الخطورة البالغة للشجرة مدعّمة بألياف حلزونيّة لئلا ينمو القشر ولحاء الشجرة على حسابه، من أبدع هذا؟ الله سبحانه وتعالى.

هذه البذرة التي جعلها الله عز وجل آية تقاوم الموت سنوات وسنوات، فمثلاً أخذوا قمحاً من الأهرامات مضت عليه حقب مديدة وزرعوه فنبت، بذرة القمح كائن حي فيها رُشيم، يعيش هذا الرشيم ستة آلاف عام تقريباً، زرعت هذه البذور فنبتت، الذي أراه أن أيَّ شيء في الكون من النبات إلى الحيوان إلى الإنسان من تدبير «السلام».

ثم إنَّ الماء آية صارخة: فإذا جُمِّدَ الماء وزادت كثافته غاصَ في أعماق البحار، وانتهت الحياة من على سطح الأرض، لكنَّ الماءَ هو العنصرُ الوحيد في الكون الذي إذا برَّدناه قلَّت كثافته وزاد حجمه فَطَفَا، لو أنه انعكس الأمر، لأصبحت البحار كلُّها متجمّدة، ولانعدمَ البخر، وانعدم المطر، ومات الزرع، ومات الحيوان، وتبعه الإنسان، هناك خاصة واحدة ألفتُ النظر إليها: ائت بالماء وبرده فينكمش إلى أربع درجات مئوية فوق الصفر، وبعدها تنعكس الآية ويزداد حجمه، هذا من اسم السلام من أجل سلامتنا، وحينما يزداد حجم الماء يفتت التربة، فالتربة أساسها صخري، وبهذا الماء أصبحت مفتتة، إذاً فاقرأ معي قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ﴿١١﴾ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ﴿١٢﴾﴾ [الطارق:١١-١٢].

إذاً فازدياد حجم الماء عند التبريد هو الذي جعل الصخر تراباً من أجل سلامة الحياة، فإذا أردنا أن نعرف أسماء الله الحسنى من هذا المنحى، من هذا الطريق، فهو طريق رائع جداً، وواسع جداً، وفي متناول كلِّ إنسان، وأيُّ واحد بإمكانه بدءاً من كأس الماء إلى رغيف الخبز إلى أعضائه وأجهزته وخلاياه وأنسجته عليه أن يعرف أن اسم الله «السلام» واضح في خلقه، بل في طعامه وشرابه، ربنا عز وجل قال: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ﴿٣﴾﴾ [الملك:٣].

فكلُّ خلقه متقن: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ [القمر:٤٩] وقال سبحانه: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه:٤٩-٥٠].

هجرة الطيور سنوياً تتمُّ من أجل سلامتها، تقطع الطيور سبعة عشر ألف كيلومتر، تطير بعض أنواع الطيور ستاً وثمانين ساعة دون توقف، هل في الأرض كلِّها طائرة بإمكانها أن تطير ستاً وثمانين ساعة دون أن تتزوَّد بالوقود؟! ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾.

السَّمكة زودها الله بجهاز تعرف فيه أين هي من سطح الماء، فإذا أمسكت سمكة وجدت في ثلثها الأعلى أنبوباً تحت الحراشف، هذا الأنبوب مفرَّغ من الهواء، هي في أعماق البحر كلما هبطت نحو الأسفل ازداد الضغط على هذا الأنبوب، وهكذا جهاز الضغط في كلِّ الغوَّاصات، كلُّ سمكة جهَّزها الله بجهاز ضغط، تعرف أين هي من سطح الماء، كلّما نزلت تعرف عمق ما وصلت إليه، من أجل سلامتها.

انظر إلى كلِّ الحيوانات الأهلية التي هي من حولنا تر أنَّ سلامتها عجيبة، هذا كلُّه من اسم السلام.

إذاً؛ إمّا أنه سلمتْ ذاته من العيب وسلمت صفاته من النقص، وسلمت أفعاله من الشر، أو أنه ذو سلامة لخلقه، فليس في الوجود كلِّه سلامة إلا وهي معزوّة إليه، أو سَلِمَ المؤمنون من عذابه، أو هو ذو سلامة على أوليائه.

﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [النمل:٥٩].

سلمت ذاته، وسلم خلقه من كلِّ أذى ومن كلِّ ضرر.

العلماء قالوا: إنَّ سلامة ذاته من العيوب والآفات؛ يعني أنَّ هذا الاسم من صفات التنزيه، وسلامه على أوليائه، فهذا الاسم من أسماء الذات، فإن أعطى السلامة

للمؤمنين فهذا من أسماء الأفعال، وسلامه إذاً إما من صفات التنزيه، وإما من صفات الذات، وإما من صفات الأفعال.

ومن معاني هذا الاسم، أنَّ ذكر الله عز وجل يورث الأمن والطمأنينة والسلامة، والدليل قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد:٢٨].

في القلب وحشة، في القلب خوف، في القلب قلق، لا يسكن هذا القلق، ولا تسكن هذه الوحشة، ولا يأنس القلب إلا بذكر الله، وأنا أهمس في آذان القراء الأعزاء بهذه الكلمة: ابحثوا عن كلِّ شيء، وفي كلِّ شيء، فليس في الأرض كلِّها شيء يمنحكم سعادة إلا أن تذكروا الله، روي في الحديث: «إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد إذا أصابه الماء»، قيل: يا رسول الله! وما جلاؤها؟! قال: «كثرة ذكر الموت وتلاوة القرآن» [البيهقي في شعب الإيمان من حديث ابن عمر].

إذاً من أسماء الله السلام؛ إنك إذا ذكرته شعرت بالسلام، إنك إذا ذكرته زال عنك الخوف، إنك إذا ذكرته زالت عنك الوحشة، إنك إذا ذكرته أَنِستَ به، إنك إذا ذكرته اطمأننت إليه.

البعيدون عن الله عز وجل يأكل قلوبَهم الخوفُ، يختلُّ توازنهم، ينسحقون، لأنهم أشركوا بالله ما لم ينزِّل به عليهم سلطاناً، فألقى الله في قلوبهم الرُّعب، أمّا قلب المؤمن فهو مطمئن دائماً.

إذاً أعود وأكرر أنَّ من أسماء الله «السلام»؛ إذا ذكرته يمنحك السلام، إذا ذكرته يمنحك الاطمئنان، إذا ذكرته تشعر بالقرب منه، إذا ذكرته تشعر أنه يدافع عنك، وأنك في رعايته، وفي حفظه، وفي تأييده، وفي توفيقه.

من معاني اسم «السلام»؛ أنك إذا اتصلت بالله عز وجل طهّرت نفسك من العيوب، وهنا ندخل في معانٍ عميقة، وأول معنى أن ذاته جل جلاله تنزهت عن كلِّ عيب، وصفاته تنزهت عن كلِّ نقص، وأفعاله تنزَّهت عن كلِّ شرٍّ، من المعاني

الأخرى: أنه ذو سلامة، أي: يمنح السلامة لعباده، إما في خلقهم، كما تحدثنا قبل قليل، وإما في نفوسهم، فذكر الله يورث الأمن والطمأنينة والسلامة.

وبعد، فالاتصال بالله ينقِّي النفس من عيوبها، من البخل، من الشحِّ، من الحقد، من الضغينة، من الحسد، من الكبر، هذه الصفات الذّميمة التي يشقى بها الإنسان فإذا اتصلْتَ بالله عز وجل تتنزّه أنت عنها، إذاً هو ذو سلام في جسمك، أعطاك أعضاءَ وأجهزة، وأعطاك خلايا وأنسجة، ودقَّة بالغة في جهازك العظميِّ، والعصبيِّ، والعضليِّ، والدوران، والشرايين والأوردة، وإذا كنت خائفاً وذكرته بثَّ في قلبك السلام، فإذا اتصلت به طهَّرك من كلِّ العيوب والآثام، وجعلك طاهر النفس، بفضل اسم السلام.

إذاً في تجارتك يهديك سُبُل السلام، وفي زواجك يهديك سُبُل السلام، وفي علاقاتك بجيرانك يهديك سبُل السلام، هذا معنى السلام، فأنت إذا طبقت أمر القرآن الكريم، واجتنبت نهيه أوصلك في كلِّ موضوع، وفي كلِّ شأنٍ إلى السلام، والله يدعو إلى دار السلام وهي الجنة، فالسلام مريح جداً، فإنك تعيش في طمأنينة، وتعيش براحة، وتحسُّ أن الله خالق الكون معك لا يتخلّى عنك، ولا يُسْلِمُك إلى عدوِّك، يدافع عنك، ويحفظك، ويؤيّدك، وينصرك فقد قطفت الثمار يانعة بعد أن دفعت الثمن، قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ ﴾ [المائدة:١٢].

إذاً، مِن معاني السلام أنَّ ذكر الله يورث الأمن والسلام، من معاني السلام أن الاتصال بالله عز وجل يكسب السلامة من العيوب والنقائص والأدران، ويحول دون الحماقات والحقد والحسد والضغينة، والعلوِّ في الأرض والكبر، فهذه الصفات الذميمة المهلكة إذا اتصلْتَ بالله عز وجل نقّاك منها.

ومن معاني السلام أيضاً أنك إذا طبَّقت شرعه يهديك سُبُل السلام كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٩].

أي: إذا طبَّقت الشرع يعطيك السلامة في الدنيا، وإذا أقبلت على الله يعطيك سلامة النفس، وإذا أطعته في كل مناحي حياتك يعطيك سلامة الآخرة، قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ﴾ [الحشر:٢٣].

تصاحب أحياناً شخصاً شريراً، أو تشاركه في بعض أعمالك فيدمّر حياتك، وقد يتزوج إنسان امرأة شريرة فتنتهي به إلى دمارٍ.

وفي هذا السياق حدثني شخص فقال: إنه رأى امرأة في الملهى فأعجبته فتزوجها، بعد أن تزوجها نشب خلاف بينه وبينها فهي ليست منضبطة، قلت ألومه: من أين أخذتها؟ من أين تزوجتها؟ ثم ذهب إلى بيت أهلها، استرضاها، فلما استرضاها أبت إلا أن تسجِّل عليه مبلغ مئة ألف ليرة لترجع إليه، رجعت إليه شكلاً، وأقامت عليه دعوى، واتفقت مع المُبَلِّغ، وأخذت التبليغ من مبلِّغ المحكمة ولم تبلغه لزوجها، ومضت مدة الدعوى، وأصبح الحكم قطعياً، ثم سيق الزوج إلى السجن بتهمة التخلُّف عن دفع المهر المقدَّم، هكذا مجريات القضاء، فلما علم ذلك حاول قتلها وقتل أمها وأختها في ليلة واحدة، وقتل نفسه، إصابتهم لم تكن قاتلة، أُخذوا للمستشفى ونَجَوْنَ من الموت، الأم وابنتها وأختها، أما هو فأمسى تحت الثرى، فليس للإنسان سلام إذا تزوج امرأة أعجبته وليست على ما يرضي الله، وهذه قصة واقعية حدثت في دمشق قبل فترة وجيزة.

أما إذا التزم أحدنا شرع الله عز وجل فإنه سبحانه يبارك له في زواجه، وفي عمله، وفي رزقه، وفي صحته، وفي أولاده، فيهديهم سبل السلام.

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٩].

﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [طه:١٢٣].

يجب عليك أن تعرف أنَّ السَّلامة كلَّها في أن تكون مع الله، السلامة كلَّها في أن تكون وفق أمر الله، السلامة كلَّها في معرفة الله، السلامة كلَّها في عبادته، السلامة كلَّها في فهم كتابه، السلامة كلَّها في تنفيذ شرعه، السلامة كلَّها في الالتزام بما أمر واجتناب ما عنه نهى.

إضاءات على بعض الآيات التي ورد فيها السلام

وبعد، فقد وردت كلمة السلام في القرآن بمعنى آخر، قال الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [يونس:٢٥].

فما هي دار السلام؟ إنها الجنة، فليس فيها نغَص ولا حسد، ولا يطاردك فيها مرض أو قلق، ولا يعتريك فيها خوف أو منازعة من أحد، ولا حروب فيها ولا اضطهاد، ليس فيها من هذا كلِّه شيء البتّة.

﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس:٢٥-٢٦].

هذه إذاً دار السلام، نِعْمَ الثواب، وحسنت مرتفقاً.

كذلك فإن السلام ورد في آية أخرى، قال سبحانه: ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ ﴾ [الواقعة:٩٠-٩١].

فالله سبحانه وتعالى يخبرك عن سلامة أصحاب اليمين، إنهم يقولون: الصحة جيدة والسعادة كبرى، فهم في سلام وهم في الجنة حيث النعيم المقيم.

وورد أيضاً في قوله تعالى: ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ ﴾ [مريم:١٥].

قال سفيان بن عيينة[١] -رحمه الله تعالى-: أوحش ما يكون المرء في ثلاثة مواطن؛ «يوم يولد». فقد كان في الرحم مسروراً ومستريحاً من المتاعب والمشكلات وخرج إلى الدنيا، إنه انتقل من مكان ضيق إلى مكان واسع غير مألوف لديه.

«ويوم يموت» يدع كلَّ شيء، زوجته وأولاده، وبيته وغرفة نومه، ومكتبته ومركبته، ومحله التجاري وقد كان لديه يوم في الأسبوع يجتمع فيه مع أصحابه وأصدقائه، وكانت له رغباته وميوله، فلما توقف قلبه نقلوه إلى القبر، وهذا خروج بلا عودة.

هو الذي زيَّن البيت واعتنى بترتيبه، وله فيه مكتبته وغرفته الخاصة، يضع فيها حاجاته الشخصية وبعض الهدايا المهداة إليه، يتمنى أهله أن يفتحوا درجه فلا يسمح لهم في حياته، لكنه عندما انتقل إلى ربّه فتحوا الدرج الذي كان محظوراً عليهم مَسُّهُ، وأخذوا السيارة، والمحل التجاري، وباعوا واشتروا، ثم نسُوهُ بعد حين، وهكذا تجري الوقائع هذا يوم يموت.

وأما «يوم يبعث حياً».

- قالت عائشة رضي الله عنها: ذكرتُ النار فبكيتُ فقال رسول الله ﷺ: «ما يبكيك؟» قالت: ذكرتُ النارَ فبكيت، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟

- فقال رسول الله ﷺ: «أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحدٌ أحداً: عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أو يثقل، وعند الكتاب حين يقال: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ١٩﴾ [الحاقة:١٩] حتى يعلم أين يقع كتابه أفي يمينه أم في شماله أم من وراء ظهره؟ وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم» [رواه أبو داود في «سننه»].

---

(١) نصه بتمامه: أوحش ما يكون العبد في ثلاثة مواطن، يوم يولد فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قوماً لم يكن عاينهم، ويوم يبعث فيرى نفسه في محشر عظيم، قال: فأكرم الله فيها يحيى بن زكريا فخصه بالسلام عليه.

فهناك تقع عين الأم على ابنها فتقول له: يا ولدي، ألم أجعل لك بطني وعاء، وصدري سقاء، وحجري وطاء، فهل من حسنة يعود عليَّ خيرُها؟ يقول: آه يا أماه إنني أشكو مما أنت منه تشكين.

سيدنا يحيى عليه السلام: وسلام عليه يوم وُلد، فكان أصعب يوم لديه، ومثل ذلك يوم يموت ويوم يُبعث حياً، فأمّنه الله تعالى إذ قال: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿١٥﴾﴾ [مريم:١٥].

نصيب المؤمن من اسم الله السلام

وبعد، فما واجب المؤمن بالنسبة لهذا الاسم؟ وإنك لتعلم أنّ المؤمنَ الحق من سلم من المخالفات الشرعية سراً وعلناً، وبرئ من العيوب ظاهراً وباطناً فواجبه أن يكون سلاماً لغيره، قال الله عز وجل: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ﴾ [الأنعام:١٢٠].

ومن كان سليماً من الذنوب، بريئاً من العيوب، بلغ غاية السلام والسلامة، ولتكن علاقاتنا على هذا النحو باسم السلام، ليتحقق لنا معنى الآية الكريمة: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩].

القلب السليم هو القلب البريء من الشّكّ والشّرك، أمّا من يكون قلبه مؤر-جحاً فأمره إلى بوار، كحال من يقول:

زعم المنجم والطبيب كلاهما لا تحشر الأجساد قلت: إليكما
إن صحَّ قولكما فلستُ بخاسرٍ أو صح قولي فالخسار عليكما

ونضرع إلى الله أن تكون أمورنا كلُّها صواباً، وأما ما سبق فليس إيماناً وإنما هو ارتياب وشك: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾ [الحجرات:١٥].

فالسليم من برئ قلبه من الشك والشرك، ومن النفاق والشقاق والرياء والمداهنة، ومن سلمت نفسه من الشهوات، وسلم عقله من الشبهات، فلا شبهات في عقله، ولا

شهوات في نفسه، وألقى الشّكّ والشّرك والنّفاق والشّقاق والرّياء والمداهنة جانباً، بل جعلها تحت قدميه.

وبعد، فهذا واجب المؤمن نحو ربه من حيث اسم السلام، أما حقّه على الله فهذه أهم نقطة في البحث.

لقد آمنتَ وفكرت في الكون وتعرفت إليه، واستقمت على أمر الله، وحضرت مجالس علم، وضبطت شهواتك، وضبطت جوارحك، وغضضت بصرك عن محارم الله، نزّهت أذنك عن سماع الغناء، لم تختلط مع النساء الأجنبيات، كنت ملتزماً، ولم تخالف الشّرع فما لك عند الله بعد، فاسمع راشداً ما قال العلماء في هذا الموضوع، لقد قالوا:

أيُّ عبد طبق أمر الله عز وجل، وأقبل عليه، فحق المؤمن على الله أن يُسَلِّمَهُ في الدنيا من المؤذيات، وأن ينيله ما فيها من الخيرات.

فالمؤمن زوجته صالحة، أولاده أبرار، رزقه في بلده، سمعته طيبة نظيفة، وأخلاقه عالية، محمود السيرة ومحبوب، هذه كلُّها من ثمرات الاستقامة، والله عز وجل اسمه السلام، يسلِّمك من المؤذيات، ويمنحك الخيرات، وهذه سلامة الدنيا.

فما سلامة الدين؟ يسلِّم عقلك من البدع والشبهات، ويسلِّم قلبك من الهوى والشهوات، فلا تلتفت إلا إلى الله، ثم إنّ النّبيّ ﷺ يقول: «المسلمُ من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده» [أخرجه البخاري عن عبد الله بن عمر].

وقد يتبادر إلى الذهن أنّه لا يؤذي المسلمين، وهذا مطلوب بلا ريب، ولكن هناك معنى أعمق وهو أنّ المسلم الحقيقيَّ من سلمت سمعة المسلمين من لسانه ويده، فالمسلم إذا آذى مسلماً مثله يقول هذا المسلم: فلانٌ آذاني، أما إذا آذى غير مسلم فإنّه يقول: المسلمون فعلوا معي كذا، يترك الذي ناله بالأذى وينقل التهمة إلى دين الإسلام، إذ إنّ قلة قليلة جداً من الناس يعطون أحكاماً موضوعية، لكنَّ الكثرة الكثيرة يطلقون أحكاماً عامة.

فإذا تخلّقت باسم الله السَّلام فلا تسبِّب للمسلمين إذا عاملت غير المسلمين سمعة سيئة، لا بلسانك، ولا بيدك، قلة قليلة من المسلمين تسيء التّصرف إساءة بالغة مع غير المسلمين، فيطلقون أحكاماً عامة على كلِّ المسلمين، وكأنَّ هذا الدين قد حُجب بأتباعه، إن كنت تقيم في بلد غربي، وكتبت تصريحاً كاذباً، أو احتلت، أو أخذت ما ليس لك، أنت بهذا العمل لا تسيء إلى نفسك، بل تسيء إلى مجموع المسلمين، وقد تصل الإساءة إلى دين الإسلام، فكلُّ مسلم ينبغي أن يعدَّ نفسه سفير المسلمين.

أرأيت إلى السفير، يتأنّق في ملبسه، يضبط كلامه، يضبط حركاته وسكناته، لأنه في هذا البلد يُمثِّل أمَّته، فأيُّ خطأ يرتكبه ينسحب على دولته، والمؤمن الصادق يحمل هذا الشعور، لا يسبب سمعة سيئة للمسلمين من خلال تصرُّفاته.

لو أن الجاليات الإسلامية في العالم كانت مسلمة حقيقة، وطبَّقت منهج الله عز وجل، لكان موقف الغرب من المسلمين غير هذا الموقف، لكن يرون مسلماً يحتال عليهم، يقدِّم تصريحاً كاذباً، يفعل شيئاً لا يرضي الله.

ما دمت قد آمنت باسم السَّلام فيجب أن تكون مصدر سلام لمن حولك. وقد ورد أنّ شرّ النّاس من خافه النّاس اتّقاء شرِّه.

إذا آمنت باسم «السلام» فبُثَّ الطَّمأنينة فيمن حولك، لا تكن مقلقاً لهم، لا تكن مصدر رعب لهم، لا تبثَّ الرُّعب في قلوبهم.

ومن تطبيقات هذا الاسم أن يسلك المسلم في حركته اليومية سبل السلام، إذا أقمت زواجك على منهج الله وغضضت بصرك عن محارم الله، وأدّيت واجب الزوجة، وأعطيتها حقها، فقد سلكت في زواجك سبل السلام، وإذا اعتنيت بأولادك وربَّيتهم، وغرست فيهم العقيدة الصحيحة، فقد سلكت بهم سبل السّلام.

يقول الله عز وجل: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [المائدة:١٦].

هل هناك حالة أعظم من أنك في سلام مع الله، في سلام مع نفسك، في سلام مع أهلك، مع أولادك، مع جيرانك، مع زبائنك، حينما تطبق منهج الله تكون في سلام معهم، في أيّة حرفة حينما تصدق وتنصح، فأنت في سلام، ولك مكانة كبيرة.

ومن آمن باسم الله السّلام فإنّه يفشي السلام، ويحيي إخوانه بتحية الإسلام، يقول ﷺ: «إنَّ اسم السلام من أسماء الله تعالى فأفشوه بينكم» [أخرجه الطبراني عن أبي هريرة].

إذاً فهي دعوة لي ولك أن نقهر النفس، وأن نتعالى على كلِّ شهوة، وأن نكون في سلام مع أنفسنا أوّلاً حتى يسلم المسلمون من لساننا ويدنا، وأن نسلك سبل السلام، باتباع منهج الله تعالى.

المؤمن

ورد هذا الاسم في القرآن الكريم في موضع واحد في الآية الكريمة: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحشر:٢٣].

من معاني اسم الله (المؤمن)

المؤمن اسم فاعل مِن آمَن، يؤمن، فهو مؤمن.

إنَّ أيَّ مِلك من ملوك الأرض لا يرضى أن يلقَّب أحد أفراد رعيته بلقبه، وهو من بني البشر؛ يأكل كما نأكل، ويشرب كما نشرب، وينام كما ننام، وله جسم، ويعطش، ويجوع، ويغضب، ويثور، ويمرض، ويموت، فلا فرقَ بين الملك وأحد رعاياه من حيث التكوين الجسمي، ومع ذلك تأبى عزَّته، ويأبى كبرياؤه أن يُلقَّب أحد من أفراد رعيّته بلقبه، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى سمانا بعد أن عرفناه، وطبقنا أمره سمانا مؤمنين، والمؤمنون جمع مؤمن، وسمى نفسه المؤمن، كما في الآية السّابقة

لكن هذا الاسم يحتاج إلى وقفة، الله عز وجل مؤمن، ولكن مؤمن بماذا؟ نحن مؤمنون بالله، ونحن مؤمنون برسول الله ﷺ، مؤمنون باليوم الآخر، فالله عز وجل مؤمن بماذا؟ قالوا: المؤمن اسم فاعل من فعل أَمِنَ يأمن أمناً وأماناً، فعل «أمن» له معنيان:

المعنى الأول: التصديق، وهناك آية تؤكِّد ذلك قال تعالى: ﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴾ [يوسف:١٧]. فقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ ﴾ هذا من التصديق.

المعنى الثاني: وهو الأمن، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾ [قريش:٤].

فاسم الله تعالى المؤمن مأخوذ من التصديق أو من الأمن؟ وكيف نفهم هذا الاسم بالمعنى الأول؟

في الحقيقة: إن الإنسان قد يعرف ذاته، وقد لا يعرف ذاته، فإذا لم يعرف ذاته، وخاض في شيءٍ، ولم يكن عنده علم به، ولا من مقدوره، فإنّه يخسر خسارة كبيرة، نقول له: لو عرفت ما عندك لما دخلت في هذه الورطة، فهذا الذي يقدم على شيء ليس في مقدوره، ولا يعرف حقيقة ما عنده فهو يجهل حقيقة إمكاناته، ولا يعرف ذاته، لكن هناك من يعرف ذاته حقَّ المعرفة، فتأتي الأفعال كلُّها وفق معرفته، هذا مثل ضربته لكم لتوضيح الحقائق، فمن أوَّل معاني المؤمن أن الله سبحانه وتعالى يعرف ذاته، ويعرف أسماءه، ويعرف كلَّ ما عنده، هذا المعنى الأول.

المعنى الثاني: أن الله سبحانه وتعالى يصدِّق رسله، بعث النبي محمداً ﷺ رسولاً، صدقه، أي: جعل الناس يصدقونه بالمعجزة، بعث موسى عليه السلام نبياً وصدقه، أي: جعل الناس يصدِّقونه بالمعجزة، أرسل سيدنا عيسى عليه السلام رسولاً فأعطاه معجزة كي يصدقه الناس بها، إذاً المعنى الثاني الصدق، أي: كلُّ شيء وعد الله به المؤمنين يأتي

فعله مصداقاً لوعده، وعدك بالحياة الطيبة فإذا عشت الحياة الطيبة، فقد صَدَقك، بمعنى أن فعله جاء مصداقاً لوعده، أن يأتي فعل الله -عز وجل- مصداقاً لوعده، يصدِّق أنبياءه، أي: يعطيهم الدلائل، ويجعل الناس يصدقونهم، يعطي المؤمن دلائل، أنت أيها الأخ الكريم تقرأ القرآن ما الذي يجعلك تتشبَّث وتتعلق وتتمسك به؟ لأن الأحداث التي تعيشها تأتي كلُّها مصدِّقة لهذا القرآن، إذا استقمت في البيع والشراء شعرت براحة ووفَّر الله لك دخلاً طيباً، وساق الناس إليك، وإذا كنت أميناً رفع الله اسمك بين الناس، فأيُّ وعدٍ وَعَدَك الله به، فإذا أنت نفَّذت ما أنت مأمور به تأتي الحوادث كلُّها لتصدِّق لك هذا الوعد، أو لترى أن هذا الوعد صادقاً، فمن معاني المؤمن أنه يجعل أنبياءه مُصَدَّقين، يدعمهم بالمعجزات، يجعل قرآنه مُصدَّقاً، بمعنى أنك إذا آمنت به وعملت عملاً صالحاً أذاقك الحياة الطيبة، فما الذي جعلك تصدِّق كلامه؟ هذه الحياة الطيبة، إذا اهتديت بهدى الله عز وجل في كل مناحي حياتك ترى أنَّ الحوادث كلَّها تصدِّق ما جاء به القرآن الكريم، إذاً الله عز وجل مؤمن، أي: يجعل عباده مُصَدِّقين، لأن أفعال الله عز وجل كلَّها تأتي مصداقاً لوعده ولوعيده، قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ۝٣٨﴾ [الحج:٣٨].

لا بدَّ من أن تشعر بأنَّ هناك حالات كثيرة تواجهك فيُقيِّض الله لك إنساناً لا تعرفه يدافع عنك بإلهام من الله عز وجل، وحينها يقول الله عز وجل: ﴿ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ۝١٢٣﴾ [طه:١٢٣]، تشعر أنَّكَ مهتدٍ، وأنَّ لك رؤية صحيحة، وأنَّ لك بصيرة نافذة، وأنَّ تفسيرك للحوادث صحيح؛ لأنَّك اتَّبعت أمر الله عز وجل فجاءت الحوادث مصداقاً لما قاله الله عز وجل.

وهذا معنى من معاني المؤمن، والحقيقة كما قلت قبل قليل: إنّ أروع ما في الدين أنه يعطيك تفسيراً للكون والحياة والإنسان، ومهما عشت، ومهما تبدَّلت الظروف، ومهما ظهرت معطيات جديدة، ومهما ظهرت أحداث جديدة فكلُّها ضمن تأويل الله

عز وجل لهذا الكون والحياة والإنسان، فأنت حينما تقرأ القرآن لن تُفاجأ بحادث لم يرد معك في القرآن، فلو أعطيْتَ تفسيراً لظاهرة من الظواهر، قد تُفاجأ بعد حين أنَّ هناك حدثاً أبطل نظريتك، وما أكثر ما جاء العلم بنظريات، ثم جاءت الحوادث فأبطلتها، أما إذا قرأت القرآن وهو من عند الله عز وجل لن يأتي حادث يكذب ما قرأت في القرآن، هذه نقطة دقيقة جداً، فالقرآن أنزل قبل أكثر من أربعة عشر قرناً، والعلم تطوّرَ تطوُّراً كبيراً جداً، ومعطيات القرآن صحيحة وثابتة منذ أن خُلقت البشرية وإلى ما قبل خمسين عاماً في كفّة، ومنذ خمسين عاماً إلى الآن حدث تطور علمي رهيب جداً تجده في الكفة الأخرى، ومع كلِّ هذا التطور فليس في العلم حقيقة تخالف هذا القرآن.

معنى ذلك أنك إذا قرأت القرآن تطمئن، لأن مجريات الأمور وما يحدث في الكون والمجرات والأنواء والنبات والحيوان والإنسان، كلُّ هذه الحركات تأتي مصدقِّة لكلام الله عز وجل، فالله مؤمن، أي: كلامه يجعلك تصدِّقه، لأنَّ أفعاله تصدِّق كلامه، وهذا معنى من معاني المؤمن.

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن الصحابة الكرام كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم: «يَا رَسُولَ الله، صَدَّقَ الله حَدِيثَكَ» [متفق عليه].

ويوم الأحزاب قال صلى الله عليه وسلم: «صَدَقَ الله وَعْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ» [متفق عليه عن ابن عمر].

فإذا تراءى لنا أنَّ بعض الوعود لم تُحقَّق لنا فلنعلم علم اليقين أنَّنا السبب، لأننا ما قدمنا ثمن وعود الله عز وجل، وعود الله عز وجل لها ثمن، وزوال الدنيا، بل زوال الكون أهون على الله مِن ألاّ يحقق وعوده للمؤمنين.

فإذا وعدك الله بحياة طيِّبة، برزق وفير، بحياة آمنة، وعدك بالسكينة، وعدك بالحكمة، هذه الوعود لزوال الكون أهون على الله من ألاّ تحقق، لكن إن لم تُحقَّق فنحن السبب، يجب أن نتهم أنفسنا، فالله غنيٌّ عن تعذيبنا، والآية واضحة: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾ [النساء:١٤٧].

وإليك معنى آخر: هو أنَّ الله سبحانه وتعالى يَهَبُ الأمن للإنسان، فلو أنَّ الحديد مثلاً تارة يكون قاسياً وتارة يكون ليِّناً، فإنك تُنْشِئ البناء وأنت خائف، لعلَّ هذا الحديد بعد حين يصبح ليناً فيتداعى البناء، لقد جعل الله للحديد خصائص ثابتة دائماً، فإذا وضعت هذا الحديد مع الإسمنت، وأشَدْت البناء، وسكنت في الطابق التاسع مثلاً فإنك تنام مطمئناً، فما الذي جعلك تطمئن؟ ثبات صفات الحديد، ولو أنَّ صفات الحديد تبدلت لانهارَ البناء.

فيمكن أن نقول: ثبات خصائص المواد هو الذي يهب الأمن للناس، ثبات حركة الأرض، هذا الجامع شُيِّد منذ سنوات عديدة، فلو أنَّ هناك اهتزازاً في أثناء الدوران لكانت كلُّ هذه الأبنية قابلةً لأن تنقضَّ وتنهار، فالأرض تتحرك بسرعة ثلاثين كيلومتراً في الثانية، وهناك سكون رهيب، ومن أجل أن تعرف قيمة السكون الحركي يأتي الزلزال أحياناً على مدينة بأكملها، ويصبح عاليها سافلها بثوانٍ قليلة، إذاً حركة الأرض مع سكونها واستقرارها جاءت مصداقاً لقوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١)﴾ [النمل:٦١].

أعطاك الأمان، واشتريت بيتاً في الطابق العاشر، وتعرف أنه بيت مستقر، أما لو كان هناك اهتزاز لانعدم الأمن، ثم إنَّك لو اشتريت بذوراً تنبت نوعاً من النبات، ولا تستقيم الحياة لو لم يكنْ في الأرض ثبات، وقمت بزراعة البطيخ مثلاً، وكان الإنتاج بندورة لاختلطت الأمور، وفسدت الحياة، فثبات البذور حيث كلُّ بذر له خصائصُهُ نِعمة ومِنَّة وأمان.

هناك شيء آخر غير الثبات، فهناك آلاف الأنواع لكلِّ نبات: هذا النوع إنتاجه مديد، وهذا النوع إنتاجه مبكر، وهذا النوع إنتاجه صناعي، وهذا النوع للنقل، وهذا للاستهلاك، وهذا للمائدة، أما هذا فإنه يقاوم أمراضاً معينة... فحتى البذر نفسُه له خصائص والخصائص ثابتة، فما الذي يهبك الأمن وأنت تزرع؟ ثبات الخصائص.

إذاً يمكن أن نقول: إنَّ ثبات خصائص المواد هو الذي يهب الإنسان الأمن، الشمس تشرق دائماً من الشرق فليس في شروقها مفاجآت، وليس لها دعاء شروق، يا رب الشمس لم تظهر اليوم أظهرها لنا! طمأنك، الشمس دائماً تشرق، ودائماً تغيب، والأرض دائماً تدور، ويكفي أن تأخذ ورقة من التقويم وأن تقرأ: الفجر الساعة الخامسة وثماني عشرةَ دقيقة والشمس تشرق الساعة السادسة وثلاثين دقيقة، هذه الحقيقة في التقويم منذ متى؟ منذ خمسة وستين عاماً ولمئة سنة قادمة، ولألف سنة قادمة، ولمئة ألف سنة قادمة، إلى أن تنتهي الدنيا، دقة ما بعدها دقة على مستوى الدقائق والثواني.

أرض بأكملها تدور حول الشمس، وهناك نجوم تُضبَط عليها الساعات الشهيرة في العالم «بيج بن»، يقول القائل: ضبطت ساعتي على ساعة «بيج بن»، فإذا كانت هذه الساعات التي في أيدينا نضبطها على هذه الساعة الشهيرة «بيج بن»، لكن هذه الساعة الشهيرة كيف تُضبَطُ؟ تُضبط على حركة المجرَّة.

إذاً ثبات الدوران، ثبات السرعة، ثبات الحركة، ثبات الزاوية، هذا يعطي الإنسان النظام الثابت ويجعل فيه الأمن، إذاً من الممكن أن نقول: صفات المواد الحديدية ثابتة، شخص اشترى سواراً ذهبياً ودفع ثمنه عشرين ألفاً، بعد فترة تبدل نوع المعدن أصبح معدناً خسيساً، والله هذه مشكلة، لكن الذهب ذهب على الدوام، ومثله في الثبات الحديد، والفضة فضة، والقصدير قصدير، والألمنيوم ألمنيوم، ثبات صفات المعادن هذه تهب الأمن للإنسان، وهذه نعمة لا نعرفها لأنها مألوفة، لذلك يقولون: شدة القرب حجاب؛ لأن هذه النعمة مألوفة جداً، كأنها لم تكن مع أنها نعمة عظيمة.

من أسماء الله عز وجل «المؤمن» فهو «المؤمن» إذا قرأت كتابه جاءت الحوادث كلُّها مصداقاً لكلامه، ومؤمن يهب الأمن للإنسان عن طريق ثبات صفات المواد.

ثبات الأنظمة، قانون الحركة ثابت، التمدد ثابت، قوانين الجسم كذلك ثابتة، فأنت تجد طبيباً في آخر الدنيا يصنع دواءً يستعمل في طرف آخر من أطراف الدنيا، هذا الدواء يؤثِّر في الجسد حيثما كان، ما معنى ذلك؟ أي: إنَّ كلَّ أجساد بني آدم من بنية

واحدة، فهناك أمن وأمان. مثلاً؛ القلب؛ تجد طبيباً ذهب إلى أمريكا درس عن القلب، فلو ذهب إلى إفريقيا، إلى آسيا، إلى استراليا، إلى أوروبا، إلى أي مكان في العالم وفتح قلباً وجد شرايينه وأعصابه ومراكزه الكهربائية كلَّها بدقَّة تامَّة، هذا الثبات يكفي أن تُشَرِّح إنساناً واحداً، فكل إنسان إذا عالجته تكون بنيته وأعصابه وأوردته وشرايينه وعضلاته وفق هذا الأُنموذج، ومع هذا أيضاً ثباتُ الأنظمةِ، وثباتُ خصائصِ المواد، فأحياناً يجعل الله عز وجل للمواد مْضادات، فالنار محرقة، والماء يُطفىء النار، أي: أعطاك لكلِّ شيء خَطرٍ ما يقضي على خطره، وهذا يطَّردُ في كل شيء، في الأدوية -مثلاً- هناك وباء نباتي فله أدوية بإمكانها أن تقضي على هذا العنكبوت أو على هذا الفطر أو على هذه الحشرة، فالله عز وجل من أسمائه المؤمن، لأنَّه يهب الأمن للإنسان.

الألم سماه العلماء جهاز إنذار مبكر، فالإنسان يتلف سنُّه جزئياً فيتألم ألماً شديداً فيذهب إلى الطبيب فيصون هذه السّنّ، لو لم يكن هناك عصب يصاب لما أحس الإنسان بالألم، ولما كانت هناك وقاية لهذا السن، إذاً الألم من أجهزة الإنذار المبكر، فكل خطر من أخطار الدنيا جعل الله له وقاية.

إذا استعان الإنسان بالله عز جل يقيه من زلات المعاصي، لقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥].

لذلك قال وهيب بن الورد: «والله لو أن السماء من نحاس والأرض من رصاص واهتممت برزقي لظننت أني مشرك»، والحقيقة لو أردت أن ترى الفرق الجوهري بين حياة المؤمن وحياة غير المؤمن، لوجدت أن الصفة الأساسية المميزة هي الأمن، قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨١﴾ [الأنعام:٨١].

تجد قلوبَ أهل الدنيا فارغة، عرضة للمخاوف، عرضة للمقلقات، عرضة للذعر، لتوقع المصيبة، لكن ربنا عز وجل إذا آمنت به ملأ قلبك اطمئناناً، ملأ قلبك استقراراً، ملأ قلبك رضاً بقضائه، ملأ قلبك معرفة بكماله، هذا كلُّه من اسم المؤمن.

وهناك أمر آخر: كيف تأمن عذاب الله في الآخرة؟ لقد أعطاك الكون، وأعطاك العقل، وأعطاك الفطرة، وأعطاك الشهوة، وأعطاك الاختيار، وأعطاك القوة، وهذه كلُّها مقوِّمات النجاة في الآخرة، تشعر أن الله عز وجل إذا أقبلت عليه تأمن القلق، وتأمن المرض، وتأمن الضيق، وتأمن التعب، وتأمن الخوف، فالله سبحانه وتعالى مصدر أمنٍ وأمانٍ للبشر، بعض الجهات تُقْلِقك، ولكن من شأن الله المؤمن، أنّك إذا فوضت أمرك إليه، واتَّبعت أمره ونهيه فأنت في أمن وسلام، فهذا المعنى الذي يليق بالله عز وجل فيما يتعلق بالمؤمن.

عن الأحنف بن قيس أنه قال: قال الخليل بن أحمد: «الناس أربعة: رجل يدري ويدري أنه يدري فذاك عالم فخذوا عنه. ورجل يدري وهو لا يدري أنه يدري فذاك ناسٍ فذكِّروه. ورجل لا يدري وهو يدري أنه لا يدري فذاك طالب فعلموه، ورجل لا يدري وهو لا يدري أنه لا يدري فذاك أحمق فارفضوه».

أنا أختار منهم من يدري ويدري أنه يدري أنَّ اللهَ عز وجل مؤمن.

والمعنى الثاني من التصديق: أي شيء وعدك الله سبحانه وتعالى به في القرآن فزوال الكون أهون على الله من أن تأتي الأحداث مخالفة لما وعدك به، وعدك بالنصر، والنصر واقع لا محالة، وعدك أن يدافع عنك، وعدك أن يحفظك، وعدك أن يرزقك، وعدك أن يطمئنك، وعدك بالأمن، وعدك بالتمكين، وعدك بتمكين دينك، وعدك بالاستخلاف، وعدك أن يكون معك.

المعنى الثالث: أنه يهب الأمن، وبشكل بسيط نذكر العين، فإذا قدت مركبتك في النهار تشعر بأنك مطمئن لأن مدى الرؤية بعيد جداً، أما في الليل فيوجد الانبهار والأضواء فتشعر بقلق، فالقيادة في الليل يرافقها القلق، وفيها مفاجآت، فالضوء الموجود في المركبة لا يكشف كلَّ شيء، ومداه محدود، فكلما كانت الرؤية أطول كان الأمن أكثر، إذاً، فالله سبحانه أعطاك العين كي ترى طريقك، كما أعطاك الأذن، فإذا سمعت حركة في الليل فالأذن تكشفها، فالسمع المرهف أحد وسائل الأمان، والعين

إحدى وسائل الأمان، وكذلك الشم، فإذا أصدر الطعام رائحة كريهة فمعنى هذا أن الطعام فاسد، فجعل الأنف فوق الفم كي يحصل لك الأمن الغذائي، أعطاك يداً تدفع بها الضُّرَّ، أعطاك رِجلاً تنتقل بها من مكان إلى آخر، هذه كلُّها لتحقق الأمن لك، وهذا معنى آخر من معاني المؤمن.

والحقيقة أننا بعد كلِّ بحث لا بد من أن نسأل أنفسنا هذا السؤال، يا رب، أنت المؤمن، وأنا ما علاقتي بهذا الاسم؟ أنت المؤمن فكلُّ الحوادث وكل الأفعال جاءت مصداقاً لقرآنك، شيءٌ مريح لي ويؤكد علاقتي بالله المؤمن، وهذا معنى أول.

والشيء الثاني وهبتنا الأمن يا رب، وهبتنا الحواس، وهبتنا الأجهزة، وثبات خصائص المواد وثبات الأنظمة، كلُّها وسائل أمان تؤكد سلامة علاقتي بالله المؤمن أيضاً.

قال لي طبيب قلب: لو كان قلب إنسان نحو اليمين وقلب إنسان آخر نحو اليسار وقلب بمكان آخر لالتبسَت الأمور علينا، درس هذا الطبيب القلب بأمريكا، وعرف أن مكانه نحو اليسار، وعند إجراء العملية لأحد المرضى وجد القلب على اليمين هذه واقعة لم يدرسها لأنها شاذة! بينما للبشر كلِّهم بنيةٌ واحدة حتى على مستوى الأعصاب الدقيقة جداً، وهذا يعطينا قدراً كبيراً من الأمن، وكما قلت قبل قليل عن الأرض: وإنّ دورانها حول نفسها وحول الشمس ثابت، شروقها وغروبها ثابت، لكن الأمطار لم يجعلها ثابتة، بل جعلها متبدلة، هذا من أجل ألا ننساه، من أجل أن نصلي له، من أجل أن نتوب إليه من ذنوبنا، ربنا عز وجل ثَبَّتَ أشياء وحرك أشياء، ثَبَّت دورة الأرض حول نفسها ودورتها حول الشمس، وثبَّت الشروق والغروب، وثبَّت القمر، وثبَّت الأنظمة والبذور والخصائص والبنى، هذه كلُّها ثبَّتها، وجعل الرزق بيده، فجعل الرزق وسيلة كي تعود إليه، وكي تقبل عليه، وكي تتوب إليه من ذنبك، هذا معنى جليل، جدير فهمه.

إن الله عز وجل هو المؤمن، وسمّى عباده الطائعين مؤمنين، وهذا شرف لهم وفي ذلك فليتنافس المتنافسون وحسبك قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ [المؤمنون:١].

هو ملك الملوك، ومع ذلك سمح لك أن تسمي نفسك مؤمناً، وهو المؤمن؛ مؤمن بذاته أولاً، ثانياً تأتي أفعاله كلُّها مصدِّقة لأقواله، فأنت إذا قرأت القرآن لا تخشى المفاجآت ولا تخشى أن تأتي الأحداث خلاف القرآن فتنفضحَ أمام الناس، إنك لا تخشى إذا اعتقدت بما قاله الله عز وجل أن تأتي حقيقة علميّة في المستقبل تكشف لك خطأ هذه الآية، أعوذ بالله، هذا شيء مستحيل، لأن الله عز وجل مؤمن، أفعاله تأتي مصداقاً لأقواله.

المعنى الثالث: يهبك الأمن: إنْ في حواسك، وإن في أجهزتك، وإن في أعضائك، إن في طعامك وشرابك، حتى في الهواء ثبات، وهو شيء ثمين موفور، إن في ثبات خصائص المواد، إن في ثبات طريقة النبات، إن في بنية الأشياء، إن في عملها بل وفي كلِّ شيء، وقال سبحانه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر:٤٩].

وبعد، فلا بد من سؤال وجيه يطرح نفسه: كيف نوفق بين اسم المؤمن، وأن الله سبحانه وتعالى يقذف الخوف في قلوب العباد، هو مصدر أمن للخلق، وفي الوقت نفسه قد يملأ قلوبهم خوفاً؟!

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ [القصص:٢١].

وجواب ذلك دقيق جداً؛ فالإنسان إذا أمن اطمأن للدنيا، ونسي الله عز وجل، وركن إليها، فأعجبه ماله، وأعجبته قوته، وأعجبته مكانته، وأعجبه عيشه، وشعر أنَّ الدنيا مديدة، وأنه في مركز قويٍّ، وبذا فقد أمن دنياه، واطمأن لها، وعاش في غفلة عن آخرته، فما علاجه؟ أن يقذف الله في قلبه الخوف، فإذا خاف هذا العبد التجأ إلى الله عز وجل، ونجا من غفلته، فهو يخيفك كي يؤمنك، ويفقرك كي يغنيك، ويمنعك كي يعطيك، ويضرك كي ينفعك، ويُذِلّك كي يعزّك.

فمثلاً قالوا: ابتلاك ببعض صحتك، وأسقمك ليرحمك بعافيته فقال أبو الطيب:

لعلَّ عتبك محمود عواقبه ... وربما صحَّت الأجسام بالعلل

وعن أبي هُرَيْرَةَ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يقولُ يومَ القِيامَةِ: يا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قالَ: يا رَبِّ كَيْفَ أعُودُكَ وأنْتَ رَبُّ العالَمِينَ، قالَ: أمَا عَلِمْتَ أنَّ عَبْدِي فُلاناً مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أمَا عَلِمْتَ أنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ...» [صحيح مسلم].

فإن أخذ بعض صحتك فذلك ليعوضك عما أخذ منك بشيء من رحمته، تزور المريض المؤمن فتجد نفسه صافيةً جداً وجهه متألقاً، إنه قريب من الله عز وجل، أسقمه قليلاً، وأعطاه الرحمة بديلاً، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي، يضرّ لينفع ويذل ليعز، ويخفض ليرفع، ويمنع ليعطي، ويخيف ليطمئن، فإذا ابتعد الإنسان عن ربه، وشرد عن شرعه امتلأ قلبه خوفاً، وهذا الخوف هو الدافع الذي يدفعه إلى العودة إلى رحاب الشرع ومحجة الإيمان.

المؤمن جلّ جلاله هو من أمنه الناس ألا يظلم أحداً من خلقه، والإنسان لا يطمئن إلا إذا وحّد، ورأى أنَّ الأمر بيد الله وحده.

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣].

ما لم تر أن يد الله تعمل وحدها، ما لم تر أنَّ الله بيده كلُّ شيء، ما لم تر أن الله هو الفعال، هو المعطي وحده، هو المانع، هو الرافع، هو الخافض، هو المعزُّ، هو المذلُّ، ما لم توحِّد فلن تستطيع أن تطمئن إلى وعود الله، ولن تخاف من إنذاراته.

عندها تؤمن يقيناً أنَّ المؤمن لا يمكن أن يُظلم مخلوق في ملكه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء:٤٠].

وفي آية ثانية: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ [النساء:٤٩].

وفي آية ثالثة: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء:١٢٤].

ويقول تعالى: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء:٤٧].

عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا رَوَى عَنْ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ» [أخرجه مسلم والترمذي].

وهناك آية عميقة المعنى، وهي قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ [العنكبوت:٤٠].

وهذه الصيغة تنفي أكثر من عشرة أفعال، سمّاها علماء اللغة نفي الشأن، لو سألت إنسانا من علية القوم الله: هل أنت سارق؟ وقال لك: لا، فالإجابة غير صحيحة، يقول لك: ما كان لي أن أسرق، أيّ إنّه من المستحيل أن أفكر، أو أن أدعم، أو أن أرضى، أو أن أفعل.

لكن قد يقول قائل: وهذه الحروب؟ وهذه الاجتياحات؟ وهذا الفقر؟ وهذه المجاعات؟ وهذا الزلزال؟ وهذا الفيضان؟ وهذا البركان؟ كيف نفسر ذلك؟ الجواب: لا يمكن أن تستطيع إثبات عدل الله بعقلك، إلا في حالة مستحيلة، أن يكون لك علم كعلم الله، ولكن تستطيع أن تؤمن أشدَّ الإيمان بعدل الله المطلق حينما تصدِّق ما جاء به القرآن.

لن تستطيع أن تؤمن بعدل الله بعقلك وحده، لأنَّ عقلك محدود المهمة.

ثمّ إنَّ هذه الدنيا أمام الآخرة لا تساوي شيئاً، فإذا وعد الله عز وجل المظلوم بالجنة، فيلزم منه عدم الظلم، قال تعالى: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر:١٧].

لا يليق بعطاء الله العظيم أن يكون في الدنيا فقط، فالموت ينهي قوة القوي، ينهي ضعف الضعيف، ينهي غنى الغني، وفقر الفقير، ينهي وسامة الوسيم،ودمامة الدميم، ينهي صحة الصحيح، ومرض المريض، ينهي كلَّ شيء، لا يليق بعطائه أن يكون في الدنيا فقط.

المؤمن هو الذي يجير المظلوم من الظالم، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ [المؤمنون:٨٨].

نصيب المؤمن من اسم الله المؤمن

إنّ أوّل نصيب للمؤمن من اسم الله المؤمن أن يكون مؤمناً حقّاً.

والمؤمن هو المصدِّق، آمن أي صدّق، وتعني كلمة مؤمن الذي ينفذ الأمر بحذافيره، صدَّق الآمر في أمره فأتمر، والدليل قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [يوسف:١٧].

أيّ: ما أنت بمصدِّق.

فالمؤمن هو المصدِّق، والمؤمن المنفّذ، والدليل الحديث الشّريف: «أَتَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِالله وَحْدَهُ؟ قَالُوا: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: شَهَادَةُ أَلَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ» [متفق عليه عن ابن عباس].

للتّوضيح: لو أنَّك قلت لواحد من الناس: على كتفك عقرب، فبقي هادئاً، والتفت نحوك، وابتسم، وقال لك: أشكرك على هذه الملاحظة، وأسأل الله أن يمكّنني أن أكافئك عليها، فهو ما سمع ما قلت له، لو سمع ما قلت له لقفز، وصرخ، وخلع معطفه.

فعلاقتك بالمحيط وفق هذا القانون، إدراك، انفعال سلوك، فإن سمعت كلاماً، ولم تدرك فحواه لا تنفعل، وإن لم تنفعل لا تتحرَّك.

إذا أدرك أحدنا حقيقة يوم القيامة، وأنَّ كلَّ عمل تعمله سوف تحاسب عليه لا يمكن إلا أن تطيع الله، قال تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم:٤].

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنفال:٢١].

لو زرت طبيباً، وعالجك، وكتب لك وصفة طبّيّة، لك أن تقول له: شكراً لك على هذا الاهتمام، وأنا معجب بعلمك، وأرجو الله أن يمكّنني أن أكافئك على هذا الاهتمام، لمجرد أنك لم تشترِ الدواء، فأنت كذّبت علمه عملياً، والمجاملات ليس لها قيمة، إن لم تشترِ الدواء، وإن لم تستعمل الدواء وفق تعليماته فأنت مشكِّك في علمه.

أخطر شيء في حياة المسلمين التكذيب العملي، ولا تجد في العالم الإسلامي مسلماً واحداً يقول لك: ليس هناك آخرة، لكن هناك التكذيب العملي، تلاحظ كسب الإنسان، كسب ماله، إنفاق ماله، بيته، عمله، علاقاته، حلُّه، ترحاله، أفراحه، أتراحه، لا يلتزم بها بمنهج الله، ولأنه لا يلتزم فهو مكذِّب عملياً بالآخرة.

وما إن تستقرَّ حقيقة الإيمان في نفس المؤمن إلا وتعبر عن ذاتها بحركة، المؤمن حركيٌّ، الإيمان السكونيُّ غير صحيح، ما لم يجدك الله في مكان أمرك أن تكون فيه، ما لم يفتقدك في مكان نهاك الله عنه، ما لم تتحرك، ما لم تعطِ، ما لم تلتزم، ما لم تطبق، ما لم تجعل من حركتك وفق منهج الله، فالإيمان غير مكتمل.

مؤمن تعني مؤمنًا مصدّقاً ما جاء به القرآن الكريم، وطبَّق أوامر القرآن الكريم، وصدَّق ما جاء به النبي الكريم، وطبق سنة النبي الكريم، الإيمان تصديق وتطبيق، الإيمان اعتقاد وسلوك، الإيمان ما أقره اللسان، وصدقه العمل، وآمن به القلب.

أنت مؤمن: فأول شيء يجب عليك أن تفعله أن تأتي أفعالك كلُّها مصداقاً لأقوالك، فلا يليق بك أن يكون لديك ازدواجية، ولا أن يكون عندك شيء داخلي،

وشيء خارجي، وشيء تعتقده، وشيء تقوله بعكسه، فهذا اهتزاز واضطراب في نفسك وسلوكك، وربنا عز وجل يقول: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الأنعام:١٢٠].

ظاهرك الذي يطَّلع عليه الناس: أنك مستقيم؛ صلاة، صوم، حج، زكاة، لكن باطنك قد يكون فيه: الحسد، الكبر، الحقد، الضغينة، هذه كلُّها من بواطن الإثم، إذاً أنت مؤمن يجب أن يأتي عملك مصداقاً لقولك بالضبط، يجب أن تكون موحِّداً، ليس لك ظاهر وباطن، وليس لك سريرة وعلانية، ولا موقف معلن وآخر غير معلن، وبكلمة موجزة ليس لدى المؤمن ازدواجية، فأنت مؤمن يجب أن تأتي أفعالك كلُّها مصداقاً لأقوالك.

أما الشيء الثاني فيجب أن يأمنك الناس:

عن أبي شُرَيْح أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «والله لا يُؤْمِنُ والله لا يُؤْمِنُ والله لا يُؤْمِنُ» قيلَ: ومَنْ يا رسولَ الله؟ قالَ: «الذي لا يَأْمَنُ جارُهُ بَوائِقَهُ» [صحيح البخاري].

هناك أشخاص مخيفون، فإذا تكلمت كلمة مؤذية لمسامعهم مثلاً فلن تنام الليل خوفاً من عاقبتها، ولا بدَّ للمؤمن من أن يكون مصدر أمن، فلا يأتيك من طرفه ضرر أو أذى أو مكيدة أو غدر أو قنص، فهو مصدر أمان، تنام ناعم البال، مطمئن النفس، مرتاح الضمير، حتى ولو زلَّت قدمك أمامه، ولو تكلمت بكلمة غير لائقة أمامه فلن يتَّخذ منك موقفاً، وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى: «يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار» [متفق عليه عن أبي هريرة].

ومع ذلك تجد الناس يعصونه جهراً وهو يسترهم، والعبد ينسى، وربي لا ينسى، يعصونه جهراً ويسترهم ويرزقهم ويحفظهم، وهذا شأن الله مع عباده، وأنت أيها القارئ الكريم مؤمن فأول صفة من صفاتك أنه ينبغي أن يأتي فعلك مصداقاً لقولك، وأن تلغي من حياتك الازدواجية: الظاهر والباطن، العلانية والسريرة، أن تكون في جلوتك كخلوتك، أجل هذا هو المعنى الثاني: أن يأمن جانبك الناس كلُّهم.

فمثلاً زوَّجْتَ ابنتك لمؤمنٍ فلا تخاف أن يجيع ابنتك، ولا تخاف أن يظلمها، ولا تخاف أن يفضحها، ولا تخاف أن يضربها، المؤمن لا يأتي من جانبه إلا كل خير، إنْ شاركتَ مؤمناً فأنت مرتاح مطمئن، لا تخاف أن يتلاعب بالحسابات، ويزوِّر لنفسه حساباً خاصاً، يعقد صفقة من وراء ظهرك، لا تخاف، أصلحت جهازاً عند مؤمن فلا تخاف أن يبدِّل هذه القطعة بقطعة أخرى وأنت لا تدري، يأخذ القطعة الجيدة ويعطيك قطعة رديئة، يخدعك ويغشك، إن المؤمن مأمون الجانب في صنعته، في حديثه، في عمله، في مهنته، في حرفته، في زواجه، في شراكته، هكذا المؤمن يكون مأمون الجانب.

عن أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمونَ مِنْ لِسانِهِ ويَدِهِ والمُؤمِنُ مَنْ أمِنَهُ الناسُ عَلَى دِمائِهِم وأمْوالِهِمْ» [سنن الترمذي].

لا تخشَ أن ينكر عليك المبلغ، إذا ائتمنته عليه، أو أقرضته إياه، ولا يخطر لك هذا في بالٍ أبداً، لا تخشى أن ينكر عليك مالك أو يخفر ذمته نحوك ولو لم يكن معك إيصال، فذمته أمينة مصونة، إذ يخاف الله عز وجل، إذاً أنت مؤمن تؤمن بقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحشر:٢٣].

فالله مصدر أمان للعباد في أفعاله، وفيما أعدَّ لهم في الآخرة، قال تعالى: ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الحجر:٤٨].

فأنت مؤمن، إذا ذكرت لك جهنم على مسمعك، أو وُصِفت لك فإنك تتقيها بالتفكر وبالعمل الصالح، وبطاعة الله عز وجل، وفي الإقبال عليه خدمةً للخلق، وبالبذل والتضحية والإخبات، والخوف، والرجاء مما يجعلك في منجاةٍ من عذابها إن شاء الله.

وكذلك المؤمن مأمون الجانب، جارك يطمئن لك، من يعاملك يطمئن لك فتنصحه، لا تكذب عليه، ولا تغشُّه، أتعطيه الحاجة وقد انتهى مفعولها وزوَّرت التاريخ؟

لا، أنت مأمون، الأنبياء مأمونون على رسالة السماء، والمؤمن مأمون على ما اؤتمن به، ابنتك أمانة عنده، زوجتك أمانة، أولادك أمانة، وهكذا، لكن الشيء الذي أئتمناه عليك عزيزي القارئ أن تبادر فتدعو الناس إلى الله عز وجل، بحيث يأمنوا عذابه يوم القيامة، ولتعلم أن هذه صنعة الأنبياء، وهذا أعظم أمن، فأعظم عمل ترجو ثوابه عند الله تعالى أن تحول بين الناس وعذاب جهنم، بأن تعرفهم بالله عز وجل، فإذا عرفوا الله واستقاموا على أمره وعملوا الصالحات كان نهجك نهج الأنبياء وكنت المؤمن حقاً، وهذه هي صنعة الأنبياء كما نوّهت من قبل فتكون سبباً لنجاة الناس من النار، واعلم أنهم إذا استقام إيمانهم، واستقامت أمور آخرتهم على ما ذكرنا، استقام لهم أمر دنياهم وسعيهم فيها.

وبعد فأنت لأنك مؤمن لا بد من أن تأتي أفعالك مصدقة لأقوالك، ويجب أن يأمن الناس جانبك، أي: أنت مأمون فلا مفاجآت من قبلك، ولا غدر ولا إيقاع ولا خيانة.

نسمع كل يوم آلاف القصص عن غدر الناس بعضهم لبعض، كما نسمع مئات القصص عن خيانة الشركاء لشركائهم، وعن خيانة الأزواج لزوجاتهم أو بالعكس وعن أفعال يندى لها الجبين، وعن غدر وإيقاع للأذى، فليس هذا من أخلاق المؤمن، لأن المؤمن جانبه مأمون.

إذاً أريد منك أيها القارئ الكريم أن تجمع بعض الآيات الكونية عن خلق الإنسان، وعن خلق الحيوان، وعن خلق النبات مما يبعث الطمأنينة في القلب، بعد إدراك ما فيها من إشارة إلى قدرة الله عز وجل؛ بحيث توقظ فيك مواطن الاعتبار والاتعاظ فتزداد إيماناً بـ «المؤمن».

وأنا أرشد القارئ الكريم إلى أن هذه الأسماء الحسنى ما هي إلا تعاريف وهي بذلك موضوعٌ صغير جداً، وأما كأدلة عليها من الكون فهي موضوع كبير جداً، موضوع له آفاق واسعة لا تنتهي، لأنَّ الكون كلَّه يؤكِّد أسماءه الحسنى.

أن تؤمن بوجود الله عز وجل، يعني أنك لم تفعل شيئاً، لأنَّ الشيطان نفسه قال حينما خاطب الله عز وجل: ﴿رَبِّ﴾، وفي آية أخرى قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾، فعبارة الشيطان

تدلُّ على إيمانه بالله، ومع ذلك فهو رأس الكفر كلِّه، فإن آمنت بوجود الله فقط -دون أن تتعرف إلى وحدانيته، إلى ربوبيته، إلى أُلوهيته، إلى أسمائه الحسنى، إلى صفاته الفضلى، إلى مناحي عظمته- فهذا ليس كافياً، أن تؤمن بالله خالقاً وكفى، ليس كافياً، فإنَّ ربنا سبحانه وتعالى قال عن المشركين: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [العنكبوت:٦١].

فالمشركون إذاً: يعترفون بأنّ الله خالق الكون، ولكنَّهم يشركون بالله أولاً، وينكرون البعث ثانياً.

فمن لوازم الإيمان بالله، أن يتعرَّف الإنسان إلى أسماء الله الحسنى، فأحياناً قد تعرف أنّ فلاناً جارٌ لك، وهذا غير كافٍ، بل تحب أن تعرف عنه تفصيلات، كأن تعرف شيئاً عن مستوى علمه، وشيئاً عن أخلاقه، عن أعماله، عن تفوُّقه، هذا فيما بين الناس، فلا تكون المعرفة صحيحة إلا إذا تضمَّنت بعض التفاصيل ممّا يعطيك فكرة واضحة، وإنّه من باب أولى أن يكون الإيمان بالله عز وجل أساسه معرفة أسمائه الحسنى وصفاته الفضلى.

والحقيقة الملموسة؛ أنَّ الكون كلَّه تجسيدٌ وإظهار لأسماء الله الحسنى، كلُّ أسماء الله تبدو لك من خلال الكون، أمَّا ذات الله عز وجل فلا نستطيع أن ندركها، لقول الله عز وجل: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنعام:١٠٣].

أن ترى ذات الله أمر مستحيل، لكنَّك تستطيع أن تتعرَّف إلى ذاته من خلال خلقه، فالكون يدلُّ على المكوِّن، والنِّظام يدل على المنظِّم، والتسيير يدل على المُسيِّر، والماء يدل على الغدير، والأقدام تدل على المسير، والبعر يدل على البعير، فَسماءٌ ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، ألا تدلّان على الحكيم الخبير؟

وبعد، فلماذا يجب أن نعرف الله؟ كي نعبده، ولماذا نعبده؟ كي نسعد بقربه في الدنيا والآخرة، لأنَّ الله سبحانه وتعالى في الأصل خلقنا ليسعدنا، ولا نسعد إلا به، ولا

نسعد إلا إذا كان عملنا طيباً، ولن يكون عملنا طيباً إلا إذا تعرفنا إلى عظمته حقيقةً، لذلك قال ربنا عز وجل في وصف بعضٍ أهل النار: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الحاقة:٣٣].

أي يجب أن تعرف عظمة الله، إن لم تعرف عظمة الله فلا بدَّ أن تخترق حدوده، ولا بد من أن تتجاوز أوامره، أما إذ عرفت عظمة الله عز وجل فقد عبدته حقّ عبادته.

فالقضية كلُّها تتلخَّص في أهمية أن تعرف مَن هو الله، كي تطيعه، وتقبل عليه، وترجو ما عنده، وتخاف وعيده، ولن تخاف وعيده، ولن ترجو ما عنده، ولن تقبل عليه، ولن تسعى إليه، ولن تستسلم لقضائه، ولن ترضى بحكمه إلا إذا عرفته، إذا عرفته رضيت بقضائه، ورأيت حكمةً ما بعدها حكمة، ورأيت علماً، ورأيت رحمة ولطفاً وعطفاً وعدلاً، فكلما عرفته استسلمتَ له، وأقبلت عليه، وخضعت له، وائتمرت بأمره، وانتهيت عما نهى عنه، وأقبلت على عبادته، وخدمتَ عباده، فنحن يجب أن نعرف الله، أما أن يقال فقط: الله خالق الكون، فهذه معرفة بسيطة لا تقدم ولا تؤخر، وهذه المعرفة لا تحجزك عن محارم الله، هذه المعرفة في مجموعها لا تحملك على طاعة الله، فأن تقول: الله خالق الكون، ولك مخالفات كثيرة، وأن تقول: الله خالق الكون، ولك انحرافات عديدة، وأن تقول: الله خالق الكون، ولك طموحات دنيوية مديدة، فهذه مغالطة صريحة، أما إذا عرفت مَن هو الله؟ وهذا هو الهدف من هذا البحث، وأن تزداد معرفتنا بالله يوماً بعد يوم، لأنّه كلّما ازدادت هذه المعرفة ازداد الخشوع والطاعة، والخوف والإقبال، والاستسلام والرضا، والانصياع والفداء، والتضحية والإخلاص، أيّ: إنَّ حجم عملك بحجم معرفتك، وحجم سعادتك بحجم عملك، أي: أنَّ الدِّين كلَّه يمكن أن يلخص بثلاث كلمات: معرفة، طاعة، سعادة، على قدر معرفتك تطيع الله عز وجل، وعلى قدر طاعتك تسعد به.

إذاً هذه الأسماء الحسنى لا ينبغي أن نقف عند تعريفاتها فقط، بل يجب أن نملك عشرات، بل مئات، بل ألوف الأدلة النابعة من الكون على هذه الأسماء، لذلك فمن

علامة معرفتك بالله عز وجل أن ينطلق لسانك في الحديث عن أسمائه ساعات طويلة، وأن تتحدث عن اسم اللطيف، أو عن اسم الرحيم، أو عن اسم الملك، أو عن اسم القدّوس، أو عن اسم السلام، فالذي أرجوه وأتمناه أن يمارس المسلم بنفسه بحثاً ذاتياً، وأن تكون له جولات في هذا الكون ليكتشف من هذا الكون الأدلة الناصعة على أسماء الله، والأولى أن نبقى نجول في كل فترة أو في كل حين مع اسم من أسماء الله الحسنى.

وإذ أختم هذه المطالعة لهذا الاسم «المؤمن» فإليك هذه الخلاصة: الله مؤمن؛ يعرف ذاته، وأفعاله تأتي مصدقة لأقواله، فأنت إذا آمنت بالله، وقرأت كتابه لن تفاجأ بحوادث مخالفة لما في كتابه، الشيء الثابت يهبك الأمن من خلال خَلقه، ومن خلال أفعاله، فأنت مؤمن ينبغي أن تكون على صفتين، أولاً: أن تكون أفعالك مصدقة لأقوالك، وثانياً: أن يأمن الناس جانبك. وإذا رأيت نقيض الأمن وهو الخوف، فهو يخيفك كي يؤمنك، يأخذ منك ليعطيك، يخفضك ليرفعك، يذلُّك ليعزَّك، وهكذا فكل أمرِك عنده عاقبته إلى خير.

المهيمن

هذا الاسم لم يرد إلا في القرآن الكريم، وفي موضع واحد، في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحشر:٢٣].

من معاني اسم الله المهيمن

المهيمن اسم فاعل اشتقاقاً، مِنَ الفعل هيمن يهيمن هيمنة.

من معاني المهيمن: الرَّقيب الشَّهيد الذي يعلم السرَّ وأخفى، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، يعلم ما ظهر وما بطن، يعلم ما يعلن المرء وما يُسِرُّ، يرى الأشياء ويرى ما خلف الأشياء، يرى الظَّاهر ويرى الباطن.

ومن لوازم اسم المهيمن؛ القدرة التَّامة على تحقيق مصالح العباد علماً وقدرةً، ففي بني البشر من يعلم ولكنَّه لا يقدر، وفي بني البشر من يقدر ولكنَّه لا يعلم، ومن لوازم اسم المهيمن صفة ثالثة هي: المواظبة والاستمرار، قد تعلم ولا تقدر، حيث

يقول العوام: «العين بصيرة، واليد قصيرة»، وقد تقدر ولا تعلم، فالإنسان قد يكون قويّاً قادراً يتمتع بأعلى درجات القوة، ولكنه لا يعلم، وقد تعلم وتقدر، وهذا النوع في بني البشر نادر الوجود؛ أن يعلم وأن يقدر، ولكنه لا يضمن المستقبل. قد يكون المرء على علم بما يجري تحت يديه وعلى علم بما يجري حوله، وهو واثق بأن يده تطول كلَّ هذا الذي تحت سلطانه، ولكن لا يدري ماذا يكون من نتائج في المستقبل، أمَّا إذا قلنا: «المهيمن» اسم من أسماء الله الحسنى فمن لوازم المهيمن أنَّه يعلم، ولا نهاية لعلمه، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فلو أنَّ طبيباً فحص مريضةً تشكو من بعض أعضائها، واسترق النظر إلى عضو آخر فهذه خيانة، وليس في الأرض كلِّها من يعلم هذه الخيانة إلا الله، يعلم خائنة الأعين، أي: يعلم السرَّ، علم ما كان، وما يكون، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، يعلم السرَّ وما يخفى عنك، يعلم الجهر وما تعلنه، يعلم السر وما تخفيه عن الناس، ﴿يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ۝٧﴾ [طه:٧]، ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ﴾ [الحديد:٤] في خواطركم، في صراعاتكم، في نياتكم في طموحاتكم، في حركاتكم، في سكناتكم، في سرِّكم، في جهركم، في بواطنكم، في علانيتكم، يعلم كلَّ شيء.

بالمناسبة إن الإنسان لا يستطيع أن يهيمن إن لم يعلم تلك المعلومات والملابسات المحيطة بموضوعه قبل أن يباشره، لا يستطيع إنسان أن يهيمن على شيء ما، مهما كان ضيِّقاً محدوداً إن لم يعلم بكلِّ ذلك، يقولون: فلان تقصَّى الحقائق، يقولون: بثَّ العيون، كيف تملك القرار إن لم تملك الحقيقة؟ المهيمن يعلم.

ولكن ما نفع العلم إذا كنت لا تقدر، ها أنت تعلم مثلاً ولا تقدر، المهيمن يعلم وهو يقدر، ولا يعجزه شيء، ولا نهاية لتعلُّقات قدرته، كلُّ الممكنات؛ أيّ: كلُّ ما سوى الله من ضمن قدرته، ولكن قد تعلم ما أنت بصدده، وقد تملك، ولكن لا تعلم ما سيكون في الغد، قال تعالى في مجال الاقتدار: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٤٤﴾ [النور:٤٤].

وقال تعالى في مجال العلم: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [آل عمران:١٤٠].

فالنبي ﷺ كان إذا سافر يقول: «اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل»(١).

هل تعتقدون أن هذه الصفة التي يقررها الحديث يمكن أن تكون في إنسان ما، كأن يكون معك في السفر وفي الوقت نفسه يكون خليفتك في بيتك وأهلك وأولادك، مستحيل؛ إما أن يكون معك وإما أن يكون في بيتك، لذلك قالوا: هاتان الصفتان لا تجتمعان إلا لله عز وجل، هو معك بالحفظ والرعاية والتوفيق والتسديد والنصر والتأييد، وهو في البيت مع أولادك معية علم وقدرة ورعاية في غيبتك، يحفظهم من كل مكروه، هو معك وهو خليفتك في البيت.

أقول: إنه من النادر أن يجتمع لإنسان العلم والقدرة، ففي المجتمعات البشرية أفراد تفوقوا في العلم، ولكنْ يدُهم قصيرة عاجزة، وأفراد تفوقوا في القدرة، ولكن علمهم محدود، لكن لو أنه، فرضاً، اجتمع لإنسان، وهذا شيء نادر جداً، كمال العلم مع كمال القدرة، فإنَّ رؤية المستقبل تنقصه حقاً، قد يأتي من هو أقوى منه فينتزع ما بيده، وقد يأتي من هو أذكى منه، أو قد يأتي من هو خبيث ماكر فيسلبه ما بين يديه.

إذاً قد يجتمع لديك العلم والقدرة، ولا تملك المستقبل، ولكن إذا قلت: الله مهيمن معنى ذلك: أنه يملك العلم الكامل.

---

(١) قطعة من حديث رواه مسلم والترمذي بسند صحيح من حديث عبدالله بن سرجس، وتتمته: «اللهم اصحبنا في سفرنا، واخلفنا في أهلنا، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب، ومن الحور بعد الكَوْرِ، ومن دعوة المظلوم، ومن سوء المنظر في الأهل والمال» [اللفظ للترمذي].

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٦﴾ [الحجرات:١٦].

والقدرة الكاملة ولا نهاية لتعلقات علمه، ولا نهاية لتعلقات قدرته، وليس في الكون جهة أخرى تشاركه في الحكم ألا تسمع قوله: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ٢٦﴾ [الكهف:٢٦].

لو كان في الكون آلهة غير الله لفسدتا، ﴿إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾ [المؤمنون:٩١]، ليس لجهة أخرى أن تنافس، أو تسيطر، أو تقاوم، أو تنازع، أو تُفسد، لذلك إذا اتّكلت على المهيمن فهو الذي يعلم، والذي يقدر، ويعلم ما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، وليس كمثله شيء.

فالمهيمن؛ ذو علم لا نهاية له، وقدرة تامة، ومواظبة واستمرار، هذا معنى المهيمن، ولكن هناك أربعة معانٍ فرعية تضفي على هذا المعنى شيئاً نفيساً جداً.

المعنى الأول: إذا كان الله هو المهيمن ففي معاني هيمنته الحب والشفقة، فأحياناً تقف الأم حول سرير ابنها المريض وهي تلاحظ حركاته وسكناته، هذه الوقفة الحانية المشفقة وقفة علم، وقفة سيطرة، ولكنها بدافع نبيل، بدافع الشفقة والعطف والحنان، فإذا قلنا: فلان مهيمن بدافع الحقد وبدافع العنجهيّة والغطرسة والقوة والانتفاع والمناجزة وما إلى ذلك، فهذا استبداد وبطش، إنْ وصف الإنسان بأنه مهيمن فالمعاني متعددة، وقد تنعكس سلباً وإيجاباً، أما إن وصف الله عز وجل بأنه مهيمن فمن معاني هيمنة الله عز وجل حبه وعطفه على عباده، مع ملاحظة المعنى الأساسي للاسم، والنبي ﷺ رأى امرأة من السبي، إذا وجدت صبياً في السبي أخذته، فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال ﷺ: «أترون هذه طارحة ولدها في النار؟» فقلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحه. فقال: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها» [متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب].
ونحن نعلم أنّ النار حق وإحراقها حق ولهيبها حق، ولكن هذا شيء متعلق بذات الله عز وجل.

فهيمنة الله عز وجل هيمنة ممزوجة بعطفٍ وحب وشفقة ورحمة وحرص على سعادتك وعلى آخرتك وعلى مستقبلك، فالمعنى الأساسي الأول علم وقدرة وديمومة، أما أحد المعاني الفرعية للهيمنة: فالحب والشفقة.

فلان مهيمن على هذا المستودع، أي: أمين عليه لا يدع حاجة تخرج منه بلا علم، وبلا تسجيل، وبلا مراقبة، وبلا محاسبة، هذه هيمنة الأمانة.

ولِنَدَعِ المعنى الأولَ هيمنةَ الشفقة كالأم على ابنها إلى:

المعنى الثاني: هيمنة الأمانة، لذلك من معاني المهيمن الحافظ: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [يوسف:٦٤].

ومعنى مهيمن: أنك إذا كنت مع الله عز وجل، واعتقدت بوجوده، وأردت أن تحاور إنساناً فأنت المنتصر، الحوادث كلّها تأتي مصدِّقة لك، كل إنسان يطرح نظرية أو يطرح فرضية أو يطرح مذهباً أو يطرح فكرة أو يطرح تفسيراً أو يطرح تحليلاً أو يطرح عقيدةً والوقائع العملية تثبت العقيدة التي جاء بها القرآن، فإذا كنت أنت مع القرآن فأنت المهيمن وأنت المنتصر.

أن تقول مثلاً: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾ [البقرة:٢٧٦].

يمحق الله الربا، هذه آية كريمة وهذه عقيدتك، فالمرابي يقول لك العكس: أيعقل أن أجمد المال دون أن أضعه في مصرف لأتقاضى عليه فائدة مجزية أعيش بها؟ أنت -بوصفك مؤمناً- تطرح أنَّ الله عز وجل يمحق الربا، وهذا المُعرض يطرح نظرية أخرى وهي أن الإنسان لا بد من أن يستثمر ماله، الأيام تدور والوقائع تتجدّد، فإذا بهذا المرابي يُمحَق ماله، من الذي هيمن في هذا الموضوع؟ أنت: أنت عندما اعتقدت أن المرابي يمحق ماله، والأيام أكدت هذه الحقيقة فأنت المهيمن، أنت تعتقد أن الإنسان إذا

غضَّ بصره عن محارم الله أورثه الله نوراً في قلبه[1]، وانعكس هذا في حياته الزوجية، يقول لك آخر: لا، هذه العين يجب أن تستمتع، فهذا الجمال قد خُلِق لنا، فلا بد من إطلاق البصر، وأن تملأ العين من هذه المناظر الحسنة الجميلة، تقول له: لا، ورأيك خطأ، هذا أمر إلهي، وهذه آية قرآنية، تدور الأيام فإذا بهذا الذي يمضي نهاره كلَّه في الطرقات يملأ عينيه من الحرام قد حاد عن طريق العزّة والكرامة، من الذي هيمن في هذا الموضوع؟ أنت الذي هيمنت عندما جاءت الوقائع تؤكِّد ما تعتقد من أن هذا أمر إلهي، أنت إذا اخترت فتاة ولم تخترها إلا لدينها وعفافها وشرفها وصلاحها وأسرتها الصالحة، وآثرت دينها على الجمال وعلى المال وعلى الحسب وعلى النسب وعلى الوجاهة في الدنيا، فأنت انطلقت من منطلقٍ أن هذا العمل هو طاعة لله عز وجل. قال سبحانه: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾ [البقرة:٢٢١].

أما ذاك الآخر فقد انطلق من شهوته وقال: الزوجة يجب أن تكون مِلْءَ العين جمالاً وفتنة كما أحب وأشتهي، ولا قيمة لدينها، تدور الأيام، وإذا بك ترى هذا الذي اختار المرأة الصالحة لصلاحها ودينها ترى حياته الزوجية مستقرة وسعيدة ومفعمة بالمودة والمحبة، تتنامى سعادته، ويبارك الله له في هذه الزوجة، ويرزقه الأولاد وفيهم قرّة العين، أما الذي آثر الجمال على الدين فحياته قطعة من جحيم، فمن الذي هيمن في نهاية الموضوع؟ المؤمن، لذلك ربنا عز وجل يقول: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص:٨٣].

---

(١) ولذلك ذكر الله تعالى آية النور عقيب آيات غض البصر، وكان شاه بن شجاع الكرماني لا تخطئ له فراسة وكان يقول: من عَمَّر ظاهرَه باتباع السنّة، وباطنه بدوام المراقبة، وغَضَّ بصرَه عن المحارم، وكفَّ نفسه عن الشهوات واعتاد أكل الحلال لم تخطئ فراسته.

إذاً هذه معانٍ فرعيةٌ صحيحةٌ من معاني المهيمن؛ أن هيمنة الله عز وجل هيمنة حب وشفقة، وأن هيمنة الله عز وجل هيمنة حفظ وأمانة.

ومن معاني هيمنة الله عز وجل كذلك أن الله سبحانه يصدقك بأفعاله.

ومن معاني أن الله مهيمن أنك أنت المنتصر، وكلامك هو الصواب، واعتقادك هو الصحيح، والأفعال تأتي مصدقة لك، هذا معنى المهيمن كاسم من أسماء الله الحسنى، إذاً الهيمنة العلم الكامل، العلم التام، والقدرة التامة، والاستمرار والمواظبة هذه المعاني الأساسية.

أما المعاني الفرعية فهيمنة حب، لا هيمنة غطرسة وعنجهية وسيطرة، كما يكون الإنسان، هيمنة محافظة على المهيمَن عليه، أمين مستودع لا تأخذه في الله لومة لائم، وهيمنة تصديق لكل ما جاء به القرآن، هذا الجانب النظري من معنى المهيمن، علم وقدرة واستمرار، شفقة وحفظ وتصديق.

والآن أسوق بعض الأمثلة للإيضاح: هناك وقائع وشواهد وحقائق تعمِّق مفهوم هذا الاسم ومدلولاته.

سيدنا موسى حينما قال الله له ولأخيه هارون: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ۝٤٤﴾ [طه:٤٣-٤٤].

فرعون؛ وما أدراكم ما فرعون؟ الذي ذبح أبناء بني إسرائيل واستحيا نساءهم، فمن يجرؤ على أن يخاطبه، وعلى أن يبين حقيقة دعواه الزائفة في أنه إله، من يجرؤ؟

﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ۝٤٥ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ۝٤٧ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٤٨﴾ [طه:٤٥-٤٨].

إنني معكما أسمع وأرى، وفرعون بيدي، إذاً إذا آمنت أنَّ الله هو المهيمن تستسلم ويرتاح قلبك، تطمئن نفسك، يستقرُّ فؤادك، ترتاح أعصابك، الأمر بيد الله بعلمه وبقدرته، كلُّ الخلق بيده ويعلم السّرّ وأخفى.

خرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير يستعينهم في دية العامريين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري. لما خلا بعضهم ببعض قالوا: لن تجدوا محمداً أقرب منه الآن فمَن رجل يعلو على هذا البيت فيطرح عليه صخرة فيرحنا منه؟ فقال عمرو بن جحاش بن كعب: أنا! فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم فانصرف عنهم. فأنزل الله تعالى فيه وفيما أراد هو وقومه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١١ ﴾ [المائدة:١١].

من الذي أخبره أن يتحول عن هذا المكان؟ الله عز وجل، هم اتفقوا في غرفة محكمة الإغلاق قال ابن إسحاق: ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد، اتفقوا على ذلك والله عز وجل أخبره، معنى مهيمن هنا أنه علم ما يقولون.

عمير بن وهب كان شيطاناً من شياطين قريش وكان يؤذي رسول الله ﷺ وأصحابه ويلقون منه عناء وهم بمكة وكان ابنه وهب بن عمير في أسارى أصحاب بدر قال: فذكروا أصحاب القليب بمصابهم، فقال صفوان بن أمية: والله ما في العيش خير بعدهم، فقال عمير بن وهب: صدقت، والله! لولا دَين عليَّ ليس عندي قضاؤه، وعيالي أخشى عليهم الضّيعة بعدي لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإنَّ لي فيهم ابني عندهم أسير في أيديهم، قال: فاغتنمها صفوان فقال: عليَّ دينك أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أُسوتُهم ما بقوا، لا يسعهم شيء نعجز عنهم، قال عمير: فاكتم عني شأني وشأنك قال: أفعل! ثم أمر عُمير بسيفه فشحذ وسُمَّ، ثم انطلق إلى المدينة، فبينما عمر رضي الله عنه بالمدينة في نفر من المسلمين يتذاكرون يوم بدر وما أكرمهم الله به وما أراهم

من عدوهم إذ نظر إلى عمير بن وهب قد أناخ بباب المسجد متوشِّح السيف فقال: هذا الكلب عدوّ الله! عمير بن وهب ما جاء إلا لشرٍّ، هذا الذي حرض بيننا وحزرنا للقوم يوم بدر، ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! هذا عمير بن وهب قد جاء متوشحاً سيفه قال: فأدخله، فأقبل عمر حتى أخذ بحِمالة سيفه في عنقه فلببه بها، وقال عمر لرجال من الأنصار ممن كان معه: ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الكلب فإنه غير مأمون ثم دخل على رسول الله ﷺ وعمر آخذٌ بحمالة سيفه في عنقه، فقال: أرسله يا عمر! ادنُ يا عمير! فدنا، فقال: أنعموا صباحاً -وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم- فقال رسول الله ﷺ: قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، السلام تحية أهل الجنة، فقال: أما والله يا محمد إنْ كنت لحديث عهد بها، قال: فما جاء بك؟ قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا إليه، قال: فما بال السيف في عنقك؟! قال: قبحها الله من سيوف فهل أغنت عنا شيئاً؟ قال: اصدقني ما الذي جئت له؟ قال: ما جئت إلا لهذا، قال: بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر فتذاكرتما أصحاب القليب من قريش فقلت: لولا دَيْن عليّ وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمداً، فتحمل صفوان لك بدينك وعيالك على أن تقتلني، والله حائل بينك وبين ذلك، قال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا رسول الله نكذِّبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان فوالله! إني لأعلم ما أنبأك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق، ثم تشهَّد شهادة الحق، فقال رسول الله ﷺ: فقهوا أخاكم في دينه، وأقرِئوه القرآن، وأطلقوا له أسيره، ثم قال: يا رسول الله: إني كنت جاهداً على إطفاء نور الله، شديد الأذى لمن كان على دين الله، وإني أحب أن تأذن لي فأقدم مكة فأدعوهم إلى الله وإلى الإسلام لعل الله أن يهديهم، وإلاّ آذيتُهم كما كنت أؤذي أصحابك في دينهم، فأذن له رسول الله ﷺ فلحق بمكة وكان صفوان حين خرج عمير بن وهب قال لقريش: أبشروا بوقعة تنسيكم وقعة بدر، وكان صفوان يسأل عنه الرّكبان حتى قدم راكب فأخبره بإسلامه، فحلف ألا يكلمه أبداً، ولا ينفعه

بنفع أبداً، فلما قدم عمير مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام، ويؤذي من خالفه أذىً شديداً، فأسلم على يديه ناس كثير [رواه الطبراني مرسلاً وإسناده جيد].

خولة بنت ثعلبة كانت تحت أوس بن الصامت وكانت حسنة الجسم، وكان به لمم فأرادها فأبت، فقال لها: أنت عليّ كظهر أمي، ثم ندم على ما قال، وكان الظّهار والإيلاء من طلاق أهل الجاهلية، فقال لها: ما أظنُّك إلا قد حرمت عليّ، فقالت: والله ما ذاك طلاق وأتت رسول الله ﷺ - وعائشة رضي الله عنها تغسل شقَّ رأسه- فقالت: يا رسول الله! إنَّ زوجي أوس بن الصامت تزوجني وأنا شابة غنية ذات مال وأهل حتى إذا أكل مالي وأفنى شبابي وتفرَّق أهلي وكبر سني ظاهر مني، وقد ندم، فهل من شيء يجمعني وإياه تنعشني به؟ فقال رسول الله ﷺ: حرمتِ عليه، فقالت: يا رسول الله والذي أنزل عليك الكتاب ما ذكر طلاقاً، وإنه أبو ولدي وأحبُّ الناس إليّ، فقال رسول الله ﷺ: حرمتِ عليه، فقالت: أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي، قد طالت صحبتي ونفضت له بطني، فقال رسول الله ﷺ: ما أراك إلا قد حرمتِ عليه ولم أومر في شأنك بشيء. فجعلتْ تراجع رسول الله ﷺ، وإذا قال لها رسول الله ﷺ: حرمت عليه، هتفت وقالت: أشكو إلى الله فاقتي وشدة حالي وإن لي صبية صغاراً إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليَّ جاعوا، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول: اللهمَّ إني أشكو إليك، اللهم فأنزل على لسان نبيك، وكان هذا أول ظهار في الإسلام، فقامت عائشة تغسل شقَّ رأسه الآخر فقالت: انظر في أمري جعلني الله فداءك يا نبيَّ الله، فقالت عائشة: اقصري حديثك ومجادلتك أما ترين وجه رسول الله ﷺ؟ -وكان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه أخذه مثل السبات- فلما قضى الوحي قال لها: ادعي زوجك فدعته فتلا عليه رسول الله ﷺ: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ ﴾ [المجادلة:١] الآيات.

قالت عائشة: تبارك الذي وسع سمعه الأصوات كلَّها إن المرأة لتحاور رسول الله ﷺ وأنا في ناحية البيت أسمع بعض كلامها ويخفى عليّ بعضه إذ أنزل الله: ﴿ قَدْ

سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ۝١﴾[1] [المجادلة:١].

فكان عمر بن الخطاب عملاق الإسلام، كلما مرّ بخولة بنت ثعلبة، كان ينزل عن دابته، إجلالاً لها ويقف أمامها بأدب ويستمع لها، فقال له أحدهم: أنت أمير المؤمنين وتستمع لهذه المرأة؟ قال: كيف لا أستمع لها وقد استمع الله لها من فوق سبع سموات، معنى هذا أن الله مهيمن، ويسمع كلَّ شيء.

وكذلك، سيدنا موسى قال لفرعون: أنا رسول الله، وكلمة فرعون تعني في وقته أعظم إنسان، ودولته أعظم دولة، وحضارته أعظم حضارة، وهو الذي قال: أنا ربكم الأعلى، وجمع السحرة كلهم، ووعدهم بالعطايا وبالمناصب، من أجل أن يقهروا سحر موسى، كما يدّعون، قال تعالى: ﴿قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ۝٦٦ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٦٨ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ۝٦٩﴾ [طه:٦٦-٦٩].

من انتصر؟ سيدنا موسى، فالله مهيمن على كلِّ شيء.

هذه كلها شواهد قرآنية ونبويّة على اسم المهيمن، علم وقدرة واستمرار، هيمنةُ شفقةٍ وهيمنةُ حفاظٍ وهيمنةٌ بتصديق.

أما سيدنا إبراهيم فقد جاءه جبريل، وقد أَوقد قومُه ناراً عظيمةً، جمعوا حطباً أياماً وأسابيع فأوقدوها، وأركبوه المنجنيق وقذفوه كي يسقط في وسطها، هم مسيطرون

(١) أخرجه ابن ماجه والبيهقي في السنن والحاكم وابن أبي عاصم في السنّة وعبد بن حميد والحاكم وصححه ووافقه الذهبي بلفظ: يا رسول الله أكل شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبرت سني وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، فما برحت حتى نزل جبرائيل بهؤلاء الآيات، واللفظ لابن ماجه في الطلاق.

مهيمنون، بيدهم كلُّ شيء، ألسنتهم تردد: مَنْ أشدُّ منّا قوة؟ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فصلت:١٥]، ثلاث كلمات، يا نار كوني برداً وسلاماً، ولو لم يقل: سلاماً لمات إبراهيم من البرد، ولوجدوه مجمَّداً، ولكنه أضاف: وسلاماً، وقال: على إبراهيم، ولو لم يقل: على إبراهيم لانعدم وجود النار في الأرض، ولأصبحت النار لا تحرق إلى يوم القيامة، ثلاث كلمات: ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠) ﴾ [الأنبياء:٦٩-٧٠].

من المهيمن؟ الله عز وجل.

وكذلك، أُمُّ موسى، أَعطني أُمّاً تستطيع أن تضع ابنها، فلذة كبدها في صندوق، وتلقيه في اليمّ، الله عز وجل أمرها بأمرين، ونهاها نهيين، وبشرها ببشارتين: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) ﴾ [القصص:٧].

أرضعيه وألقيه في اليم، هذان أمران، ﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ﴾ وهذان نهيان، البشارتان: ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) ﴾، فهذا الصندوق من سَيَّرَهُ إلى شطِّ فرعون؟ إنه الله يعلم ويسيطر، وحينما فُتح الصندوق من ألقى حبَّه في قلب امرأة فرعون؟ الله عز وجل، إذاً فالله مهيمن.

هذه القصص كلُّها تؤكد أسماء الله الحسنى، سيدنا يونس؛ لا أعتقد أنه مهما ضاقت الأمور بأحد في الدنيا، لا أعتقد أنَّ هناك مصيبة على وجه الأرض تفوق أن يكون المرء في ظلمة بطن الحوت، مع ظلمة البحر، مع ظلمة الليل، أجل في ظلمة بطن الحوت، فإذا فتح الحوت فمه جمع أربعة أطنان من السمك كوجبة عشاء معتدلة، ورضعته الواحدة لوليده ثلاث مئة كيلوغرام من الحليب، فثلاث رضعات تساوي ألف كيلوغرام تقريباً، كلَّ يوم يحتاج إلى طن حليب، والحوت تقريباً وزنه مئة وخمسون

طناً، فجوفه غرفة، وسيدنا يونس نبي عظيم، فجأة وجد نفسه في ظلمة بطن الحوت وفي ظلمة الليل، وفي ظلمة البحر.

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٧].

يا ترى، هل في بطن الحوت جهاز فاكس أو جهاز تلكس أو هاتف محمول أو جهاز إشارة أو ما يشبه ذلك؟ ليس في بطنه شيء من هذا، إلا أنه نادى في الظلمات: أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٨].

ألا ترتاح نفسك إلى هذه القصة؛ التي خُتِمت ببشارةٍ لكلِّ مؤمن: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ ففي أيِّ عصر، وأيِّ زمان، وفي أيِّ مصر، وفي أيِّ ظرف مهما يكن شديداً، الله مهيمن، أنت كن مع المهيمن، وارتح مطمئناً إلى سلامة المصير.

انظر إلى الطفل الصغير وهو في حضن أمِّه لا يتكلم بشيءٍ إطلاقاً، الأب يجهد لتأمين الحاجات، ولتأمين الأدوات المدرسية، والابن مرتاح يريد الكرَّاسة الفلانية والفلانية والفلانية، يلقي الأمر بالطلبات المتلاحقة وهو مرتاح، والأب يتمزَّق لتأمين هذه الأغراض، فإذا كان الشخص مع المهيمن فهو مع من على كلِّ شيء قدير.

نعود إلى موضوع المهيمن، فإنَّ سيدنا زكريا لم يتكلم، وإنما: ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ ﴾ [مريم:٣].

جرب، ابقَ صامتاً، واطلب من الله طلباً بصدق وبإخلاص، وليكن الطلب معقولاً من خيري الدنيا والآخرة، تجد أن الله استجاب لك، معنى هذا أنه سمعك وعلم سرَّك، فالقضية من الله لا تحتاج إلى رفع الصوت...

﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ ﴾ [مريم:٣].

نداؤه الخفي اخترق السَّبعَ الطباق، فاستجاب الله لسيدنا زكريا، لأن الله مهيمن.

في غزوة حنين، أصحاب النبي ﷺ الذين خاضوا معه بدراً وأُحداً والخندق والمشاهد الأخرى، خاض أصحاب رسول الله ﷺ هذه الغزوات وغيرها وهم ساكتون لم يتكلموا إطلاقاً، بل هي مناجاة داخلية وصلت إلى الله وعلم بها: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ﴾ [التوبة:٢٥].

قالوا في سرائرهم: لن نغلب اليوم من قِلَّة[١]، عشرة آلاف صحابي، ومعهم رسول الله، بعد أن فتحوا مكة، ودانت لهم الجزيرة من طرفها إلى طرفها الآخر ومع ذلك:

﴿ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [التوبة:٢٥].

الله المهيمن، علم إعجابكم بأنفسكم فألقى في قلوبكم الخوف، وقلوبكم في يدي الله، إما أن يملأها خوفاً، وإمّا أن يملأها طمأنينة.

ففي مسلم والمسند من حديث ابن عمر: «إنَّ قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرِّفه حيث شاء»، الله مهيمن.

الأمر كلُّه بيد الله، سيدنا رسول الله في غار ثور، وهو في طريق الهجرة إلى المدينة وسيدنا الصديق إلى جانبه، قال: يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى موطئ قدمه لرآنا، فقال: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟! [متفق عليه من حديث أبي بكر الصديق].

(١) قال ابن إسحاق: وزعم بعض الناس أن رجلاً من بني بكر قالها - يعني: «لن نغلب اليوم من قلة» وفي مسند أحمد بسند حسن من حديث صهيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال -في يوم حنين-: إن نبياً فيمن كان قبلكم أعجبته كثرة أمته فقال: لن يروم هؤلاء شيء... الحديث.

الله مهيمن، يحفظ أعظم شيء بأتفه سبب، الله مهيمن، وأحياناً يُهلِك إنساناً بأتفه سبب، يحفظه بأتفه سبب، ليظهر لك كمال قدرته عز وجل.

في غزوة الأحزاب، الجزيرة العربية كلُّها اجتمعت على حرب محمد ﷺ، واليهود خانوا عهده معه، وانكشف ظهره، وبقي للإسلام ساعات، بقي الإسلام قضية زمن، إلى أن قال أحدهم: أيعدنا صاحبكم أن تفتح علينا بلاد قيصر وكسرى، وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته، الله عز وجل أرسل رياحاً عاتية أطفأت نارهم، واقتلعت خيامهم، وقلبت قدورهم، وكفى الله المؤمنين القتال، الله مهيمن، كلُّ شيء بيده، الرياح بيده، وصدق الله العظيم: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١].

منخفض جوي يمنع الرؤية بيده، رياح عاتية تعطِّل حركة الآليات بيده، القلوب بيده، يلقي فيها الخوف أو الثَّبات، كلُّ شيء بيده، باخرة من أضخم البواخر في العالم بُنيت سنة ألف وتسع مئة واثنتي عشرة، وقد بنيت طبقتين فلو ثُقبت طبقة فالجدار الآخر يبقى سالماً ويمنع غرقها، بنيت بلا زوارق نجاة ثقةً بأنها لن تغرق. طُبِعَت نشرة تُعرِّف بهذه الباخرة الجبارة الفاخرة، وكُتب في هذه النشرة: إنَّ القدر لا يستطيع إغراق هذه الباخرة، إنّها من أفخر البواخر في العالم، قيل: فيها من الأثاث ومن الثريات ومن الفضيّات ما لا سبيل إلى وصفه، المطاعم والصالات والأبهاء والغرف والمسابح... فهي مدينة عائمة، وفي أول رحلة من رحلاتها ركب فيها أغنى أثرياء أوروبا، ويقال: إنّ حليَّ النساء تُقدَّر بمئات الملايين، وفي عرض البحر ارتطمت بجبل ثلجي فشقَّها شطرين، وأرسلت إشارات الاستغاثة فظنّ كلُّ من حولها من البواخر أنَّ هذه الإشارات تعبير عن احتفالات تدشين السفينة وغرق جميع ركابها، وقبل سنة كما أذكر قرأت بحثاً في «مجلة العربي» عثروا على مكانها، ورأيت صوراً لها في قاع البحر، هذه الباخرة تدعى «التيتانيك»، قال وقتها أحد القساوسة: هذا درس السماء إلى الأرض.

قبل سنوات، دولة متقدمة جداً ممن يقول أهلها: مَنْ أشدُّ منّا قوة؟ صنعوا مركبة فضائية، ومن المقرَّر أن تبقى في الفضاء سنة تقريباً، سبعة روّاد فضاء مع امرأة، والخطَّة أن تحمل هذه المرأة في الفضاء من أحد الرواد، وأن تبقى في الفضاء تسعة أشهر، وأن تلد في الفضاء، ومعهم طبيب مُوَلِّد في المركبة، ليكون أول مولود يولد في الفضاء، وسمُّوا هذه المركبة: شالنجر، أي: المتحدي، بعد سبعين ثانية من إطلاقها أصبحت كرة من اللهب، من المهيمن؟ ألم يقوموا بالعد التنازلي؟ ألم يضبطوا الأجهزة جهازاً جهازاً؟ أين المهيمن؟ الله سبحانه وتعالى، كن مع المهيمن واسترح.

حدثني صديق لي أنه زار بستاناً في أحد أطراف دمشق؛ والبستان مؤلَّف من قطعتين لأخوين شقيقين، وكان قمح الأخ الأول نامياً نمواً عجيباً، وقمح الآخر نموه ضئيل جداً، وهذا الصديق مؤمن يعرف الله عز وجل، فجاء للأول واستحلفه، لماذا بستانك هكذا زرعه نام نمواً عجيباً؟ قال: والله أعتني به كما يعتني أخي ببستانه، بل إن الذي يقوم على البستانين مُرابع واحد، إذاً فما السر؟ قال: لي أخ آخر متوفى، وله أولاد أيتام، ونويت في سرّي أن أعطي أولاد أخي الأيتام نصف غلَّة هذا البستان، أما الثاني منهما فهو على عكس الأول، هذه القصة تؤكد أن الله علم نية هذا البستاني فضاعف له غلته[1]، وعلم نية الآخر فأنقصها إذاً المهيمن يعلم ويفعل.

---

(١) في مسلم والمسند من حديث أبي هريرة... بينما رجل بفلاة من الأرض فسمع صوتاً في سحابة يقول: اسقِ حديقة فلان، فتنحى ذلك السحاب، فأفرغ ماءه في حرة، فإذا شرجة من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله فتتبع الماء، فإذا رجل قائم في حديقته يحول الماء بمسحاته، فقال له: يا عبدالله ما اسمك؟ قال: فلان، بالاسم الذي سمع في السحابة فقال له: يا عبدالله! لِمَ تسألني عن اسمي؟ قال: إني سمعت صوتاً في السحاب الذي هذا ماؤه يقول: اسقِ حديقة فلان لاسمك، فما تصنع فيها؟ قال: أما إذا قلت هذا فإني أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدق بثلثه، وآكل وعيالي ثلثاً، وأرد فيها ثلثاً.

وكذلك صديق آخر حدثني عن مجموعة مزارع في أطراف دمشق، وهنالك بعض الرعاة الذين عندهم قطعان غنم يأتون بها لهذه المزارع لتشرب، فيطرد أصحاب المزارع، كل راعٍ يأتيهم مع غنمه، من هذه المزارع، مزرعة واحدة تستقبل أيَّ راعٍ، وتسقي الغنم بنفْس طيبة، أقسم لي رجل في هذه المنطقة أن سبع مزارع جفَّت آبارها إلّا هذا البئر حصراً، والعائد لهذه المزرعة، ولم يكتفِ بأنه سمح للرعاة، بل بنى أحواضاً كي ترتاح الغنم في أثناء شربها، لقد اشترى أحواضاً إكراماً لها، الله مهيمن: النبع بيده، والمركبة الفضائية شالنجر بيده، و«تيتانيك» السفينة الضخمة بيده، والسحاب بيده، والبواخر بيده، والحوت بيده، كلُّ شيء بيده، فأحياناً قد يكون الإنسان حائراً تائهاً في مكان ناءٍ، فيخرج عليه ثعبان، وهذا الإنسان مؤمن على الأعم الأغلب فتجد الثعبان واقفاً ولا يتحرك نحوه، بل يتسلل بعيداً عنه، وأحياناً تجد كلباً عقوراً جائعاً حائراً من شدة الجوع قضى أياماً عديدة في بؤسه وجوعه، فإذا واجه إنساناً تقياً يقف ساكناً كأن لم يرَ شيئاً، روى الحاكم والبزار بسند صحيح عن سفينة مولى رسول الله ﷺ قال: ركبت البحر فانكسرت سفينتي، فركبت لوحاً فطرحني اللوح في أجمة فيها الأسد، فأقبل إليّ يريدني، فقلت: يا أبا الحارث أنا سفينة مولى رسول الله ﷺ فطأطأ رأسه، وأقبل إليَّ فدفعني بمنكبه حتى أخرجني من الأجمة ووضعني على الطريق، مفظننت أنه يودعني. فمن المهيمن؟ الله عز وجل.

الله عز وجل يقول: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الزمر:٦٢].

إذاً لله هيمنة، وهو المسيطر،كلُّ شيء خلقه اللهُ مسيطِرٌ عليه، وما خلق شيئاً وتركه هملاً، لذلك: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الزمر:٦٢].

الحريق شأنه مخيف، ومداهمته عمياء، فقد ينشب حريقٌ في بعض أسواق المدينة ويأكل الأخضر واليابس في معظم الحوانيت إلا حانوتاً واحداً، تلتفُّ النار حوله ولا تحرقه... الله المهيمن وبيده النار.

قبل خمسين عاماً زحف جراد على هذه البلدة فأكَلَ الأخضر واليابس، أخبرني رجلٌ؛ توفي رحمه الله، كان مكلَّفاً بضبط هذا الأمر ومراقبة أصحاب البساتين في مقاومة الجراد، قال: رأينا الأشجار بلا قشر، الجراد أكل أوراقها وثمارها وقشرها الخارجي، ولكننا فوجئنا ببستان كأنه روضة من رياض الجنان، دخلنا إليه وطلبنا صاحبه، فقلنا: ما الذي نرى من أمر بستانك؟ فقال: أنا أستعمل دواء، فامتلأنا غضباً وغيظاً منه، أعندك دواء وتمنعه عن المسلمين، قال: نعم يا سيدي، فهذا الدواء لا يستعملونه، هو الزكاة، وأنا أزكي عن غلال هذا البستان، في كل موسم من مواسم العام.

هذه مشاهدات من واقع الناس وحياتهم، آلاف بل ملايين، وكلُّ شيء بيد الله عز وجل، فالحكمة أن تعرف الله وأن تعرف أنه هو المهيمن، إذا عرفته مهيمناً انقطعت آمالك ممن سواه، لا تتوسَّل إلى غيره، أنت فيما بينك وبينه في منتهى الخضوع، في منتهى التذلل، في منتهى الافتقار، إذاً أنت في جانبك الأمن كله.

أما حالك مع الناس فأنت عزيز، إذا لم تعرفه مهيمناً، وظننت بأن زيداً مهيمن، تصبح أمام زيد كالطفل الصغير، تبالغ في التذلل له، ويبالغ في إهانتك، وتبالغ في الخضوع له، ويبالغ في إهدار كرامتك لذلك [كما قرأ فرقد السبخي في التوراة]: «من جلس إلى غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه».

وهذه الفقرة الثالثة في بحثنا، ففي الفقرة الأولى التعاريف النظرية لاسم المهيمن، كمال العلم وكمال القدرة والاستمرار، وهيمنةُ الله هيمنةُ حبٍّ وشفقة ورحمة، وهيمنة حفاظ، وهيمنة تصديق، وكانت الفقرة الثانية قد تناولت التعاريف الفرعية، ثلاث فقرات بالتعريف الأساسي، وثلاث إضاءات فرعية على هذا التعريف، هذا القسم النظري، والقسم العملي والشواهد، وهو موضوع الفقرة الثالثة:

أخ كريم أصيب قلبه بآفة، والأطباء هنا في دمشق أجمعوا على أنه لا بد له من إجراء عملية في بلد أجنبي، ذهب إلى هناك، وبينما هو مستلقٍ على سرير الفحص،

اغرورقت عيناه بالدموع وقال: يا رب! هذا القلب من صنعك، وأتمنى ألا يُفتح وبكى، فأجري الفحص الأول، وتتابعت الفحوص، وكانت النتيجة أن الله شفاه بما يسميه الأطباء «شفاءً ذاتياً» الشرايين الفرعية التي كانت مسدودة من الذي قام بفتحها؟ يد من فتحتها؟ الله مهيمن على قلبك.

وهذه الكُلْية توقفت عن العمل، لماذا توقفت؟ من أوقفها؟ ومن حركها؟ الله مهيمن، تأكد أن الأعصاب والكليتين والقلب والرئتين والشرايين والمعدة والأمعاء والقنوات الدائرية والسمع والبصر واللسان كلُّ أعضائك بيد الله: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران:٢٦].

هذه الخلايا من الذي يمنعها من أن تنمو نمواً خبيثاً؟ الله عز وجل، ليس هنالك سبب واضح للسرطان حتى الآن، إنسان بأتمِّ قوته وبأتمِّ صحته وبأتمِّ نشاطه، غذاء منتظم، رياضة، حركة، وفجأة ينمو الخبيث في جهة ما بجسمه.

من المهيمن على هذه الخلايا؟ يمنعها من أن تنمو نمواً خبيثاً أو ألا تنمو، إنه الله عز وجل.

حتى الزوجة بيد الله عز وجل، الإمام الفضيل بن عياض يقول: «إني لأعصي الله فأعرف ذلك في خلق دابتي وجاريتي»، أياماً تجدها ملاكاً. سبحان الخالق، ملاكاً من السماء، وأياماً تفكر بهذه الساعة المشؤومة التي عرفتها بها، شأنها بيد الله عز وجل: يليِّن قلبَها أو يقسِّي قلبَها، يجعلها مطواعة، أو عنيدة بيد الله عز وجل.

حتى الأولاد: حالهم الشيء نفسه، وزبائنك ورؤساؤك في الدائرة، ومتبوعوك، ومركبتك إذا أثنيت عليها، وأثنيت على صانعها، ونسيت الله أثناء حديثك عنها، فإنها تتعطل، وتقطعك في الطريق، أمرها بيد الله عز وجل، أما الزلازل فالإنسان إزاءها مقيَّد مكبَّل، وأما الجراثيم فالنبي ﷺ قال: «لا عدوى» [متفق عليه من حديث أبي هريرة].

لكن هناك عدوى، ما معنى هذا الحديث؟ أي: إياك أن تعزو هذا الفعل إلى زيد أو عبيد، يجب أن يُعزى المرض إلى الله عز وجل، فإذا أذن الله لها فإن هذه الجراثيم تفعل فعلها، وإن لم يأذن فلا تفعل أبداً.

نصيب المؤمن من اسم الله المهيمن

المؤمن إذا أردناه أن ينتفع بهذا الاسم يجب أن يعرف أحوال نفسه، وأن يعرف نفسه حقيقة، هل هي مريضة؟ هل فيها انحراف، أو كِبْر، أو عُجْب، أو غرور، أو لديها رغبة في تجاوز حدودها، ورغبة الجموح والشرود؟ هل إيمانه بالله كافٍ أم غير كافٍ؟ يجب أن يعلم أحوال قلبه، أحوال نفسه، أن يعلم دخله أهو حلال أم حرام؟ وإنفاقه للمال، تعامله مع الآخرين، جوارحه مدى انضباطها، أحوالك مرضية عند الله أم غير مرضية، وهل أنت مستقيم أم غير مستقيم، وهل في علاقاتك انحراف؟ أعندك تقصير بالحقوق؟ يجب أن تعلم كلَّ ذلك، ولن تعلم إلا إذا حضرت مجالس العلم، لأنَّ «العلم بالتعلم، والحلم بالتحلم ومن يتحرَّ الخير يعطه، ومن يتوقَّ الشرَّ يوقه» [رواه الدارقطني في الأفراد بسند حسن من حديث أبي هريرة، والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي الدرداء].

هذه حرام، وهذه حلال، هذا يجوز أو لا يجوز، وهذه صفة مذمومة، وهذه صفة ممدوحة، فأنت من حضور مجالس العلم تعلم، فإذا تعلمت فقد حققت ثلث اسم المهيمن، ومن ثم يجب أن تسعى كي تطهِّر نفسك من آفاتها، والجوارح من المعاصي، تطهير القلب مما سوى الله، تطهير الفكر من عقائد زائغة، من خرافات، من أوهام، من خزعبلات، من حيل، من تزوير.

أجل أعود لأقول: ينبغي أن تطهِّر عقلك من كلِّ عقيدة زائغة، وتطهر جوارحك من كلِّ معصية، وعليك أن تطهِّر قلبك مما سوى الله، فهذا من تطبيق اسم المهيمن، أي: إن المرء راقبَ قلبَه وأشرف على أغواره وأسراره، واستولى على تقويم صفاته وهيئاته، وقام بمراقبتها على الدوام.

إذاً يجب أن تعلم أحوالك، يجب أن تقوّم أفعالك، يجب أن تثبت على هذه الاستقامة، أنت عاهدت الله عز وجل على العلم والإصلاح والثبات.

الأرقى من ذلك أن تَدعُوَ إلى الله، وأن تعلم أحوال إخوانك، وأن تسعى إلى تقويمهم ما استطعت، وأن تبقى على عهدك مع الله من خلال تعاملك معهم.

وأنْ تصلح نفسك، فهو من معاني قوله تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١ ﴾ [الأنفال:١].

وبعد، فأصلح نفسك، كيف تصلحها، إن لم تعرف أمراضها؟ إن لم تعرف انحرافاتها؟ إن لم تعرف تقصيرها؟ إن لم تعرف أدرانها؟ إن لم تعرف مشكلاتها؟ إن لم تعرف مخالفتها؟ المعرفةُ أساس في كلِّ سلوك أو عمل، إذاً فأنت تحتاج إلى علم كي تعرف، وإلى إرادة كي تُصَحِّح، وإلى صدق كي تستمر، إذا فعلت هذا فقد انتفعت من اسم المهيمن.

وبعدُ، ما دام الله يراقبك، فما موقفك أنت وهو الرقيب عليك، الحياء من الله، من تطبيقات اسم المهيمن أن تستحيي من الله، فالله يراقبك، ولتعلم أيضاً أن الله قوي، يجب أن تتوكل عليه، لا شريك له، ويجب أن تثق بالمستقبل، إذاً تفوِّض الأمر إلى الله عز وجل: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ۝١١ ﴾ [الرعد:١١].

ثلاثة تطبيقات هي: أن تعلم أحوال قلبك، وأحوال نفسك، وأحوال عقيدتك، فتصوراتُك وقِيَمُك يجب أن تصحّحها، لا بد من حضور مجالس العلم، أن تملك إرادة قوية كي تصلح اعوجاجك، كي تقيّم جوارحك على طاعة الله، وأن تتحلّى بالصدق حقاً كي تستمرَّ على هذا، علم وإرادة وصدق هذا أول تطبيق.

أما التطبيق الثاني: فما دام الله شهيداً عليك فيجب أن تستحي منه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء:١].

وما دام الله مسيطراً فيجب أن تتوكل عليه، إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله، وما دام الله واحداً ولا شريك له، وقد قال لك: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ [الرعد:١١].

إذاً يجب عليك أن تثق بالمستقبل، وتثق بالله عز وجل، وأنك ما دمت لم تُغَيِّر فلن يُغيِّر، وما دمت على طاعته قائماً فأنت من خير إلى خير، ومن درجة عليا إلى درجة أعلى، ومن منزلة إلى منزلة أسمى، ومن رقي إلى رقي أَرْضَى.

ومن تطبيقات اسم المهيمن أنّك إذا كنت في موقع قيادي، وأقلُّ موقع قيادي أن تكون أباً، إن كنت أباً فما فوق ذلك، إلى أن تكون على رأس أمَّة، فلن تكون مهيمناً هيمنة حبٍّ وشفقة إلا إذا كانت معك المعلومات الكاملة، من صديق ابنك؟ لماذا تأخر البارحة؟ أين كان في هذه الساعة؟ إن لم تملك المعلومات فلن تستطيع أن تسيطر عليه، وإذا قلتُ: سيطرة فإنّي أعني بها سيطرة الحبِّ والشفقة، لا سيطرةَ القوَّة والاستعلاء.

المعلومات الصحيحة أساس القرار الصحيح، وأيُّ قرار خاطئ فهو مستند إلى معلومات غير صحيحة، فلذلك لن تستطيع أن تحكم قيادة هذه الإنسان إلا إذا كانت المعلومات عنه صحيحة، يسمونها الآن تقصّي الحقائق، قبل أن يُتَّخذ قرار، تُرسَل لجان إلى موقع المشكلة لتقصّي الحقائق، عوِّد نفسك أن تتقصى الحقائق.

﴿ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [النمل:٢٧].

هذه صفة يحتاجها أولياء الأمور، يحتاجها أيُّ إنسان في أيِّ موقع قيادي، والأب في موقع قياديّ، والمعلِّم في موقع قياديٍّ، لا بدَّ من معلومات صحيحة، أمّا الإنسان الذي تجري من تحته المياه وهو لا يدري، فلن يكون مهيمناً على أسرته.

وإذا كنت في موقع قياديٍّ فيقتضي ذلك المتابعة، أعطيت أمرًا، إن لم تتابع هذا الأمر فلا قيمة له، ففي الدُّول النامية أوامر لا تُعدُّ ولا تُحصى، وكلُّها لا تنفَّذ ولا تُتابع.

إن لم تكن أعلم ممن حولك فلن تهيمن، فطبيب من الدرجة العاشرة لن يستطيع أن يدير مستشفى فيها عمالقة من الأطباء، لأنه أقلّ علماً منهم، قال الله عز وجل: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾ [النساء:٣٤].

لأنك أعلم من زوجتك، لأنك أتقى منها، لأنك أبعد نظراً منها تهيمن. فهذه قوامة تكليف لا تشريف.

والهيمنة قدرة فإن لم تملك خطة عمليّة لحلِّ مشكلة في جزئياتها فلن تكون مهيمناً.

وإن لم تملك لمن تديره أن تحقِّق طموحاته فلن تكون مهيمناً، فالأب الذي لا يعمل، أو عملُه قليل، ودخله قليل جداً، وكلُّ طموحات أولاده ليست عنده، قد ينصرف عنه الأبناء إلى غيره، إلى أصدقائهم الأغنياء، أمّا إذا كنت تعمل، ولك دخل معقول جيِّد تحقِّق به طموحات أولادك فتبقى مسيطراً عليهم، فالعمل في بعض معانيه عبادة.

حينما تعمل، ولك دخل معقول تحقِّق به حاجاتِ مَن حولك مِن زوجة وأولاد، عندئذٍ تملك أسباب السيطرة عليهم، وأنا لا أتحدث هنا إلا عن فقر الكسل، ففقر القَدَر صاحبه معذور، وفقر الإنفاق صاحبه مشكور، أمَّا فقر الكسل فمذموم صاحبُه.

وإن لم تكن العلاقة بينك وبين من تديره علاقة حب وشفقة فلن تهيمن.

فالمهيمن إذا كان كاملاً، وقلده مَن هيمن عليهم تقليداً صحيحاً فله أجره وأجر مَن قلَّده، في المقابل إن لم يكن المهيمن ملتزماً، كان يدَّخن مثلاً، وقلّده مَن حوله فعليه وزره ووزر الذي قلّده.

سيدنا عمر كان إذا أراد إنفاذ أمر جمع أهله وخاصته، وقال: إني قد أمرت الناس بكذا، ونهيتهم عن كذا، والناس كالطير، إن رأوكم وقعتم وقعوا، وايم الله، لا أوتينّ بواحد وقع فيما نهيت الناس عنه إلا ضاعفت له العقوبة لمكانه مني، فصارت القرابة من عمر مصيبة. ويقول تعالى مخاطباً نساء النّبيّ وهنّ في موضع هيمنة وقوّة: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [النساء:٣٢].

وفي المقابل: ﴿ ۞ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ ﴾ [الأحزاب:٣١].

هذا اسم المهيمن أرجو الله سبحانه وتعالى أن أكون قد وُفِّقت إلى توضيح تعريفاته وتطبيقاته وشواهده، كما أرجو أن ينفعك الله بها أيها القارئ فهماً وعملاً.

الجبّار

اسم الجبَّار ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحشر:٢٣].

وقد ورد في السنة، ففي صحيح مسلم عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ: «يَأْخُذُ الْجَبَّارُ سَمَاوَاتِهِ وَأَرْضَهُ بِيَدِهِ، وَقَبَضَ بِيَدِهِ، فَجَعَلَ يَقْبِضُهَا وَيَبْسُطُهَا، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْجَبَّارُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟...»

تتداخل أحياناً صفات الإنسان مع صفات الخالق، فلا بد من التوضيح بأن هناك صفات إذا نُسبت للخالق فهي صفات كمال، أما إذا نُسبت إلى المخلوق فهي صفات نقص، فإذا وصفنا إنساناً بأنه جبَّار فهذه صفة نقص فيه، لأنَّ وجود الإنسان مستعار، وهو مستمدٌّ من الله عز وجل، خُلق الإنسان ضعيفاً، خُلق الإنسان عجولاً، خُلق الإنسان هلوعاً، هذا الإنسان الذي يوصف بأنَّه جبَّار هل بإمكانه أن يضمن استمرار حياته ثانية واحدة؟ عشرات الأشخاص كلَّ يوم يموتون بسبب وبلا سبب، ومع تقدُّم

العلم يقول الطبيب: سكتة دماغية، أو سكتة قلبية، أو هبوط مفاجئ في وظائف الكليتين، أو تشمُّع في الكبد، ونحن بين أظهرنا أشخاص كثيرون، كانت لهم آمال عريضة جداً، كلُّ هذه الآمال تبدَّدت؛ لأنَّ خللاً طفيفاً جداً أصاب أجهزتهم.

شابٌّ كان في السّنة الرابعة في كليَّة الطِّبِّ، وكان من أذكى الطلاب، ومن أصحِّهم جسماً، ومن ألينهم عوداً، يتمتَّع بصفات في شبابه نادرة، ومن أسرة ميسورة، فجأة شعر بوهن في جسمه، وبضعف في قواه، وبدا اصفرار في وجهه، الطبيب الأول قال: هناك فقر في الدم، وكذلك أكد الطبيب الثاني، بأن هناك فقراً في الدم ليس لهذا الفقر أسباب، شاب في ريعان الشباب، من أسرة ميسورة، أي فقر دم هذا؟ ثم اكتشف في النهاية، أن في طحاله نشاطاً زائداً.

الطّحال مستودع للدم، ومعمل احتياطي لكريات الدم، ومقبرة لكريات الدم الميتة، ففي الثانية الواحدة يموت في جسم الإنسان مليونان ونصف كرية دم، هذه الكريات التي ماتت تذهب إلى الطحال، وفي الطحال، وبطريقة اقتصادية، تهدم هذه الكريات، وتعاد إلى أصول تكوينها: حديد، وهيموغلوبين، الحديد يرسل ثانية إلى معامل كريات الدم الحمراء، في نقي العظام، ليعاد تصنيعه، والهيموغلوبين يذهب إلى الكبد ليشكِّل الصفراء، أُخذت خزعة من طحال هذا الشاب وأُرسلت إلى بلد غربيٍّ متقدِّم، فكان الجواب أنَّ الطّحال يقوم بنشاط زائد يأخذ الكرية الحمراء الميتة ويحللها، ويأخذ الكرية الحية ويميتها ويحللها، فأصبح هناك نقص مستمر في كريات الدم الحمراء، وانتهى أجله، ومات في ريعان الشباب، فإذا قال أحدهم جهلاً وكبراً: أنا! فإننا نقول له: من أنت؟! فالطّحال لأنه عمل بنشاط أكبر، كان سبباً في إنهاء حياة الإنسان.

شخص آخر أصيب بمرض نادر؛ فقر دم لا مُصَنَّع، أي: إنّ معامل كريات الدم الحمراء تكفُّ ذاتياً عن صنع هذه الكريات، وهذا المرض العضال مجهول الأسباب، ويعدُّ سبباً في إنهاء حياة الإنسان، وهناك الهبوط المفاجئ في وظائف الكليتين، وهو مرض عُضال يجعل حياة الإنسان جحيماً لا يطاق، وهناك التشمُّع في الكبد... فالإنسان

لا تستمرُّ حياته بلا كبد أكثر من ثلاث ساعات، وهناك نقطة دم تتجمَّد في بعض شرايين المخ، في مكان ما يصاب الإنسان بالصمم، في مكان آخر يصاب الإنسان بالعمى، في مكان ثالث يُصاب بفقد الذاكرة، في مكان رابع يصاب بالشلل، فهذا الذي يقول كبراً: أنا... هو أحمق، لمجرد أن يقول: أنا، فإذا وُصف الإنسان بأنه جبَّار، فهذه صفة ذمٍّ في الإنسان، لأنَّ وجود الإنسان مفتقر إلى إمداد الله عز وجل، ووجود الإنسان تابع لمشيئة الله، قوة الإنسان تابعة لمشيئة الله، محاكمة الإنسان تابعة لمشيئة الله، عقل الإنسان تابع لمشيئة الله، فإذا قلنا: فلان جبَّار فإننا نصفه بالحمق، لأنّه يدَّعي ما ليس له، يدَّعي حجماً ليس له، يدَّعي قوة ليست قوَّته، أمَّا إذا وصفنا خالق الكون الواحد الأحد، الفرد الصمد، الحيَّ القيُّومَ، الذي لا رادَّ لحكمه، إذا وصفنا خالقَ الكون بأنّه جبَّار فهذه صفة مدح، وصفة تنزيه من جهة، وصفة من صفات الذَّات لله عز وجل.

ويقاس على ذلك... إذا قلنا: فلان متكبِّر، فهذه صفة ذم، أما إذا قلنا: الله عز وجل متكبر، فهذه صفة مدح، الإنسان إذا تكبَّر فإنَّه يتكبَّر بغير حقٍّ، أمَّا ربُّنا عز وجل فمتكبِّرٌ لأنَّه كبير فعلاً، لأنه عظيم، لأنه قويٌّ، لأنه خالق، لأنه ربٌّ، لأنه مسيِّر.

أردت من هذه المقدمة أن يتقبل القارئُ فكرة أن يتِّصف إنسان بصفة، فَنَعُدُّها ذمَّاً، وأن يوصف خالق الكون بهذه الصفة، فنعدُّها مدحاً.

نحن في حياتنا عندنا شيء من هذا القبيل، يوصف الرجل بأنه كريم مدحاً، وتوصف المرأة بأنها كريمة ذماً، لأن المرأة إذا بذلت من مال زوجها دون إذنه، وأتلفت ماله... هذه ليست صفة مدح في المرأة، إنها صفة ذمّ، نَصِفُ إنساناً أحياناً بالجرأة، وهو في موقع، وقد تكون هذه الجرأة في موقع آخر تهوُّراً وحمقاً.

من معاني اسم الله الجبار

الجبَّار صيغة مبالغة مِن الجابر، والجابر هو الموصوف بالجبر، والجبر من جبر، يجبر، والجبر إصلاح الشيء بالقهر.

واسم الجبَّار له معانٍ عدة:

المعنى الأول: الجبَّار هو العالي الذي لا يُنال، نقول: نخلة جبَّارة لارتفاعها، فلا نستطيع قطف ثمرها، نقول: ناقة جبَّارة يصعب أن نركبها، والله سبحانه وتعالى يقول في قرآنه الكريم: ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المائدة:٢٢].

أي: أقوياء أشدَّاء، لا يرحمون ولا يلينون.

أمّا إذا قلنا: فلان جبَّار، أيّ: إنّه إنسان لا يتواضع، متعاظِم، متكبِّر، لا ينقاد إلى أحد، ولكن تأكّدوا أن هذا الذي يصف نفسه بأنه جبَّار، أو يتصرف على أنه جبَّار، أي: متعاظم متكبر، لا ينقاد إلى أحد، لا يخضع لأحد، لا يتواضع أبداً، مثل هذا الإنسان، لا بد أن يقصمه الله عز وجل قصماً، لذلك ترون وتسمعون في كلِّ زمان وفي كلِّ مكان عن جبَّار من جبابرة الأرض قصمه الله عز وجل، وجعله عبرة لمن يعتبر، لأنَّ الكبرياء والعظمة من صفات الله عز وجل، فإذا جاء مخلوق حادث ضعيف، ونازع الله هذه الصفات، قصمه الله عز وجل[1]. قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴿٣٥﴾ ﴾ [غافر:٣٥].

الجبَّار هو الله عز وجل لأنه لا تناله الأفكار، ولا تحيط به الأبصار، ولا يصل إلى كنهه عقول العقلاء، كلُّ من بحث في أسماء الله الحسنى إلى يوم القيامة، لا يستطيع أن يحيط بذات الله عز وجل، كلُّ ما كُتب لم يكن سوى عملية تبسيط، وعملية تقريب، وعملية توضيح، أمّا أن تستطيع أن تحيط بالله عز وجل فهذا شيء مستحيل، لذلك

---

(١) روى البخاري في الأدب المفرد والطبراني بسند صحيح من حديث فضالة بن عبيد أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لا تسأل عنهم: رجل ينازع الله إزاره ورجل ينازع الله رداءه فإن رداءه الكبرياء وإزاره العز، ورجل شك من أمر الله، والقنوط من رحمة الله».

الجبَّار هو الله عز وجل الذي لا تناله الأفكار، ولا تحيط به الأبصار، ولا يصل إلى كنهه عقول العقلاء.

لذلك من الجهل، والتَّنطُّع، والتطاول أن تظنَّ أنه بإمكانك أن تفهم كلَّ شيء عن الله، هذه فكرة مغلوطة، فعين العلم به عين الجهل به، وعين الجهل به عين العلم به، والعجز عن إدراك الإدراك إدراك، أي: إذا قلت: لا أعلم عن الله إلا في حدود ضيِّقة جداً فأنت عالم، هذه صفة علم فيك، إذا قلت: لا أعلم فأنت العالم، أما إذا أردت أن تقنع الناس ببساطة أنه بإمكانك أن تعرف كلَّ شيء فهذا دليل عجز، **هذا المعنى الأول** من معاني اسم الجبَّار الإله العظيم التي لا تناله الأفكار، ولا تحيط به الأبصار، ولا يصل إلى كنهه عقول العقلاء، وهو من صفات التنزيه.

﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ [الرعد:٤١].

أحياناً يصدر حكم من محكمة الصلح الأولى، الذي حُكم عليه يَستأنف، فيصدر حكم من محكمة الاستئناف، الذي حُكم عليه يستأنف، في محكمة النّقض، أمّا الله تعالى فلا غالب لأمره.

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف:٢١].

فإذا كنت مع الجبَّار، فأنت القوي، المستقبل لك، إذا كنت مع الجبَّار فأنت المنتصِر، إذا كنت مع الجبَّار تدور الأيام، ولا تستقر إلا على رفعة شأنك، لأنَّ مشيئة الله نافذة في كلِّ خلقه، ولا تنفذ فيه مشيئة أحد، يُجبر كلَّ أحد، ولا يُجبره أحد.

والجبَّار هو الجبروت، كمالك الملك والملكوت، يقول ﷺ: «سبحان ذي الجبروت والملكوت، والكبرياء، والعظمة» [أخرجه أبو داود والنسائي عن وف بن مالك].

واسم الجبار من أسماء التعظيم، ففي الحديث الشريف: «الكبْرِياءُ ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدا منهما قذَفْتُهُ في النار» [أخرجه مسلم وأبو داود عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة].

المعنى الثاني: مستمدٌّ من القول المشهور: ما عُبِدَ الله في الأرض بأفضل من جبر الخواطر، تقول: جبرت العظم: أصلحته، المجبِّر: هو الذي يجبر العظم، الجبَّار بهذا المعنى هو: المصلح للأمور، كلما حصلت مشكلة، فإذا ما تهدَّم شيء، أو افتقر إنسان، أو تضعضع إنسان، خالق الكون، رب العالمين، هو الجبَّار يرأب الصدع، ويلمُّ الشّمل، ويغني الفقير، ويجبر الكسير، ويعطي المحروم، ويرفع الذليل، لذلك كلما جئت الله عز وجل خاضعاً منكسراً جبر كسرك، ولمَّ شعثك، ورأب صدعك، وأغنى فقرك، ورفع شأنك، هذا معنى آخر للجبَّار: المصلِح.

المصلِح للأمور، تقول: جبرت الكسر إذا أصلحته، وجبرت الفقير إذا أنعشته فهو جابر، أما الجبَّار فهو كثير الجبر نوعاً وكماً، تقول مثلاً: جبَّار، لإنسان أعطى مئة رجل فقير، لم تقل له: جابر بل: جبَّار؛ لأن عطاءه شمل مئة إنسان، أما إذا أعطى إنساناً واحداً عطاءً كبيراً فهو أيضاً: جبَّار، فالمبالغة مبالغة عدد أو نوع، على كلٍّ الجبَّار هو المصلِح إنْ جبر الفقير أغناه، وإن جبر المريض شفاه، وإن جبر الذليل أعزَّه، وإن جبر الضعيف قوَّاه، وإن جبر الخائف أمَّنه، فالجابر هو المصلح والجبَّار كثير الإصلاح؛ كمّاً ونوعاً، هذا هو المعنى الثاني.

إذاً قل: يا جبَّار، يقول التُّجار: يا جبَّار! لأن بيع البضاعة عند التاجر جبر، وربنا عز وجل ما ذكر من صفات التجارة إلا صفة واحدة فقال: ﴿ وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ﴾ [التوبة:٢٤].

ما من منظر يتفتّت له قلب التاجر كأن يرى بضاعته مكدَّسةً في المستودع، ولا أحد يسأله عنها، لذلك... الله عز وجل عندما ذكر التجارة ذكر الشيء المؤلم عند التاجر، إذاً يا جبَّار! أي: يا رب اجعل هذه البضاعة نافقة، وحبب الناس بها، واجعلهم يقبلون عليها.

«يا جابر كلِّ كسير».

فالحزانى في كنف الله، والحزانى معرضون للرحمة، وفي الحديث:(إن الله يحب كلَّ قلب حزين) . [رواه الطبراني والحاكم عن أبي الدرداء]

أي إذا كان المرء في خصومة، وكان قوياً، واستعمل قوَّته في الظلم، فليس رابحاً، وليس منتصراً، لأن هناك جبَّاراً أعلى سوف يقصمه، وفي الحديث: (بئس العبد عبد تخيل واختال، ونسي الكبير المتعال، بئس العبد عبد تجبر واعتدى، نسي الجبَّار الأعلى، بئس العبد عبد سها ولها، ونسي المقابر والبلى، بئس العبد عبد عتا وطغى، ونسي المبتدأ والمنتهى).
[رواه الترمذي عن أسماء بنت عميس الخثعمية]

أما إذا كان هذا المرء هو الجانب الأضعف فالجبَّار سيرحمه.

الجبَّار الذي يقصم الظالم، والجبَّار الذي يرحم المظلوم، فإذا كنت الجانب الأضعف كان الله معك، الله مع الضعيف، والله هو الجبَّار، سيجبر كسر الضعيف، وهو الجبَّار سيقصم الظالم.

زوجان تخاصما، أحدهما تجاوز حدوده، هنيئاً لمن كان الأضعف، هنيئاً لمن كان مظلوماً، لأنَّ الله مع المظلوم في الزواج، وفي الشراكة، وفي أيِّ تعامل.

أب غني... ترك إرثاً كبيراً، وترك أولاداً... وأحد أولاده كبير قويٌّ، والآخرون صغار ضعفاء، الكبير استطاع بذكاء، أو بحيلة، أن يأخذ معظم الثروة له، وأن يخصَّ إخوته الصغار بشيء قليل، لا يسمن ولا يغني من جوع، الله جبَّار، يصلح الأمور ويقصم الجبابرة، فما زال أحد إخوته الصغار يوفقه الله عز وجل، ويمده، وما زال الله عز وجل يضعف الكبير، ويفقره، ويسدُّ الطرق في وجهه إلى أن اضطر الكبير أن يبيع الصغير كلَّ ما أخذه من أبيه غصباً، ثم اضطرُّ الكبير أن يعمل عند الصغير محاسباً ومثل هذه القصص كثيرة جداً.

الجبَّار يقصم الظالم، والجبَّار يرحم المظلوم، فالله جبَّار على الظالمين، جبَّار للمظلومين، جبَّار على الأقوياء، جبَّار للضعفاء، جبَّار على المتكبِّرين، جبَّار للمتذللين.

فالجبَّار المصلِح لكلِّ الأمور، المظهِر لدين الحقِّ، الميسِّر لكل عسير، الجابر لكل كسير، وهذه صفة من صفة أفعال الله عز وجل، إنَّها صفة فعل.

المعنى الثالث: الجبَّار بمعنى أنَّه جبره على كذا، أي: أكرهه على ما أراد، بمعنى أجبره، الله عز وجل جبَّار، أي: مشيئته هي النافذة، أنت تريد، وأنا أريد، والله يفعل ما يريد، فرعون قال: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النازعات:٢٤]، ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص:٣٨]، رأى في المنام أن طفلاً من بني إسرائيل سوف يقضي على ملكه، فبدل أن يتوب إلى الله عز وجل، وأن يعود عن غيِّه، وعن ظلمه، وعن كِبره، وعن ادعائه، خطر في باله أن يقتل كلَّ أبناء بني إسرائيل، وهكذا فعل، لا تستطيع قابلة في عصره أن تخفي عن رجاله مولوداً ذكراً وُلد لبني إسرائيل، فإذا أخفت ذلك قتلت هي مكانه... يذبِّح أبناءهم.

أما هذا الذي سيقضي على ملكه؛ فقد ربَّاه في قصره، الله عز وجل الجبَّار قهره، وهو يغرق قال: ﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [يونس:٩٠].

إخوة يوسف أرادوا به كيداً، فجعلوه في غيابات الجب، أي: أرادوا أن يقتلوه، ما الذي حصل؟ دخلوا عليه وهو عزيز مصر قال: ﴿ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [يوسف:٩٠] ويقول الله عز وجل موضحاً مغزى هذه القصة: ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [يوسف:٢١]، هذه قصة ثانية.

إذاً الله جبَّار فقد أحبط مسعى إخوته الذين أرادوا أن يجعلوه في غيابة الجب، وأرادوا أن يقتلوه، ثم صار عزيز مصر، إذاً الله جبَّار.

قوم إبراهيم أرادوا أن يحرقوه، وأن ينتهوا منه، والأمر بيدهم، هم أقوياء، وجاؤوا بالنار، وأضرموها، وألقوا إبراهيم عليه السلام فيها، وكان من الممكن أن يتفلَّت من أيديهم، كان من الممكن ألاَّ يعثروا عليه، كان من الممكن أن تأتي أمطار غزيرة فتطفئ نارهم، كان من الممكن ألا يعرفوا من كسر هذه الأصنام، لكن أراد الله عز وجل أن يعرفوا أنّه كسرها، وهو فتى، وأوقدوا النيران، واشتعلت النيران، وألقوه في النار، الله جبَّار... قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء:٦٩-٧٠].

النبي ﷺ ائتمروا على قتله، قاطعوه، نكَّلوا بأصحابه، ثم دخل عليهم فاتحاً، وهم رهن إشارة منه، لو أعطى إشارة لقُتِلوا جميعاً قال: «ما تظنون أني فاعل بكم؟» فقالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم فقال: «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم»[1] الله جبَّار.

في غزوة الخندق ضاق الأمر على النبي وأصحابه إلى أن ظن بعض أصحاب النبي أن الأمر قد انتهى، وتكلم قوم بكلام قبيح فقال معتب بن قشير: يعدنا محمد كنوز قيصر وكسرى، وأحدنا لا يأمن أن يذهب إلى حاجته!! ما الذي حصل؟ هبَّت الرياح العاصفة، فقلبت قدورهم، واقتلعت خيامهم، وأطفأت نيرانهم، قال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب:٢٥].

---

(١) وفي المسند وسنن الترمذي: قال رجل لا يعرف: لا قريش بعد اليوم، فنادى منادي رسول الله ﷺ: أمن الأسود والأبيض إلا فلاناً وفلاناً ناساً سماهم، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل:١٢٦] فقال رسول الله: نصبر ولا نعاقب.

إذاً المعنى الأول من معاني الجبَّار: الشيء العالي الذي لا يدرك، فهو من أسماء التنزيه، أي: من المستحيل بأن تحيط بالله عز وجل، حتى الأنبياء لم يعرفوا الله المعرفة المطلقة، عرفوا جانباً من كمال الله عز وجل، عرفوا طرفاً من أسمائه، فلا يعرف الله إلا الله.

المعنى الثاني للجبَّار: المصلح، الضعيفَ يجبره، الكسيرَ يجبره، المظلومَ يجبره، الفقيرَ يجبره.

أما المعنى الثالث: فهو الذي يجبر جميع الخلق على مشيئته، وعلى إرادته.

والله لقد سمعت قصة مؤثرة: رجل معروف بالغنى الفاحش يعمل في تجارة ناجحة جداً، ورائجة جداً، ويحصل منها على أرباح طائلة، خطب ابنته شاب مهندس، أخلاقي، دخله دخل مهندس، رفضه لفقره، لكنَّ رفضه كان باستعلاء، وبكبر، وبغطرسة، هذه التجارة الرائجة، أساسها قانون، هذا القانون، أوقف العمل به، فجأة توقَّفت تجارته، فجأة أصبح تحت طائلة المطاليب، هذا التاجر الغنيُّ، تراجعت تجارته شيئاً فشيئاً إلى أن أصبح بحاجة إلى مصروف يومه، ثم توسَّط لدى بعضهم أن يقنع الشاب المهندس أن يطلب ابنته مرة ثانية، وتزوجها هذا المهندس، وقد وفقه الله عز وجل في عمله، ثم عمل العم عند صهره المهندس موظفاً، الله جبَّار.

الله الجبَّار، مع الضعيف المظلوم المقهور، ومع الكسير الحزين المستضعَف، الله عز وجل معه دائماً يؤيده، وينصره، ويوفِّقه، أقول أنا أعرف من هو المظلوم، ومن هو الظالم من مستقبل الشريكين، فالذي وفقه الله عز وجل هو المظلوم، والذي قصمه الله، هو الظالم في الأعمِّ الأغلب.

الزوجان؛ طُلِّقت امرأة من زوجها وهو يدَّعي أنها زوجة سيئة، وهي تدَّعي أنه زوج سيئ، في المستقبل إذا وُفِّقت بزوج صالح أكرمها ووُرِّط الزوج بزوجة سيئة أزعجته، معنى ذلك أنه كان ظالماً لها.

ويُروى --والقصة رمزيّة- أنَّ رجلاً كان جالساً مع زوجته يأكلان الدجاج، طرق الباب طارق، قامت الزوجة لتفتح الباب فكان بالباب رجل سائل، ورغبت

الزوجة أن تعطيه شيئاً من الطعام، فنهرها زوجها وقال: اطرديه، دارت الأيام وطُلِّقت هذه من زوجها، وخطبها إنسان ميسور الحال، وهما جالسان يأكلان هذا الطعام نفسه، ولحكمة بالغة طرق الباب، فانطلقت لتفتح الباب، فاضطربت، قال زوجها: من الطارق؟ قالت: سائل، قال: لماذا اضطربتِ، قالت: أتدري من السائل؟ إنه زوجي الأول، قال: أتدرين من أنا؟ أنا السائل الأول، الله هو الجبَّار.

وفي كلِّ زمان وفي كلِّ مكان وفي كلِّ عصر وفي كلِّ مصر تجري مثل هذه القصص، غني يفتقر، فقير يغتني، ضعيف يقوى، قويٌّ يضعُف، كم من إنسان كان في قبضة إنسان، يذيقه ألوان الإهانة والعذاب، فجأة وقع هذا القويُّ في قبضة المستضعَف، فالإنسان المؤمن لو أنّ الدنيا أقبلت عليه، فإنَّه لا يتكبر، ولا يتجبَّر، ولا يتعجرف.

والحقيقة؛ كما أن الله عز وجل يعطي المال بحجم كبير، فيدهش، ويأخذه دفعة واحدة، فيُدهش.

قصة وقعت منذ سبعين عاماً تقريباً، كان هناك طبيب نسائي جبَّار، لا يوجد في دمشق غيره، لا يخرج من العيادة إلا بليرة ذهب وعربة، لتنقله، لعدم وجود السيارات في زمنه، لا بد من دفع الليرة الذهبية ولو كانت المريضة فقيرة، ذكر لي بعضهم أنَّ بعض الناس يضطرون لبيع الفراش من تحت المريضة ليعطوه الليرة، ولادة عسِرة، وطبيب وحيد في البلد، ولا يخرج من بيته إلا بليرة ذهب وعربة.

بنى بناءً في أرقى أحياء دمشق، والبناء موجود الآن وهو من أندر الأبنية، بعد ما بناه أصيب بالفالج، تحمَّلته زوجته زمناً يسيراً ثم أمرت زوجته أن يوضع في قبو البناء، فوضعوه في القبو، وكانت تبعث له الطعام مع الخادمة، فيسألها عن زوجته فتقول له: قلت لها ولا أدري لم لا تحضر، وقد طلبها أول مرة، والثانية، والثالثة، وحينما تطلُّ عليه زوجته بعد طلبه الملحّ تُسمعه أقسى الكلمات، وتغيب عنه، بقي مشلولاً ثماني سنوات، ويقدَّم له الطعام عن طريق الخادمة، وبسبب من الرائحة الكريهة التي تفوح من القبو

أمرت زوجته أن ينقل إلى بيت بعيد ليبقى هذ البناء أنيقاً، وبعيداً عن رائحته الكريهة وعن صراخه، وهو الذي بنى هذا البناء وزيَّنه وزخرفه.

الله جبَّار، لم يكن هذا الطبيب يرحم المرأة الفقيرة، فيُباع الفراش من تحتها، ليأخذ الليرة الذهبية.

وكلُّ إنسان يتجبَّر، ويتحكَّم بالناس؛ بعلمه حيث يقول: لا يوجد غيري في هذا الاختصاص، أو بماله، أو بقوته، فليعلم أنَّ الله جبَّار.

والله جبَّار مع الضعيف ضدَّ القويِّ، مع المظلوم ضد الظالم، ومع الفقير ضد الغني الظالم، وليس كلُّ غنيٍّ بظالم.

فالله عز وجل جبَّار، هذا هو المعنى الثالث جبره على كذا، أي: أكرهه على ما أراد.

الجبَّار: هو الله عز وجل الذي أجبر الخلق على ما أراد وحملهم عليه، أرادوا أم لم يريدوا، أحبوا أم لم يحبوا، أي: لا يجري في ملكه إلا ما يريد، ولا يحصل في كونه إلا ما يشاء، ينفذ مشيئته على سبيل الإجبَّار، ولا تنفذ فيه مشيئة أحد، سبحان من تنزه عن الفحشاء، وسبحان من لا يجري في ملكه إلا ما يشاء.

بعضهم قال: «الجبَّار من لا يرقى إليه وَهْمٌ، ولا يشرف عليه فهمٌ، ولا يلحقه إدراك، ينفذ أمره في كلِّ شيء، ولا ينفذ فيه أمر شيء، من أصلح الأشياء بلا اعوجاج، وأمر بالطاعة بلا احتياج».

إلا أنَّ الجبَّار عند فئة الجبرية، وهي فئة عقيدتها فاسدة، له معنى غير صحيح ويناقض القرآن الكريم، هي تتصور أو تتوهم أن الله يجبر عباده على أفعالهم، وأنَّ الإنسان كريشة في مهب الريح.

هذه العقيدة تتناقض مع كمال الله، فكيف يجبر الله عبداً من عباده على معصية ثم يحاسبه عليها؟ هذه عقيدة أهل الشرك، قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ

أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام:١٤٨].

فلو ألغينا حرية الاختيار في الإنسان لألغينا الثواب والعقاب، ألغينا الجنة والنار، ألغينا حمل الأمانة، ألغينا التكليف، ألغينا كلَّ شيء، قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْۚ ﴾ [الكهف:٢٩].

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان:٣].

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِۚ ﴾ [البقرة:١٤٨].

أصل التكليف أنك مخير، يقول سيدنا الحسن رضي الله عنه (لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب، ولو تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة، إن الله أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلَّف يسيراً، ولم يكلِّف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً).

نصيب المؤمن من اسم الله الجبار

فبعد توضيح المعنى العميق للجبَّار هل للإنسان علاقة مع غير الله عز وجل، هل يوجد جهة غير الله عز وجل أهل لأن تسأل وأن تُخشى؟

قال أحد العلماء: «يا رب عجبت لمن يعرفك كيف يرجو أحداً غيرك، وعجبت لمن يعرفك كيف يستعين على أمر بأحد غيرك، وعجبت لمن يعرفك كيف يلتفت إلى أحد غيرك».

وإذا كان الإنسان جبَّاراً بالمعنى المذموم، لا بد من أن يقصمه الله عز وجل، لكن يمكن للإنسان أن يكون جبَّاراً من زاوية واحدة، فمن لم يكن أسيراً لحبِّ المال، والجاه، لأنَّ كلَّ إنسان يحب المال، يصبح حبُّ المال نقطة ضعف فيه، أصبح ضعيفاً، يقولون:

فلان مفتاحه المال، فلان تعظمه، يلين معك، هذا يحب الجاه، فكلُّ إنسان أسير للمال أو الجاه هذا إنسان ضعيف، فإذا تنزَّه الإنسان عن حبِّ المال، وحبِّ الجاه، أصبح جبَّاراً بالمعنى الذي يليق بالإنسان، لم يبقَ إنساناً ضعيفاً تستطيع أن تملك مفتاحه.

فالمؤمن مفتاحه الحقُّ لا يُوصل إليه لا بالمال ولا بالمديح، لا تصل إليه إلا بالحقِّ، فإذا كان هناك مؤمن أحبَّ أن يتخلَّق باسم الجبَّار لا بمعنى المتكبر، ولا بمعنى القهار، ولا بمعنى الذي ينفذ مشيئته، بل بمعنى أنَّه ليس محتاجاً إلى مديح ولا إلى ثناء ولا إلى مال.

فعند كلِّ شخص مهما يكن قوياً، نقطتا ضعف؛ المال والنساء، ولا يوجد إنسان يتآمر على إنسان إلا بهاتين النقطتين، إما بامرأة تغريه فيسقط، وإما بمال يأخذه حراماً فيسقط، فإذا كان الإنسان محصّناً من المال والنساء، لا يستطيع أعداؤه النيل منه فقد فاز.

فالجبَّار من الناس الذي يجبر الخلق بهيئته وصورته وأمانته وصدقه وعفته واستقامته على أن يقتدوا به، يفيد ولا يستفيد، ويؤثِّر ولا يتأثَّر، هذا هو النبي ﷺ، بلغ من الكمال درجة أنه يعطي ولا يأخذ، ينفع الخلق كلَّهم ولا ينتفع منهم، يؤثِّر فيهم ولا يتأثر، روى مسلم في صحيحه عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبي ﷺ غنماً بين جبلين، فأعطاه إياه، فأتى قومه، فقال: أي قوم! أسلموا، فوالله! إن محمداً ليعطي عطاء ما يخاف الفقر.

إذاً الجبَّار إذا أمكن لإنسان أن يكون كريماً فعليه أن يتنزَّه عن حب المال، وعن حب المديح والجاه.

المتكبر

هذا الاسم لم يرد إلا في آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ﴾ [الحشر:٢٣].

وفي السنة الصحيحة، روى الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية وهو على المنبر، قال: ﴿ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر:٦٧].

قال النبي الكريم ﷺ: يقول الله عز وجل: «أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا المتعال» فجعل النبي ﷺ يرددها، حتى رجف به المنبر، حتى ظننا أنه سيخُرّ به.

من معاني اسم الله المتكبر

لا بدَّ للمؤمن من أن يعرف الله، ومعرفة أسمائه الحسنى وصفاته الفضلى جزء من معرفته، إنّه موجود وإنَّه واحد وإنَّه كامل، وإني أكرر فأقول: لا بدَّ من معرفة أسمائه الحسنى وصفاته الفضلى لقول النبي ﷺ: «إنَّ لله تِسْعَةً وتِسْعِينَ اسْماً مِئَةً إلا وَاحِداً مَنْ أَحْصاها دَخَلَ الجَنَّةَ» [متفق عليه من حديث أبي هريرة].

ولكنَّ الحقيقة أنَّ الله سبحانه وتعالى لا يعرفه إلا الله، هذه حقيقة يجب أن تكون واضحة لنا، لا يعرف الله إلا الله، ونحن إذا أردنا أن نعرفه فشأننا كمن يأخذ مخيطاً ويغمسه في مياه البحر ثم لينزعه فلينظر بم يرجع؟ هذا تشبيه ورد في الحديث الشريف قال ﷺ: «ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما أخذ المِخْيَط غُمس في البحر من مائه» [الطبراني بسند صحيح عن المستورد].

فإذا كانت معرفة الله سبحانه وتعالى بحراً فمعرفة الإنسان لله عز وجل لا تزيد على ما يحمله المخيط إذا غمس في مياه البحر، ولكن كما قال سيّدنا علي رضي الله عنه: «أخذ القليل خير من ترك الكثير».

وبعد: فهل بالإمكان أن نضرب بعض الأمثلة كي نتعرَّف إلى اسم الله عز وجل المتكبِّر أو غيره؟ أيجوز أن نضرب أمثلة منتزعة من حياتنا من أجل توضيح بعض الحقائق؟

أجل، يجوز ولله المثل الأعلى، سآتيكم بالدليل، الدليل هو أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يعرِّفنا بذاته فقال: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) ﴾ [الروم:٢٨].

ربنا سبحانه وتعالى من أجل أن يعرفنا بأنه لا إله إلا الله ولا شريك له ولا أحد يشركه في حكمه ضرب هذا المثل، إذاً يمكن أن أضرب بعض الأمثال لمعرفة أسماء الله الحسنى، والسبب أن الاسم الذي نحن بصدده الآن هو المُتكبِّر، وكلمة المُتكبِّر إذا أطلقت على إنسان تنفر النفس منه، ولكنَّ المُتكبِّر هو الله سبحانه وتعالى.

إنسان بحاجة ماسّة إلى مئة ألف ليرة ليجري بها عمليّة جراحيّة تحدِّد مصيره في الحياة، قال الأطباء: لا بدَّ من إجراء هذه العمليَّة ولا بدَّ من هذا المبلغ، وهو لا يملكه، توجَّه إلى رجل من أقربائه فقال: أمعك هذا المبلغ؟ قال: نعم معي هذا المبلغ، وهو كاذب، وتوجَّه إلى إنسان آخر من أقربائه وسأله السؤال نفسه قال: أمعك هذا المبلغ؟

قال: نعم معي وهو صادق، فالذي قال: نعم معي هذا المبلغ ولا يملكه فهذا الرجل يكون ناقصاً، ويدَّعي ما ليس عنده، والثاني لو أنه قال لقريبه: لا ليس معي شيء وتواضع يعدُّ ناقصاً، بل يجب أن يقول: معي هذا المبلغ وخذه.

فالتكبُّر في الله كمال، وفي العبد نقص، لأنَّ الله خالق الأكوان بيده ملكوت كلِّ شيء، إذا أراد شيئاً فإنما يقول له: كن فيكون، وإليه يرجع الأمر كلُّه، لا نهاية لعظمته، لا نهاية لكماله، لا نهاية لعلمه، لا نهاية لقوَّته، فإذا تكبَّر الله سبحانه وتعالى فلأنَّه عظيم، وهذا ينقلنا إلى اسم آخر من أسماء الله الحسنى وهو اسم المؤمن يعرف بنفسه، إذا كنت تحمل أعلى شهادة في اللغة العربية وجلس إلى جانبك إنسان يحمل الإعدادية، وقرأ نصاً على سمعك، فإذا في قراءته أغلاط كثيرة، وأنت مهما كنت متواضعاً ألا تعرف أنك في اختصاصك متفوق، وتحمل الدرجة العلمية، وأن هذه القراءة كلُّها أغلاط؟ بلى تعرف هذا وذاك، ومعرفتك حقيقة مسلّم بها.

إذاً، بادئ ذي بدء إذا قال الجبان: أنا شجاع، فهذه صفة نقص في حقه، وإذا قال البخيل: أنا كريم، فهذا الكلام نقص في حقِّه، وإذا قال الجاهل: أنا عالم، فهذا نقص في حقه، أما إذا قال العالم: أنا عالم وسأجيبك عن سؤالك رحمة بك فهذا كمال، وإذا قال الشجاع: أنا شجاع، وسأدافع عنك فهذا كمال، وإذا قال الكريم: أنا كريم، وخذ هذا المال فهذا كمال.

فعندما نقول: إنَّ الله متكبِّر فهو اسم من أسماء الكمال، وعندما تقول: فلان متكبِّر فالتكبُّر صفة نقص في الإنسان، هذه الحقيقة الأولى.

المُتكبِّر هو الذي يرى الكلَّ صغيراً بالنسبة لذاته، ولا يرى العظمة والكبرياء إلا لنفسه، فينظر إلى غيره نظر الملوك إلى العبيد.

الله خالق السموات والأرض، بيده ملكوت كلِّ شيء، إليه يُرجع الأمر كلُّه، إذا أراد شيئاً فإنما يقول له: كن فيكون، فإذا كان الله متكبراً فهو يعرِّف ذاته، وهذا يتصل باسم آخر من أسمائه الحسنى، ألا وهو المؤمن.

ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: الكِبرِياءُ رِدائي، والعَظَمَةُ إزَارِي، فمَنْ نازَعَني واحِداً مِنْهُما قَذَفْتُهُ في النَّارِ» [سنن أبي داود من حديث أبي هريرة].

وفي رواية: «الكبرياء ردائي، فمن نازعني ردائي قصمته» [أخرجها الحاكم في «المستدرك» من حديث أبي هريرة].

بعض العلماء يقول: «المُتكبِّر من الكبرياء وذو الكبرياء هو الملك». قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [يونس:٧٨].

فالمُتكبِّر هو الملك الذي لا يزول سلطانه، والعظيم الذي لا يجري في ملكه إلا ما يريد، وهو الله الواحد القهار، هذا معنى من معاني المُتكبِّر.

معنى آخر: المُتكبِّر من الكبير والعظيم لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [يوسف:٣١].

ومعنى أكبرنه، أي: عظَّمنه، ومعنى قطَّعن أيديهن كما قال العلماء: جرحن أصابعهنَّ.

الله متكبر، أي: كبير ليس لكبريائه نهاية، وهو عظيم ليس لعظمته غاية، هذا المعنى الثاني من معاني المُتكبِّر.

والمعنى الثالث: المُتكبِّر هو الذي تكبَّر عن ظلم العباد، والمُتكبِّر هو الذي انفرد بالكبرياء والملكوت، وتوحَّد بالعظمة والجبروت، والمُتكبِّر هو الذي بيده الإحسان ومنه الغفران، والمُتكبِّر الذي ليس لملكه زوال ولا لعظمته انتقال.

وبعد فمن معاني المُتكبِّر؛ العظيم ذو الكبرياء، وأصل التكبُّر الامتناع وعدم الانقياد، الله سبحانه وتعالى طليق الإرادة، والمُتكبِّر هو الذي تكبَّر وترفَّع عن كلِّ نقص، وتنزَّه عن كلِّ ما لا يليق به، المتعالي عن صفات خلقه أيضاً.

إذاً... لا بد من أن نعرف الله لأننا إذا عرفناه أطعناه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر:٢٨].

لا يصح عملنا إلا إذا عرفناه، ولا نسعد في الدنيا والآخرة إلا إذا صح عملنا، ثلاث فقرات لا بد من أن نعرفه، فإذا عرفناه أطعناه، وإذا أطعناه سعدنا بقربه في الدنيا والآخرة.

إذاً... المُتكبِّر هو المتعالي عن صفات خلقه، كامل في ذاته، كامل في صفاته، كامل في أفعاله.

تكبُّره وكبرياؤه ورفعته وعلاه ومجده وثناؤه وعلوُّه وبهاؤه، كلُّ ذلك إخبار عن استحقاقه لنعوت الجلال وتنزُّهه عن النَّقائص والآفات.

طبعاً لا يعرف اسم المُتكبِّر إلا من جال فكره في الكون، يقول بعض العلماء: «إن في الكون من المجرات ما يزيد على مليون مليون مجرة، وفي كل مجرّة ما يزيد على مليون مليون نجم، وإنَّ بين الأرض والقمر ثانية ضوئية واحدة، والضوء يقطع في الثانية ثلاث مئة ألف كيلومتر، وبين الأرض والشمس ثماني دقائق، وبين الأرض وأقرب نجم ملتهب أربع سنوات ضوئية»، فإذا أردنا أن نقطع هذه المسافة بسيارة لاحتجنا إلى ما يقرب من خمسين مليون عام، ذلك إذا ركب الإنسان مركبة واتجه نحو أقرب نجم ملتهب في الكون من الأرض، يحتاج إلى ما يقارب خمسين مليون عام، فما قولكم بنجم القطب الذي يبعد عنا أربعة آلاف سنة ضوئية؟ تضرب بألف، أي: خمسين مليون ضرب ألف، أي: خمسين ألف مليون عام لنجم القطب، أربعة آلاف سنة ضوئية، فما قولكم بالمجرة المسلسلة تلك المجرة الصغيرة التي تبعد عنا مليوني سنة ضوئية، فما قولكم بأحدث مجرة اكتشفت تبعد عنا عشرين مليار سنة ضوئية؟ قال تعالى: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [الواقعة:٧٥-٧٦].

يقول الإنسان: أنا، من أنت؟ تأمَّل في هذه المسافات، هذه المجرة كانت في هذا المكان قبل عشرين مليار سنة ضوئية ولا يعلم مكانها الآن إلا الله.

ذكرت من قبل في دراسة بعض الأسماء الحسنى: أنَّ بين الأرض والشمس مئة وستة وخمسين مليون كيلومتر، وأنَّ الشمس تكبر الأرض بمليون وثلاث مئة ألف مرة، وأن في برج العقرب نجماً صغيراً أحمر اللون متألِّقاً اسمه قلب العقرب يتَّسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما، إذاً الله المُتكبِّر، فخلقه مظهر لكبريائه.

لقد ذكرت وأكرر أن الكون مظهر لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، لا تدركه الأبصار، ولكنَّ الكون بين أيدينا وهو يجسِّد ويظهر عظمة الله عز وجل قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت:٥٣].

من منَّا يصدِّق أنَّ في اللقاء الزوجي الواحد يوجد ثلاث مئة مليون حوين تنطلق من الرجل، وعلى كلِّ حُوين ملايين المعلومات المبرمجة، وهذه المورثات لا تُرى إلا بالمجهر، خلايا الدماغ مئة وأربعون مليار خلية سمراء اللون لم تُعرف وظيفتها بعد، في الشبكية مئة وثلاثون مليون عصية ومخروط من أجل تحقيق الرؤية الدقيقة.

من منا يصدق أن الإنسان إذا ذهب إلى شمال الأرض إلى القطب المتجمد الشمالي حيث الحرارة سبعون درجة تحت الصفر بإمكانه أن يرتدي معطفاً يلفُّ به جسمه جيداً ليقيه قسوة البرد هناك، ويستعين بكلِّ ما يقيه البرد، وأن يضع الأشياء التي تقيه البرد، لكن ليس بإمكانه أن يغطي عينيه؟ فإذا لامس الهواء الخارجي ماء العين فلن يتجمد البتّة، فمن منع ماء العين من التّجمُّد؟ هو المُتكبِّر، المنزَّه عن النقائص فعلاً وصفةً، تفكَّرْ في خلق الله، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران:١٩٠-١٩١].

من منا يصدق أن في دماغ الإنسان خاصيّة بالغة التعقيد حيث يحسب تفاضل وصول الصوت إلى الأذنين، يصل الصوت إلى الأذن اليمنى إذا كان الصوت من جهة

اليمين قبل الأذن اليسرى بواحد على ألف وست مئة وخمسة وعشرين جزءاً من الثانية، والدماغ يحسب هذا التفاضل، ويعرف الإنسان عندئذٍ جهة الصوت، ولولا هذا الجهاز لما عرفت جهة الصوت أبداً، حقاً هو المُتكبِّر.

أسماء الله عز وجل نعرفها من خلال الكون، من خلال هذه الآيات الدالة على عظمته، كل منا عنده مستودع للوقود السائل، فسَعة المتر المكعب خمسة براميل من منا يصدق أنَّ القلب يضخ في اليوم الواحد ثمانية أمتار مكعبة؟ وأنَّ قلب الإنسان الذي يعيش في عمر متوسط يضخ ما يملأ أكبر ناطحة سحاب في العالم؟!

من منَّا يصدِّق أنَّ في الكبد وظائف تزيد على خمسة آلاف وظيفة؟! وأنَّ الإنسان دون كبد يعيش ثلاث ساعات فقط؟!... إذا أردتُ أن أمضي في الحديث عن معجزات الله عز وجل وعن إعجاز الله في خلقه فالأمر لا ينتهي، لكن الله تعالى لخص هذا كلَّه حيث قال: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١﴾ [الذاريات:٢١].

جسمك -عزيزي القارئ- جهاز إيضاح، أعضاء جسمك على اختلافها أعظم وسيلة إيضاح مستمرة، لو أمضيت حياتك الدنيا كلَّها تفكِّر في عظمة خلق الإنسان لما عرفت الله عز وجل حقَّ المعرفة، ولكن الله سبحانه أحالك لتعرف عنه بعض المعرفة إلى ذاتك فقال: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١﴾.

هذا الذي يتكبَّر وهو من بني البشر كم هو ظالم لنفسه؟ الله سبحانه وتعالى تلطَّف بنا حينما جاءت هزَّة أرضية خفيفة جداً، لو أنَّها كانت أشدَّ لكانت أخبارنا في الآفاق، مثلاً: ثمانون ألف قتيل، سبعون ألف جريح تحت الأنقاض، أبنية متهدِّمة، لكنها كانت خفيفة حسب مقياس ريختر دون خمس درجات، ولو كانت أشدَّ حسب مقياس ريختر لكنَّا غير موجودين في هذا المجلس، فعلى أيِّ شيء نتكبر، نحن نحيا ونعيش بلطف الله عز وجل، مدن رائعة، مدن جميلة جداً أصبحت أثراً بعد عين في ثوانٍ، فعلام الكِبر؟

حينما انحبست أمطار السماء، وأصبحت كأس الماء عزيزة، وهُدِّدْنا بكأس الماء أن نفقدها، فهل في الأرض كلِّها جهة تستطيع أن تتَّخذ قراراً بإنزال الأمطار؟ لكن الله سبحانه وتعالى تلطَّف بنا وأكرمنا وأرانا من آياته، إنه هو المُتكبِّر فمن نحن؟

مـــا لي ســـوى فقـــري إليـــك وســـيلة فبالافتقـــــار إليـــــك ربي أضرع

مـــا لي ســـوى قرعـــي لبابـــك حيلـــة فلـــئن رددت فـــأيَّ بـــاب أقـــرع

أنت في أعلى درجات العبودية مفتقر إلى الله عز وجل، وأنت في أوج قوتك وأوج صحتك وأوج علمك يجب أن تكون مفتقراً إلى الله سبحانه وتعالى، إذا أقدمت على عمل فقل: اللهم إني تبرأت من حولي وقوتي، والتجأت إلى حولك وقوتك، يا ذا القوة المتين.

فقد كان ﷺ إذا غزا قال: «اللهم أنت عضدي، وأنت نصيري، بك أحول، وبك أصول، وبك أقاتل» [رواه أحمد، وأبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث أنس].

من منّا يصدق (أذكر هذه الأمثلة لأوقظ بعض الناس من غفلتهم وشرودهم فإنه لا يصحُّ للإنسان أن يتكبَّر فإذا تكبَّر فهو أحمق) أنّ نقطة من الدم لو تجمَّدت في بعض شرايين المخِّ في مكان يصاب بالشلل، كان معززاً مكرماً، خفيفاً ظلُّه على الآخرين، وفجأةً أصبح جسداً ملقىً على السرير، واهناً خائراً، فأقرب الناس إليه يتمنى موته، علامَ الكبر؟ هذه النقطة لو تجمدت في مكان آخر لفقد الإنسان ذاكرته.

حدثني أخ كريم توفي والده، وقبل وفاته فقد ذاكرته، خرج من معمله، وبيته في حيِّ المهاجرين، وبقي يبحث عن بيته نصف ساعة لم يعرف بيته، من أنت بلا ذاكرة؟ إذا فقدت ذاكرتك فأنت ذرّة هباء في الهواء.

دخل ابنٌ على أبيه وهو صيدلاني، قال: من أنت؟ قال: أنا ابنك يا أبتِ، قال: لا أعرفك، إذاً نقطة ما في مكان بالدماغ أفقدته ذاكرته، وإذا وقعت بمكان غيره أصبح لا يبصر، كلُّ ما في الدنيا من جمال توارى واختفى، فلا ألوان، ولا جبال خضراء، ولا بحار زرقاء، ولا طفل جميلاً، لقد توارى وراء ظلمة عينيه كلُّ الجمال.

فالإنسان إذا غضَّ بصره عن محارم الله، وإذا باتت هذه العين خاشعة لله، فأغلبُ الظن أن الله سبحانه وتعالى لا يفجعه بها.

أحد علماء دمشق الكبار علّم ثلاثة أجيال، كان إذا رأى أحداً في الطريق يقول له: يا بني كنت أنت تلميذي، وكان أبوك تلميذي، وكان جدك تلميذي، بدأ بالتعليم في السنة الثامنة عشرة من عمره وتوفي في الثامنة والتسعين، وكان مستقيم القامة حاد البصر مرهف السمع وأكرمه الله بأن زوجته عاشت مثله، كان يقال له: يا سيدي! ما هذه الصحة؟ يقول: يا بني حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر، من عاش تقياً عاش قوياً، ألا تحب أن يكون خريف عمرك زاهياً جداً؟ إذا أردت أن تكون كريماً على الله فاتقِ الله، إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله، إذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك.

انظر إلى معامل كريات الدم الحمراء في نقيِّ العظام هناك مرض خطير اسمه فقر الدم اللامصنّع، هذه الخلايا هذه المعامل في نقيّ العظام تصنع في كلِّ ثانية مليونين ونصف المليون كرية دم حمراء، أحياناً تتوقّف عن العمل بلا سبب وهذا المرض اسمه فقر الدم اللامصنع، لماذا الكِبر؟ مليون خطر يهددك، ماذا تفعل؟

أعرف إنساناً كان من أولي اليسار وله مكانة مرموقة في البلد فَقَدَ بصره فدخل عليه أحد أصدقائه فقال له: والله يا فلان، أتمنى ألا أحمل هذه الدكتوراه، وألا أكون في هذا المنصب، وألا أكون في هذه البحبوحة، وأن أقبع على الرصيف أتكفّف الناس، وأن يردَّ الله إليّ بصري، هذه نعمة يجب أن نحفظها بطاعة الله عز وجل.

من أين يأتي هذا الورم؟ الإنسان بكامل صحته فجأة تضطرب الخلايا في نموها فتكون القاضية!! هاتان الكليتان أحياناً تتوقفان فجأة عن العمل، مرض اسمه هبوط مفاجئ في وظائف الكليتين، إذن عليه أن يغسل كليتيه في المستشفى مرتين كلَّ أسبوع، وهذا أمر لا يُحتمل... إذاً علام التكبر؟ هل تملك كليتيك؟ هل تملك قلبك؟ هل تملك دسامات القلب؟ هل تملك الشريان التاجي المغذّي للقلب؟ هل تملك أن تبقى الأوعية

في الدماغ واسعة لا تضيق؟ هل تملك أعصاب الحس ألا تتلف وألا تلتهب؟ هل تملك ألا تتكلس مفاصل الإنسان فيصبح قطعة واحدة؟

هناك أمراض كثيرة جداً فعلام الكبر؟ هل تملك هذا اللسان؟ وأنت نائم يزداد لعابك في فمك فيذهب تنبيه إلى الدماغ بأنَّ كمية اللعاب في الفم قد ازدادت ويجب تفريغها، فيأمر الدماغ لسان المزمار فيفتح الطريق إلى المريء فيسقط اللعاب في المريء وأنت نائم، كذلك وأنت نائم يقلّبك الله ثمانياً وثلاثين مرة تقريباً، وأنت لا تدري ذات اليمين وذات الشمال، لكي لا تقع عن السرير، هذه نِعَم الله عز وجل، تأمَّل فيها فتحبَّ الله عز وجل، وتبادر إلى طاعته، لا تنظر إلى صغر الذنب، ولكن انظر على من اجترأت.

فهذا ثقب بوتال في القلب لو لم يغلق ماذا نفعل؟ يحتاج الابن عند ولادته لمبلغ ضخم أجرة عمل جراحي من أجل إغلاق هذه الفتحة، إنها فتحة بين الأذينين، هكذا قال لي بعض الأطباء، فتأتي جلطة تغلقها، يد مَنْ داخل القلب؟ يد مَنْ جاءت وأغلقت هذه الفتحة المعروفة بـ «ثقب بوتال»؟ لو بقيت مفتوحة لبقي الطفل أزرق اللون، لأنَّ الدم ينتقل من أذين إلى أذين ولا يتصفى عن طريق الرئتين.

الإنسان يأتيه مولود كامل الخلق فيقول: يا رب لك الحمد، أمَّا لو كانت فيه زرقة لاحتاج إلى عمل جراحي يكلِّف مبلغاً كبيراً، فماذا نفعل؟ علام الكِبر؟

الله عز وجل قادر أن يجعلك تبيع بيتك ومتجرك من أجل عملية جراحية واحدة، علام الكِبر؟

أنا أؤكد على موضوع الكِبر فهو في حق الله كمال، وفي حق العبيد نقصان.

أعرف صديقاً لي توفي بمرض اسمه نقص في الصفيحات الدموية، الإنسان دون صفيحات دموية ينزف دمه كلُّه من ثقب إبرة، يوجد في الدم هرمون للتجلط وهرمون للتميُّع، ونتيجة توازن هرمون التميّع والتجلط يبقى هذا الدم بهذا الشكل المائع السائل، لو زادت نسبة هرمون على الهرمون الآخر لأصبح الدم وحلاً في الأوعية، ولو

زاد الثاني لأصبح الدم مائعاً، من الذي نظم؟ وأنت نائم ومرتاح، ربنا عز وجل لم يوكِل الأمر إليك بل أراحك منه.

فكرت بعملية التنفس، فلو أنّ الإنسان يُكلَّف بالتنفس، لما استطاع أن ينام فيُلغى النوم كلياً.

تكلمت مع أخ طبيب فقال لي: هذا مرض يقع أحياناً، بسبب تعطُّل مركز التنبيه النوبي في البصلة السيسائية، وله دواء الآن راقٍ جداً ومرتفع الثمن كثيراً، يجب أن يأخذ كل ساعة قرصاً من هذا الدواء على مدى ساعات الليل، فيضع المنبهات لتوقظه، ويستيقظ بواسطة المنبه كلَّ ساعة ليأخذ قرص الدواء، ثم يعود إلى النوم، أهذه حياة؟ إذاً عملية التنفس جارية وأنت لا تدري، فنم وارتح، التنفس بيد الله وكذلك القلب والرئتان والحركات، فالحديث عن إعجاز خلق الإنسان يطول، فكلما ازداد الإنسان علماً ازداد تواضعاً، والدليل قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر:٢٨] فالعلماء وحدهم ولا أحد سواهم يخشى الله عز وجل، فكن عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محباً، ولا تكن الخامسة فتهلك.

يقول الإمام الغزالي: «العلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك، فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً»، فما من قيمة اعتمدها الله عز وجل بين خلقه إلا قيمة العلم. هناك مجموعة قيم يتفاضل بها الناس فيما بينهم المال والصحة والوسامة والقوة والذكاء، أما قيمة العلم فقد اعتمدها الله عز وجل في القرآن فجعلها قيمة وحيدة للترجيح بين خلقه فقال: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ [الزمر:٩].

فتبارك الذي قسم العقل بين عباده أشتاتاً، إن الرجلين ليستوي عملهما وبرّهما وصومها وصلاتها، ويختلفان في العقل كالذرة جنب أحد، وما قسم الله لعباده نصيباً أوفر من العقل واليقين.

لذلك «ما من يوم ينشق فجره إلا وينادي: يا ابن آدم أنا فجر جديد وعلى عملك شهيد فتزود مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة».

وصالح المري روى عن الحسن أنه وصف الإنسان بأنه بضعة أيام كلما انقضى يوم انقضى بضع منه.

فالمُتكبِّر هو الله وهي صفة كمال فيه، أما التكبر عند الإنسان فهي صفة غباء وجهل ونقص فيه فالحذر، الحذر، ورحم الله امرأً عرف حده فوقف عنده.

نصيب المؤمن من اسم الله المتكبر

من عرف الله المتكبّر تواضع له وتذلّل على أعتابه وتقرَّب إليه بخدمة عباده.

النبي ﷺ يقول: «وإنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَواضَعُوا حتَّى لا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ ولا يَبْغِي أحدٌ عَلَى أَحَدٍ» [صحيح مسلم من حديث عياض].

وهل تصدِّق أيها القارئ الكريم أنَّ النبي ﷺ يقول: «لا يَدْخلُ الجَنَّةَ مَنْ كانَ في قَلْبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ» [صحيح مسلم من حديث عبدالله بن مسعود].

لأنَّ الكبر يتناقض مع العبودية لله عز وجل، أنت عبد وهو ربٌّ، فإذا نازعته رداءه وإزاره قصمك كما ورد في الحديث الشريف الذي مرَّ ذكره.

في الحديث الآخر يقول ﷺ: «مَنْ تَوَاضَعَ لله دَرَجَةً رَفَعَهُ اللهُ دَرَجَةً حتَّى يَجْعَلَهُ في عِلِّيِّينَ، ومَنْ تَكَبَّرَ عَلَى الله دَرَجَةً وضَعَهُ اللهُ دَرَجَةً حتَّى يَجْعَلَهُ في أَسْفَلِ السَّافِلِينَ» [أخرجه أحمد في مسنده].

النبي ﷺ حينما دخل مكة دخلها مطأطئ الرأس حتى كادت عمامته تلامس عنق بعيره تواضعاً لله عز وجل.

قال عبد الله بن أبي بكر -كما يروي ابن إسحاق-: «وإن رسول الله ﷺ ليضع رأسه تواضعاً لله حين رأى ما أكرمه الله به من فتح، حتى إن عثنونه ليكاد يمس واسطة الرحل».

ودخل عليه مرةً رجلٌ فأخذته رعدة فقال: «هوِّن عليك فإني لست بملِك إنما أنا ابن امرأة من قريش كان تأكل القديد» [ابن ماجه من حديث أبي مسعود].

قال أحد العارفين بالله في المناجاة: يا رب بماذا أتقرَّب إليك، فوقع في قلبه: أن يا عبدي تقرب إليّ بما ليس فيّ، فقال: يا رب وما الذي ليس فيك، قال: الذلُّ والافتقار وهو من أقرب الأبواب إلى الله عز وجل ومن أنجحها أن تأتيه طائعاً.

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا ... فإنَّا منحنا بالرضا من أحبنا
ولُذْ بحمانا واحتمِ بجنابنا ... لنحميك مما فيه أشرار خلقنا
وعن ذكرنا لا يشغلنَّك شاغل ... وأخلص لنا تلقَ المسرَّة والهنا
وسلِّم إلينا الأمر في كلِّ ما يكـ ... ـن فما القرب والإبعاد إلا بأمرنا

* * *

كن مع الله تر الله معك ... واترك الكلَّ وحاذر طمعك
ثم ضع نفسك بالذلِّ له ... قبل أنَّ النَّفس قهراً تضعك
كيفما شاء فكن في يده ... لك إن فرَّق أو إن جمعك
في الورى إن شاء خفضاً ذقته ... وإذا شاء عليهم رفعك
وإذا ضرَّك لا نافع من ... دونه والضرُّ لا إن نفعك
وإذا أعطاك من يمنعه ... ثم من يعطي إذا ما منعك
ليس يوقيك أذاه أحد ... وإن استنصرت فيه شيَّعك
إنما أنت له عبد فكن ... جاعلاً في القرب منه ولعك
فُزْ بوصل إن تراه واصلاً ... واقبلِ القطع إذا ما قطعك
كلما نابك أمر ثق به ... واحترز للغير تشكو وجعك
لا تؤمِّل من سواه أملاً ... إنما يسقيك من قد زرعك

ليــت لــو تشـعر مــاذا كنــت مــن — قبــل مــا مــولى المــوالي اخترعــك
كنـــتَ لا شيء وأصــــبحت بــــه — خـــيرَ شيء بشـــراً قـــد طبعـــك
تابعـــاً كـــن دائـــماً أنـــت ولا — تتمنـــى أنَّـــه لـــو تبعـــك
ودعِ التـــدبير في الأمـــر لـــه — واصـنع المعـروف مـع مـن صنعك
واحـــتفظ حرمـــة مـــن يبصـــر إن — رمـــت فعـــلاً أو تنـــادي سَـــمِعَك

قال مطرف بن عبد الله: لأن أبيت نائماً وأصبح نادماً أحب إليّ من أن أبيت قائماً وأصبح معجباً، وفي الحديث الذي رواه البزار بسند جيد عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر منه العجب».

شأن الرب أنه متكبر، حتى يقبل عباده عليه، وشأن العبد أن يكون متواضعاً مفتقراً حتى يستحق تأييد الله له.

الخالق

هذا الاسم ورد في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحشر:٢٤].

وورد أيضاً في مسند الإمام أحمد من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: غَلَا السِّعْرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله، لَوْ سَعَّرْتَ، فَقَالَ: «إِنَّ الله هُوَ الخَالِقُ القَابِضُ البَاسِطُ الرَّازِقُ المُسَعِّرُ...» [مسند أحمد].

وفي حديث آخر: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» [أخرجه الطبراني عن عمران بن حصين والحكم بن عمرو الغفاري].

من معاني اسم الله الخالق

الخالق اسم فاعل، من خلق، يخلق خلقاً، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ﴾ [السجدة:٧].

وقد يأتي الخلْق بمعنى المخلوق، قال تعالى: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [لقمان:١١].

أي هذه مخلوقات الله.

أعطاك الله عزَّ وجل كِلية بحجم البيضة، تعمل بصمت، بينما صنعَ الإنسانُ كِلية صناعية بحجم الطاولة، وتحتاج أن تستلقي على السرير لساعات، في الأسبوع ثلاث مرات، ومع ذلك فالدم لا يصفَّى تصفية تامة، بل تبقى بعض المواد الضارة ممّا يسبّب ضيقاً وألماً، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى جعل لك هذه الكِلية التي تعمل بانتظام، وبلا صوت، وبلا اقتطاع من وقتك: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾.

إنَّ أعلى آلة تصوير رقمية احترافية، في الميلميتر المربع منها عشرة آلاف مستقبل ضوئي، بينما تجد في الميليمتر المربع من شبكية العين مئة مليون مستقبل ضوئي.

من معاني الخلق إبداع الشيء من غير أصل، ولا مثال سابق، وإيجاد شيء من لا شيء.

والخلق يأتي بمعنى تقدير الأمور، وتنفيذها.

﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ [المؤمنين:١٤].

وكلُّ مخلوق خلقه الله تعالى يمرّ بأربعة مراحل:

المرحلة الأولى: علم الله السابق، هناك علم أزلي، وعلم الله السابق تقدير كلِّ شيء قبل تصنيعه، وتنظيم الأمور قبل إيجادها بعلم الله السابق.

والمرحلة الثانية: مرحلة الكتابة، كتب ما يخصُّ كلَّ مخلوق في لوح محفوظ، وفي هذا اللوح تفاصيل كل شيء، إيجاداً، ونشأة، وإعداداً.

والمرحلة الثالثة: مرحلة القدر، وهي مرتبة تقابل مرتبة المشيئة.

والمرحلة الرابعة: مرحلة خلق الأشياء على خصائصها.

ومن الآيات التي تتحدث عن اسم «الخالق» قول الله عز وجل: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحشر:٢٤].

فكلمة: «الله» عَلَم على الذات، أي: إنّ الله سبحانه وتعالى هو الذات الموجودة الواحدة الكاملة، وأسماء الله الحسنى على كثرتها تعود إلى أصول ثلاثة، الله موجود، والله واحد، والله كامل... فالله موجود، والله واحد، واحد في ذاته وواحد في صفاته وواحد في أفعاله، أما وإن الله كامل فأسماؤه كلها حُسنى وصفاته كلها فُضلى، لذلك لا غرابة إذ قال أحد العلماء «يا رب لا كربَ وأنت الرّبّ» فالله موجود، واحد.

أصعب ما في الحياة أن يتبعثر الإنسان بين جهتين، فيكون له رئيسان، هذا يأمره بكذا، وذاك يأمره بكذا، ولقد حدثني أحد الأصدقاء فقال: معمل يملكه ثلاثة شركاء، والثلاثة إخوة، فالعُمّال تمزقوا، فهذا الأخ يعطي أمراً ويجب أن يُنفّذ، وذاك الأخ يعطي أمراً آخر ويجب أن يُنفّذ، والأخ الثالث يعطي أمراً ثالثاً قد يتناقض أو قد لا يتسع وقت هذا العامل لتنفيذ الأوامر الثلاثة، فتضطرب الأمور، وقد ذكر الله عز وجل هذا في كتابه الكريم، فقال: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الزمر:٢٩].

ولماذا يشقى بعض الناس في الحياة؟ لأنهم موزّعون بين جهات عديدة، إذ عليه أن يُرضي زوجته، وأن يُرضي أمه، وأن يُرضي من فوقه في العمل، وأن يُرضي فلاناً الذي يُهدّده، فهو يتبعثر، لكنّ المؤمن يُرضي جهة واحدة، وهذه الجهة الواحدة هي القويّة، وبيدها كلُّ الجهات، ومن هنا قال رسول الله ﷺ: «من جعل الهموم هماً

واحداً هم المعاد كفاه الله سائر همومه، ومن تشعّبت به الهموم من أحوال الدنيا لم يبالِ الله في أيِّ أوديتها هلك» [ابن ماجه عن ابن مسعود].

اسألوا الأطباء فمعظم الأمراض لها أسباب نفسيّة، ومعروف عند عامة الناس أنَّ القرحة أساسها أزمات نفسية، وأمراض القلب في معظمها مردُّها إلى أزمات نفسية كذلك، وهناك أمراض تصيب الجهاز العصبي أسبابها أزمات نفسية أيضاً، والأمراض النفسية في أصلها مشكلات يعانيها الإنسان، كما أنَّ لديَّ معلومات حديثة مفادها؛ أن هناك دراسات تؤكد أن معظم الأمراض العضوية لها أسباب نفسية، وحينما يحاول الطِّبُّ أن يفصل بين الأمراض العضوية والنفسية يقع في ضلال كبير، حتى إن بعض أصدقائي حدثني أنه ذهب إلى بلد غربي لإجراء عمليّة جراحية في قلبه، فقال: دَخَلَتْ عليَّ ممرضة، نسّقت الأزهار في غرفتي، وبينما هي تُنسّقها سألتني: ما مرضك؟ قلت لها: عملية دسام في القلب، قالت: من الذي سيجري لك هذه العملية؟ قلت: فلان، فدهشت، وقالت: فلان؟! قلت: نعم، قالت: فلان قبل أن يجري لك هذه العملية، أجرى آلاف العمليات المماثلة وكلُّها ناجحة، ولم يخفق في واحدة، قال: والله اطمأننت وارتحت، ما دام هذا الطبيب الذي اخترته ليجري هذه العملية من أمهر الأطباء في هذه البلدة ومن أشهرهم ومن أنجحهم، فارتاحت نفسي، لكنّه فوجئ وهو يسدد قائمة الحساب، أن القائمة تتضمن مبلغاً كبيراً مقابل رفع معنويات المريض عن طريق هذه الممرضة، وهي ليست ممرضة بل هي عالمة نفس، وظيفتها أن ترفع معنويات المريض، من أجل أن تستفيد العضويّة من ثقة الإنسان في الشفاء.

وهذا الارتباط الوثيق بين النفس والجسد هو أحدث ما يبحث عنه الطب اليوم، فلماذا كان المؤمن سعيداً؟ لأنَّ علاقته مع جهة واحدة، ولا يحتاج معها إلى حلف يمين، لا يحتاج معها إلى إيصال، ولا إلى شاهد، فالله مُطَّلع، على ظاهرك وباطنك وحقيقتك ونياتك ومطامحك، وألخص الأمر كلَّه بالعبارة الآتية: الإيمان صحة وعافية، والمؤمن تبدو صحته طيبة، والسبب أنّه موحِّد، قال الله تعالى: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٣].

جهة واحدة تستحق العبادة، والحبَّ، والإخلاص، وأن تعمل لها، وأن تفني شبابك من أجلِها، وأن تبذل كلَّ عمرك في سبيلها، هي الذات الإلهية، لذلك لما قال ربنا عز وجل: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾ [المدثر:٥٦].

أي هو أهل أن تفني شبابك من أجله، وأن تمضي كلَّ حياتك في خدمته، وأن تنفق مالك في سبيله، وأن تبذل كلَّ ما تملكه في رضاه، وألخصّها بكلمة واحدة: تضحية صادقة لكنها مجزية.

ولذلك فالإنسان عندما يستهلك نفسه استهلاكاً رخيصاً وينحدر إلى خريف العمر وهو قادم على حياة مجهولة، لا يملك من نقدِها شيئاً، وقد أمضى حياته كلَّها في أشياء لا تنفعه في آخرته، فهو في ضياع؛ فندائي صدى لنداء الله سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾ [البقرة:٢١].

الجهة الوحيدة التي تستحقُّ الطاعة والعبادة والإخلاص والحبَّ هي الله، فأنا لا أعتقد أنَّ في الأرض رجلين تحابّا كسيدنا الصديق وسيدنا رسول الله ﷺ، ومع ذلك ماذا قال عليه الصلاة والسلام؟ قال: «لو كنت متّخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن أخي وصاحبي» [رواه البخاري من حديث ابن عباس]. وعن جندب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أيها الناس! إنه قد كان لي فيكم إخوة وأصدقاء، وإني أبرأ إلى الله أن يكون لي فيكم خليل، ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، وإن ربي اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً» [رواه مسلم والنسائي في الكبرى].

فأقول لك: سرُّ السعادة أنك تعمل لوجه واحد، فتُرضي جهةً واحدة وتبحث عن خالق عظيم فتمحضه كلَّ نفسك، قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر:٢٤].

ومن ثم تطالعنا حقيقة أخرى: هو وحده «الخالق»، قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾ [فاطر:٣].

عندما تحاوَرَ سيدنا إبراهيم مع النَّمرود قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت، فردَّ عليه متنطعاً: أنا أُحيي وأميت قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ [البقرة:٢٥٨].

فكان النمرود الغباءَ كلَّه، والضلال والضياع والكفر.

وحينما تشحُّ الأمطار وتنحبس السماء، أقول لمن حولي: هل في الأرض كلِّها جهة بإمكانها أن تجتمع، وأن تتّخذ القرار بإنزال المطر؟ فليس لأحد حيلة إلا أن يجأر بالدعاء إلى الله عز وجل، والضراعة لاستنزال رحمة الله سبحانه وتعالى، إذاً هو الله الخالق.

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الأنعام:١٠٢].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ﴾ [يس:٨١].

أما صيغة «الخلاّق»، فهي صيغة مبالغة لاسم الفاعل، يعني كثير الخلق وعظيم الخلق، إذ ترى مجرة بُعدُها عنّا ستة عشر ألف مليون كيلومتر، ونجم قلب العقرب، يتسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما، وأربعة أخماس الكرة الأرضية بحر، وبعض أعماقه تزيد على عشرة آلاف متر، إنه شيء مخيف، واصعد إلى بعض الجبال، جبال الهمالايا مثلاً، يهولك ارتفاعها. انظر إلى بعض الحيوانات، فالحوت الأزرق، وزنه مئة وخمسون طناً، ويستخرج منه تسعون برميلاً من زيت السمك، يستخرج من حوت

واحد، فيه من اللحم خمسون طناً ومن الدهن خمسون طناً تقريباً، وأحشاؤه خمسون طناً، أليس الذي خلق هذه المخلوقات بقادر أن يخلق مثلهم؟

﴿ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ﴾.

غزارة الأمازون، ثلاث مئة ألف متر مكعب في الثانية، يمتد مجرى هذا النهر في البحر بما يزيد على خمسة وثمانين كيلومتراً دون أن تختلط مياهه بمياه المحيط، ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ ﴾ [لقمان:١١]، ترى محرك ماءٍ بسيطاً يملأ الفضاء صخباً وضجيجاً، وقد يفسد عليك نزهتك، وإذا كنت في مزرعة واحتجتَ إلى ماء، وأدرت المحرك فإنه يفسد عليك سكون المزرعة وجمال الطبيعة، قال الله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [النمل:٨٨].

كتل السحاب تتحرك محملة بألوف الأطنان، ومع ذلك تمر بلا صوت، بل فيها الهدوء والبشرى، قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ ﴾ [الروم:٤٦].

وقال الله تعالى: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون:١٤].

وهذه الآية ذات معانٍ كثيرة، فمن بعض معانيها أن الإنسان أحياناً يصنع شيئاً يكون في البداية بسيطاً، لكنَّه كلَّما ارتقى علمه وارتقت خبرته يكمُل عمله، وأكبر دليل انظر إلى مركبة صُنعت في عام ألف وتسع مئة وإلى مركبة صُنعت في عام ألف وتسع مئة وتسعين، فإنه لا يوجد نسبة للمقابلة، الأولى، فانوسان بالأمام ومستودع زيت وسِراج، تفتح باب البلور وتُشعِل الفانوس بالثقاب، من أجل أن ترى طريقك في الليل، والعجلات دون هواء، والتشغيل من الخارج بالمحرك، وحركة واحدة والمزمار هوائي؟! هذه صناعة عام ألف وتسع مئة، وبعض نماذجها موجود الآن في المتاحف، وانظر إلى مركبة عام ألف وتسع مئة وتسعين فتفهم شيئاً كثيراً من أن الإنسان ارتقت

صناعته وتكاملت أعماله، لضعف خبرته، إذاً فخبرته مكتسبة، لكن انظر إلى خلق الإنسان، هل هناك إنسان مُعَدَّل؟ إنسان نمط تسعين أو ثمانين، ليس إلا نوع واحد ودون أي تعديل، لأنَّ علم الله قديم وخبرته قديمة، فما من مرة حمل أب ولده من يده فانخلعت يده، فالصنعة متقنة، والأربطة محكمة تماماً تحمل الجسم بالكامل، قال سبحانه: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [لقمان:١١].

﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ فإذا كنت تريد أن توازن بينَ ما يصنعه الإنسان وصنعة الواحد الديّان فإنك ترى فرقاً كبيراً، فأنجح طبيب أسنان إذا أراد أن يقلع لطفل سناً فلا بد من إبرة تخدير باللثة، ويبكي الطفل ويشتم ويتمرد، وأبوه يهدّئه، أما عندما يقلع الله ضرساً لطفل صغير كيف يقلعه؟ يسقط مع الأكل، فقد ذاب جذر السن شيئاً فشيئاً، وانقطع العصب، ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ فالعين المجردة تفرق بين درجتين من ثمان مئة ألف درجة باللون الواحد، فلو درَّجنا اللون الأخضر ثمان مئة ألف درجة وجدنا العين السليمة تفرِّق بين كلِّ درجتين.

إذاً: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾، وازن بين آلة التصوير والعين، ترَ فرقاً كبيراً جداً، فمتى أُخذت المسافة والسرعة والفتحة؟ هناك فتحة وسرعة ومسافة، فعينك بشكل عفوي وبشكل آلي تقيس المسافة، والعضلات الهدبية تضغط على الجسم البلوري ضغطاً بحيث يتقوَّس تقوُّساً يجعل الخيال على الشبكية؛ هذه المطابقة، وهي من أعقد العمليات في العين، فكلُّ إنسان ينظر إلى شيء دون ستة أمتار يحتاج إلى مطابقة، فالمطابقة، أنَّ هذا الشيء لو اتجه نوره إلى العدسة لوقع الخيال إما بعد الشبكية أو قبلها، فحتى يقع خيال ظلِّ الشيء على الشبكية لا بد أن نعدل احديداب الجسم البلوري إما ضغطاً أو بسطاً، فهذه العضلات الهدبية فيها علم كبير جداً، تُرى كم ميكروناً تضغط حتى يقع الخيال على الشبكية؟ أعتقد أن عملية مطابقة العين من أعقد العمليات في جسم الإنسان، ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤) ﴾ [الأعراف:٥٤].

طائرة تُباع من مصنع لدولة ما، فالمصنع لا علاقة له بحركة الطائرة، ها هي ذي تقصف مدينة، وتنقضُّ على قرية، والمعمل باعها وانتهى أمره ولا علاقة له بها، لكن ربنا عز وجل ما من شيء خلقه إلا وأمرُه بيده، قال سبحانه: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤) ﴾.

والحقيقة أنَّ القرآن الكريم كتاب العمر، وهو الكتاب المقرر، وأنا أتمنى على القراء الكرام إذا قرؤوا القرآن ومرّت بهم كلمة الخلق فليبحثوا عن العلاقة بينها وبين ما قبلها وما بعدها، على جناح السرعة.

﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ ﴾ خالق الكون هو الله رب العالمين، عَلَمٌ على الذات، صاحب الأسماء الحسنى والصفات الفضلى، خالق كل شيء، أي لا خالق آخر خلق أي شيء، هو خالق كل شيء فاعبدوه، هذا المعنى الإيجابي، أما المعنى السلبي ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ ﴾ استفهام إنكاري بمعنى النفي، أي: لا خالق غيره تعالى.

ولكن...كيف يقول الله عز وجل: ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون:١٤].

ويقول في آية أخرى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣) ﴾ [فاطر:٣].

في الآية الأولى يثبت الله عز وجل أنَّ هناك خالقين كثيرين، لكنَّ الله أحسنُهم، وفي الآية الثانية يقول: هل من خالق غير الله؟ فينفي عن طريق الاستفهام الإنكاري أن يكون في الكون خالق غير الله.

فالإنسان حينما يقرأ القرآن قراءة أوليَّة، ولا يتعمّق في العلم ولا يسأل أهلَ الذِّكر، وحينما يقف عند آية من الآيات المتشابهة ولا يحاول أن يسأل عنها فقد يشعر أنَّ في القرآن تناقضاً، ولذلك فهؤلاء المستشرقون الذين درسوا ما في الشرق من شرائع وثقافات، هؤلاء قالوا: إن في القرآن تناقضاً، وهذه نظرة ساذجة أوليّة لا تقف على قدميها، فالعلماء المحققون قالوا: إذا قال الله عز وجل: تبارك الله أحسن الخالقين، أي: إنّ إنساناً أخذ مواد أولية من الأرض وصنع منها شيئاً، يسمى خالقاً مجازاً، فتعريفه كما يلي: الإنسان خالق إذ يصنع من أشياء موجودة شيئاً على مثال سابق، فإذا قلت: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾، فهؤلاء الذين يصنعون نماذج في بعض محال الألبسة، ويضطرون إلى صنع تماثيل يضعون عليها الألبسة، فهذا التمثال إن كان من شمع أو من جِبس أو من أية مادة، اجعله إلى جانب إنسان من لحم ودم ولاحظ الفرق بينهما، فهذا إنسان فيه حياة وله فكر وقلب ومشاعر وهو ذكي، يستنبط ويحاكم، ويفكر، ويتفاعل، ويغضب، ويخاف، ويرجو، وله أوعية وشرايين وأعصاب، وعضلات ودماغ وجهاز عصبي، فإذا وازنت بين من يصنع هذا التمثال كي توضع عليه الألبسة، ومن يخلق هذا الإنسان من لحم ودم، فقل: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾.

وإذا رأيت وردةً طبيعية تفوح برائحة زكية، تشعر أن قلبك قد هفا إليها، وإن باقة ورد تُضفي على المكان أنساً وفرحاً وسروراً، وإذا دُعي الإنسان إلى عقد قِران رأى الأزهار، وهذه النباتات طيّبة الرائحة بألوان مختلفة، ولا تعرفون قيمة التلوين إلا من خلال صنع الحكيم... فالفراشات والأزهار هي الأساتذة لمهندسي التلوين، فلو نظرت إلى مركبة حديثة جداً، فإنك تجد ألوانها مقتبسة إمّا من زهرة أو من فراشة، يقول العوام: هذا أصفر غير جميل وهذا لون زهري جميل جداً، لكن يمكن تدريج اللون الواحد إلى ثمان مئة ألف درجة والعين البشرية تفرّق بين كلِّ درجتين، وإذا وضعت في بيتك ورداً صناعياً، فبعد أسبوع تضيق ذرعاً به، وتجد الإنسان بعد فترة أمسك بهذا الورد ووضعه في سلة المهملات، إذ لا يحتمله، على الرغم من منظره الجميل وحجمه

الكبير وألوانه الزاهية، فالفرقُ كبيرٌ بين الورد الطبيعي والورد الصناعي، وانظر إلى عين صُنعت لتكون وسيلة إيضاح، وإلى العين البشرية، ففيها مئة وثلاثون مليون عصية ومخروط، فالعصب البصري وحده مؤلف من تسع مئة ألف عصب، فإذا وازنت بين العين وآلة تصوير، وبين وردة طبيعية ووردة صناعية، وتمثال من شمع وإنسان حقيقي، فمجال الموازنة كبير جداً.

إذاً فلا غرابة أن يسمى الإنسان خالقاً لأنَّه صنع من أشياء موجودة شيئاً على مثال سابق، فإذا قلت: ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾ [فاطر:٣] تفهم من هذه الآية أنه إذا عُزي الخلق إلى الله فالمعنى أنّه يخلق شيئاً من لا شيء على غير مثال سابق، وشتّان بين الخلق على غير مثال سابق ومن دأبه التّقليد لمثال سبق.

فليس في الكون كلِّه إلا الله يستطيع أن يصنع شيئاً دون شيء على غير مثال سابق، أما إذا قلت: إن الإنسان يخلق شيئاً فتجد حقيقته واضحة في قول الله عز وجل: ﴿ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ ﴾ [آل عمران:٤٩].

أجل؛ كهيئة الطير وليس طيراً ومن طين، لا من لحم ودم وروح، إذاً لا تناقض بين الآيتين، إذ قال تعالى في الأولى: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ بينما قال تعالى في الثانية: ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ﴾ [يس:٨١]، يعني خلق الجبال وخلق المجرات، أي: إما كثرة الخلق عدداً، وإما عظمة الخلق نوعاً، وهذا معنى الخلاّق.

﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ [الأعراف:٥٤] مما يُطمئن الإنسان أن الذي يخلقه الله عز وجل يبقى رهن أمره، فأنت اطمئن أنَّ كلَّ من حولك وما حولك بيد الله عز وجل.

والآية الثانية ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ [آل عمران:٥٩] فالتراب موجود قبل الخلق، والخلق هو «التقدير»، أي: قدّر

كمية تراب معينة بنوعيتها وخصائصها وطريقتها، وأسلوبها معين، فهنا من خلال آيات كثيرة جداً يأتي الخلق بمعنى التقدير.

ومعلوم أن المراد من قوله ﴿كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾ هو الإيجاد من العدم، إذاً: خلقه من تراب ثم قال له: كن فيكون، إذاً الإيجاد من العدم شيء والخلق شيء آخر.

بل إنَّ بعض العلماء يُفسِّر قوله تعالى: ﴿ لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ أي خلق: قدر، ثم أمر: كن فيكون يعني أوجد من عدم.

الفرق بين الخالق والبارئ والمصور

يقول تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢٤﴾ [الحشر:٢٤].

ولله المثل الأعلى ولكن للتقريب، مهندس خطّط لبناء على الورق، وعِلمُه كلُّه وضعه في هذه الخريطة، الخريطة تضم: خريطة الأساسات، فالطابق الأول والطابق الثاني والدعائم الاسمنتية، والشُّرفات وكلُّه على الورق، فالخلق تقدير، أما البارئ فهو الموجِد من عدم، كن فيكون، والآن جاء دور المتعهِّد فحفر الأساسات وصبَّها، وأشاد الطابق الأول فوضع الإسمنت السائل فوق الحديد المسلَّح إلى أن قام البناء، فالخلق هو التقدير، والبارئ هو الذي أوجد من عدم.

لكنَّ البناء على الهيكل منظره قبيح جداً، فلا بدَّ من عمل آخر وهو إعطاء هذا البناء الشكل المقبول، فجاء دور الطَّيَّان ثم البلَّاط، وأتى دور عامل الكهرباء وزيَّن الشرفات، والجدران من الداخل والخارج، فصار البناء جميلاً جداً، فبين أن تضع العلم كلَّه في أصل البناء، ثم أن تبنيه وتعطيه صورةً محببة، وهذا هو تفسير قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾، المصوِّر يدلُّ على إعطاء الصورة الخارجية، فالذي عنده أطلس تشريح، يرى فيه إنساناً له عضلات، وهو منظر مخيف، فعضلات الوجه

بالعشرات، ويرى إنساناً كلُّه أعصاب، وآخر كلُّه أوعية، وهناك صورة هيكل عظمي، وانظر إلى الإنسان في آخر وضع بعد كسوته بالجلد تجده جميلاً، وانزع الجلد عنه فهناك المنظر المخيف، فربنا أعطاه صورة جميلة ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾.

وإن شاء الله تعالى لنا عودة أخرى لهذا الموضوع في الصفحات القادمة، وبشكل موجز فالخالق هو المقدِّر، والبارئ هو الذي يُوجِد من عدم، والمصوِّر هو الذي يعطي الصورة المناسبة لكل مخلوق، فهذا الإنسان خُلق بعلم، فالقلب والعظام كلُّها خُلقت بعلم، وبعد العلم هناك إيجاد، وبعد الإيجاد هناك صورة أعطاها الله هذا المخلوق كالبناء تماماً.

الفرق بين الخلق والفطر

يقول تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [فاطر:١]، لاحظ الطفلة الصغيرة ما الذي تفعله؟ دع بُنْية جسمها وأعضائها وأنسجتها وأشكالها وخطوطها، فلها بُنية خاصة، وميول خاصة، دعني أطلق عليها البنية النفسية، فهي تميل إلى تربية الأولاد، فقد تضع وسادة على يدها وتربت عليها، أما الطفل فقد يركب قضيباً يتّخذه حصاناً يعدو به، فلماذا اختار الطفل لعبة الحصان؟ واختارت الفتاة وسادة جعلت منها رمزاً لوليد على يدها، هذا يعني أنَّ البُنى النفسية مختلفة وهذه هي الفطرة.

الإنسان هلوع، عجول، ضعيف:

﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ ﴾ [المعارج:١٩-٢١].

﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾ [الإسراء:١١].

﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأنبياء:٣٧].

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [النساء:٢٨].

وفي بعض الآثار: (يا داود ذكر عبادي بإحساني إليهم، فإن النفوس جُبلت على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها)

هذه بنية نفسية، وبُنى جمع بنية، وللبنية النفسية خصائص، فالغنمة لها خصائص بجسمها وعضلاتها وجلدها وصوفها، وهذه البنية الجسمية. ولها خصائص بنفسيتها، يقال «مثل الغنمة» أي: مطواعة، مذلّلة، قال الله تعالى: ﴿ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [يس:٧٢].

فأنت ترى أنها تنساق مع صاحبها إلى حيث يريد وكيفما يريد، وطبيعة الغنم أنها تجتمع بعضها مع بعض فلا يستطيع راعٍ أن يجمع خمسين كلباً بعضهم مع بعض فكلٌّ واحد في جهة، أما قطيع الغنم فيجتمعون، هذه بُنى نفسية، انظر إلى البقرة، وانظر إلى الجمل، يقال لك الجمل حقود، والحصان وفيٌّ، فخصائص نفس المخلوق من الفطرة، أما خصائص جسمه فمن الخَلْق، أعود فأكرر: إنَّ الشَّيء المتعلِّق بجسمه وأعضائه وتشريحه ووظائفه من الخلق، وأمَّا الذي يتعلَّق بخصائص نفسيَّته فهذا من الفطرة لذلك قال تعالى: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم:٣٠]، فالثَّعلب ماكر، والجمل حقود، وهكذا كلُّ حيوان له خصائصه، وهناك حيوانات أهلية وحيوانات متوحشة، وحيوانات مفترسة، وحيوانات وديعة، وربنا قال: ﴿ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

والخلاصة إذاً: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [فاطر:١] فهذا يبرز أن الله سبحان أعطى كلَّ مخلوق خصائص نفسية في التعامل مع الآخرين، وأمَّا الخلق فيبرز الخصائص المادية التي جعلها لكلِّ مخلوق، والخلق تقدير، والبَرءُ هو الإيجاد من عدم، والتصوير هو إعطاء الشيء الصورةَ التي أرادها الله –سبحانه– له

نصيب المؤمن من اسم الله الخالق

إنّ من عرف الخالق فإنّه يتوجه إليه وحده بالعبادة، يقول الله عز وجل: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [البقرة:٢١].

يُفهم من هذه الآية أنَّ الخالق وحده، ولا أحد سواه ينبغي أن تعبده، فإذا توجه الإنسان إلى غير الخالق فقد ضلَّ سواء السبيل، والخالق وحده هو الذي إذا عبدته سعدت بعبادته، وإذا عبدته نجوت من عذابه، وإذا عبدته أفلحت في حياتك، وفُزت بعد مماتك، ودخلت الجنة وسعدت فيها إلى الأبد.

في المعنى المألوف اليوم أنَّ الصانع هو الجهة الوحيدة التي يمكن أن تعطي تعليمات التشغيل، فمثلاً لديك آلة، فما الجهة المخوّلة والوحيدة والتي لها الحقُّ في أن تُصدر تعليمات التشغيل؟ إنه الصانع، فلو أنَّ آلة ثمينة تملكها، واتّبعت في تشغيلها جهةً غير جهة الصانع فقد أفسدتها، وأعطبتها، وأضعفت مردودها وخسرتها، فببساطة بالغة، يقول العقل: لا يُعبَد إلا الصانع، أي لا يُتَّبع إلا الصانع، ولا يُطاع إلا الصانع ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ لماذا؟ ألا يعلم من خلق، فهو عليم خبير حكيم يعرف طبيعة هذه النفس، وما يصلحها وما يفسدها، وما يسعدها وما يشقيها، وما يرفعها وما يخفضها، وما يطمئنها وما يخيفها، إنه هو الخبير، قال الله تعالى: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ١٤﴾ [فاطر:١٤].

أي إنسان واعٍ مَلك جهازاً له قيمته يحرص على سلامته، ويسأل الخبراء المتخصصين دون غيرهم، فقد تشتري سيارة، وتراها ذات مظهر أخّاذ، ولكن تخاف أن يغدر بك البائع، وتسأل قبل شرائها خبيراً، فتقول له: انظر لي هذه السيارة ما قوّتها؟ وما طبيعة محرِّكها؟ ما وضعها العام؟ وما سلامة هيكلها؟ إذاً أنت في أمورك التي تتعامل معها يومياً تبحث عن الخبير، وتبحث عن العليم، وربنا عز وجل قال: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ١٤﴾، فمثلاً في الحياة الزوجية، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ١﴾ [الطلاق:١].

أولاً نهى الرجال عن أن يُخرِجوا زوجاتهم من بيوتهن إذا طُلّقن، ونهى النساء عن أن يَخْرُجْنَ دون إذن أزواجِهن إذا طلِّقن طلاقاً رجعياً، لأنه عليم بطبيعة النفس البشرية، فالرجل والمرأة كلاهما ذو ميل فطري نحو صاحبه، والنفس قد تهدأ فورتها بعد حين، فإذا ابتعد الزوج عن زوجته، تفاقمت الأمور ودخلت جهات كثيرة على خط العلاقة الزوجية، وربما أفسدتها، فإذا بقيت الزوجة في بيت زوجها فأكبر مشكلة في يومين أو ثلاثة تتضاءل بإذن الله، أمَّا إذا خرجت الزوجة إلى بيت أهلها غاضبة فأصغر مشكلة تغدو كبيرة إذا تناولتها ألسنة كثيرة، فتفسد ما بقي صالحاً، فلذلك هذا قانون وضعه الخبير، والصانع والعليم والخالق، قال: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [النساء:٣٤].

فإذا كنت أفضل علماً وخلقاً وورعاً وتقى وقد أنفقت من مالك على زوجتك فلك القوامة، وإذا أردت أن تُفلح في إصلاح ما انخرق بينكما فعُد إلى كتاب الله ففيه الخير والفلاح، لقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ [الإسراء:٩].

ففي أي موضوع... حتى في شأن صحتك، وعلاقتك الخاصة جداً، وكسب رزقك، وفي شأن شيخوختك، عليك بهذا القرآن ففيه الهدى:

يقولون: «من جمع القرآن، متعه الله بعلمه حتى يموت».

وقد استرعى نظري أحد الأطباء وهو يُعالج مريضاً مصاباً بتضيّق شرايين الدماغ، فصار إلى الحركة البطيئة، فقال هذا الطبيب عليكم أن تحدثوه، قلت: وما السرُّ في ذلك؟ قال: إذا حدثتموه اضطرَ أن يُجيب، فإذا أراد أن يجيب تنشَّطت خلايا الدماغ وتوسَّعت الشرايين في الدماغ.

فدماغ المصلي وقارئ القرآن، والعابد لله عز وجل، في نشاط دائم، هل أذّن الظهر؟ وهل دخل الوقت؟ وكم ركعة؟ أول ركعة، الثانية، الثالثة، الأولى مع قراءة، الثالثة بلا قراءة، فهو في نشاط دائم، فإذا قرأ القرآن هنا إدغام، وهنا إظهار، وهنا إخفاء، وهنا قلقلة، وهنا مد طبيعي، فالذهن متّقد دائماً ليس ذلك فحسب وإنما يهتمُّ بما هو أعمق من ذلك فهو يحاول أن يفهم معاني الكلمات ومعاني الآيات، فالإنسان إذا قرأ القرآن فهو في نشاط دماغي دائم، إذاً «من جمع القرآن متعه الله بعقله حتى يموت». قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [طه:١٢٣]، لا يضلُّ عقله، ولا تشقى نفسه.

﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [البقرة:٣٨]، لا يندم على ما فات ولا يخشى مما هو آت.

ونحن ندور حول هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [البقرة:٢١].

فأنت ليسَ لك حقٌّ أن تتبع إنساناً بعيداً عن الله عز وجل، إياك أن تستشير في أمورك شخصاً بعيداً عن كتاب الله، مقطوعاً عن الله عز وجل، لقوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف:٢٨].

﴿ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ﴾ [لقمان:١٥].

إذاً: الجهة الوحيدة في الكون التي تستحق أن تطيعها، وأن تعبدها هو الخالق جل وعلا، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

وقد ذكرت من قبل أن الإنسان إذا تولى جهات أخرى يصاب بهزّات تبعثره، وخيبة أمل تمزّقه، وإحباط يدمّره، لأن أية جهة أخرى قد لا تعطيك الحقيقة، أو قد تعطيك الحقيقة مزوّرة، أو تنقل إليك فكرة مغلوطة لا يؤكدها الواقع، ولا يخفى على أحد أنَّ طمأنينة المرء وسعادته تكمن في أن يعتقد ما صحّ نقله، وما قَبِلَهُ العقل، وما أكّدتُه الفطرة، ما أيّده الواقع، واقعٌ ونقل وعقل وفطرة، هذا هو الحق، فإذا انطلقت في حياتك وفي حركتك اليومية وفي نشاطك من نقل صحيح وعقل راجح ومن واقع موضوعي وفطرة سليمة، وإذا اجتمعت لديك هذه الخطوط الأربعة في دائرة واحدة فأنت مع الحقّ، والذي يكون مع الحقّ لا يخيب ظنُّه ولا يحبط عمله ولا ينقطع رجاؤه ولن يُفاجأ بحدث لم يكن متوقعاً.

وفي آية أخرى قال الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الأنعام:١٠٢].

فالله سبحانه؛ يحتاجه كلُّ شيء في كلِّ شيء فاعبدوه، فلنلاحظ أنَّ أمر العبادة كثيراً ما يأتي في القرآن الكريم بعد اسم الخالق، ﴿ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾، ﴿ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ﴾.

البارئ

ورد هذا الاسم في القرآن الكريم في موضعين اثنين، الأول في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الحشر:٢٤].

وفي آية أخرى: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ ﴾ [البقرة:٥٤].

ولم يرد في السنة.

من معاني اسم الله البارئ

البارئ اسم فاعل، من فعل برأ، يبرأ، برءاً، يعني خلق، فهو البارئ أي الخالق، ولكن اختلاف الاسمين يعني أنَّ الخالق يختص بمعانٍ معينة، و البارئ يختص بمعانٍ أخرى.

في القرآن الكريم كلمات إذا جاءت مجتمعة فلها معنى، وإذا جاءت منفصلة بعضها عن بعض فلها معنى آخر، مثلاً: الفقراء والمساكين، هاتان الكلمتان إذا اجتمعتا تفرقتا، وإذا تفرقتا اجتمعتا، أي إذا ذكر الله في القرآن كلمة المساكين فقط، فالمقصود

عندئذٍ: الفقراء والمساكين، أما إذا ذكرت كلمة الفقراء والمساكين معاً فالفقراء صنف والمساكين صنف، وبناءً عليه إذا وردت كلمة خالق وحدها معزوّة إلى الله عز جل فهو الذي يوجِد من العدم على غير مثال سابق، أما إذا قال الله عز وجل: هو الله الخالق البارئ المصور، صار «الخلق» هو التقدير، و«البَرء» هو الإيجاد من عدم و«التَّصوير» إعطاء الصورة.

وقيل: البارئ هو الخالق على صفة معينة، أما برأ، يبرأ، برءاً، فمعناها سلم من كل نقص، وعيب، ومرض، قال ﷺ: «إنَّ لكلِّ دَاء دَوَاءً، فإذا أُصِيبَ دواءُ الدَّاءِ بَرَأَ بإذن الله» [أخرجه مسلم عن جابر بن عبد الله] [أخرجه الطبراني عبد الله بن مسعود]

البَرء خلق الشيء على صفة تناسب علَّة وجوده، فالله عز وجل أمرنا بالتَّجمُّل، فلم يخلق في الشَّعر عصب حس، لو خلق في الشَّعرة عصب حسٍّ لكنا كالوحوش، لأنَّ الحلاقة تعني عملية جراحية مع تخدير تام، فالله عز وجل خلق كلَّ شيء على صفة تناسب علة وجوده.

لذلك ما كلُّ مخلوق مبروء، لكن كل مبروء مخلوق، خلق اليد، لولا هذا المفصل كيف نستخدمها؟ ينبغي أن نأكل كالقطط، ننبطح ونأكل عن طريق الفم مباشرة فخلق اليد، وخلق المفصل على صفة نستعين بها على طعامنا وشرابنا، خلق الرُّسُغ يدور دورة كاملة، خلق الأصابع، فالبارئ خلق الشيء على نحو يحقق الهدف من وجوده.

إنسان يشدُّ ابنه من يده، لو لم تكن هذه الأربطة تتحمّل وزن الجسم لخُلعت يده، خلق اليد، لكن على نحو لو حملت ابنك من يده فالأربطة تتحمل الوزن بأكمله، وقد تحمله بعنف في ساعة غضب إذاً يجب أن تحمل ضعف الوزن.

ومن الفروق بين الخالق و البارئ أنَّ الإنسان أعطي صفة الخلق في قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ [المؤمنون:١٤].

إلا أن الإنسان خلق شيئاً من كلِّ شيء، على مثال سابق، كما مرَّ معنا، لكنَّ الله البارئ خلق كلَّ شيء من لا شيء على غير مثال سابق.

البارئ اسم ذات، من الفعل اللازم برأ من كُلِّ نقص وعيب، فهو البارئ هذا من أسماء التنزيه، أما اسم فعل من فعل أبرأ أي وهب الحياة للأحياء، بل خلق الأشياء صالحة ومناسبة للغاية التي أرادها، أي أظهر المقدور وفق سابق التقدير.

الأوعية الشريانية عميقة، ضغطها عالٍ جداً، والأوردة تعيد الدم إلى القلب، الضغط فيها ضعيف وهي خارجية، الرَّحِم يتقلَّص تقلُّصاً لطيفاً قبل الولادة، أمّا بعد الولادة فإنّه يتقلَّص تقلُّصاً مفاجئاً عنيفاً جداً، فيصبح الرحم كالصخرة، فيه عشرة آلاف وعاء دموي انقطعت، لئلا يقع النزيف بهذا التقلص الحادّ فيوقف النزيف، لو أنّ الآية عكست لمات الجنين بالضغط، وماتت الأم بالنزيف، فالبارئ خلق كلَّ شيء على نحو مناسب جداً.

المخلوق وُلد الآن، وليس هناك قوّةٌ في الأرض تعلِّمه كيف يمصُّ ثدي أمّه، لكنّ البارئ زوَّده بمنعكس آلي، ما إن يولد الجنين وتلامس إصبع الممرضة فمه حتى يمصّها، خلق البارئ الشيء على نحو يناسب علَّة وجودك.

هذه البويضة تمشي في أنبوب فالوب، من المبيض إلى الرحم، هي كرة كذرَّة الملح، كيف تمشي في قناة فالوب؟ في أرضية القناة أشعار تتحرّك فتنقلها، لولا هذه الأشعار لما وُجد إنسان.

المعدة لحم، والإنسان يأكل اللحم ويهضمه؟ فكيف لا تهضم المعدة نفسها؟!

الهواء يحمل طائرة وزنها ثلاث مئة وخمسون طنّاً، ومع ذلك فهو هواء لطيف تمشي خلاله ولا تراه.

قـــل للهـــــواء تحسُّـــــه الأيــــــدي ... ويخفى عن عيـون النـاس مـن أخفـاك؟
قـــل للنبـــات يجـــفُّ بعـــد تعهُّـــد ... ورعايـــة مـــن بالجفـــاف رمـــاك؟
وإذا رأيـــت النبـــت في الصـــحراء ... يربـــو وحـــده فاســـأله مـــن أربـــاك؟
وإذا رأيـــت البـــدر يســـري نـــاشراً ... أنـــــواره فاســـــأله مـــــن أسراك؟

واسأل شعاع الشمس يدنو وهي أبعد كل شيء ما الذي أدناك؟

بعد الشمس عنا مئة وستة وخمسون مليون كيلو متر، فإذا جلست في الشمس فإنّك تشعر بالدفء.

وإذا رأيت النار شبّ لهيبها فاسأل لهيب النار من أوراك؟
وإذا ترى الجبل الأشم مناطحاً قمم الساجب فاسأله من أرساك؟

من جعل ثلث الجبل فوق الأرض، وثلثيه تحت الأرض، فكانت الجبال أوتاداً.

وإذا ترى صخراً تفجّر بالماء فاسأله من بالماء شقّ صفاك؟
وإذا رأيت النهر بالعذب الزلال جرى فاسأله من الذي أجراك؟

نبع الفيجة في دمشق يعطي ستة عشر متراً في الثانية، تكفي أهل دمشق، مستودعات هذا النبع تصل إلى حمص، وإلى سيف البادية.

﴿وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ٢٢﴾ [الحجر:٢٢].

وإذا رأيت النهر بالعذب الزلال جرى فاسأله من الذي أجراك؟
وإذا رأيت البحر بالملح الأجاج طغى فاسأله من الذي أطغاك؟
وإذا رأيت الليل يغشى داجياً فاسأله من يا ليل حاك دجاك؟
وإذا رأيت الصبح يسفل ضاحياً فاسأله من يا صبح صاغ ضحاك؟
ستجيب ما في الكون من آياته عجب عجاب لو ترى عيناك؟

الصوص في البيضة، كيف يخرج؟ ينمو له نتوء مؤنّف صغير مدبَّب على منخاره، هذا النتوء يكسر القشرة، ويخرج، بعد حين هذا النتوء يضمر ويتلاشى.

العين أنسب مكان لها بالمحجر، الدماغ في الجمجمة، والنخاع الشوكي في العمود الفقري، والقلب في القفص الصدري، والرحم في عظم الحوض، ومعامل كريات الدم الحمراء في نقي العظام.

البارئ خلق المخلوقات على نحو يحقِّق سلامة وجودها، والغاية من خلقها، قال تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل:٨٨].

هذا الاسم شرحته آية كريمة في القرآن الكريم، قال الله عز وجل: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾ [الأعلى:١-٢].

فالبارئ خلق على نحو خاص، لصالح هذا الشيء، لتحقيق مصلحة راجحة، فهذا الذي خلقه سوَّاه مع وظيفته، فجاءت وظيفته بأعلى درجة من الكمال.

عندنا كواكب، وعندنا نجوم، الكوكب منطفئ، والنَّجم ملتهب، نسمي الكواكب والنجوم معاً الأجرام السماوية، الأجرام السماوية تتحرَّك، كل نجم في السماء، وكل كوكب يتحرك، يتحرك بمسار مغلق حول كوكب آخر، لماذا خصّ الله خلق الكون بحركة دائمة، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝١١﴾ [الطارق:١١].

فُهمت في وقت ما على أن السماء ترجع بخار الماء مطراً، يصعد بخار الماء إلى السماء يرجع مطراً، وفُهمت في وقت آخر على أن الأمواج الكهرطيسية تردُّها طبقة في الجو اسمها الأثير، إلى الأرض، ثم فُهمت على أنَّ كل جرم سماوي كوكباً كان أو نجماً يتحرَّك بمسار مغلق، ويرجع إلى مكان انطلاقه.

لأنه لو أنه خلقه على نحو ساكن وبحسب قانون الجاذبية لاجتمع الكون كلُّه في كتلة واحدة، لأن الكتلة الأكبر تجذب الأصغر، لكن ومن خلال الحركة تنشأ قوة نابذة تكافئ القوة الجاذبة فيبقى الكون بهذا التوازن الرائع.

برأ الكون على نحو متحرك، ولو خلقه على نحو ساكن لاجتمع الكون كلُّه في كتلة واحدة.

شيء آخر: الأرض تدور، لو أنَّها تدور حول محور يوازي مستوى دورانها حول الشمس لانتهت الحياة، لأن الوجه المقابل للشمس فيه النهار إلى أبد الآبدين، والوجه الآخر فيه الظلام إلى أبد الآبدين.

لو أن الأرض تدور على محور متعامد على مستوى دورانها، لألغيت الفصول الأربعة.

إذاً الله عز وجل البارئ جعل الأرض تدور على محور لا يوازي مستوي دورانها، عندئذٍ تلغى الحياة، وليس عمودياً على مستوى دورانها عندئذٍ تلغى الفصول الأربعة، ولكنه برأها على نحو أنها تدور على محور مائل.

الماء يتجمد بدرجة الصفر، بعض المعادن ينصهر بدرجة مئة، وكلُّ عنصر في الأرض له درجة انصهار، ودرجة تجمد، تصوَّر أنَّ كلَّ هذه العناصر تتجمَّد في درجة واحدة، وتنصهر في درجة واحدة، إذاً الكون كلُّه إمّا أنَّه غار، أو سائل، أو صلب.

عندك محلٌّ تجاري، له باب حديديٌّ، و أرضيّته من حجر، كيف تعامل هذا الحديد مع الحجر؟ تحتاج إلى قطعة حديد مغروسة في الحجر، كيف يُثبَّت الحديد بالحجر؟ لا حلَّ إلا بمعدن وسيط، ينصهر بدرجة مئة، وإذا تجمد ازداد حجمه، إنّه الرّصاص، يسكبون الرصاص فإذا برد الرصاص زاد حجمه، عندئذٍ تثبت قطعة الحديد في الحجر.

البحار مساحتها أربعة أخماس الأرض، لولا هذه النسبة والتناسب بين مساحة البر والماء لما كان هناك أمطار.

من خلق الهواء يحمل بخار ماء، لو أنَّ الهواء لا يحمل بخار ماء لما كانت هناك حياة، هو يحمل بخار ماء متناسباً مع حرارة الماء والهواء، أي عندما يحمل بخار ماء بدرجة عالية يحمل كمية كبيرة، يصل لمنطقة باردة فيتخلى عن الكمية الزائدة.

﴿خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢)﴾

نصيب المؤمن من اسم الله البارئ

إذا انطلقت في الحياة العملية، ورأيت زيداً وعُبيداً، وحوادث وأفعالاً، ونسيت أن الله هو الذي يخلق كلَّ هذا، ويفعله، وتجري به إرادته، فعندئذٍ نقول لك: أنت

فهمت معنى البارئ، ولكن لم تعش هذا الاسم ولم تفكر به، وبعد فإن السعادة الكبرى الحقيقية، ليست في فهم تعريفات هذه الأسماء، ولكن في أن تعيشها، ولا يمكن لك ذلك إلا إذا اجتهدت وجاهدت نفسك وهواها، وفي ممارسة العمل الصالح وبذل الغالي والرَّخيص والنَّفس والنَّفيس، وعندئذ تُقبِل على الله عز وجل، وإذا أقبلت عليه فإنَّه يلقي في قلبك المعرفة والسكينة والطمأنينة، وعندئذ ترى الله في كلِّ شيء.

لا أريد أن يبقى البحث كما يقولون أكاديمياً، أي: معلومات وتعريفات أملأ بها صفحات الكتاب، بل أريد أن يعيش أحدنا هذه الأسماء، وهذا ينقلنا إلى أنَّ المعلم يختلف عن المربي، فالمعلم إنسان يلقي على الناس حقائق، وأدلة، ومعلومات منظمة، ومبوبة، ومرتبة، ومصنفة مع أدلة قطعية، ونقلية، وعقلية، وواقعية، وفطرية، والبحث منظم ومبوّب، ومبرمج، فهو والله موضوع لطيف، ولكن الذي يسعى إلى أن يصطبغ بصبغة هذا العلم، والذي يسعى؛ ليكون في مستوى هذه الأسماء؛ وأن تمتزج بها نفسه لا أن يفهم تعريفاتها فقط، هو المربي، فأنت أيها القارئ الكريم حاول إذا علّمت الناس أن تكون مربياً؛ لأن كل مربٍّ هو في الأصل معلم، لكن المعلم وحده لا يكفي لملء فراغ النفوس والأفهام، فالكلمة الأخيرة إذاً ترتكز حول اسم البارئ بين أن تفهم تعريفه النظري، أو أن تفهم هذا الاسم، وأن تعيشه مدى الحياة.

لقد ضربت على هذا مثلاً، مفاده أن الإنسان إذا قرأ قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الأحزاب:٧١].

وهذا أخ مستقيم على أمر الله، وله صديق غارق في معصية الله، لكن هذا الصديق ذو بحبوحة كبيرة، ويغبطه صديقه المستقيم على ماله ورخائه وصحته الجيدة، ولكن المستقيم يعاني من كذا وكذا، ويذكره إخوة له صادقون معه: أنت مستقيم وهو غير مستقيم، وتقول: هنيئاً له!!، فإذاً هذا وإن قرأ هذه الآية مرات ومرات: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾، ولم يعِش مفهومها، ولا تأثر بمعناها، فما فهم منها شيئاً.

إن الفرق كبير جداً بين أن تفهم أسماء الله الحسنى بحدودها وتعريفاتها، والفرق بينها وبعض الأدلة وأقوال العلماء فيها، وبين أن تعيش هذه الأسماء، فإذا تأملت الكون وعرفت الله عز وجل وبذلت جهداً كبيراً في طاعته، وفي التقرّب إليه فقد عاد عليك ذلك بالخير الكثير، وهو أنَّ الله يملأ قلبك غنىً، ونَفْسَكَ بصيرةً، وترى عندئذٍ ما لا يراه الآخرون، وتسمع ما لا يسمعون، فهذا هو التمييز، فإذا أردنا أن نُقرر حقيقة وهي أن هذه الأسماء الحسنى ينبغي ألا نكتفي بفهم مدلولاتها وحدودها، وأبعادها وتعريفاتها وما تعنيه في المعاني العامة والخاصة، ولكن ينبغي أن نعيشها ونمتزج بها.

وعن عائشة أنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا نظر في المرآة يقول: «اللهُمَّ أَحْسَنْتَ خَلْقِي فأَحْسِنْ خُلُقِي» [رواه البيهقي في «الدعوات الكبير»، ورواه أحمد دون قوله: كان إذا نظر في المرآة].

فلأشكرنَّك ما حييت وإن أمت فلتشكرنَّك أعظمي في قبرها

فإذاً ليشكر الإنسان الله عز وجل على أن أعطاه قواماً ورأساً فيه سمع وبصر وفم ولسان وأنف، وهذا الخَلْقُ السوي الكامل من نِعَم الله عز وجل كذلك، حتى إذا جاءه مولود ورآه كامل الخِلقَة فهذا من فضل الله عز وجل أيضاً.

فأسماء الله الثلاثة الخالق والبارئ والمصور، أسماء متلازمة متآلفة في غايتها تجمع بينها آصرة واحدة هي العلاقة الوشيجة لعملية الخلق؛ خلقاً وبرءاً وتصويراً.

المصور

ورد هذا الاسم في القرآن الكريم في آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ ﴾ [الحشر:٢٤].

من معاني اسم الله (المصور):

الخالق -كما مرَّ معنا- يخلق كلَّ شيء من لا شيء، على غير مثال سابق، بينما المخلوق إذا عُزي إليه الخلق كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنين:١٤].

فهو يصنع شيئاً من كلِّ شيء، وعلى مثال سابق، أمَّا البارئ فهو الخالق، لكن على نحو معيَّن فيه الحكمة البالغة.

أمَّا المصوِّر فمرحلة ثالثة، فهو جلَّ جلاله خلق كلَّ شيء من لا شيء، وعلى غير مثال سابق، والذي خلقه خلقهُ على نحو كامل، يُنتفع به، ثمّ إنَّ هذا الشيء الذي خلقه على نحو معين أعطاه صورة.

للتَّوضيح: البناء يكون في الأصل على الهيكل، ثمّ بعد ذلك يُكسى ليُنتفع به، بعد الكسوة يُزيَّن، بالطِّلاء الخارجيِّ، والرُّخام، والزّجاج، إلى غير ذلك.

من الآيات التي تؤكِّد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف:١١].

أحياناً تطَّلعون في بعض الصور المدرسيّة التّوضيحيَّة على صورة إنسان على شكل عضلات فقط، منظره مخيف، يأتي هذا الجلد الأملس المشدود، شيء رائع جداً، فالجمال كلُّه في هذه الصورة.

وفي آية أخرى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر:٦٤].

الإنسان متناظِر، يكفي أن يأخذ الخيّاط طول اليد اليمنى، فاليسرى مثلها تماماً، لوجود التناظر، والجلد له لون خاصٌّ، والعين لها لون خاصٌّ، والشعر له لون خاصٌّ وطبيعةٌ خاصّةٌ.

انظر إلى ابنك الصغير، بهذا الجمال الأخَّاذ، مَن صوَّره بهذه الصورة؟ عيون متناظرة، واسعة، خدٌّ أسيل، فيه تورّد أحياناً، شعر بلون رائع.

وفي آية ثالثة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾﴾ [الانفطار:٦].

والله سبحانه وتعالى يخاطب قلبك هنا، ثمَّ يخاطب عقلك فيقول: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار:٧-٨].

لا شكَّ أن بعضكم ممن تقدَّمت به السن، رأى من قبلُ المركبة التي صنعت في عام ألف وتسعمئة وعشر، التشغيل من الأمام، والإضاءة بفانوس يُضاء يدويّاً، والبوق آلة بدائية تعمل على ضغط الهواء، والعجلات ليس فيها هواء، وليس هناك ماصَّات للصدمة، والمحرِّك له حركة واحدة، وازن بين هذه المركبة، ومركبة حديثة، الفرق يكاد لا يُصدَّق، هذا يعني أنَّ خبرة الإنسان تتنامى، لكن هل سمعتم أنَّ إنساناً في الأربعينيات كان بوضع معيّن، ثمّ تمّ تعديله في الخمسينيات؟!

المصوِّر اسم فاعل مِن صوَّر، يصوِّر فهو مصوِّر، والمصدر: تصوير.

ومعنى صوّر الشيء لغةً: جعل له شكلاً خاصّاً معروفاً.

أب عنده عدَّة أولاد، ولكلٍّ ولد صورة، من حيث اللون، الطول، شكل الوجه، لون الشّعر، فجعل الله للشيء شكلاً خاصاً معروفاً.

وصوَّر الشيء: قطَّعه، وفصَّله، وميّزه عن غيره.

ليس هناك في ستة آلاف مليون على سطح الأرض إنسانٌ يشبه الآخر، لا بشكله، ولا بطوله، ولا بلونه، ولا بملامح وجهه، ولا بطريقة مشيه، ولا بطريقة كلامه، ولا بنبرة صوته.

نحن نحتال على هذا الأمر في صناعاتنا فنعطي رقماً للقطعة، المركبة لها رقم، الرقم يميّزها، أمَّا الله عز وجل فيعطيك ملامح خاصَّة.

وصوّر الشيء: جعله على شكل متصوَّر، أمَّا الذات الإلهية فكلُّ ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك، قال تعالى: ﴿ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف:١٤٣].

أمَّا مخلوقات الله عز وجل فبإمكانك أن تتصوَّرها.

الله هو المصوِّر صوّر المخلوقات بشتَّى أنواع الصور، فهناك صور جليَّة، وصور خفيَّة، فأنت تمسك كأس الماء لتشربه، ماء صافٍ عذبٌ زلال، لو وضعت هذا الماء تحت مجهر لرأيت ملايين البكتيريات، فالصورة الجليَّة أنه ماء صافٍ، والصورة الخفيَّة أنَّ هذا الماء فيه ملايين البكتريا النافعة والضرورية.

الصّورة الظاهرة جلد أبيض، صقيل، جميل، رائع، لو وضعت هذا الجلد على مكبِّر، أو على مجهر إلكتروني، فإنَّك ترى التّلال، والوديان، والحفر، وأفواه البراكين، والشَّعر كأنَّه غابة، إذاً هناك صورة ظاهرة، وصورة حقيقيّة، فالله عز وجل صوَّر المخلوقات بشتَّى أنواع الصور.

وبطولة المؤمن أنَّه لا يتعلَّق بالصّورة الظاهرة، لا يُؤخذ ببيت فخم اشترِي بمالٍ حرام، لا يُؤخذ بمركبة فارهة، ركبها صاحبها، وقد ابتزّ أموال الناس، هناك صورة ظاهرة، وصورة خفيّة، وصورة حسيّة، وصورة عقليّة.

حدثني أخ له أستاذ في الجامعة تقاعد، وانحنى ظهره، وضعف بصره، وكان في وضع صعب في آخر حياته، دخل إلى مسجد فرآه يصلي، فهرع إليه، وسلم عليه بأدب جمٍّ، صديقه معه، قال له: مَن هذا؟ قال له: هذا عميد كليّتنا، هذا مِن أعلم علماء النحو، هذا كذا، وكذا، فالصُّورة الظاهرة إنسان متقدِّم في السِّنِّ، منحني الظهر، يرى بصعوبة، يمشي بصعوبة، لكن هذا في حقيقته أكبر عالم في اختصاص معين.

ومن معاني المصوِّر: أنَّ الله يبدع صور المخلوقات، ويزيّنها بحكمته، ويعطي كلَّ مخلوق صورته.

قال لي أحدُهم: ذهبتَ إلى بلاد الغرب فماذا رأيت؟ قلت له: والله على شبكيّة العين إذا كان في الأرض جنَّة فهي هناك، الطرقات، الأبنية، الحدائق، وسائل المواصلات، المطاعم، المقاصف، شيء يصعب تصوُّره، لكن في الدماغ قد تغدو تلك البلاد جهنم.

فبطولتك لا أن تتعامل مع ما ترى، بل أن تتعامل مع الحقيقة المُرّة، وقد تكون الحقيقة المُرة أفضل ألف مَرة من الوهم المريح.

فالحظوظ موزعة في الدنيا توزيع ابتلاء، وتوزيع امتحان، وسوف توزع في الآخرة توزيع جزاء.

كان ﷺ إذا أراد أن يصلي في بيته، لا تتسع غرفته لصلاته ونوم زوجته، لا بد من أن تنزاح جانباً حتى يصلي، وهو سيِّد الخلق، وحبيب الحق، أمينُ هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، دخل بعض الصحابة إلى بيته في الشام، غرفة فيها قِدرٌ مغطاة برغيف خبز، وسيفه معلَّق، وعلى الأرض جلد غزال يجلس عليه، قال له: ما هذا؟! قال له: هو للدنيا، وعلى الدنيا كثير، ألا يبلِّغنا المقيل.

﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ ﴾ [الإسراء:٢١].

قد يكون مع شخص تسعون مليارًا، وغيرُه ما معه ثمن لقمة طعام، وقد يكون بإمكانه أن يقصف هيروشيما بأمر، ويقتل ستمئة ألف إنسان في ثلاث ثوانٍ، وغيره لا يستطيع أن يتحرّر من سجنه: ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ ﴾.

إنسان بأعلى درجة من الغنى، وغيرُه فقير جداً، وإنسانٌ صحيح وغيره مريض، وإنسان قوي وغيره ضعيف، وإنسان وسيم وغيره دميم، وإنسان ذكي جداً وغيره محدود: ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ ﴾ .

اقرؤوا تتمة الآية: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ٢١﴾ [الإسراء:٢١].

درجات الدنيا مؤقتة، ودرجات الآخرة أبدية.

﴿ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ١٨٥﴾ [آل عمران:١٨٥].

كان ﷺ يقول: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة» [أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أنس بن مالك].

فالعبرة لا أن تكون غنيّاً أو قويّاً، العبرة أن تنجح في امتحانك، فإذا نجحت في امتحانك فقد نلت الدرجات العلا، هذا الشيء يسعُ جميع الناس، كلُّ إنسان بحسب ما أقامه الله عز وجل، قد ينجح، ويتفوَّق، وقد يصل إلى أعلى درجات الجنة، والإنسان له ظروف، له إمكانات، له قدرات، له بيئة، عاش في عصر معين، عاش في ظروف وضغوط معينة، هناك عقبات وصوارف، هذا المعنى يؤكِّده النَّبيُّ ﷺ، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالقَابِضِ عَلَى الجَمْرِ» [أخرجه الترمذي].

يتساءل الإنسان عن سباق أحمق بين الناس، يسعى أحدُهم جهده لجمع أكبر ثروة ماليَّة، ويضحِّي بدينه، ومبادئه، وقيمه، ويكذب، ويبتزُّ أموال الناس، ثم يموت،

يسعى إلى أن يكون في أعلى درجات الانغماس في الملذَّات، وبعد أن يصل إلى هذا الهدف يأتيه ملك الموت.

تصوَّر سيارات متسابقة، في نهاية المطاف حفرة ما لها من قرار، الكبيرة سقطت، والصغيرة سقطت، والحديثة سقطت، والقديمة سقطت، ما هذا السباق!.

من هنا قال ﷺ: «بادِرُوا بالأعمال سبعا: هل تُنْظَرون إلا فَقْرا مُنْسيا، أو غِني مُطغيا، أو مَرَضا مُفسِدا، أو هَرَما مُفنِدا، أو موتا مُجْهِزا، والدجالَ؟ والدَّجَّالُ شَرٌّ غائب يُنتَظَرُ والساعةَ؟ والساعةُ أدْهَى وأمرُّ» [أخرجه الترمذي والنسائي عن أبي هريرة].

فنحن جميعاً، ولا أستثني أحدًا في الأرض هل يمكن أن نستيقظ كلَّ يوم كاليوم السابق إلى ما شاء الله؟ لا بدَّ من مفاجأة، فقد ينشأ فقر طارئ، أو غنى يؤدي إلى طغيان، إلى غير ذلك.

وممّا يتَّصل باسم المصوِّر أنَّ النبي ﷺ يقول: «إِذَا قَاتَلَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيَجْتَنِبْ الوَجْهَ، فَإِنَّ الله خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ» [أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة].

الله عز وجل صوَّر آدم، أعطاه صورة، وجعل له سمعاً، والله سميع، وجعل له بصراً، والله بصير، وجعل له علماً، والله عليم.

هذه الصفات يصحُّ إطلاقها في حقِّ الذات الإلهية، ويصحُّ إطلاقها في حقِّ الإنسان، فهناك إنسان عالم؟ والله عز وجل عليم، وهناك إنسان سميع؟ والله سميع، لكن كلُّ ما خطر في بالك فالله بخلاف ذلك.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١].

يقول ابن تيمية رحمه الله: (ما من شيئين إلا بينهما قدر مشترك، وقدر فارق، فمن نفى القدر المشترك فقد عطَّل، ومن نفى القدْر الفارق فقد مثّل) الله عز وجل وصف ذاته العليَّة ببعض الصفات، ووصف نفسه بأنه سميع، فإذا نفيت أن يكون له سمع فقد

عطَّلت اسمًا من أسمائه، وإذا شبَّهت سمعه بسمع الإنسان فقد مثَّلته، فالصفات المتعلقة بالذات الإلهية ممنوع أن تلغيها، وممنوع أن تجسدها، وينبغي أن تفوِّض الأمر إلى الله.

لكن من الصفات المشتركة التي قد يُفهم منها قول النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ على صورَتِهِ».

إن الله عز وجل مريد، يفعل ما يريد.

﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٢١ ﴾ [يوسف:٢١].

﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٠٧ ﴾ [هود:١٠٧].

والإنسان لكرامته عند الله جعله مختاراً.

﴿ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ ﴾ [الكهف:٢٩].

﴿ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ ﴾ [الإنسان:٣].

﴿ وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ ﴾ [البقرة:١٤٨].

هذه الصفة التي وصف بها نفسه منحها للإنسان، لكرامته عنده.

الله عز وجل فرد واحد أحد، صمد، ومنحك بعضاً من هذه الصفة، فليس في أهل الأرض من آدم إلى يوم القيامة إنسان يشبهك.

لك قزحية عين لا يشبهك فيها إنسان آخر، ولك رائحة جلد تنفرد بها من بين ستة آلاف مليون، ولك نبرة صوت ليس على وجه الأرض إنسان يشبهك بها، ولك بصمة يد وهي هوية وتوقيع، ولك زمرة نسيجيَّة، لا يمكن أن يكون في الأرض إنسان زمرته كزمرتك، وثبت أخيراً أن نطفة الإنسان يتميَّز بها عن كلِّ البشر.

وهو جل جلاله بديع السماوات والأرض.

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [البقرة:١١٧].

وجعلك مبدعاً، وفتح لك آفاقاً.

والله عز وجل هو المشرِّع، لكن سمح لك أن تشرِّع جزئياً، عن طريق فهمك للنَّصِّ ظنيِّ الدِّلالة، فلو أنَّ كلَّ النُّصوص قطعية الدِّلالة فلن تجد مجتهداً، ولا فقيهاً.

نصيب المؤمن من اسم الله المصور

إذا صنعت شيئاً فاجعله بصورة حسنة، والعالم الغربيُّ برع في هذا، بضاعته متقنة جداً، وجميلة جداً، ولها غلاف رائع، فإذا صنعت شيئاً ينبغي أن تصنعه وفق صورة حسنة، اجعل الإتقان والجمال في صنعتك.

أحيانا يكون الجمال، لكن بغير إتقان، اعتناء بغلاف الكتاب فقط، والكتاب مصوَّر تصويراً عشوائيَّاً، وهناك صناعة كبيرة جداً ظاهرها جميل، وباطنها غير متقَن، هذا يعد غشَّاً، وأنا أقول: اجعل الإتقان والجمال باطناً وظاهراً لما تقدِّمه للناس من صناعة، أو إنتاج.

وفي الحديث الشَّريف: «إنَّ الله يحبُّ إذا عمل أحدُكم عملاً أن يتقنه» [أخرجه أبو يعلى عن عائشة أم المؤمنين].

إذاً: إتقان الصنعة جزء من الدين، وهناك عدم إتقان يودي بحياة إنسان، فقد لا تتقن معالجة مريض، ولا تبلِّغه أنَّ هذا الدواء يسبِّب حساسيَّة، وقد تكون حساسيَّة قاتلة، وقد لا تنتبه فتعطي دواء لكبير، والمريض طفل صغير.

النبي ﷺ قال لأصحابه: «إنكُم قادِمُونَ على إخوانكم، فَأَصْلحُوا رِحَالَكُم، وأصلحوا لِبَاسَكُم، حتى تكونوا كأنَّكم شَامَةٌ في النَّاسِ» [أخرجه أبو داود عن ابن الحنظلية سهل بن الربيع].

لماذا غير المؤمن أنيق جداً؟ وثيابه جيدة؟ وألوانه متناسبة؟ وبيته جميل؟ مكتبته جميلة؟ لماذا يُهمل المؤمن مظهره أحياناً؟

لا أقول: اشترِ ثياب غالية، بل ثيابك العادية البسيطة اجعلها نظيفة، واجعل بينها تناسقاً فقط، محلُّك التِّجاريّ نظِّمه، فقد تدخل محلاً، أو صيدلية، فلا تجد دواء في محله، أكوام في الأرض، تنفر نفسك من هذه الصيدلية، وصاحبها مسلم، أنت مسلم يجب أن تكون في أعلى درجة من الأناقة، والشكل الحسن، لذلك فالصورة الحسنة، والعناية بالجسم، وباللباس، وبالبيت، وبمكان العمل، وبالمركبة، هذه من لوازم المؤمن.

الحقيقة أنَّ الجمال حاجة أساسيَّة في الإنسان، والإنسان يرتاح لبيت نظيف، ألوانه متناسقة، ليس معنى هذا أن تكون غنيّاً، لكن يرتاح الإنسان لبيت ليس فيه حاجات غير مستعملة، تجد أحياناً مئة حاجة في البيت لا تُستعمل، لكنّها عبء، منظرها عبء، فكلما جعلت البيت بسيطاً وأنيقاً، ونظيفاً ارتاحت نفسك في البيت.

إنّ الأب الذي يعتني بالبيت يشدُّ أبناءه إليه، وإذا كان البيت مهملاً جداً ينفر الابن منه، وأكثر أوقاته في الطريق مع رفاقه، لأنَّ البيت غير مريح، فالعناية بالبيت حكمة بالغة من الأب، والعناية بالبيت تجذب الابن إلى البيت.

ومن أدعية النبي ﷺ إذا سجد: «اللهمَّ لَكَ سَجدْتُ، وبِكَ آمَنْتُ، ولَكَ أسلَمتُ، وأنْتَ رَبِّي، سَجَدَ وَجْهي لِلَّذي خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ، وَشَقَّ سَمعَهُ وبَصرَهُ تَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ» [أخرجه النسائي عن جابر بن عبد الله].

وإذا وقف أمام المرآة، ورأى خلقه، كان يقول: «الحمد لله الذي حسَّن خَلقي وخُلقي» [أخرجه أبو يعلى عبد الله بن عباس].

القادر

سمّى الله ذاته العليَّة بالقادر في القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [المرسلات:٢٣].

وقد ورد الاسم معرّفاً على وجه المدح والكمال والتعظيم في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ [الأنعام:٦٥].

وعند الإمام أحمد من حديث أنس بن مالك ﷺ أنّه قيل: «يا رسول الله! كيف يحشر أهل النار على وجوههم؟ قال: إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر أن يمشيهم على وجوههم» [أحمد عن أنس بن مالك].

من معاني اسم الله القادر

القادر في اللغة اسم فاعل، من فعل قَدر، يقدِر، ويقدُر، قدْراً، والتقدير التروية والتفكير في تسوية الأمور، ويقال قَدْرتُ لأمر كذا إذا نظرت فيه ودبّرته، وقايسته.

القادر سبحانه وتعالى، هو الذي يقدِّر المقادير في علمه، وعلمه هو المرتبة الأولى في قضائه وقدره، فالله عز وجل قدّر كلَّ شيء قبل صنعه. فالبناء الشامخ العملاق، يبدأ بخريطة.

والقادر هو الذي نظّم أمور الخلق، قبل إيجادهم وإمدادهم، لذلك فإن القدَر عند علماء العقيدة مبني على التقدير والقدرة، هناك علم وهناك قدرة، فبدايته في التقدير، قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ [الأحزاب:٣٨].

قدر مقدور، مخطط له، يسبقه علم، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق:٣].

من التقدير، ومن ثمّ إنّ القادر هو الذي يقدِّر المقادير قبل الخلق والتصوير، لكن نحن -البشر- حينما نبني بناء، نأتي بكذا ألف متر من البلاط، لكن لا يوجد إنسان على وجه الأرض، ولا يوجد مهندس يقدر أن يقول لك نحتاج إلى ثلاثة و ثمانين ألف متر وسبع بلاطات، هذا التقدير فوق طاقة البشر، لكنّنا نشتري كمية من البلاط، قد تزيد أو تنقص، أمّا أن يأتي تقدير المساحة مناسباً مئة بالمئة فهذا فوق طاقة البشر.

والقضاء والقدر يتّضح جليّاً في هذا الحديث الصحيح، لما رجع عمر رضي الله عنه عن البلد التي فيها الطاعون: «فقال أبو عُبَيْدَة بنُ الجراح رضي الله عنه: أَفِرارا من قَدَرِ الله؟ فقال عمر: لو غيرُكَ قالها أبو عُبَيْدَة؟ نعم نَفِرُّ من قَدَرِ الله إلى قَدَرِ الله، أرأيتَ لو كانت لك إبلُ، فَهَبَطَتْ وَادِيا له عُدْوَتَان: إحداهما خِصْبَةُ، والأخرى جَدْبة أليس إن رَعَيْتَ الخِصْبةَ رَعَيْتَها بقَدَرِ الله، وإن رعيتَ الجَدْبة رعيتها بقدر الله؟ نعم نَفِرُّ من قَدَرِ الله إلى قَدَرِ الله فجاء عبد الرحمن بن عوف - وكان مُتغيبا في بعض حاجاته - فقال: إن عندي من هذا عِلما، سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إذا سمعتم به بأرض: فلا تَقْدمُوا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها: فلا تخرجوا فِرارا، قال: فَحَمِدَ الله عمرُ بن الخطاب، ثم انصرف» [أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود ومالك عن عبد الرحمن بن عوف].

المرض قدر الله، والصحة قدر الله، نفرُّ من المرض عن طريق الأدوية إلى قدر الله وهو الصّحة.

إن رعت إبلك هذه الأرض الجدباء فإنّها ترعاها بقدر الله، وإن رعت هذه الأرض المخصبة فإنّها ترعاها بقدر الله، ونحن نفرُّ من قدر الله إلى قدر الله.

القضاء هو الحُكْم، والقدَر هو التقدير، فحينما يحكم الله على عبد بالانحراف عن منهجه فإنّه يقدِّر له تدبيراً حكيماً ليردَّه إليه، قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة:٢١].

نقول: يطَّلع الطبيب على مؤشرات ضغط الدم لدى مريض، فيرى الضغط مرتفعاً، يعني ١٦-١٨، الاطلاع على ضغط الدم المرتفع هذا قضاء (حكم) الآن الطبيب يتّخذ قراراً، يمنع المريض من تناول الملح، ويعطيه دواءً مدرّاً بمقادير محدّدة، هذا القدر.

الطّبيب نفسه بعد حين اطّلع على مؤشر الضغط لدى هذا المريض فرآه طبيعياً، هذا هو القضاء، هذا هو الحكم، فقال: أوقفوا حمية الملح، وقدّموا له طعاماً مع الملح، ويخفّض مقدار الدواء المُدِرِّ، هذا هو القدر.

«لكل شيء حقيقة وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه» [أخرجه الطبراني عن أبي الدرداء].

هذا الدين العظيم حاجتنا إليه كحاجتنا إلى الهواء، يجب أن نبّسطه، ويجب أن نطبّقه حتى نقطف ثماره.

التقى مسلم بريطاني أسلم حديثاً بالجالية البريطانية فقال: أنا لا أصدق أن يستطيع العالم الإسلامي اللحاق بالغرب على الأقل في المدى المنظور لاتساع الهوّة بينهما، ولكنني مؤمن أشدَّ الإيمان أن العالم كلَّه سيركع أمام أقدام المسلمين لا لأنّهم أقوياء، ولكن لأنَّ خلاصَ العالم في الإسلام، ولكن بشرط -هنا الشاهد- أن يُحسنوا فهم دينهم، أن يُحسنوا تطبيقه، أن يُحسنوا عرضه على الطرف الآخر.

إضاءات على بعض الآيات التي ورد فيها اسم القادر ومشتقات القدرة

القادر من مادة القدرة، فهو قادر ذو قدرةٍ ومَقْدِرَة، ففي سورة الأنعام قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام:٩١].

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾... أي: ما وصفوه حقَّ صفته. وقدَرَهُ، أي: عرف قَدْرَهُ، قَدَرَهُ من التقدير، قَدَرَهُ من التعظيم، ومنها ليلة القدر فقد قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾﴾ [القدر:١-٢].

قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنعام:٣٧].

والسؤال الذي يفرض نفسه الآن هو: لماذا ينبغي للإنسان أن يعرف الله، وأن يحبَّه؟ لأنه قادر... فالإنسان يحب القوي، وأذكر مثلاً توضيحياً منتزعاً من حياة الناس، فإذا كان هناك إنسان قويٌّ تجد الناسَ ملتفّين حوله ويصادقونه، ويدعونه إلى ولائمهم ويهدونه الهدايا من أجل أن يطمئنوا إلى أنهم على صلةٍ معه.

فالإنسان يزيل عن نفسه الخوف والقلق باعتماده على قوي من بني البشر، فكيف إذا كان اعتماده على الله خالق البشر، الحقيقة: إن الإنسان يحبُّ القويَّ. والقويُّ محترم، وأقوى الأقوياء هو الله عز وجل، لذلك سرُّ قوة المؤمن لا لأنه قوي، هو أضعف الضعفاء، لكنّه يحتمي بقوي.

فأحياناً تجد طفلاً صغيراً لا تستطيع أن تتكلم معه بكلمة قاسية أو بحرفٍ واحدٍ لأنَّ أباه كبير، وإن الطفل ضعيف يمكن أن تضربه لكنك تخشى والده، فهذا الطفل قويٌّ بأبيه لا بذاته، فالمؤمن سرُّ قوَّته أنه يستمدُّ قواه من قوة الله، فإذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكَّل على الله.

لو احتككت مع مؤمن ترى معنوياته عاليةً جداً، فما سرُّ ذلك؟ لا أحد من الناس يدعمه، وليس معه مال كثير يعتمد عليه، وليس حوله أناس يتّكئ عليهم، فما سر قوّته؟ سرُّ قوّته اتكاله على الله، فإذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكَّل على الله.

فتصوَّرْ جيشاً ضخماً على رأسه قائد فذّ، وفي هذا الجيش ابن القائد، برتبة جندي عادي، علاقة الابن مع الأب متينة جداً، فهذا الجنديُّ الذي أبوه قائد الجيش لا يخشى أحداً في هذا الجيش كلِّه مهما علت الرُّتب؟

فحال المؤمن مع الله أنه يرى ويعلم أنَّ كلَّ الخلق بيد الله، وهو مع الله، فسرُّ معنوياته العالية آتيةٌ من هذه النقطة، فقد قال تعالى على لسان أحد أنبيائه: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾ [هود:٥٦].

وهكذا صار واضحاً أنَّ الإنسان إذا شعر بالقوة يقوى على خصمه، ويقوى على شهواته، ويقوى على أعدائه، أمّا إذا شعر بالضعف فيصبح منافقاً، فمع الضعف نفاق، ومع الضعف كذب، ومع الضعف مجاملة، وكلام الضعيف كلامٌ مخزٍ، تجده يتصاغر، يتذلّل، يخنع، الخنوع والتذلل والشعور بالنقص والخوف وبذل ماء الوجه سببه الشعور بالضعف، لو كنت مع الله لرفعت رأسك دون كبر، ودون استطالة على أحد، ودون عدوان، ولكنك تشعر أنَّ الله معك وأنَّ الله لن يتركك ولن يسلمك إلى خصومك.

ومعنى القادر أي ذو القدرة التامة الذي لا يُعجزه شيء، ولا يتقيَّد بأسبابٍ أياً كانت. هو المقدِّرُ بقضائه، المدبِّر لشؤون الكون بقدره وحكمته، فقد قال تعالى: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [المرسلات:٢٣].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأنعام:٦٥].

قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾ [الإسراء:٩٩].

إنَّ الله عز وجل أخبرنا أنه سوف يعيد خلقنا، وسوف تعرض علينا أعمالنا كلُّها عملاً عملاً بكلِّ تفصيلاتها، وسوف نحاسب على هذه الأعمال إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّ، فإذا أنكرنا يوم البعث وأنَّ الله سيحيي من في القبور، فهذا من ضعف تفكيرنا.

وفي سورة الأحقاف قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأحقاف:٣٣].

وفي سورة يس أيضاً قال تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ﴾ [يس:٨١] فيجب أن نؤمن أن الله سيعيد خلقنا وسيحاسبنا، وهذا أكبر رادع للإنسان يحميه من أن ينحرف.

وفي سورة القيامة قال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ [القيامة:٤٠].

وفي سورة الطارق قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ ﴾ [الطارق:٨].

تلاحظ أيها المؤمن أن أكثر أسماء القادر وردت في قدرته على إحياء الموتى وبعث من في القبور، ليحاسب الإنسان على أعماله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

أما القادرون جمع قادر فقد وردت في كتاب الله أربع مرات ففي قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ ﴾ [المؤمنون:١٨].

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ۖ ﴾... بقدر حكيم، بقدر دقيق... ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾. تجد بلداً كلُّ قيمتِهِ بأنهارِهِ فإذا جفَّت الأنهار انتهت قيمة هذا البلد، مثلا: دمشق كلُّها ما قيمتها لولا نبع الفيجة؟ هذا النبع الذي يمدُّها

بالماء على مدار العام ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ١٨﴾ فالله عز وجل قادر على أن يعطي وقادر على أن يأخذ، فإذا أعطى أدهش وإذا أخذ أدهش.

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ٩٥﴾ [المؤمنون:٩٥].

أي أنَّ الله عز وجل وعد المستقيم بحياة طيبة، ووعد المنحرف والمعرض بمعيشةٍ ضنك، والله قادر على أن يُحقق وعده ووعيده لأنَّ الفعل بيده، فلذلك أحد الأدلة الكبرى على أحقية القرآن الكريم أنَّ أفعال الله كلَّها تطابق أقواله في كتابه، مطابقة أفعاله لأقواله شهادةٌ منه بأنَّ هذا الكلام كلامه، وقال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ٤٠﴾ [المعارج:٤٠].

قادرون على كلِّ شيء... فالله عز وجل تعلَّقت قدرته بكل شيء.

إذا توجّهنا بسؤال إلى أطباء كثيرين فهناك أمراضٌ عُضال لا يُرجى شفاؤها، وليس في علم الطب ما يشير إلى أنها تشفى، وهناك حالات كثيرة تجد معها أنَّ المرض قد تراجع بلا سبب، ألم يقل الله عز وجل على لسان سيدنا إبراهيم: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ٨٠﴾ [الشعراء:٧٨-٨٠].

لي صديقٌ قد أصيب بورم خبيث في الرئتين وحكايته هذه منذ عشرين سنة تقريباً، وأُخذت خزعة من رئته إلى كل المخابر حتى إنه قد أرسلت منها قطعة إلى بريطانيا للتحليل، وجاء التشخيص: مرضٌ خبيث من الدرجة الخامسة، ولا أمل في شفائه من مرضه أبداً إلا بزرع رئةٍ في أمريكا، ونجاح العملية نسبته عشرون في المئة، وتكلفة هذه العملية ثمن بيته الذي يسكنه ولا يملك غيره، وقد عاصرت القضية، والذين فحصوا وحللوا وصوَّروا وشخصوا أعرفهم معرفةً تامة وكان قرارهم جميعاً أنه لا أمل في الشفاء، لكن المرض تراجع بعد حين تلقائياً وشُفي المريض. وكيف تراجع هذا المرض تلقائياً والمريض الآن في صحة جيدة ولا يشكو شيئاً والحادثة منذ عشرين عاماً.

إذا اعتقدت جازماً أن الله على كلِّ شيءٍ قدير في كل موضوع؛ يعطيك، يغنيك، يقوِّيك، ويحفظ، يؤيِّدك، ينصرك، يشفيك يحميك، إن اعتقدت ولم يساورك شك أن الله على كل شيءٍ قدير، فأنت في كنف الله ورحمته ورعايته، وإن تعلَّقت به، وقطعت الآمال من سواه، وتوجَّهت إليه وأعرضت عن الخلق، هذا هو الدين، فالدين هو التوحيد الخالص وأن تقطع أملك من الخلق وأن تعلِّق أملك بالحق، أن تيأس من المخلوقين، وأن تتطلع إلى رب المخلوقين.

الإنسان له قدرة، ولكنَّها ناقصة، ولماذا جعلها الله ناقصة؟ ليكون مفتقراً في ضعفه، سعيداً بافتقاره، لو جعله قوياً لاستغنى بقوَّته فشقي باستغنائه... فالإنسان ضعيفٌ، فقد تجد إنساناً ملء السمع والبصر، خثرةٌ دموية في بعض شرايينه تجعله مشلولاً، وخثرةٌ أخرى تجعله أعمى، وخثرةٌ ثالثة يفقد ذاكرته، فالإنسان ضعيف.

فلذلك الإنسان المؤمن لا يفتأ يقول: إن شاء الله، وإن جاءه خير قال: هذا من فضل الله، وإن نجح في عمله... هذا بتوفيق الله، وإن رزقه الله مالاً... هذا من كرم الله، وإن أدَّبه الله عز وجل... هذا من رحمة الله، هذا هو حال المؤمن.

الإنسان قدرته محدودة يكمِّلها بأدوات، والأدوات لا تفعل فعلها إلا أن يأذن الله لها.

فالنبي ﷺ يقول فيما رواه مسلم في صحيحه من حديث جابر رضي الله عنه: «لِكُلِّ داءٍ دَوَاءٌ».

«لكلِّ داءٍ دواء»... فتصور مريضاً يُعاني من مرضٍ قرأ هذا الحديث فبماذا يشعر؟ يشعر بالثقة... القضية سهلة، فكلُّ داءٍ خلقه الله خلق له دواءً، إذا قرأ هذا الحديث طبيب يشعر بالتقصير، إذا كانت هناك أمراضٌ حتى الآن لم يكتشف لها دواء فهذا من تقصير الإنسان، فهذا الحديث يحثُّ الطبيب على أن يكتشف الدواء ويطمئن المريض بأن لمرضه دواءً، ثم يقول ﷺ: «فإذا أُصيب دواء الداء بَرَأَ بإذن الله»، ففلاح الطبيب بتوفيق الله له أن يصيب في تشخيص المرض ووصف الدواء.

ليطمئن المريض وليثق الطبيب فإذا أُصيبَ دواءُ الداءِ، أي إذا شُخِّص المرض تشخيصاً صحيحاً وصف الدواء وصفاً صحيحاً.

فإذا أصيب دواء الداء بَرَأ... لكن بإذن الله... فالله عز وجل لا يسمح للدواء أن يفعل فعله إلا بإذنه.

إن الله أعطى الإنسان قدرةً ناقصة ليفتقر... إن الإنسان خلق هلوعاً... إن الإنسان خلق عجولاً... وخلق الإنسان كذلك ضعيفاً، وبهذه القدرة الناقصة يفعل ويفعل ويطغى ويطغى، هذا الإنسان الضعيف الذي لا يملك زمام نفسِهِ ولو ساعة، لا يعرف فيها ما سيكون، يتحدى ويطغى ويتكبَّر ويقول ويفعل ويقتل بلا رحمة، كما نرى من أعدائنا الألداء كيف يقتلون الأبرياء والصغار، الإنسان على ضعفِهِ يجرم ويطغى، فكيف إذا كان قوياً؟

لهذا قيل: سبحان من قهر عباده بالموت، فالموت يحل مليون مشكلة.

ويقول الله عز وجل: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر: ٢١].

الله تعالى غنيّ، لكن هناك جفاف، فما معناه؟ هذا التقليل في الأمطار تقليل تأديب لا تقليل عجز في بلد إفريقيّ واحد، ينزل من الأمطار في ليلة واحدة أربعمئة ميليمتر، أيّ ضعف ما ينزل من الأمطار في العام كلِّه في دمشق على سبيل المثال. ونهر الأمازون كثافته ثلاثمئة ألف متر مكعب في الثانية، إنّه جلّ جلاله إذا أعطى أدهش.

نصيب المؤمن من اسم الله القادر

قال العلماء: ومن أدب المؤمن مع اسم القادر أن يستشعر حال ذكره هذا الاسم قدرة الله وتقديره وحكمته وتدبيره، فيشعر بعبوديّته وضعفه.

أنت أيها الإنسان بحاجة ماسَّة لأن تعرف من هو الله عز وجل؟ من أجل أن تعرف من أنت أمامه؟ أنت لا شيء... فالذي يقول: أنا وأنا وينسى الكبير المتعال فقد

سها وتعالى بغير حق، بئس العبد مَنْ سها ولها ونسي المبتدى والمنتهى، بئس العبد عبدٌ عتا وتجبَّر ونسي الجبار الأكبر.

فإذا عرف الإنسان القدير وعرف القادر تحجَّم، وإذا عرف عبوديته وافتقاره فعندئذٍ يرقى.

ومن عرف القادر جلَّ جلاله فإنّه لا يخنع، ولا يستسلم، ولا ينبطح، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٣٩) ﴾ [الشورى:٣٩].

هو متواضع لله، يمرِّغ جبهته في أعتاب الله، لكن لا يضعف أمام خصمه.

لكن لا يوجد تطاول، ولا عدوان، لا يوجد بغي، ولا طغيان.

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى:٤٠].

من هنا جاء في الحديث: «إن الله لا يقدس أمة لا يأخذ الضعيف حقه من القوي» [أخرجه الحاكم عن أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب].

أمة ليس فيها عدل، هذه أمة عند الله ليست مقدسة، يروى أنه عقب الحرب العالمية الثانية سأل زعيم بريطاني وزراءه واحداً واحداً، سأل وزير الصناعة، كيف الوضع عندك؟ قال له: المعامل كلها مدمَّرة، سأل وزير الزراعة؟ قال له: الحقول محروقة، سأل وزير الخزانة؟ قال له: الخزانة فارغة، فسأل وزير العدل، كيف العدل عندك؟ قال له: العدل عندي بخير، قال له: كلنا إذاً بخير.

يمكن أن نمرَّ بأزمات طاحنة، ونبقى أمَّة قويّة، أما إذا ذهب الحقُّ والعدل فقد انتهينا عند الله.

إذا كنت مع القادر تشعر بالقوة، وإذا عرفت قدرة الله عز وجل تشعر بالضعف أمامه، فهناك معنيان ضروريان... أحياناً تغيب عن الإنسان قدرة الله عز وجل، فيظلم الناس ويعتدي عليهم ويتحدَّاهم، ويأخذ ما في أيديهم ويُهينهم، فيأتي عقاب الله الرادع

له، فالإنسان إن اعتزَّ بالله شعر بالقوة، وإن رأى قوة الله شعر بالضعف أمامه فتأدَّب بأدبه، فأنت بحاجة إلى أن تعرف قدرة الله كي تقف عند حدِّك، رحم الله عبداً عرف قدره فوقف عنده ولم يتعد طوره.

أحياناً ترى إنساناً يتطاول ويطغى ويعتدي، وكأنَّ الله غير موجود إطلاقاً، وربنا عز وجل يقول: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [البروج:١٢].

فالذي يتحرّك وكأنَّ الله غير موجود هو إنسان غبي وأحمق وجاهل، لأن الله سبحانه وتعالى سيبطش به وسيُحجِّمه وسيوقفه عند حدِّه، أنت بحاجة إلى أن تعرف القادر من أجل أن تعتزَّ به وتقوى به، وأن تستمدَّ منه القوة، نعم؛ أنت بحاجة، وأقولها مرةً ثانية لتعرف الله القادر كي تتحجَّم وكي تقف عند حدِّك وكي لا تتعدى طورك.

الكريم

اسم الكريم ثابت بنصِّ القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار:٦-٨].

واقترن اسم الكريم باسم الغنيِّ، في قوله تعالى: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ۝٤٠﴾ [النمل:٤٠].

في عالم البشر قد تجد الغنيَّ شحيحاً بخيلاً، قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١﴾ [المعارج:١٩-٢١].

لكنَّ الله جل جلاله غنيٌّ كريم، قد تجد إنساناً كريماً لكنه فقير، وقد تجد إنساناً غنياً لكنَّه بخيل، فأن يجتمع الغنى مع الكرم فهذا من أرقى الصفات.

وورد في السّنّة من حديث عليٍّ رضي الله عنه أنّه قال: «قال لي رسول الله ﷺ: يا علي ألا أعلمك كلمات إن قلتهن غفر الله لك، قال: قل: لا إله إلا الله العلي العظيم، لا إله إلا الله الحليم الكريم، لا إله إلا الله سبحان الله رب العرش العظيم» [الترمذي عن علي].

وفي حديث آخر: «إن ربكم تبارك وتعالى حييّ كريم يستحي أن يرفع العبد يديه فيردهما صفراً» [الطبراني في الكبير من حديث ابن عمر مرفوعاً].

وفي الدعاء النبويّ: «اللهم إنك عَفُوٌّ كَرِيمٌ تُحِبُ العَفْوَ فاعْفُ عَنِّي يا كَرِيّم» [أخرجه الترمذي عن عائشة أم المؤمنين].

ومن دعاء النبي ﷺ الذي إذا دخل المسجد: «أعوذ بالله العظيم، وبوجهه الكريم، وسُلطَانِهِ القديم، من الشيطان الرجيم قال: قد قلتَ؟ قال: نعم، قال: فإذا قال ذلك قال الشيطان: حُفِظَ مني سائرَ اليوم» [أخرجه أبو داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص].

من معاني اسم الله الكريم

الكريم صفة مشبَّهة باسم الفاعل، لمن اتَّصف بالكرم، والكرم نقيض اللؤم، والفعل كرُم الرجل كرَماً وكرامة، فهو كريم، والمرأة كريمة، والجمع كُرَماء.

وقبل أن نصل إلى ما تعنيه كلمة كريم في حق الله جل وعلا نريد أن نبدأ الحديث بما تعنيه كلمة كريم في التعامل اليوميِّ، فكلمة كريم نستخدمها كثيراً، قال العلماء: كلُّ صفة محمودةٍ تُسمَّى كرماً على خلاف ما يظنَّه معظم النَّاس، من أنَّ فلاناً كريم يعني أنَّه يُعطي، وعطاؤه كثير.

فكلمة كريم شاملة واسعة: فالحِلم كرم، السَّخاء كرم، اللّطف كرم، الصَّبر كرم، المروءة كرم... فالكرم يعني أيّة صفة حميدة يتَّصف بها الإنسان، بل إنَّ الصفات الحميدة كلَّها تُلخَّص بكلمة واحدة هي الكرم، على حين أنَّ الصَّفات الخسيسة كلَّها تُلخَّص بكلمة واحدة هي اللؤم.

فالخسيس لئيم، والمتكبِّر لئيم، والجَحود لئيم، والذي يرفع ذاته على أكتاف الآخرين لئيم، والبخيل لئيم، كلُّ الصفات الخسيسة تجمعها كلمة لئيم، وكلُّ الصفات المحمودة تجمعها كلمة كريم، فالنَّاس رجلان؛ كريمٌ ولئيم.

إذا أنـت أكرمـت الكـريم ملكتـه   وإن أنـت أكرمـت اللئـيم تمـرَّدا

* * *

أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتدَّ ساعده رماني
وكم علَّمْتُهُ نظم القوافي فلمَّا قال قافية هجاني

والواقع يثبت أنَّ الناس رجلان «فالمؤمن غرٌّ كريم، والفاجر خبٌّ لئيم»، هكذا قال ﷺ(١).

فليس معنى كريم أنَّه الذي يعطي العطاء الكثير فقط، بل إنَّ الحليم كريم، اللطيف كريم، الرحيمَ كريم، الصافي كريم، الودودَ كريم، المُنصفَ كريم، ومنه قولهم: حَجَرٌ كريم: مثل اللؤلؤ، الماس، الياقوت، المرجان.

محمَّد بشر، وليس كالبشر بل هو ياقوتة والنَّاس كالحجر

فالياقوت حجر لكنَّه كريم، والماس حجر لكنَّه كريم، وقد سُئل ﷺ من أكرم الناس؟ قال: «أتقاهم» [متفق عليه من حديث أبي هريرة].

ومن معاني الكريم من كان كريم النسب، من هو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم؟ إنَّه سيِّدنا يوسف ؑ، قال ﷺ: «الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم يوسُف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم» [أخرجه البخاري من حديث ابن عمر].

أو نقول: فلان كريم الطَّرفين، يعني أمُّه كريمة وأبوه كريم، فقد حاز الشَّرف من طرفيه، من طرف أمِّه وأبيه.

من معاني الكريم من كان ذا صورة حسنة، والدليل قول الله عز وجل حينما وصف سيدنا يوسُف، قال الله عز وجل: ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [يوسف:٣١].

---

(١) الغر في كلام العرب: هو الذي لا غائلة ولا باطن له يخالف ظاهره ومن كان هذا سبيله أمن المسلمون من لسانه ويده وهذه صفة المؤمنين. والحديث أخرجه أبو داود والترمذي وأحمد في «مسنده» من حديث أبي هريرة.

فالكرم يُستعمل بمعنى النسب الشريف، ولا يُتحدَّث عن شرف النسب إلا بعد معرفة الله وتطبيق منهجه، فإذا تحدثنا عن النَّسب فقط؛ فقد يعني نسب الدنيا المتعارف عليه عند الناس، فأبو لهب بن عبد المطلب عمُّ النبي ﷺ؛ والقارئ الكريم يعرف من أبو لهب: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾ [المسد:١-٢].

لا نتحدث عن النَّسَب إلا بعد الإيمان، فإذا أضيف النَّسب إلى الإيمان فهو نور على نور، أمَّا قول الشاعر:

جمال الوجه مع قبح النفوس ... كقنديل على قبر المجوسِ

إنَّما يعزِّز المعنى من أنَّ المرء جميل الخِلقة، لا بد له من خُلُق ودين يجمِّله كذلك، فتتم الصورة حسنة صافية.

والكريم في اللغة هو الشّيء الحسن والنفيس، والشّيء الواسع، والفرق بين الكريم والسَّخيِّ أنَّ الكريم كثير الإحسان دون سؤال، وأنَّ السَّخيَّ كثير الإحسان عند السُّؤال.

والكرَم: السَّعة، والعظمة، والشَّرف، والعزَّة، والسَّخاء عند العطاء.

الكريم هو الذي كرّم الإنسان عندما حمل الأمانة، كرّمه وشرَّفه، واستخلفه في الأرض، واستأمنه في ملكه، وفضَّله على كثير من خلقه، قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾ [الإسراء:].

والكريم هو الذي بشَّر عباده المؤمنين بالأجر الكريم الواسع، والمغفرة الواسعة. قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ [الأنفال:٤].

وفي آية أخرى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم:٣٢].

ويقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف:٩٦].

والكريم هو الجواد المُعطي، الذي لا ينفد عطاؤه، ولا ينقطع سخاؤه، الذي يعطي ما يشاء لمن يشاء، إذا أعطى أدهش، وكيف يشاء، بسؤال وبغير سؤال، هو الذي لا يمنّ إذا أعطى، فيكبر العطيَّة بالمنِّ.

أمَّا المقام الكريم؛ فهو الجنة، فلا تعب هناك ولا نَصَب ولا خوف ولا حزن ولا حسد ولا تباغض، ولا شيء يُزعج، ومن كان ذا مقامٍ كريمٍ في الجنة فقد فاز حقّاً.

ومن معاني الكريم؛ الشَّيء العزيز، الذي تشتدُّ الحاجة إليه، ويقلُّ وجوده ولا يُستغني عنه، والدَّليل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات:١٣].

والكريم: الشَّيء الذي تكثُر منافعُه، قال تعالى: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [النمل:٢٩].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [الواقعة:٧٧].

كتابٍ كريم؛ كلُّه منافع، كلُّه فوائد، كلُّه حقائق، كلُّه توجيهات صائبة، كلُّه خيرات، كلُّه بركات، إذاً معنى القرآن الكريم صار واضحاً: لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، القرآن الكريم ليس فيه باطل ولا غلط، ليس فيه خلل ولا تناقض، وليس فيه مخالفة للواقع، ولا ضعف في أسلوبه، ولا غثاثة، ليس فيه معالجة سريعة، ولا معالجة متناقضة، قرآن كريم، خلا من كلِّ شائبة، فالمعنى الذي يجمع كلَّ هذه المعاني، الكرم، قرآن كريم أي: خلا من كلِّ عيب.

كذلك، نقول: ناقة كريمة، أي: غزيرة اللبن، درُّها كثير، والنبي ﷺ حينما أرسل سيدنا معاذاً إلى اليمن، قال له:

«إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْماً أَهْلَ كِتابٍ، فإذا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إلى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إلا اللهُ وأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله، فإنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَواتٍ في كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فإنْ هُمْ أطاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرائِهِمْ، فإنْ هُمْ أطاعُوا لَكَ بِذلِكَ فإِيَّاكَ وكَرَائِمَ أَمْوالِهِمْ، واتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ، فإنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وبَيْنَ الله حِجابٌ» [أخرجه البخاري].

كرائم أموالهم؛ يعني إن كان عنده بقرة يحرص عليها حرصاً شديداً فدعْها له، وخذ بقرة أخرى يختارها لك هو، لا كما يفعل بعض الناس، يأخذ ما يعجبه، وهذا يتعارض مع السنّة الشريفة، فالسنّة كما قال له: «إيّاك وكرائمَ أموالهم».

وسُمِّيَ العنبُ كرْماً لأنها فاكهة كثيرة الخير، ظلٌّ ظليل، وثمار يانعة، وقطوف دانية، وغذاء جيد، وفاكهة محبّبة.

أحياناً ينصب الناس خياماً على مداخل البيوت؛ هذه الخيام من حين لآخر تتمزَّق، تعصف بها الرياح، تُتلفها الأمطار، ولكنَّ أناساً يزرعون الكرم على مداخل البيوت، فهذا الكرم ظل ظليل وفاكهة دانية ويانعة ومفيدة وما شاكل ذلك.

وإذا قلنا: مكارم الأخلاق، فذلك يعني أفضلها وأحسنها وأرفعها وأسماها... فهناك إذاً مكارم الأخلاق، والكرم وهو العنب، وهناك ناقة كريمة كثيرة الدَّرِّ، وهناك الكتاب الكريم، كثير الفوائد، وهناك الأحجار الكريمة الصافية من كلِّ شائبة، وهناك العزيز، الشَّيء النَّادر، وهناك مقام كريم، وهناك الجمال الصوريُّ: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [يوسف:٣١].

فإذا قلت: قرآن كريم فهو كتاب الله، فالله سبحانه وتعالى كماله مطلق وكلامه كمال مطلق، وفضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه.

الآن إذا وصفنا الله سبحانه وتعالى، كما وصف هو نفسه، بأنَّه الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦﴾ [الانفطار:٦].

معنى هذه الآية أنَّ الإنسان قد يغترّ بالله فيظنُّ بالله غير الحق ظنَّ الجاهلية، قد يظنُّه لا يحاسِب ولا يعاقِب ولا يأخذ حقَّ الضعيف من القوي، ولا حقَّ الفقير من الغني، كما لو ظنَّ المتَّهم أنَّ القاضي يأخذ رِشوة فيحكم للظالم ويضيّع حقَّ المظلوم ثم يُفاجأ أن القاضي عادل ونزيه وورع، إذا ظنَّ الإنسان بالله غير الحق ظنَّ الجاهلية فقد اغترَّ بربِّه.

الكريم، هو المنزّه عن كلِّ عدم وعن كلِّ نقص، العزيزُ الذي لا إله غيرُه.

هذا الكلام يُلخّص بصفات ثلاث، وجوده ووحدانيّته وكماله، فالله كريم يعني موجود وواحد وكامل.

الكريم؛ هو الذي يبتدئ بالنِّعمة من غير استحقاق، تفضَّل علينا وأوجدنا دون أن يكون لنا حقٌّ في أن نُوجد، ليس لنا حقٌّ عنده بل تفضَّل علينا وأوجدنا، فنعمة الإيجاد ابتدأها الله دون استحقاق منَّا، أنت مسؤول، وعندك موظَّف، وأخلص إخلاصاً شديداً وقدّم جهداً طيباً، ربما تكافئه، فهذه المكافأة، جاءت منك ليس ابتداءً ولكن عَقِبَ إحسانه وإخلاصه، مقابل شيء فعله، أمَّا الكريم الحقيقي، الكريم المطلق هو الذي يبتدئ بالنعمة دون استحقاق، أوجدنا دون اختيار، ودون طلب. ويتبرع بالإحسان من غير سؤال.

فإذا قلت: يا كريم العفو، قد يعفو عنك شخص، ومن حين لآخر يقول لك: لا تنسَ أنك فعلت كذا، ثم بعد حين يذكِّرك: أنت فعلت كذا؟ فتقول: نعم.. جزاك الله خيراً عفوت عني، من حين لآخر يذكِّرك بمساءتك، لكنَّك إذا قلت: يا رب، يا كريم العفو، فعفو الله عز وجل ليس معناه أن يُلغي العقاب فحسب، وليس معناه أن يُنسي الناس ذنبك أيضاً، ولكن عفو الله معناه، أن ينسيك ذنبك، يعني أنت صاحب الذنب،

ومن كمال عفوه عنك أنَّه ينسيك ذنبك. وقد ورد «إذا تاب العبد توبةً نصوحاً أنسى الله حافظيه وملائكته، وبقاع الأرض كلها خطاياه وذنوبه»، وأنساه هو نفسه ما فعل.

المؤمن -من كرم الله عز وجل- له جاهليّة، وقد ينسى أنَّ له جاهلية، فيعيش في جو لطيف، والله عز وجل يكرمه، هذا معنى كريم العفو.

ومن معاني الكريم أنَّه يستر الذُّنوب ويُخفي العيوب، إنسان قد يلقى من إنسان آلاف الأعمال الطيبة، فإذا عثر ذات مرةٍ على نقص لديه، تشبَّث به وأظهره وأذاعه بين الناس، لذلك «اللهم إني أعوذ بك من جار سوء، إن رأى خيراً كتمه، وإن رأى شرَّاً أذاعه، اللهم إني أعوذ بك من إمام سوء، إن أحسنت لم يقبل، وإن أسأت لم يغفر».

لكنَّ الكريم يغفر الذنوب ويستر العيوب، حتى قال عبد الله بن محمد القحطاني:

والله لو عرفوا قبيح طويَّتي ... لأبى السلام عليَّ من يلقاني
ولأعرضوا عني وملُّوا صحبتي ... ولبُؤت بعد كرامةٍ بهوان
لكنْ سترت معايبي ومثالبي ... وحَلِمْتَ عن سقطي وعن طغياني

فربُّنا عز وجل يُظهر من عبده الكرم الجميل ويستر القبيح، فإذا قلت: يا ستَّار العيوب، يجب أن يقشعرَّ جلدك، لأنَّ الله سبحانه وتعالى إذا ستر ستر حقَّاً، أمَّا الإنسان فلا بدَّ من أن يذكر هذا العيب بأن يهمسه بأذن إنسان آخر يقول: انتبه، هذا الرجل فيه من العيوب كذا وكذا... فهو بذلك ما ستره بل شهَّر به، لكن جميل الستر هو الله سبحانه وتعالى.

ومن المعاني الجميلة أنَّ الكريم يتغافل، الكريم لا يغفل ولكنَّه يتغافل، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [إبراهيم:٤٢].

ويُحكى عن حاتم الأصمّ أنه جاءته امرأة فأثناء صعودها درج السّلم صدر منها صوت كريه فخجلت خجلاً لا حدود له، فلما اقتربت منه، قال: ما اسمك يا أختي؟

قالت له: فلانة، قال: لم أسمع، قالت له: فلانة، قال: لم أسمع، ارفعي صوتك، فأنا سمعي ضعيف، فقالت هذه المرأة لأختها: لم يسمعنا، ولهذا سُمّي حاتماً الأصم وليس بذي صمم.

الكريم يتغافل، واللئيم يتَّبع العيوب.

الكريم يتغافل واللئيم يتَّبع ويتحرَّى، والكريم إذا استغفره عباده غَفَرَ لهم، ولا يذكّرهم بأنواع معاصيهم وقبائحهم وفضائحهم.

مرةً وقفت بمنطقة مشرِفة على دمشق، بيوت كثيرة، متقاربة، متراصَّة، تعدُّ الشَّام خمسة ملايين نسمة، تلوت قوله تعالى: ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الإسراء:١٧].

هذه البيوت لا يعلم ما فيها من طاعات أو من معاصٍ إلا الله، ومع ذلك يرزقهم ويعافيهم: «ليس أحد أصبر على أذى سمعه من الله تعالى، إنهم ليدعون له ولداً وإنه ليعافيهم ويرزقهم» [متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري]، والكريم إذا أتاه عباده بالطاعات اليسيرة قابلهم بالثواب الجزيل.

إنسان يطعم لقمة، هذه اللقمة تصبح يوم القيامة كجبل أُحد، لا أعتقد في الدنيا أن أحداً يقدِّم ليرة ويأخذ بدلاً منها خمسة آلاف مليون ليرة، بالآخرة تأخذ أكثر، أعطيت شيئاً يسيراً، قمت ببعض الطاعات أنفقت بعض مالك، ضبطت شهواتك، التزمت طريق الحق، فأعطاك الجنة وما فيها، قال تعالى: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [آل عمران:١٣٣].

الله الكريم جعل هذا العبد الحقير، هذا العبد الضعيف، هذا العبد الذليل يرتفع، أجل، رفعه فقال: ﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ ﴾ [البقرة:٤٠].

فهل لنا عهد؟ من كرم الله عز وجل أنه خاطبنا، وحينما خاطبنا علّل أوامره، وتعليل الأوامر إكرامٌ لنا، قال تعالى: ﴿ ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ

ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [العنكبوت:٤٥].

الإنسان القويُّ قد يعطي أمراً لإنسان ضعيف دون تعليل فيقول: افعل كذا فقط ولكن الله عز وجل حينما أمرنا ذكر لنا التعليل كرماً منه وطمأنةً لنا، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [البقرة:١٨٣].

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [التوبة:١٠٣].

فلذلك جعلنا أهلاً لمعاهدته فقال: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾.

الله كريم، والكريم جعلنا أهلاً لمحبته، قال تعالى: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة:٥٤].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾ [مريم:٩٦].

الله الكريم أعطانا الدنيا كلَّها، والدليل قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [البقرة:٢٩].

أمَّا الهواء، فهل الهواء في قائمة النِّعَم عندكم؟ أجل، نعمة بلا ثمن فأنت تستنشق الهواء في أيِّ مكان، وكذلك الماء، هذا الذي تدفعه ثمن الطعام، هذا شيء رمزي، من منكم يُصدِّق أنه يدفع ثمن التفاح؟! هذا ثمن خدمة التفاح، فالتُّفاح ليس له ثمن، فهذا الفلاح الذي اعتنى بهذا البستان وسقاه وسمّده وقطف الفواكه وجاء بها إلى السوق، فأجرته ثمن كيلو التفاح، أما التفاح فلا يُقدّر بثمن إذ هو من الله عز وجل.

والآخرة أيضاً ملَّكها لعباده المؤمنين، وسخَّرَ الله سبحانه وتعالى ما في السموات والأرض جميعاً منه، تسخير تكريم وتسخير تعريف.

الكريم هو الذي يعطي من غير مِنّة، من الصعب أن ترى إنساناً يعطيك بلا مِنّة، بل يقول لك: «لحم كتفك من خيري، أنا فضلت عليك، أنا أنقذتك من الهلاك، أنت كنت لا شيء». لكن العطاء مِن الله سبحانه وتعالى من غير مِنّة.

ولا يحوجك إلى وسيلة، أحياناً لا تعطي الشخص حتى تستنفد طاقاته: قدّم طلب أولاً، هات بطاقتك الشخصيّة، اذهب واحضر بعد أسبوع، تعالَ بعد يومين، سنجري تحقيقاً، يكره العطاء لشدة التحقيقات وكثرة التأجيلات والتأخيرات والتعقيدات والوثائق، أمّا الكريم فلا يحوجك إلى وسيلة، والكريم لا يُقنِّط العصاة من توبة، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر:٥٣].

الكريم؛ إذا أعطى أجزل، وإذا عُصي أجمل.

الكريم؛ هو الذي لا تتخطَّاه الآمال... أحياناً يأتيك إنسان ويعرض عليك حاجته، يتذلل، ويبذل ماء وجهه، فتردُّه بعدها، يمحوك من قائمته، ويلغيك من مخيلته، لأنك خيّبت أمله، لكن لا تجد إنساناً يسأل الله عز وجل صادقاً ويخيِّبه فهذا مستحيل، لا تتخطَّاه الآمال... إذا أولى فضلاً أجزله ثم ستره، فالإنسان الكريم إذا أعارك لباساً من ملابسه، فقد يقول لك أمام الناس: البسها ارتدِها لا شيء عليك، يفضحك أمام الناس، كثيراً ما تلاحظ مثل ذلك على شخص أعطى حاجة لإنسان آخر، أو أعاره إياها، فيمنُّ بها أو يعرّض بآخِذِها.

والكريم دائم المعروف كثير النَّوال، ذو الطَّول والإنعام، يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء، هذه كلُّها أوصاف قرآنية.

وإنَّ الله حَيِيٌّ كريم، ومن حيائه وكرمه أنَّه يستحيي من عبده إذا رفع يديه أن يردَّهما خائبتين.

«وما قال عبد قط: يا رب، ثلاثاً، إلا قال الله: لبيك يا عبدي» [الديلمي عن أبي هريرة].

بل إنَّ الكريم يغضب على من لا يسأله، قال ﷺ: «إن الله الكريم يحبُّ الكرماء، جواد يحب الجَوَدَة، يحبُّ معالي الأخلاق ويكره سفسافها» [ابن عساكر بسند صحيح عن سعد بن أبي وقاص].

سفساف الأمور يعني أن يرى شخصاً سخيفاً، والموضوع المعالَج سخيف جداً وهو بخيل وأناني، ومحور حياته مصالحه، هذه سفساف الأمور، أما إذا اطَّلع على قلبك فرآه قلباً يهتمُّ بعامة المسلمين وقضاء حاجاتهم فهذا من مكارم الأخلاق، فالله عز وجل لا ينظر إلى صوركم، فهذا طويل وذاك قصير، هذا عيونه كبيرة، وذاك عيونه صغيرة، هذا ناتئ الوجنتين، والآخر غائر العينين، هذا حواجبه متصلة وغير منفصلة، خدُّه أسيل.

عَنْ أبي هُرَيْرَةَ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «إنّ اللهَ لا يَنْظُرُ إلى صُوَرِكُمْ وأمْوالِكُمْ ولَكِنْ يَنْظُرُ إلى قُلُوبِكُمْ وأعْمالِكُمْ» [صحيح مسلم].

قالوا: الكريم الذي لا يبالي كم أعطى، ولا لمن أعطى، بل إنَّ الكريم مَن إذا رُفعت حاجة إلى غيره لا يرضى.

أحياناً يقصد شخصٌ إنساناً كريماً فيقول له: إياك أن تسأل أحداً غيري، حاجتك عندي مضمونة، فهذه أعلى درجة في الكرم، أنا أغضب لو سألت غيري.

تصوّر إنساناً محتاجاً، والأمر كلُّه بيد الله عز وجل، يقف أمام إنسان ضعيف حقير، لئيم يتذلَّل له، يبذل ماء وجهه أمامه، ثم يردُّه، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى أكرم الأكرمين، فلذلك الكريم من إذا رُفعت حاجة إلى غيره لا يرضى.

الكريم من إذا جُفي عاتب وما استقصى، وعدك أحدهم أن يزورك، لم يأتِ، عاتبتَه، قال لك: ابنتي كانت مريضة، ثم اتَّصلت بجاره فقال: صحيح كانت ابنته مريضة، هذا اسمه استقصاء، هو استحيا منك فقدّم عذراً، مِن الكرم ألا تستقصي الأمر، بل الاستقصاء في هذه المواقف مثلبة.

إنسان اعتذر منك فقل في نفسك: جاءني أخي متنصِّلاً من ذنبه، فأقبل منه محقّاً كان أو مبطلاً، هناك أشخاص، عندهم نفسٌ طويل، فكلَّما اعتذر إنسان إليهم يتَّبعون

الأمر ويلاحقونه؛ يقولون: ظَهَرَ كذاباً، ابنته غير مريضة، هو نسي الموعد واستحيا منك فاعتذر بمرض ابنته، فالكريم؛ من إذا جُفي عاتب ولم يستقصِ.

حديث أسرَّهُ النبي إلى بعض أزواجه، فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرَّف بعضه وأعرض عن بعض، لن تكون كريماً إلا إذا غضضت البصر عن تسعة أشياء، وحاسبت على العاشر، كثرة العتاب تورث البغضاء، فالكريم عَرَّفَ بَعْضَه، وأعرض عن بعض.

الكريم؛ لا يُضيّع من لاذَ به، ولا يضيِّع من التجأ إليه، الملخَّص يجب أن تعتمد على الله وحده، وأن تلتجئ إليه، وأن تُعلِّق عليه كلَّ الآمال، وأن تقطع آمالك من البشر جميعاً، إذا كنت ترغب في أن تسعد في الدنيا والآخرة، فحيثما تعلَّقت بالبشر، واعتمدت عليهم وعقدت عليهم الآمال خيَّبوك.

رجلٌ له صديق تولَّى منصباً رفيعاً، عرضت له حاجة، فذهب إليه، فأقسم بالله أنه وقف أمام مكتبه، ولم يقل له: تفضل استرح، وعندما سأله عما يريد قال: كذا، قال: «مع عدم الموافقة» فهل أصابه مرض قصر البصر، فلم يعد يرى؟ لكنَّ الكريم يُغنيك عن الوسائل والشُّفَعاء، واعلم أن المعروف بتمامه، أن تكرم إنساناً عفواً وسماحة، دون أن تمُنَّ عليه، دون أن تضعه أمام عقبات تعجيزيّة. الكريم من إذا هجرته وصلك.

أحياناً تجد إنساناً بائساً مهتزّاً فقيراً مثلاً، أموره مضطربة، متداخلة، فتنفر نفسه من الدين، تراه يترك الصلاة، لكن الله عز وجل لا يدعه، فقد يُكرمه رغبةً في جبر خاطره، فيحلُّ مشكلته، ويريه مناماً طيباً، فالعبد هَجَرَ لكن الله عز وجل وصل.

الكريم من إذا هجرته وصلك، إذا مرضت عادك، إذا عدت من سفر زارك، إذا افتقرت أحسن إليك، فمن أعمق معاني الكرم، أنَّ الكريم من بني البشر إذا رفعت إليه حاجة عاتب نفسه، لِمَ لم يبادرْ إلى قضائها قبل أن تسأله هذه الحاجة؟

أحياناً يكون لك أخ وافتقر، وكانت حالتك المادية جيدة، وهذا الأخ له كرامته ومكانته وعِزتُهُ ولكنه افتقر، يجوز أن يُسحق سحقاً ولا يسألك، لكن ربما سألك، فاعلم علم اليقين عندئذٍ أنك لما أحوجته إلى أن يسألك فقد أسأت إليه.

إذا كنت كريماً فعلاً فعليك أن تتقصّى شؤون إخوانك وأقربائك، وأخواتك ولا تُحوجهم إلى أن يسألوك، فالكريم من إذا رُفِعت إليه حاجةٌ عاتب نفسه لِمَ لمْ يبادرْ إلى قضائها قبل أن يسأل.

نصيب المؤمن من اسم الله الكريم

وبعد، فما حظ العبد من هذا الاسم؟ قال العلماء: قد يتَّصف العبد بأنه كريم، هذا العبد الكريم إن ألحّ عليه أحد بطلب، أو زارهُ وبقي في زيارته ثلاث ساعات مثلاً، فإنه يتأفَّف ويتضايق، ويسكت، ثم لا يلبث أن يقول للزائر: عندي موعد، فإذا ألَحَّ عليه بالطلب مرات عديدة يضجر، وقد ينهره، وقد يقسو عليه، إذ لا يمكن أن يكون الإنسان كريماً كرماً مطلقاً، فكرم الإنسان كرم نسبي، ألا هكذا فلتعلم، لكنَّ الكريم كرماً مطلقاً هو الله وحده، إن الله يحب المُلحِّين في الدعاء. أحضِرْ لي إنساناً واحداً يحبُّ من يُلحُّ عليه... بل سيقول: يا أخي أضجرتني، سأخرج من جلدي منك، يا أخي اذهب عني.

هذا الإنسان الكريم، أما الله عز وجل «فليس شيء أكرم على الله تعالى من الدعاء» [البخاري في «الأدب المفرد»، وابن ماجه من حديث أبي هريرة]، «من لم يسأل الله يغضب عليه» [البخاري في الأدب المفرد، والترمذي من حديث أبي هريرة]، الإنسان كي يكون كريماً يجب أن يتجاوز عن ذنوب المسيئين، ويجب أن يوصل النفع إلى جميع الخلق، أحياناً ترى بلداً متقدِّماً والمواطن في هذا البلد يحيا أرقى حياة، له حقوق كثيرة جداً، الطّعام، الشّراب، المسكن، أنواع الأطعمة، الخيرات، الحريّات، لكن هذا البلد المتقدِّم الذي يوفر لمواطنيه حياة رفيعة المستوى، ينهش بلحوم بقية الشعوب، إذاً هؤلاء ليسوا كرماء، هؤلاء أنانيون، إذ بنوا أمجادهم وحضارتهم ورفاه شعبهم وغِنى أبنائهم وتوافر الحاجات عندهم على نهب ثروات الآخرين، وعلى قهر الآخرين، هؤلاء ليسوا كرماء، لن تكون كريماً إلا إذا عمَّ نفعك كلَّ الناس وكلَّ الخلق حتى الحيوانات.

عندهم في المداجن؛ إذا كان إنتاج الصيصان أكثر مما هم بحاجة إليه يضعونه في حرّاق ويتلفونه، هكذا في أوروبا، نعم، هكذا التعليمات.

هل يفعل هذا مسلم؟ صوص يُسبِّح الله عز وجل تحرقه، ماذا عمل؟ اجعله ينمو واذبحه وكلْه، واستفد منه ولك أجر بهذا العمل، أما أن تحرقه فهذا هو اللؤم كلُّه.

لن تكون كريماً إلا إذا عمَّ خيرُكَ الناس جميعاً، وأنا أقول لكم: والله إذا أسأت إلى مجوسيٍّ، أو إلى عابد صنم أو إلى مُلحد، والله هذه الإساءة إثمها كإساءتك لمسلم، لأنَّ هذا عَرف الدين من خلال إساءتك أنه عدوان، فأبعدته عن الدين بهذه الإساءة.

الكريم من بني البشر صفوح عن الذنوب، ستّار للعيوب، تارك للانتقام، مسبغ للإنعام.

سمعت حادثة أنَّ إنساناً كان على وشك أن يلقي كيس القمامة في الحاوية، فرأى كيساً فيه حركة، دُهش، أخذ الكيس المتحرك ففتحه فإذا فيه طفل قد وُلد حديثاً، يبدو أنه أُلقي منذ نصف ساعة، أخذه إلى البيت، ثم أسرع به إلى المستشفى، ووضعه في الحاضنة، واعتنى به، إلى أن أصبح هذا الجنين طفلاً، أدخله المدرسة، حتى أنهى الابتدائية، ثم الإعدادي ثم الثانوي، سمعت أنه اعتنى به عناية كبيرة، والخبر انتهى إليَّ هكذا، فلو أنَّ هذا الإنسان تابع العناية، حتى تخرج طبيباً مثلاً، وطلب اختصاصاً فأرسله إلى بلد متقدم وجاء بشهادة عليا، ثم اشترى له عيادة، زوَّجَهُ ابنته، أعطاه رأس مال، هذا الإنسان الذي لقي كلَّ هذا الإنعام، ما موقفه ممن أنعم عليه؟

هذه الحادثة ذكَّرتني بموقف الصحابي الجليل عبد الله بن رواحة، لما رأى صاحبيه قد استُشهدا وهو على وشك موت سريع جداً قال:

يا نفس إلا تقتلي تموتي	هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت	إن تفعلي فعلهما هديت

قال رسول الله ﷺ: أخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل بها حتى قُتل شهيداً، ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى قُتل شهيداً، ثم صمت النبي ﷺ حتى تغيرت وجوه الأنصار وظنوا أنه كان في عبدالله بن رواحة بعض ما يكرهونه قال: «ثم أخذها عبدالله

ابن رواحة فقاتل بها حتى قُتل شهيداً». ثم قال: «لقد رفعوا إليّ في الجنة فيما يرى النائم على سرر من ذهب فرأيت في سرير عبد الله بن رواحة ازوراراً عن سريري صاحبيه فقلت: بم هذا؟ فقيل لي: مضيا وتردد عبد الله بن رواحة بعض التردد ومضى» [رواه الطبراني ورجاله ثقات].

وعودة إلى هذا الجنين الذي كان في الحاوية، إذ بعد ما أصبح طبيباً، وبينما وهو راكب سيارة، شاهد عمه الذي التقطه من الحاوية، قال له: يا بني أوصلني إلى البيت، تردد خمس ثوان، ثمّ قال له: نعم، تفضل، هذا التردد إجرام بحقِّ هذا العم، كان في الحاوية وكان موته محققاً، صنع منه طبيباً يحمل شهادة عليا، فهذا مع إنسان فكيف بخالق الأكوان؟

فلذلك حقُّ الله كبير كبير، قال الله سبحانه وتعالى في حقِّ المنافقين: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [التوبة:٨٤].

فحينما اقترب أجل النبي ﷺ أسرَّ إلى سيدنا حذيفة سرّاً إذ ذكر له سبعة عشر اسماً، وقال له: هؤلاء إذا ماتوا لا تصلّوا عليهم، لأنَّ الله نهانا عن أن نصلي عليهم، هكذا الآية: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

فسيدنا حذيفة أمين سر رسول الله ﷺ، ثم جاء سيدنا الصديق خليفة من بعده، ثم مات سيدنا الصديق، وجاء سيدنا عمر من بعده، سيدنا عمر عملاق الإسلام، الخليفة الراشد، ثاني الخلفاء الراشدين، جاء إلى حذيفة وقال له: يا حذيفة أنشدك الله هل ذكر اسمي بينهم... والله ما قالها تمثيلاً، لا والله، والله قالها صادقاً، قال له: أنشدك الله هل ذكر اسمي بينهم، وذلك لعِظَمِ حق الله عليه، فقد خاف الله أن يكون قد زلّت قدمه، ثم قال: لعلي مقصر، لعلي منافق، لو عثرت بغلة في العراق

لحاسبني الله عنها، جاءه ليلاً من أذربيجان رسول، كره أن يطرق بابه ليلاً، جاء إلى المسجد فرأى رجلاً يصلي ويبكي، ويقول: يا رب هل قبلت توبتي حتى أهنئ نفسي، أم رددتها حتى أعزيها قال له: من أنت؟ قال: أنا عمر، قال: ألا تنام الليل، قال له: يا أخي إن نمت ليلي كلَّه أضعت نفسي أمام ربي، وإن نمت نهاري أضعت رعيتي، في الصباح خيَّره، أتحبُّ أن تأكل مع فقراء المسلمين أم تحبُّ أن تأكل عندي؟ قال: لا بل آكل عندك، ذهب به إلى بيته فما وجد عنده إلا الخبز والملح فقط، ثم قال له: ما الذي جاء بك إلينا؟ قال: جئتك بهذه الهدية من أذربيجان، علبة فيها حلوى، قال: أو يأكل عندكم هذا الطعام عامة المسلمين، قال: لا، هذا طعام الخاصة، الطبقة الراقية، الغنية، فأرسل كتاباً إلى عامله على أذربيجان عنَّفَه فيه، وقال له: كل مما يأكل عامة المسلمين؟ وقال له: أعط هذه الهدية لفقراء المسلمين في المدينة، وحرام على بطن عمر أن يذوق طعاماً لا يطعمه فقراء المسلمين.

ورأى عمر إبلاً سمينة في الطريق، فقال: لمن هذه الإبل؟ قالوا: هي لابنك عبد الله، قال: ائتوني به، قال له بقسوة: لمن هذه؟ قال: هذه إبلي اشتريتها بمالي، وبعثت بها إلى المرعى لتسمن. فهل أخطأت أو أسأت؟ فقد اشتريتها بمالي، وأُسمِّنُها لأبيعها وأرتزق بها، قال له: ويقول الناس: ارعوا هذه الإبل فهي لابن أمير المؤمنين، اسقوا هذه الإبل فهي لابن أمير المؤمنين، وهكذا تسمن إبلك يا ابن أمير المؤمنين.

ثم قال له: بع هذه الإبل، وخذ رأس مالك، وردَّ الباقي لبيت مال المسلمين.

ومرةً بينما هو جالس مع أصحابه، قال أحدهم: والله ما رأينا من هو خيرٌ منك بعد رسول الله ﷺ، أحدَّ إليهم النظر، حتى كاد أن يسحقهم بنظراته، إلى أن قال أحدهم: لا والله لقد رأينا من هو خير منك. قال: من هو؟ قال: أبو بكر، فقال رضي الله عنه: كذبتم جميعاً وصدق... عدَّ سكوتهم كذباً، قال: والله كنت أضل من بعيري، وكان أبو بكر أطيب من ريح المسك.

هذا الذي سأل أحد عمّاله، قال: ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارق أو ناهب؟ قال: أقطع يده، قال له: إذاً، من جاءني من رعيتك جائع أو عاطل فسأقطع يدك، إن الله قد استخلفنا على خلقه لِنَسدَّ جوعتهم، ونَستُرَ عورتهم، ونوفر لهم حِرفَتَهُمْ، إن وفيناهم ذلك تقاضيناهم شُكرها، إن هذه الأيدي خُلقت لتعمل، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً التمست في المعصية أعمالاً، فاشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية.

هذا الخليفة الذي قال لسيدنا حذيفة: أنشدك الله هل ذكر اسمي بين أسماء المنافقين؟ قال: لا، ولا أزكي أحداً بعدك. استحيا سيدنا حذيفة، هذا هو الكرم.

هذا الاسم الإلهي العظيم، علينا أن نتخلّق بأخلاق الله، هذا الكرم، أن تصل من قطعك، وأن تعفو عمن ظلمك، وأن تعطي من حرمك، وأن يكون صمتك فكراً، ونطقك ذكراً، ونظرك عبرةً.

وبعد، فإني أسوق إليكم بعض القصص: إنَّ سيدنا موسى حينما ناجى ربه، قال: يا رب، إنه لتعرض إلي الحاجة أحياناً فأستحيي أن أسألك، أفأسأل غيرك؟ فأوحى الله إليه أن يا موسى لا تسأل غيري، وسلني حتى ملح عجينك وعلف شاتك.

ربنا عز وجل يحب الملحين، لِمَ لا تسألوه في السجود في صلاة السحر؟ لِمَ لا تسألوه حاجاتكم كلَّها؟

حُكِيَ عن علي بن أبي طالب ﷺ أنه جاءه إنسان ليلة يسأله حاجة، فقال: يا غلام ارفع السراج، ولما رفع السراج، قال: سلني حاجتك، لماذا فعل هذا؟ قال: لئلا أرى في وجهه ذُلَّ السؤال حتى لا يُحرج، فلا يستحيي إن عرفنا من هو، هذا من كرم سيدنا علي.

وكذلك أحد العلماء، كان لا يناول الفقير شيئاً بيده، بل يضعه على الطاولة ثم يقول له: خذه. لئلا تكون يده عُليا ويد الفقير سفلى.

يحكى عن أحد الصالحين أنه قال: خرجت يوماً فرأيت جنازةً يحملها أربعة من الزنج، ولم يكن معهم رجل آخر، قلت: سبحان الله، سوق البصرة وجنازة رجل مسلم

لا يشيّعها أحد فلأكوننَّ خامسهم، «إذا رأى رجل جنازة ومشى فيها فهذا حسن، وله أجر ولو لم يعرف صاحبها المحمول، وليتبعها حتى القبر، فلعله إذا فتح النعش، ورأى ماذا فُعل بهذا الميت وكيف وُضع في القبر، وكيف أهيل التراب عليه، أن يعتبر»، فتتبع الجنازة، ثم قال: فمضيت معهم فلما وضعوها بالمصلى، قالوا لي: تقدَّم. قلت: أنتم أولى، قالوا: كلُّنا سواء لا نعرفه، حتى دفنوه، وصليت عليه، وقلت لهم: ما القصة؟ قالوا: اسأل هذه المرأة، فهناك امرأة واقفة بعيداً فلما سألتها، قالت: هذا ابني كان مذنباً، وقال لي: يا أمّاه إذا متُّ فلا تُخبري بوفاتي جيراني لئلا يشمتوا بي، وضعي رجلك على خدي وقولي: هذا جزاء من عصى الله، فإذا دفنتيني فارفعي يديك إلى الله تعالى وقولي: إني راضية عنه.

تقول هذه المرأة: فما رفعت يدي إلى السماء حتى شعرت أنه يقول بلسان فصيح: انصرفي يا أماه فقد قدمت على رب كريم... هذا سِرّ القصة.

فإذا كان الإنسان يخاف الله عز وجل ويستحي منه فهذه فضيلة، أمَّا الأكمل للإنسان أن يكون بالرخاء تائباً منيباً مستقيماً وباب رحمة الله واسع.

أرجو الله سبحانه وتعالى أن يتغمَّدنا برحمته، وأن يلهمنا أن نكون كرماء لأنه كريم، والكريم بالمعنى الموجز ما كان خالياً من كل شائبة فكتاب كريم، ومقام كريم، ورب كريم، وإنسان كريم، ومؤمن كريم.

إنّ الكذب والنميمة والغيبة وتتبع العورات هذه كلُّها تقدح بكرم الإنسان، بل ليسمح لي القارئ الكريم أن أقول: إن هذه المثالب سلبت صاحبها كلَّ فضل وكرم، وأبقت عليه اللؤم وخزي الأحدوثة.

الوَدُود

هذا الاسم ورد معرَّفاً ومنوّناً، معرّفاً في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾ [البروج:١٤-١٦].

ومنوّناً في قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [هود:٩٠].

ولم يرد في السّنّة.

من معاني اسم الله الودود

وَدَّ الشيء وُدّاً، ووِدّاً، ووَدّاً، فهذه كلمة مثلّثة، تأتي على ثلاث حركات ولكنّها هنا بمعنى واحد.

ولها عدّة معان: **الأوّل التمنّي**، قال تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ [البقرة:٩٦].

الثاني: الودّ؛ بمعنى المحبَّة، كما في قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة:٢٢].

الثّالث: الودّ بمعنى المعية، والمرافقة، والمصاحبة، وهو لازم من لوزام المحبة، إن أحببت إنساناً راقبته، صاحبته، كنت معه، كنت كظلّه، فمن المعاني الفرعيَّة الناتجة عن الحب: الملازمة.

عن عبدالله بن عمر: «أن رجلاً من الأعراب لقيه بطريق مكة، فسلم عليه عبدالله، وحمله على حمار كان يركبه، وأعطاه عمامة كانت على رأسه، فقال ابن دينار له: أصلحك الله إنهم الأعراب، وإنهم يرضون باليسير، فقال عبد الله: إن أبا هذا كان وداً لعمر بن الخطاب (كان ملازماً له) وإني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: إنَّ من أَبَرِّ البرِّ صِلَةَ الرجل أهلَ وُدِّ أبيه» [مسلم عن عبد الله بن عمر].

من فضل الله عز وجل أنَّه أتاح للابن أن يكون بارَّاً بوالديه بعد موتهما، حينما يصل الرجل أهل ود أبيه، حينما ينفذ عهد أبيه، حينما يصلِّي على أبيه صلاة الجنازة، حينما يدعو له في كلِّ صلاة، هذه من مسلكيات البرِّ.

الودود على وزن فعول، من صيغ مبالغة اسم الفاعل، واسم الفاعل: وادّ، والمصدر هو الودُّ، إذاً اسم الودود أصله من الودِّ، فماذا تعني كلمة ودّ؟

الودُّ هو الحبُّ، ولماذا سمِّيَ الحُبُّ حُبّاً؟ لأنّه مأخوذ من حَبَب الأسنان، وحبب الأسنان صفاؤها وبياضها ونقاؤها، وأسنان بيض ناصعة نظيفة نقية صافية، فالذي يحبُّ الله عز وجل من خصائصه الصَّفاء والنَّقاء والطُّهر والإخلاص.

والحُبُّ من أحبَّ البعيرُ؛ أي: استناخ، فالمُحبُّ خاضع لمحبوبه؛ فنأخذ من حبب الأسنان الصّفاء والنّقاء، ونأخذ من أَحَبَّ البعيرُ، أي: أناخ؛ أي: خضع، فإنَّ المُحب لمن يحبُّ مطيع، المُحَب: مستعل، والمُحِب خاضع، والمحِب متواضع، والمُحب مُتذلِّل، والحُبُّ

هو القرطُ، والقرط ما تضعه النساء من الحليِّ في آذانهنّ، ومن شأن القِرط أنّه دائم التقلقل، فالمُحِب يتقلّب في اليوم الواحد من عشرين إلى أربعين حالاً، أمَّا هذا الذي يلزم حالاً واحدة فهو منافق؛ فالمحِب يتقلَّب من الخوف إلى الرجاء، إلى السكينة إلى القلق إلى السرور إلى السعادة إلى الشعور بالخطر إلى القلق على محبوبه، وما دام هناك حياة فله حركة، أمَّا الميت فهو ساكن، والذي مات قلبُه تسكُن أحواله، والمنافق يمضي عليه أربعون عاماً ولا يتغيَّر، حالُه حال السُّكون، لكنَّ الحياة فيها غليان، وفيها تقلّب وفيها تغيّر من حال إلى حال. فالحُبُّ؛ إذاً من معانيه: القرط، ومن شأن القرط التقلقل والتَّحرُّك.

والحَبّ؛ من الحبَّة التي تُنبت شجرة، فالحَبُّ له ثمار يانعة مثلُ كلمة طيبة، أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كلَّ حين.

وهذا يعني أنك إذا أحببت الله، فحُبُّكَ لله عز وجل بذرة تنبت شجرة وارفة الظِّلال يانعة الثمار باسقة الأغصان، خيرها دائم وظِلُّها، كلُّ هذه المعاني، الصَّفاء والنَّقاء والخضوع والتذلُّل والتقلقل والنَّماء والخير العميم، أي: كلُّ هذه المعاني مستفادة من الحُبِّ، لكنَّ السؤال المهمَّ: هل الودّ هو الحبُّ؟ وما الفرق بينهما، وهل في اللغة اسمان مختلفان لمسمّىً واحد؟ أم أنَّ الاختلاف في المبنى دليل اختلاف المعنى؟ لا شكَّ أن هناكَ فرقاً بين الحُب والود، الحبُّ ما استقرَّ في القلب، والودُّ ما ظهر على السلوك، فإن كنت تُحبُّ فلانا فمشاعر الميل نحوه هي الحبُّ، وابتسامتك في وجهه هي الودُّ، وإذا قدَّمت له هديةً فهي ودٌّ، أو أعنته في مشكلة فهي ودٌّ، أو عدته في مرض فهي ودٌّ، أو أعطيته هديةً في زواجه فهي ودٌّ، أو نصحته فذلك ودٌّ، فالمشاعر الداخليَّة هي الحبُّ، والظواهر المادية هي الودُّ، فكل ودود محبٌّ، وليسَ كلُّ مُحبٍّ ودوداً.

ويمكن لإنسان أن ينطوي على محبَّة، ولا تظهر في سلوكه، وكلُّ ودودٍ مودَّته أساسها مشاعر الحبِّ في قلبه، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ١٤ ﴾.

كلُّ هذا الكون تودُّدٌ من الله إلى الإنسان، فالكون والمجرَّات والسماوات والأرض، والشمس والقمر، والأمطار، ومليون نوع من السمك، ودٌّ، وتسع مئة ألف

نوع من الطيور ودٌّ، والآلاف المؤلفة من أنواع الأزهار بشتّى الأشكال والروائح ودٌّ، وأنواع الفواكه ودٌّ، وهذا الطفل الصغير الذي يملأ البيت حيوية وُدٌّ، وهذه الزوجة التي خُلقت تكريماً للرجل، وهذا الزوج الذي خُلق تكريماً للمرأة وُدٌّ، وهذا الصوف الذي خلقه الله لنا ليقينا برد الشتاء وُدٌّ، وأيُّ شيء سُخِّرَ لهذا الإنسان هو في الأصل وُدٌّ، والخلق، والكون كلُّه قد سخره الله لهذا الإنسان تسخير تعريف وتكريم، فالوَدود هو الذي ينقل حبَّه إلى سلوك.

وهنا تطالعنا حقيقة ملموسة وهي أنَّ الإنسان إذا أحبَّ فإنّه يميل، فإذا ابتعد المحبوب ألَمَّ بالمحبِّ ألم، وهذا ألمُ الفِراق، وما من إنسان يودِّع محبوباً في المطار إلا ويبكي، وما من أُم يفارقها ابنها إلا وتبكي، فهل يصحُّ هذا المعنى بالنسبة إلى الله عز وجل؟!

إنَّ علماء التوحيد قالوا: «لا، فالميل الذي من شأنه الضعف والتَّحسُّر والألم، هذا لا يصدق على الله عز وجل، ولكنَّ الإنسان إذا أحبَّ أحسن، وإذا أحبَّ خضع، وإذا أحبَّ تذلَّل»، فالإنسان هكذا يفعل، ولكنَّ الله إذا أحبَّ أحسن ورحم وأكرم، فحُبُّ الله عز وجل للمؤمنين ثابت في القرآن الكريم والدليل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [المائدة: ٥٤].

محبَّة الله عز وجل للمؤمن تعني حِفظه، وتأييده، ونصره، وإكرامه، وإنزال الرحمة على قلبه، وإنزال السكينة، وإغناءَه بكل ما يحتاج، هذا هو الحبُّ الإلهيُّ، أمَّا حُبُّ الإنسان لله عز وجل فيعني الميل، فإذا جفاك ربك وأبعدك عن أنواره شعرت بألم لا يطاق.

فما حبُّنا سهلٌ ولكن من ادَّعى ... سهولته قلنا له قد جهلتنا

فأيسر ما في الحبِّ للصبّ قتله ... وأصعب من قتل الفتى يوم هجرنا

والإنسان إذا أحبَّ الله مالَ إليه، وخَلَدَ إلى ظِلِّهِ وإلى أنوارهِ وإلى تجلِّياته وإلى سكينته، وإلى الشعور بأن الله يحميه ويحفظه، لكنَّ حب الله للإنسان يعني التأييد والنَّصر والحفظ، وما شاكل ذلك، أمَّا الوُدُّ فهو ما يتجسَّد به الحبُّ، وهذه مقدمة أظنُّها ضرورية ومفيدة.

ونتجاوز المقدِّمة الآن إلى المعاني التفصيليَّة لمعنى الودود فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ﴾.

الودود بوزن فَعول، والفعول هنا بمعنى فاعل، الوادّ: الذي يُكرِم عباده، والذي تُعَدُّ نِعَمُهُ مظهراً لحُبِهِ لعباده، فأنت مثلاً وعلى نحو بسيط إذا أحببت إنساناً، ورأيت على ظهره نملة، فإنك تُنَحِّيها عنه، وإذا أحببت إنساناً ورأيته يرتجف برداً فإنك تعطيه معطفك، وإذا أحببت إنساناً، ورأيته بحاجة إلى شيءٍ ما فإنَّك تقدِّمه له، فالودُّ هو المظهر المادي للحبِّ، وربنّا عز وجل هو الغفور الودود.

كلُّ هذا الكون مظهر لحبِّه، وكلُّ هذا الكون نوع من أنواع الودِّ الإلهيّ، إنه تودَّدَ إلينا بهذا الكون. ومن أجل ألا نبتعد عن هذا الموضوع كثيراً، فهذه الدّوابُّ ألا تأكل طوال حياتها الشعير فقط، فهو بالنسبة لها المقبلات وهو الحلويات وهو الفواكه، وليس لها غير الشعير والأعشاب، أمَّا الإنسان فيمكن أن يأكل إلى شهر كلَّ يوم لوناً من الطعام، ويمكن أن يتذوّق أنواعاً كثيرة من الفواكه، ويمكن أن يشمَّ الأزهار.

وإذا دخلنا إلى محلِّ عطورات فشيء يأسِر ويدهش، إذ منها ألوف الأنواع، وكلُّها في الأصل من خلق الله عز وجل، فهذا الياسمين وهذا البنفسج وهذا الورد، وكلُّ أنواع الروائح عطاء فيضٍ من خلق الله عز وجل.

خلَقَ هذه الروائح الطيبة، وخلق هذه الحاسَّة التي تشتمُّ من خلالها هذه الروائح الطيبة، إذاً: خَلَقَ الشيء، وخَلَقَ الجهاز المستقبِل له، وخَلَقَ هذه النِّعمة وخَلَقَ ما يستقبِلُها، فهذا هو الودُّ.

إذاً: هنا الودود يعني الوادّ، والودود هو الذي يتودَّد إلى عباده بالنِّعم، فإذا صحَّت الرؤية واستيقظَ القلب وتفتّحَت البصيرة، رأيت أنَّ كلَّ هذا الكون ما هو إلا تودُّدٌ من الله إلى هذا الإنسان.

والآن أنت حينما تصلِّي وتصوم وتحجُّ، وحينما تغضُّ من بصرك وتتصدَّق، وتكون أميناً، وتنصح المسلمين، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتنفق من مالك، كلُّ هذه الأفعال من اعتقادات إلى عبادات إلى معاملات إلى آداب، هي في حقيقتها تودُّدٌ إلى الله عز وجل، هو تودَّد إلينا بالكون، وأوجدنا بالخلق، وسخَّر لنا هذا الكون، وأعدّ لنا جنَّةً عرضها السموات والأرض، ونحن نتودَّد إليه بالإيمان به، وبعبادته وطاعته، وامتثال أمره، وترك ما نهى عنه، وبالتخلّق بأخلاق نبيّه وبالبذل والعطاء، ويكون الكون كلُّه من قبل الله تودُّداً إلى هذا الإنسان، وكلُّ أعمال الإنسان الصالحة هي في حقيقتها تودُّدٌ إلى هذا الخالق العظيم ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ﴾ أي الوادُّ؛ الذي يتودَّد إلى عباده بنعمه.

أسألك بالله عزيزي القارئ، لو دعاك أحدهم إلى بيته، ورأيت هذا البيت مُدفَّأً مسبقاً إكراماً لك، والماء العذب الزلال المُعطّر بماء الزهر، والأرائك، والمشروبات اللذيذة المتقنة والطعام النفيس العطر، والورود والهدايا، ألا تذوب حُبّاً له، ألا تشكره من أعماقك، ثم ألا تقول له: والله يا أخي، فضَّلت عليَّ، والإنسان عبد الإحسان، ولماذا تستحيي إذ أدى إنسان عنك الأجرة في سيارة؟ طوال الطريق تبقى مستحيياً منه: وتقول يا أخي والله أكرمتني... كلُّها من أجل مبلغ زهيد، أو إن جاءك إنسان مهنّئاً ومعه هدية، تحار كيف تُكرمه، ولماذا هذا الإحساس بفضل الإنسان؟ وهذا الفضل الإلهي، وأوّلُه أنَّه خلقك من لا شيء، ألا يستحقُّ منك كامل الاهتمام، قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ ﴾ [الإنسان:١].

هذا الفضل الإلهيُّ دون إحساس، ودون شكر، هل قلت من أعماق أعماقك: يا رب لك الحمد على أن خلقتني؟ يا رب لك الحمد على أن عرّفتني ذاتك، يا رب لك

الحمد على أن أعنتني على طاعتك، ثم يا رب لك الحمد على أن نوّرت قلبي بنورك، ويا رب لك الحمد على أن ألهمتني أعمالاً صالحة، فالله يقول لك: أنا سأسمع؛ فقل وتكلم لأسمعك، ألا تقول له: سَمِع الله لمن حمده، ألا تفعل هذا في الصلاة ألا تقول: سَمِعَ الله لمن حمده، يعني يا عبدي أنا أسمعك فيما تقول، ربَّنا لك الحمد، يا رب لك الحمد ملء السماوات والأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد، يا رب لك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، فما نَشَأَ بقلب الإنسان من شعور عميق بالحمد فلله عز وجل، واذكروا دائماً أنَّ كلَّ هذا الكون تودُّد إليك.

مرةً سافرت إلى الحجِّ، فانتظرني أخ بالمطار، وأخذني إلى بيته، وخصَّص لي سائقاً وسيارة، وأنزلني بأفخم فندق في مكة المكرمة والمدينة المنوَّرة، وأقام دعوتين أو ثلاثاً، ودعا إليها عشرات الأشخاص، وقدَّم معروفاً لا أنساه حتى الموت، وكلَّما جاء إلى الشام أحار كيف أُكرمه، وكيف أُقدِّم له الهدايا وأدعوه، وهو إنسان استضافني عشرة أيام في موسم الحج.

فالنِّعم الإلهية على هذا الإنسان تترى لا حصر لها، فعندما يدخل إلى الخلاء يُفرغ مثانته، دون آلام، ولا حصر بالبول، ولا صراخ، ولا إسعاف إلى المشفى، هذه نعمة عظيمة، بدأت بذكرها لأنَّ كثيراً من الناس غافلون عنها، فهل من مدَّكر.

والقلب يعمل بانتظام، والدّسّام يعمل بانتظام، الأوردة والشرايين والمعدة والأمعاء والكبد والكليتان، وجهاز التنفس والأعصاب، والإنسان يتمتع بنعمة عقله في رأسه، وهذه من نِعم الله العظمى.

فكلُّ هذا الكون تودُّد لهذا الإنسان ويجب أن يكون لسان حال المؤمن: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ [الأنعام:١٦٢].

فحياتي كلُّها، ووقتي كلُّه، وطاقتي ومالي وإمكانياتي وعلمي وأولادي، وبيتي في خدمة عبادك، ومهنتي في خدمة عبادك، ومالي امتثالاً لأمرك وإيماناً بك، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾.

فأنت لم تكن شيئاً مذكوراً، خلقك تنعم من أول لحظة بهديتين نفيستين: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد:٨-١٠].

فأول هدية أنَّه حينما يولد الإنسان يلهمه الله عز وجل عملية بالغة التعقيد هي المصُّ، الآن وُلد، وخلال دقائق يضع شفتيه على حلمة الثّديّ، ويُحكم إغلاقَهما، ويسحب الهواء، فلولا أنَّ الله يُلهمه هذا السلوك المعقَّد لما كنَّا على وجه الأرض جميعاً.

والهدية الثانية؛ هي الأم، مَن هذا الكائن؟ إنَّها الأم؛ آية من آيات الله؛ فوجودها من أجل ابنها، وأعصابها وإدراكها ومشاعرها إنها تتفاعل مع ابنها تفاعلاً عجيباً، وكأنَّ هناك اتصالاً دائماً.

فالأمُّ هديّة، والأب هدية، وقد قال لي رجل: أنا خادم مخلص بلا أجرة، فما أريد في هذه الدنيا سوى طعامي وكسائي، إنني أتعب من أجل أولادي، فالأب خادم لأولاده، يشقى ليسعدوا، ويريد توفير بيت لأحد أبنائه مثلاً، يسعى ليزوّج آخر وهكذا... فالأب هدية، والزوجة هدية والأولاد هدية.

هذا الهواء، وهذا الماء العذب الزلال، ففي كل ثانية تستهلك دمشق ستة عشر متراً مكعباً من مياه عين الفيجة، ماءً مُصفّى عذباً فراتاً، فالماء هدية من الله عز وجل.

وما تقول في أنواع الفواكه أيضاً؟ وكذلك منحك الله عقلاً فأتقنت أعمالك وسعدت به، فإتقان العمل كرامة، ولك دخل ثابت، فهذه حِرفة، وكلٌّ له اختصاص، فهذا طبيب وهذا مهندس، فلذلك بحثنا هذا شامل شمولاً كبيراً جداً، فكلُّ الكون تودُّدٌ من الله إليك، ويجب أن تكون حياتك ومماتك ونُسُكُكَ وعبادتك، ومالك لله، قال أحدهم لشيخه: يا سيدي كم الزكاة؟ فقال: يا بني أعندكم أم عندنا؟ قال: ما هذا السؤال؟ مَن نحن ومَن أنتم؟ قال: عندكم اثنان ونصف بالمئة، أما عندنا، أهلَ الحب فالعبد وماله لسيده.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣].

أول معنى هو يودُّكم، بهذه الصحة، بالنِّعم، بالماء، بالطعام، بالشراب، بالفواكه، بالأسماك، بالأطيار، وأحياناً ترى أسماك زينة، وليست للأكل، ومنها أسود ومنها أخضر ومنها خيوط فانظر هذه الأسماك، لماذا خُلقت؟ من أجلك؟ ومن أجل أن تستمتع بمنظرها فقط، وهذه العصافير الجميلة لماذا خُلقت؟... وهذه الأصوات الرائعة لماذا خُلقت؟ وهذه الرّوائح الزكيّة لماذا خلقت؟ وهذه الورود، اطلّعت على كتاب من ثمانية عشر مجلداً، وفي كلِّ صفحة صورة وردة، ثمانية عشر جزءاً، كلُّ صفحة فيها صورة لنوع من أنواع الورود فلمن هذا؟ أعطوا الدابة وردة فأكلتها، فالذي أعطاها الوردة هو الغبيّ، فهذه للشّمّ وليست للأكل.

وفي الشّتاء في غرفة الجلوس تحبُّ أن تستمتع بنباتات ضمن الغرف لا تحتاج في نموِّها إلى شمس، وهي تنمو وتتنامى، وهي جميلة إنها نباتات صالونات، وهناك نباتات للمياه، ونباتات للحقول.

ثلاث مئة نوع عنب، التّفاح أنواع منوّعة، أخ من إخواننا كان في إفريقيا، أحضر لي موزتين، من غينيا لِمَ هاتان؟ قال: هاتان لأجل القلي، ما هذا الكلام!! هذا للطبخ فقط، وعلى حين أنَّ الموز عندنا فاكهة للأكل، وعندهم للطبخ، ذقتها فوجدتها لا تؤكل نيئة، قليناها مثل البطاطا فهي طيّبة شهيّة، فكم نوعٍ خلق الله من الموز؟ والقمح ثلاثة آلاف وخمس مئة نوع.

أنواع البرتقال، منها غزير ماء، ومنها ناشف، وحلو وحامض كبير وصغير وماوردي، كلُّها مودَّةٌ من الله عز وجل، والنَّوع الواحد من الفاكهة أنواع منوَّعة، هذه المودَّة.

والمعنى الثاني؛ كونه ودوداً، أي: يخلُق المودَّة بين خلقه، فمن ألقى حُبَّ الأبناء في قلوب الأمهات؟ ادخلْ مشفى الأطفال فإنَّك ترى منظراً يُبكي، فالأم البدويّة تبكي من أجل ابنها، والسافرة، والمثقّفة، والجاهلة، والمؤمنة المحجبة كلّهنَّ يبكين، إنّه نمط واحد، فكلُّ هؤلاء الأمهات أودع الله في قلوبهنَّ محبّةً تجاه أبنائهنّ.

إذاً، أحد معاني كلمة: «ودود»؛ أنّه يخلق الودَّ بين عباده، الأب أب، والابن ابن، والأخ أخ، والزوجة زوجة، كلُّهم يتوادّون فيما بينهم، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الروم:٢١].

من خلق هذه المودة؟

لي قريب كان مسافراً خارج القُطر لأربع أو خمس سنوات وعنده في كلّ سنة إجازة شهر، ويأتي كل سنة ليتزوج، فلا يُوفَّق، وتنتهي إجازته، ثم يعود ويسافر، وبعد أن أمضى سنوات عدة توتّر توتُّراً شديداً، ما هذه الظروف المعاكسة؟ يقول: هذا البيت لأهله مشكلة، ولهذه الفتاة مشكلة، وهذه لا تناسب، وفي السنة الرابعة وفي آخر يوم بالإجازة وجد فتاة مناسبة، فأحبَّ ألا يغادر إلا وقد عُقِدَ العقد، إذ والدته تعرّفت إليها عصراً، فتواعدوا في اليوم التالي ظُهراً أن يأتي موظَّف المحكمة ليعقد القران، إقلاع الطائرة الساعة الرابعة عصراً فحدثوني أنَّ هذه الفتاة حينما خرجت بعد أن عُقد قرانها على هذا الشاب وسافر زوجها قد بكت بكاءً شديداً! البارحة كان يوم الخطبة إنه يوم غريب، مداه أربع وعشرون ساعة إلا أنه كان يوماً عجيباً، وفي اليوم التالي كان الوداع فبكت هذه الزوجة وبكت، ولم يمضِ على العقد إلا سويعات، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

المودَّة هنا سلوك يُعبَّر به عن الحبِّ، فالحبُّ شعور داخلي، يعبَّر عنه بابتسامة، بثناء، يعبَّر عنه بمعاونة، بشكر، يُعبَّر عنه بهدية، فإذا كانت المرأة ملء عين زوجها وضمن طموحه أحبَّها، وإذا أحبَّها عبر عن هذا الحب بسلوك لطيف، ابتسامة، محبة، معاونة، هدية، وكذلك المرأة إذا كان زوجها ملء عينها، قوي، وكريم، يدافع عنها أحبّته، وتعبِّر عن حبِّها له بالمودَّة، بخدمته، والبحث عن ما يرضيه.

لكن ولأنَّ هذه المؤسسة؛ العلاقة الزوجية، وهي أقدس علاقة على وجه الأرض وجدت لتبقى، فإن لم يكن سبب بقائها المودة تأتي الرحمة لتكون سبباً آخر لبقائها، كم من امرأة افتقر زوجها، فعملت وأنفقت عليه؟ وكم من زوج أصيبت زوجته بمرض عضال فخدمها أعلى خدمة إلى آخر لحظة في حياتها؟ هذا الزواج الإسلامي شيء عظيم مبني على الودِّ والرحمة، أو عليهما معهاً.

فالمعنى الأول أنَّ الله يودك، والمعنى الثاني يخلق المودة بين خلقه، تدخل إلى سهرة في بيت أهلك فترى مودَّة، منها مزاح ومعاونة، والإنسان كائن اجتماعي، فمن خلقه هذا الخلق؟ يقول لك: سهرنا إلى ساعة متأخِّرة، مسرورين بما بينهم من مودَّة، وأحياناً بحسب السن وبحسب الحِرفة، تجلس مع أطباء يتحدثون عشر ساعات عن حرفتهم مسرورين، ومع المهندسين الشيء نفسه، مع المدرسين، يقول لك مزهواً: الدرس الفلاني أتقنته، والطلاب أعجبوا به، اجلسْ مع التجار يقولون لك: هذه الصفقة ممتازة، وهذه لم تربح، وهذه أرباحنا فيها كانت خيالية، كلُّ مجتمع له حديث ممتع وله ترتيبات، فهذه هي المودّة، خلق بين عباده الودَّ.

المعنى الثالث بمعنى فعول: أي: إن الله سبحانه وتعالى يتودّدُ عبادُه إليه، وهو يتودّد إلى عباده، وهو يخلق المودّة في قلوب عباده بعضهم لبعض، فعباده يتوددون إليه، فهذه ثلاثة معانٍ للودِّ، من الله إلى عباده، ومن العباد إلى ربهم، وبين العباد فيما بينهم. لهذا روي عنه ﷺ: «أفضل الأعمال بعد الإيمان بالله: التودُّدُ للنَّاس» [الطبراني في مكارم الأخلاق عن أبي هريرة].

وأعقلُ عمل، وأحكمُ عمل، وأذكى عمل يفعله المؤمن بعد أن يؤمن بالله أن يتودَّد إلى الناس، حتى يسري الحقُّ إليهم، قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران:١٥٩].

بينما كان الرَّشيد يطوف في البيت الحرام إذ عرض له رجل فقال: يا أمير المؤمنين إني أريد أن أكلِّمك بكلام فيه غلظة، فقال الرشيد: لا، ولا نعمت عين قد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شرٌّ مني فأمره أن يقول قولاً ليناً [البداية والنهاية ١٠/ ٢١٧].

الإمام الرازي كان من كبار العلماء، إنه الفخر الرازي، وله هيبة كبيرة، وله موكب فخم، وقد كان في درسٍ من دروسه، فخرج من المسجد، ثياب أنيقة ومعه تلاميذه، ووجهه منير متألِّق مهيوب، فرآه يهوديٌّ، فقير مسحوق، جوع ومرض وفقر، فنظر هذا الرجل إليه وقال له: يا هذا يقول نبيكم: «الدّنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»(١)، فأيُّ سجن أنت فيه وأيُّ جنّة أنا فيها؟ فقال له الإمام الرازي: يا هذا ما أنا فيه إذا قيس إلى ما أعدَّ الله للمؤمن فأنا في سجن، وما أنت فيه إذا قيس بما أعد الله للعصاة من عذاب فأنت في جنّة، حقاً إنه جواب مفحم، أي: ما أنا فيه من هذا العِزّ إذا قيس إلى ما وعدني الله به من جنة عرضها السموات والأرض فأنا في سجن.

انتقال المؤمن من الدنيا إلى الآخرة كما ينتقل الجنين من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا، فالجنين يعيش في سبع مئة وخمسين سنتمتراً مكعباً بالضبط، والرحم تجويفه قبل الحمل زهاء سنتمترين مكعبين، وكأنه لا يوجد تجويف، بل عبارة عن عضلة على شكل إجاصة، وحجمه في أثناء الحمل أو بأعلى نسبة سبع مئة وخمسين سنتيمتراً مكعباً، والإنسان إذا وُلد ثم كبر وتجوَّل يقول لك: والله كنا في أمريكا واستغرق سفرنا عشر ساعات طيراناً، كان محبوساً في سبع مئة وخمسين سنتمتراً، ثم طار في الأجواء، فكيف ينتقل الإنسان من ضيق الرحم إلى سَعة الدنيا، قالوا: المؤمن حينما يموت ينتقل من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ولهم فيها ما تشتهي الأنفس وتلذُّ الأعين: ﴿إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا

(١) الحديث رواه مسلم وأحمد والترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة ﵁.

﴿فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۝٥٧ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝٥٨ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٩﴾ [يس:٥٥-٥٩].

هذه هي البطولة، أن يأتي هذا اليوم وأنت في منجاة، وأنت من أهل الجنة، نسعى كلُّنا ونجتهد، ونحضر دروس علم، ونغضّ بصرنا ونخاف من الله، ونضبط ألسنتنا، ونضبط جوارحنا، ونقرأ القرآن ويخدم بعضنا بعضاً، حتى يأتي هذا اليوم الذي نسعد فيه.

الودود يحبُّ عباده، يرضى عنهم، يغفر لهم، يرحمهم، يتوب عليهم، يستجيب دعاءهم، يتقبَّل أعمالهم، يوددهم إلى خلقه، فإذا أحبك الله ألقى محبتك في قلوب الخلق، فهو ودود.

لذلك لا تتوهَّم أنَّ الخلق إذا أحبّوك فبجهدك، وبذكائك، وبحنكتك، بل ألقى الله في قلوب الخلق محبّتك، إذا أحب الله عبداً ألقى محبته في قلوب الخلق، والدليل قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ [طه:٣٩].

وأحياناً الله عز وجل يلقي بغض إنسان في قلوب الخلق، لا أحدَ يحبُّه، يكون على مستوى عالٍ من الذكاء، والجمال والمال والقوّة ولا يحبُّه النّاس.

الله الودود يحبُّ رسله، وأولياءه، يتودَّد إليهم بالمغفرة، بالتوبة، باستجابة الدعاء، يرضى عنهم.

﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:١٨].

ويقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ۝٩٦﴾ [مريم:٩٦].

تشعر بمودة مع الله عز وجل، تشعر أن الله يحبك، تشعر أن الله يؤثرك.

هناك معنى آخر: يجعل لهم مودَّة فيما بينهم، لا يستطيع شيء في الأرض أن يقوِّضها.

﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال:٦٣].

وفي الحديث الشّريف: «إِنَّ اللهَ إِذا أحبَّ عبدا دعا جبريلَ، فقال: إِني أحبُّ فلاناً فأحِبَّه، قال: فيُحِبُّه جبريلُ، ثم ينادي في السماءِ، فيقول: إِنَّ اللهَ يحبُّ فلاناً فأحِبُّوه، فيحبُّه أهل السماء، ثم يوضَعُ له القَبُولُ في الأرض» [البخاري عن أبي هريرة] .

الوُدُ بين المؤمنين من خلق الله عز وجل، وعلامة هذا الوُدِّ أَنَّك لكلِّ المؤمنين وأنَّ كلَّ المؤمنين لك، يؤلمك ما يؤلمهم، يُسعدك ما يُسعدهم.

السّرّ العميق في الودِّ بين المؤمنين أنَّ هناك تقاطعات لا تنتهي في شخصياتهم، يعني أنت مؤمن وأخوك مؤمن، أنت تتمتع بحياء، وأخوك يتمتّع بحياء، أنت تتمتع بضبط لسان، وأخوك يتمتع بضبط لسان، أنت تنفق مالك في وجوه الخير وهو كذلك، أنت ترحم من حولك وهو كذلك، فكلما كثرت المشتركات بين المؤمنين ازداد الحب بينهم، بل كلما ازدادت التقاطعات بين شخصيتين تعلَّق كلٌّ منهما بالآخر، لأن القواسم المشتركة والتقاطعات في سمات الشخصين، أو المؤمنين كثيرة جداً، إذاً العلاقات متينة جداً، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠].

ابن عباس يُعرِّف الودود بأنه الحبيب، المجيد، الكريم، ولله عز وجل الودود يؤيد رسله، ينصر عباده الصالحين بمعيته الخاصة. فلا يُخيِّب رجاءهم، ولا يردُّ دعاءهم، وهو عند حسن ظنِّهم به.

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤].

وهو الودود لعامّة خلقه، بواسع كرمه، وسابغ نعمه، يؤخِّر العقاب عنهم، لعلَّهم يرجعون إليه.

قال ابن القيم: أمَّا الودود ففيه قولان، أحدهما: أنَّه بمعنى فاعل، الذي يحب أنبياءه ورسله والمؤمنين، والثاني بمعنى مودود أي محبوب، أنَّ الله سبحانه وتعالى هو وحده يستحقُّ أن تعبده، ويستحق أن تحبَّه.

وبعد، فهناك سؤال لا بدَّ منه: هل الودُّ هو الرَّحمة؟ فهمنا أنّ الودّ هو الحبُّ والحبُّ مشاعر داخليَّة تنتقل إلى سلوك مادي، هذا هو الودّ، الود والمحبة وجهان لشيء واحد، يمثل الإخلاص والعبادة، من الداخل إخلاص ومن الظاهر طاعة، فالشعور الداخلي حب، والسلوك العمليُّ مودة.

وهل هناك فرق بين المودة والرحمة؟ إنَّه لفرق كبير، فالرَّحمة متعلِّقة بمخلوق ضعيف، بمخلوق يستجير، وبإنسان مريض وبإنسان معذَّب، بإنسان فقير، فأنت ترحمه! أما الود فليس للضعيف، فأنت حين تعطي إنساناً ما شيئاً من الأشياء دون أن يسألك، فابتداءً هذا هو التودُّد وأحياناً يطرق بابك إنسان، فيتوسَّل إليك ويقول: أقرضني أرجوك أسعفني، اقبلني عندك ضيفاً، أو أوصلني إلى هذا المكان، أو ارحمني خذني إلى الطبيب الفلاني، فهذا إنسان مستجير، وأنت إذا فعلت ما يناسب فما اسمك؟ اسمك رحيم، وذاك مخلوق ضعيف استجار بك، أما إذا زُرتَ صديقاً في أوج صحّته وقوَّته وشبابه، ومكانته، وأعطيته هديّة بمناسبة زواجه، وهو لم يستجر بك، فالودُّ ابتداءً، وأمّا الرحمة فيسبِقُها طلب في الغالب، والودُّ لغير الضعيف، والفقير والمستجير، هناك فرق بين الودِّ والرحمة، فربنا عز وجل حينما خلقنا كان ودوداً، ونحن لم نكن موجودين، فهو خلقنا وأكرمنا وأنعم علينا، مودَّته لنا ابتداءً وهي أرقى بكثير.

حُكي عن العباس صاحب شرطة المأمون قال: دخلت يوماً مجلس أمير المؤمنين ببغداد وبين يديه رجل مكبَّل بالحديد، فلما رآني قال لي: عباس! قلت: لبيك يا أمير المؤمنين! قال: خذ هذا إليك فاستوثق منه واحتفظ به وبكِّر به إليّ في غد، واحترز عليه كلَّ الاحتراز، قال العباس: فدعوت جماعة فحملوه ولم يقدر أن يتحرَّك، فقلت في نفسي معْ هذه الوصية التي أوصاني بها أمير المؤمنين من الاحتفاظ به ما يجب إلا أن

يكون معي في بيتي فأمرتهم فتركوه في مجلس لي في داري، ثم أخذت أسأله عن قضيته وعن حاله ومن أين هو، فقال: أنا من دمشق، فقلت: جزى الله أهلها خيراً، فمن أنت من أهلها؟ قال: وعمن تسأل؟ قلت: أتعرف فلاناً؟ قال: ومن أين تعرف ذلك الرجل؟ فقلت: وقع لي معه قضية! فقال: ما كنت بالذي أعرِّفك خبره حتى تعرِّفني قضيَّتك معه، فقال: ويحك كنت مع بعض الولاة بدمشق، فبغى أهلها وخرجوا علينا، حتى إن الواليّ تدلى في زنبيل من قصر الحجاج وهرب هو وأصحابه وهربت في جملة القوم، فبينما أنا هارب في بعض الدروب وإذا بجماعة يعدون خلفي، فما زلت أعدو أمامهم حتى فتُّهم، فمررت بهذا الرجل الذي ذكرته لك، وهو جالس على باب داره، فقلت: أغثني أغاثك الله! قال: لا بأس عليك ادخل الدار، فدخلت فقالت زوجته: ادخل تلك المقصورة فدخلتها، ووقف الرجل على باب الدار، فما شعرت إلا وقد دخل والرجال معه يقولون: هو والله عندك، فقال: دونكم الدار ففتِّشوها حتى لم يبقَ سوى تلك المقصورة وامرأته فيها فقالوا: هو ههنا فصاحت بهم المرأة ونهرهم فانصرفوا، وخرج الرجل وجلس على باب داره ساعة وأنا قائم أرجف ما تحملني رجلاي من شدة الخوف، فقالت المرأة: لا بأس عليك، فجلست فلم ألبث حتى دخل الرجل، فقال: لا تخف قد صرف الله عنك شرَّهم وصرت إلى الأمن والدَّعة إن شاء الله تعالى، فقلت له: جزاك الله خيراً فما زال يعاشرني أحسن معاشرة وأجملها، وأفرد لي مكاناً في داره ولم يحوجني إلى شيء، ولم يفتر عن تفقد أحوالي فأقمت عنده أربعة أشهر في أرغد عيش وأهنئه إلى أن سكنت الفتنة وهدأت وزال أثرها، فقلت له: أتأذن لي في الخروج حتى أتفقَّد حال غلماني؟ فلعلي أقف منهم على خبر فأخذ علي المواثيق بالرجوع إليه، فخرجت وطلبت غلماني، فلم أرَ لهم أثراً فرجعت إليه وأعلمته الخبر، وهو مع هذا كلِّه لا يعرفني ولا يسألني، ولا يعرف اسمي ولا يخاطبني إلا بالكنية، فقال: علام تعزم؟ فقلت: عزمت على التَّوجُّه إلى بغداد، فقال: القافلة بعد ثلاثة أيام تخرج وها أنا قد أعلمتك، فقلت له: إنَّك تفضّلت عليّ هذه المدة ولك عليّ عهد الله أني لا أنسى لك هذا الفضل، ولأوفينَّك مهما استطعت، قال: فدعا غلاماً له أسود، وقال له: أسرج الفرس

الفلاني ثم جهَّز آلة السفر، فقلت في نفسي: أظنُّ أنَّه يريد أن يخرج إلى ضيعة أو ناحية من النواحي، فأقاموا يومهم ذلك في كدٍّ وتعب، فلما كان يوم خروج القافلة جاءني السَّحَر وقال لي: يا فلان! قم فإنَّ القافلة تخرج الساعة وأكره أن تنفرد عنها، فقلت في نفسي: كيف أصنع وليس معي ما أتزوَّد به ولا ما أكري به مركوباً؟ ثم قمت فإذا هو وامرأته يحملان بقجة من أفخر الملابس وخفَّين جديدين وآلة السفر ثم جاءني بسيف ومنطقته فشدَّهما في وسطي ثم قدم بغلام فحمل عليه صندوقين وفوقها فرش ودفع إليّ نسخة ما في الصندوقين وفيهما خمسة آلاف درهم وقدَّم إليّ الفرس الذي كان جهَّزه وقال: اركب، وهذا الغلام الأسود يخدمك ويسوس مركوبك، وأقبل هو وامرأته يعتذران إليّ من التقصير في أمري، وركب معي يشيِّعني، وانصرفت إلى بغداد وأنا أتوقَّع خبره لأفي بعهدي له في مجازاته ومكافأته، وأشغلت مع أمير المؤمنين فلم أتفرَّغ أن أرسل إليه من يكشف خبره، فلهذا أنا أسأل عنه، فلما سمع الرجل الحديث، قال: لقد أمكنك الله تعالى من الوفاء ومكافأته على فعله ومجازاته على صنيعه بلا كلفة عليك ولا مؤنة تلزمك، فقلت: وكيف ذلك؟ قال: أنا ذلك الرجل وإنما الضّرّ الذي أنا فيه غيّر عليك ما كنت تعرفه، ثم لم يزل يذكر لي تفاصيل الأسباب حتى أثبت معرفته، فما تمالكت أن قمت وقبَّلت رأسه ثم قلت له، فما الذي أصارك إلى ما أرى؟ فقال: هاجت بدمشق فتنة مثل الفتنة التي كان في أيامك فنسبت إليّ، وبعث أمير المؤمنين بجيوش فأصلحوا البلد وأُخذت أنا وضُربت إلى أن أشرفت على الموت، وقُيِّدت وبُعث بي إلى أمير المؤمنين، وأمري عنده عظيم، وخطبي لديه جسيم، وهو قاتلي لا محالة، وقد أُخرجت من عند أهلي بلا وصية، وقد تبعني من غلماني من ينصرف إلى أهلي بخبري، وهو نازل عند فلان، فإن رأيت أن تجعل من مكافأتك لي أن ترسل من يحضره لي حتى أوصيه بما أريد فإن أنت فعلت ذلك فقد جاوزت حدَّ المكافأة، وقمت لي بوفاء عهدك قال العباس: قلت: يصنع الله خيراً، ثم أحضر حدَّاداً في الليل فكَّ قيوده، وأزال ما كان فيه من الأنكال وأدخله حمام داره، وألبسه من الثياب ما احتاج إليه، ثم سيَّر من أحضر إليه غلامه، فلما رآه جعل يبكي ويوصيه، فاستدعى العباس نائبه، وقال: عليّ بالفرس

الفلاني والفرس الفلاني والبغل الفلاني والبغلة الفلانية حتى عدّد عشرة ثم عشرة من الصناديق ومن الكسوة كذا وكذا ومن الطعام كذا وكذا، قال ذلك الرجل: وأحضر لي بصرّة فيها عشرة آلاف درهم وكيساً فيه خمسة آلاف دينار وقال لنائبه في الشرطة: خذ هذا الرجل وشيّعه إلى حد الأنبار فقلت له: ذنبي عند أمير المؤمنين عظيم، وخطبي جسيم وإن أنت احتججت بأني هربت بعث أمير المؤمنين في طلبي كلَّ من على بابه فأُرَدّ وأقتل فقال لي: انج بنفسك ودعني أدبّرْ أمري، فقلت: والله ما أبرح من بغداد حتى أعلم ما يكون من خبرك فإن احتجت إلى حضوري حضرت، فقال لصاحب الشرطة: إن كان الأمر على ما يقول فليكن في موضع كذا، فإن أنا سلمت في غداة غد أعلمته، أو إن أنا قتلت فقد وقيته بنفسي كما وقاني بنفسه، وأنشدك الله! ألا يذهب من ماله درهم وتجتهد في إخراجه من بغداد، قال الرجل: فأخذني صاحب الشّرطة وصيّرني في مكان أثق به، وتفرّغ العباس لنفسه وتحنّط وجهّز له كفناً، قال العباس: فلم أفرغ من صلاة الصبح إلا وأرسل المأمون في طلبي ويقولون: يقول لك أمير المؤمنين: هات الرجل معك، وقم، قال: فتوجَّهت إلى دار أمير المؤمنين فإذا هو جالس وعليه ثيابه وهو ينتظرنا، فقال: أين الرجل؟ فسكتُّ، فقال: ويحك أين الرجل؟ فقلت: يا أمير المؤمنين اسمع مني! فقال: لله عليّ عهد لئن ذكرت أنّه هرب لأضربنّ عنقك! فقلت: لا والله يا أمير المؤمنين! اسمع حديثي وحديثه، ثم شأنك وما تريد أن تفعله في أمري، قال: قل! فقلت: يا أمير المؤمنين كان من حديثي معه كيت وكيت وقصصت عليه القصة جميعها، وعرفته أنني أريد أن أفيَ له وأكافئه على ما فعله معي، وقلت: أنا وسيدي ومولاي أمير المؤمنين بين أمرين، أمام ما فعله معي إمّا أن يصفح عني فأكون قد وفيت وكافأت، وإمّا أن يقتلني فأقيه بنفسي وقد تحنَّطت وها كفني يا أمير المؤمنين، فلمّا سمع المأمون الحديث قال: ويلك! لا جزاك الله عن نفسك خيراً، إنّه فعل بك ما فعل من غير معرفة وتكافئه بعد المعرفة والعهد بهذا لا غير، هلا عَرَّفتني خبره فكنا نكافئه عنك ولا نقصِّر في وفائك له، فقلت: يا أمير المؤمنين إنه ههنا قد حلف ألا يبرح حتى يعرف سلامتي فإن احتجت إلى حضوره حضر، فقال المأمون: وهذه منه أعظم من الأولى، اذهب الآن

إليه فطيِّب نفسه وسكِّن روعه، وائتني به حتى أتولّى مكافأته، قال العباس: فأتيت إليه وقلت له: ليزل خوفك، إنّ أمير المؤمنين قال: كيت وكيت، فقال: الحمد لله الذي لا يحمد على السّراء والضّرّاء غيره ثم قام فصلّى ركعتين ثم ركب وجئنا، فلما مثُل بين يدي أمير المؤمنين أقبل عليه وأدناه من مجلسه وحدَّثه حتى الغداء وأكل معه وخلع عليه وعرض عليه أعمال دمشق فاستعفى، فأمر له المأمون بعشرة أفراس بسروجها ولُجمها وعشرة أبغال بآلاتها وعشرة آلاف دينار وعشرة مماليك بدوابهم، وكتب إلى عامله بدمشق بالوصية به وإطلاق خراجه، وأمره بمكاتبته بأحوال دمشق، فصارت كتبه تصل إلى المأمون، وكلما وصلت خريطة البريد وفيها كتابة يقول لي: يا عباس هذا كتاب صديقك، والله تعالى أعلم.

استرعى نظري في القصة، أنه أكرَمَكَ وهو لا يعرِفُك، هذه هي المودّة، أما أنت فإكرامك له الآن ردٌّ جميل لا أكثر، أنت مدين له ولو قدَّمت نفسك مكانه لما فعلت إلا القليل، هو أعطاك الحياة، فقد كنت مقتولاً، وأدخلك إلى البيت ودافع عنك وأعطاك كلَّ شيء أربعة أشهر واعتذر إليك وهو لا يعرفك، الأولى أبلغ من الثانية، قال له: مهما فعلت فلن تكافئه وأنا سأكافئه، البرُّ لا يبلى، والذنب لا يُنسى، والديّان لا يموت، اعمل ما شئت كما تدين تُدان.

نصيب المؤمن من اسم الله الودود

حظّ العبد من هذا الاسم أن يتودَّد إلى العباد، فهنا طفل تودّد إليه، وهناك كبير تودَّد إليه، وأكبر منك عامله بالاحترام، وأصغر مِنكَ فبالرحمة، وبمستواك فبالإحسان، هذا هو المؤمن، يجعل من إحسانه طريقاً إلى الدعوة إلى الله عز وجل.

لكنَّ الإنسان إذا ما أحسَّ فضل الله عز وجل ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨﴾ [البلد:٨] وفي سورة أخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار:٦-٨]، وقال تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧

مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ (١٨) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ (١٩) ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ (٢٣)﴾ [عبس:١٧-٢٣].

ماذا ينتظر الإنسان وماذا يفعل؟ وما الذي منعه أن يتوب إلى الله؟ وما الذي يمنعه أن يصلي؟ وأن يذكر الله عز وجل، وأن يفعل الخير مع الناس جميعاً.

لا يعرف طعم الإحسان إلا المُحسن، وسيدنا عمر كان يمشي ذات ليلة في المدينة مع سيدنا عبد الرحمن بن عوف، فلما رأى قافلة في أطراف المدينة وقد نام أصحابها، قال لصاحبه: تعال نحرسها لوجه الله إنهم تُجّار ومعهم متاع وبضاعة فبكى طفل صغير، فقال لأمِّه: أرضعيه، سكت الطفل، ثم بكى، فقام إليها وقال: أرضعيه، أسكتته ثم بكى، فغضب وقام إليها وقال: يا أَمَةَ السوء أرضعيه، قالت: يا هذا ما شأنك بنا؟ إنني أفطمه وعمر لا يعطينا العطاء إلا بعد الفطام، «العطاء يعني التعويض العائلي في زماننا»، يقول سيدنا عمر وقد ندّت منه صيحة، وضرب رأسه وقال: ويحك يا ابن الخطاب كم قتلت من أطفال المسلمين، فأصدر أمراً فورياً أن العطاء يبدأ ساعة الولادة، ثم صلى الصبح وما سمع أصحابه من قراءته شيئاً لشدة بكائه، وكان يقول: يا رب هل قبلت توبتي فأهنِّئ نفسي، أم رددتها فأعزيها؟

ومن عرف الودود فإنه يودُّ أولياءه ويتبرّأ من أعدائه، فالمؤمن الصادق من لوازم إيمانه أنَّه يوالي المؤمنين، ولو كانوا فقراء، وضعفاء، والمؤمن الصادق من لوازم إيمانه أنه يتبرأ من الكفرة، والضالين، والمشركين ولو كانوا أقوياء وأغنياء، قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة:٢٢].

والمؤمن إذا عرف الودود فإنَّه يحبب الله إلى عباده، فكما أن الله يحبب المؤمنين إليك، فموقفك الأخلاقي أن تحبِّب الله إلى عباده.

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان من حديث ابن عباس، أن رسول الله ﷺ روي عنه أنه قال: «إن داود عليه السلام قال فيما يخاطب ربه عز وجل: يا رب! أي عبادك أحب إليك أحبُّه بحبك؟ قال: يا داود أحبّ عبادي إليّ نقي القلب، ونقي الكفين، لا يأتي إلى أحد سوءاً، ولا يمشي بالنميمة، تزول الجبال ولا يزول، أحبني وأحب من يحبني، وحببني إلى عبادي، قال: يا رب! إنك لتعلم أني أحبك وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى عباد؟! قال: ذكرهم بآلائي وبلائي وبنعمائي، يا داود! إنه ليس من عبد يعين مظلوماً، أو يمشي معه في مظلمته، إلا أثبت قدميه يوم تزل الأقدام».

أنت إن ذكَّرت النَّاس بنعماء الله فإنَّك تحبِّب الله إلى عباده، وإن ذكَّرتهم ببلاياه بالبلاء، والشدة،فإنَّك تخوِّفهم أن يعصوه، وإن ذكّرتهم بآلائه العظيمة فإنَّهم يعظمونه، إذاً لابدّ من أن يجتمع في قلب المؤمن تعظيم، وحب، وخوف.

المُحسن أسعد الناس، وقد قرأت كلمة في مجلَّة: «إذا أردت أن تسعد فأسعد الآخرين».

عزيزي القارئ اذكر دائماً: الله عز وجل ودود، ويحبُّك أن تكون ودوداً.

الأعلى

ورد اسم الأعلى في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ﴾ [الأعلى:١].

من معاني اسم الله الأعلى

الأعلى اسم تفضيل، وفعله علا يعلو، وهو مشتق من العلو، ويقابل العلوَّ السفل، علويٌّ وسفليٌّ، والعلوُّ من الارتفاع.

والعلوُّ بالمعنى المجازيْ: ارتفاع المكان، أو ارتفاع المنزلة، فقد تجد في دائرة عشرة طوابق، الموظفون في كلِّ الطوابق، وقد يكون المدير العام في الطابق الأول، لكن منزله هو أعلى من هؤلاء جميعاً. فإمَّا علوٌّ مكانيٌّ، وإمَّا علوٌّ رُتَبِي. والأعلى من أسماء التنزيه، فالله جل جلاله تعالى عن كل صفة لا تليق به، تعالى عن أن يشبه خلقه، تعالى عن كلِّ ما خطر ببالك؛ فالله بخلاف ذلك.

والأعلى هو المنزَّه المقدَّس عن جميع أنواع النقص، هو البالغ غاية العلو في الرتبة، فلا رتبة لغيره إلا وهي منحطة عنه، قال تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [الإسراء:٤٣].

يقول تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [إبراهيم:٤٢].

لو قلت لك: إيَّاكَ أن تصل إلى الشمس، فهذا كلام ليس له معنى، لأنَّك لن تستطيع أن تصل إلى الشمس، والنَّهي لا معنى له، إذ لا يكون النهي حقيقيّاً إلا إذا كان بالإمكان أن يقع المنهيُّ عنه، كأن أقول لك: لا تتأخر، فالنهي يعني أنَّ المنهيَّ عنه يمكن أن يقع.

فإذا قال الله عز وجل: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [إبراهيم:٤٢].

فمعنى ذلك أنَّه قد يبدو لبعض البشر، أنَّ الله غافل عما يعمل الظالمون، والإله العظيم له امتحان صعب، يقوّي أعداءه، إلى أن يفعلوا ما يريدون فيما يبدو لقاصري النظر، إلى أن يقول ضعيف الإيمان: أين الله؟

تجد بلادا إسلامية مضطهدة، مسلوبَة الإرادة، أمرها ليس بيدها، ليست كلمتها هي العليا، تعوم علي ثروات هائلة، لها موقع استراتيجي رائع، ومع ذلك حرب عالمية ثالثة معلنة على هذا الدين في كلِّ أنحاء الأرض، فالإنسان في ساعة ضعف قد يتوهم أن الله غافل، فيأتي الجواب: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾.

إذاً حينما نقرأ قوله تعالى: سبح اسم ربك الأعلى، يعني نزِّهه، مجِّده، فيجب أن تنفي عن الله عز وجل الأعلى كلَّ نقص متوهَّم، واسم الأعلى يدلُّ على أنّ كلّ شيء

أعلى في حكمته، كلُّ شيء وقع أراده الله، وكلُّ شيء أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، فالذي وقع لو لم يقع لكان الله ملوماً، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [القصص:٤٧].

هذه المصائب التي تترى على المقصرين، على المذنبين، على الشاردين، على الغافلين، لو أنَّ الله عز وجل لم يضيِّق عليهم ولم يعالجهم فإنّهم سوف يقولون يوم القيامة لربّهم: لمَ لم ترسل لنا مصيبة تعيدنا إلى طريق الحقّ. فالرسول في الآية هنا هو المصيبة.

كمال الخلق يدل على كمال التصرف، في الخلق إعجاز، في خلق السماوات والأرض، في خلق الإنسان، في خلق الحيوان، في خلق الأطيار، في خلق الأسماك، النباتات شيء معجز، أيعقل أن يكون هذا الإعجاز في خلقه لا يقابله كمال في تصرفاته؟

ومن معاني الأعلى أنَّ الله عز وجل لا تدركه الأبصار، ولكن تصل إليه العقول، كما لو أنَّك تركب مركبة يمكن أن تقلّك إلى البحر، لكن لن تستطيع بهذه المركبة أن تخوض أمواج البحر، فالعقل مرتبط بالواقع.

والثّابت الصّحيح أن معاني العلوّ عند السّلف الصّالح ثلاثة دلّت عليها أسماء الله المشتقّة من صفة العلوّ، فاسم الله العليّ دلّ على علوّ الذات، واسم الله الأعلى دلّ على علوّ الشأن، واسم الله المتعالي دلّ على علوّ القهر.

نصيب المؤمن من اسم الله الأعلى

من علم أنَّ الله تعالى هو الأعلى توجّه إليه وحده وأخلص له العبادة، وترك الأدنى، كما لو أنَّ لإنسان مشكلة في مؤسسة وهو يعلم يقيناً أنَّ حلَّها عند أعلى مرتبة في المؤسسة وهو الوزير مثلاً، فإنَّه لا يتوجَّه إلى أي موظَّف مهما علا شأنه ورتبته، وإنَّما يبذل جهده في الوصول إلى الوزير والطَّلب منه، هو لا يبذل ماء وجهه لموظَّف يعلم أنَّه

لا يقدِّم ولا يؤخِّر ويعلم أنَّ الحلَّ ليس عنده، والمؤمن يعلم أنَّ الأمور كلَّها بيد الأعلى لذا تجده عزيز النَّفس، يطلب حاجته ممَّن يملكها، ولا يبذل ماء وجهه أمام الأقوياء أو الأغنياء.

ومن دعا الله باسمه الأعلى كان نصيبه من ذلك شعوره بالضَّعف فيتواضع لخالقه الأعلى ويسبِّح باسمه وينزِّهه عن كلِّ ما لا يليق به، ويسعى في طلب رضاه، والتزام أمره واجتناب نهيه.

الأكرم

هذا الاسم ورد في أوَّل سورة أُنزلت من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴿٥﴾ ﴾ [العلق:١-٥].

من معاني اسم الله الأكرم

الأكرم اسم تفضيل من الكرم، والكرم ضدُّ اللؤم.

الأخلاق لها مفردات مثل: الشجاعة، أو الصبر، أو الحلم، وتحمل بعض الصفات الإنسانية معانٍ جامعة، فمثلاً صاحب المروءة كريم، عفيف، شجاع، يلبّي حاجة الضعيف، ذو نجدة، يبادِر إلى إغاثة اللهفان، أمَّا اللؤم والعياذ بالله، فهو بخل وجُبْن وكِبْر وأَثَرَة وقسوة ودناءة.

قال سيدنا علي بن أبي طالب: والله والله مرتين لحفر بئرين بإبرتين، وكنس أرض الحجاز في يومٍ عاصفٍ بريشتين، ونقل بحرين زاخرين بمنخلين، وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا أبيضين... أهونُ عليَّ من طلب حاجةٍ من لئيمٍ لوفاء دين.

هل تعلمون ما هو الذل؟ الذُّل أن يقف الكريم عند باب اللئيم ثم يردُّه، أنت كريم احتجت إلى لئيم فالأمر لا يحتمل، وهناك أناس كرام لا يسمح أحدهم لنفسه أن يقف موقف ضعفٍ أمام لئيم ولو ضاعت منه الدُّنيا بأكملها.

فإذا كنت واقفاً على إشارة المرور الحمراء فانتظر دقيقتين حتى تلوح الخضراء، خيرٌ لك من أن تقف موقفاً أمام إنسانٍ سيحاسبك بقسوة إن خالفت، الإنسان المؤمن كريم، لا ينبغي للمؤمن أن يُذِلَّ نفسه، اطلبوا الحوائج بعزَّة الأنفس فإنَّ الأمور تجري بالمقادير، ومن جلس إلى غنيٍّ فتضعضع له ذهب ثلثا دينه.

روي أن رجلاً من الأنصار جاء إلى النبي ﷺ يسأله فقال: لك في بيتك شيء، قال: بلى: حِلْس نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقدح نشرب فيه الماء، قال: ائتني بهما، قال: فأتاه بهما فأخذهما رسول الله ﷺ بيده ثم قال: (من يشتري هذين؟) فقال رجل: أنا آخذهما بدرهم، قال: (من يزيد على درهم؟) مرتين أو ثلاثاً قال رجل: أنا آخذهما بدرهمين. فأعطاهما إياه وأخذ الدرهمين فأعطاهما الأنصاريّ وقال: اشترِ بأحدهما طعاماً فانبذه إلى أهلك، واشتر بالآخر قدّوماً فَائْتِني به، ففعل، فأخذه رسول الله ﷺ فشدَّ فيه عوداً بيده وقال: (اذهب فاحتطِب ولا أراك خمسة عشر يوماً) فجعل يحتطب ويبيع، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم فقال: اشترِ ببعضه طعاماً وببعضها ثوباً، ثم قال: هذا خير لك من أن تجيء والمسألة نكتةٌ في وجهك يوم القيامة، إنَّ المسألة لا تصلح إلا لذي فقر مدقع أو لذي غُرم مفظع أو دمٍ موجع [رواه أبو داود وابن ماجه، عن أنس بن مالك].

العلماء فسروا هذا الموقف... أنَّ الإنسان إذا قلق على أهله فإنَّه يضعف إنتاجه، أمَّا حينما يوفِّر الطعام لأهله فإنَّه يعمل وينتج.

النبي ﷺ قال له: «اشترِ بأحدهما طعاماً فانبذه إلى أهلك واشترِ بالآخر قدُّوماً واذهب فاحتطب»، عاد بعد سبعة أيام وقد جمع عشرة دراهم، قال: «هذا خيرٌ لك من أن تجيء والمسألة نكتة في وجهك يوم القيامة»، علَّمه درساً في التَّعفُّف عن المسألة، كما علَّمه أنَّ عليه أن يقرع أبواب الرزق التي شرعها الله لعباده.

فالإنسان إذا فتح على نفسه باب مسألةٍ، فتح الله عليه باب فقرٍ. لأنَّ الذي أعطى غيرك سوف يعطيك... فالذي يلفت نظري أنَّ شاباً مؤمناً تكون الطرق كلُّها أمامه مغلقة، فيطرق باب الله تعالى قائلاً: يا ربّ! الأمر بيدك وقد تعلَّق قلبه ورجاؤه بالله فهل يردُّه الله خائباً؟ لا. لن يردَّه الله إلا موفوراً.

قال لي أخ كريم: صلَّيت قيام الليل ودعوت الله من أعماقي أن يرزقني كي أتزوَّج، وذكر لي: أنَّه يملك محلاً في أطراف المدينة لتصليح مكيفات، ولكنَّه لا يطرق باب محلّه زبُون واحد، وتابع قائلاً وأنا على أحر من الجمر أريد الزواج، وخطبت فتاة صالحة وممتازة، لكنها تنتظر مني أن أعطيها شيئاً، وأن أخطبها رسمياً، وأن أعقد العقد، وأيقنت ألا ملجأ ولا ملاذَ إلا الله، فهو الملجأ والملاذ ولا أحدَ سواه، فقمت ذات ليلة وصلّيت ركعتين في جوف الليل، وسألت الله في السجود أن يرزقني رزقاً حلالاً طيباً كي أتزوَّج، ولم يلبث وهو يقصُّ القصَّة أن بكى، وقال: والله خلال مدة عشرين يوماً حصلتُ على سبعين ألف ليرة من المحلِّ نفسه، ثم قال: وتهافت الزبائن على المحل بعضهم لتصليح جهازه أو لتركيب أجهزة جديدة وجرى بيع كثير، وكان قد مضى على المحلِّ مفتوحاً سنتان، وكانت أموري خلالها بائسة، ثم بالدعاء والابتهال فتح الله ما كان مغلقاً، والأمر بيد الله عز وجل.

إن الحديث الذي أذكِّر به دائماً هو قوله ﷺ:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَوْلا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لأَمَرْتُهُمْ بالسِّوَاكِ مَعَ الوُضُوءِ، ولأَخَّرْتُ العِشَاءَ إلى ثُلُثِ اللَّيْلِ أَوْ نِصْفِ اللَّيْلِ، فإذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ أَوْ نِصْفُ اللَّيْلِ نَزَلَ إلى السَّماءِ الدُّنْيا جَلَّ وعَزَّ فَقَالَ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْه؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأُجِيبَهُ؟» [مسند الإمام أحمد].

لأيامٍ طويلة ربنا عز وجل ولحكمةٍ بالغة يُقَطِّعُ آمالك من الخلق، فإذا يئست منهم فتح لك بابه، فأنت كن ذكياً ألمعياً واتّجه إليه مباشرةً ولا تطرق باب الخلق أصلاً.

إذاً: الكرم ضدُّ اللؤم... والكرم: فِعلُ ما ينبغي لا لغرض.

أكثر الغربيين أذكياء جداً قد ينتزعون إعجابك بدقَّة مواعيدهم، وبإتقان صنعتهم، لكنَّ غرضهم الربح، غرضهم التنمية بالتعبير الاقتصادي الحديث، غرضهم رفع مستوى الأرباح، لذلك يعتنون جداً بصناعتهم وبتجارتهم وبمواعيدهم وبإتقان منتجاتهم. هم يفعلون ما ينبغي ولكن يفعلونه لغرض... أمَّا الكرم فهو أن تفعل ما ينبغي لا لغرض، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ [الإنسان:٩].

فمن وهب المال لجلب النفع، أو لدفع الضُرَّ، أو للخلاص من ذمٍّ فليس بكريم، وبعد، إذا عمل الإنسان عملاً بطوليّاً، كأن يقول لك: هذا لأغراض انتخابيّة، فهذا ليس بطوليّاً... وفي العالم كلِّه إذ عمل إنسان عملاً بطولياً فهو بمقياس النّاس عمل إنساني، ما الذي يفرغه من مضمونه؟ أنه لأسبابٍ انتخابيَّة فقط، إذا تداعى العمل وهوى صاحبه، فهذا معنى إحباط العمل... أمَّا المؤمن فإنَّه يفعل الأعمال الصالحة ابتغاء مرضاة الله لا لمديحٍ ولا لثناءٍ ولا لمكافأةٍ ولا لذكرٍ يجري بين الناس.

والعلماء قالوا: من وهب المال لجلب نفع أو دفع ضرٍ أو خلاصٍ من ذمٍّ فليس بكريم... وأكرمه إكراماً، أي: عظَّمه ونزَّهه، والكريم هو الصَّفوح عن الذنب، والكرم إذا وصف به إنسان فهو اسمٌ لأخلاقٍ عديدة وأفعالٍ محمودة تظهر منه، اسم جامع كالمروءة، في حين أن اللؤم اسم جامع لمفردات من الأخلاق الخسيسة، فاحذر اللؤم فإنه صفة مرذولة، وكن كريماً، فإن الكرم صفة من صفات الله الحميدة.

قالوا: الكرم يقترب من الحريَّة، الحريَّة صفة مديح، والإنسان إذا خضع لنزواته فليس حرّاً بل هو عبد، كما في الحديث الشَّريف:

عَن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قالَ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينارِ وَالدِّرْهَمِ وَالقَطِيفَةِ وَالخَمِيصَةِ، إنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وإنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ» [رواه البخاري].

فالإنسان أحياناً يخضع لنزواته، إذاً هذا ليس حرَّاً، بل هو عبدٌ، الإنسان يخضع لعصبيّته الضيّقة، فابنه في نظره على حقٍّ ولو كان أسوأ الناس، ورفيق ابنه على باطل ولو كان أحسن الناس، وهذا الشَّيء يظهر عند النساء أيضاً، فتثني إحداهنَّ على ابنتها وتمدحها، وترى أنّ ابنتها ليس أرقّ ولا أحسن منها بين بنات الناس، وحينما تتزوَّج هذه البنت يبدو منها ما لا تُحمَد عقباه، فهذه المرأة ليست إذاً حرَّة، لأنها تزوِّر الحقائق بدافع من عصبيةٍ ضيِّقة.

من الحرُّ؟ الذي ينطق بالحقيقة ولو أنها مُرّة. من الحرّ؟ الذي يُنصف النَّاس من نفسه، فكلمة حرٍّ، أي: لا يخضع لهوى، لا يخضع لنزوة، لا يخضع لضغط، لا يخضع لفقر، لا يخضع لطمع، الطمع أذلَّ رقاب الرجال، كاد الفقر أن يكون كفراً، الإنسان يحبُّ عشيرته، وأبناء مِلَّته، وأبناء جلدته، يحبُّهم إلى درجة الكذب والنفاق، ويكره أعداءه إلى درجة الظلم ويجحِف بحقّهم، من الحرّ؟ الذي ينطق بالحقِّ ولو كان مرَّاً.

إلا أنَّ العلماء قالوا: «الحريَّة تُقال في المحاسن الصغيرة والكبيرة، والكرم لا يقال إلا في المحاسن الكبيرة، كمن ينفق مالاً في تجهيز جيشٍ في سبيل الله»...، حينما جهَّز عثمان ابن عفان رضي الله عنه الصحابيُّ الجليل جيشَ العسرة بأكمله قال رسول الله ﷺ: «ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم» [رواه الترمذي، من حديث عبد الرحمن بن سمرة]، فالنَّبيُّ ﷺ كان يقدِّر المعروف.

أحياناً يقدِّم إنسان خِدمات إلى المسجد مثلاً، أو يقدِّم خِدمات لدعوة، يقوم بعمل طيب، يسهم في خدمة الآخرين، فالله سبحانه وتعالى لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وأنا لا أنسى أبداً الآية الكريمة التي تذكر أنَّ امرأة عمران وهبت ما في بطنها محرَّراً لله تبارك وتعالى، قال سبحانه: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [آل عمران:٣٥].

إذاً مَن الحرُّ؟ قد يقال: فلان حرٌّ إن صدرت عنه محاسن صغيرة وكبيرة، ولكن لا يقال له كريم إلا إن صدرت عنه المحاسن الكبيرة، كمن ينفق ماله في تجهيز جيش بأكمله، كمن يتحمَّل ديّات القتلى ويحقن دماء المسلمين، هذا عمل جليل.

أما النقطة المهمَّة في دلالتها ومعناها فهي أنّه ليس المهم أن تقرأ الآية وتردِّدها بلسانك كثيراً، لكن المطلوب منك أن تمعن النَّظر في معانيها... قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات:١٣].

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾... أعلاكم مكانةً عند الله وأشرفكم وأقربكم إلى الله أتقاكم... المعاني مفهومة واضحة، فهل عملت بها؟

الله -عزَّ وجلَّ- يعلمك أنَّ المقياس عنده التقوى، أي: الطاعة، قال الله تعالى: ﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الأحزاب:٧١].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾.

أتحبُّ أن تكون عند الله أكرم الناس؟ أطعه... الشيء بين يديك مبذول، آلاف الناس لن تستطيع أن تصل إليهم، ولن تستطيع أن تخطب ودَّ أحدهم، ولن تستطيع أن تقابله، فالأبواب دونه مغلقة، لكنَّ الله جل جلاله خالق الكون يقول لك: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾، فأيُّ إنسان يطيع الله عز وجل الله يقرِّبْه ويرفعْ له مكانته، أما إذا وصف الله عز وجل بالكرم، فإنما هو اسمٌ لإحسانه وإنعامه المتلاحق.

جاء اسم الأكرم في قوله تعالى في سورة العلق: ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ ﴾ [العلق:٣-٤]، أي هو أكرم الأكرمين، هو المعطي، هو المسعد، هو المحسن، وكثير من الناس -والعياذ بالله- لا يرون إحسان الله.

أحياناً تؤدِّي عن إنسان أجرة الركوب في السيارة تكرمة له، فتجده طوال الطريق يشكرك بعبارات مترادفة وهو مسرور منك كأن يقول لك: جزاك الله الخير، ويعيدها لك عدة مرات من أجل ليرات أكرمته بها.

فالذي يمنحك نعمة الوجود بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً، نعمة الإيجاد، نعمة الإمداد، نعمة الهدى والرشاد، خلق لك من جنسك امرأة هديةً لك هي آية سكن ومودة ورحمة، آواك في بيت، أطعمك ألوان الطعام، خلق لك أنواع الفواكه، رزقك ابناً يملأ عليك البيت فرحاً وسروراً، زوّدك أجهزة دقيقة، فقد قال تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠ ﴾ [البلد:٨-١٠].

فهذا الذي خلق كلَّ هذه النعم ألا يستحقُّ أن تشكره، أن تذكره.

وفي سورة الرحمن أيضاً آية ثانية: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧ ﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧].

أي أن الله عز وجل هو المكرِّم، هو الكريم، هو المعطي، منحك كلَّ النِّعم، أمَّا هذا الإنسان الجاهل الغافل فهو مسكين إذ يعزو هذه النعم إلى غير الله، فيعزوها تارةً إلى ذكائه.

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٧٨ ﴾ [القصص:٧٨].

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٥١ ﴾ [الزخرف:٥١].

وقد يعزوها إلى مهارته في العمل أو حسن حظِّه.

والإنسان ينبغي أن يعلم حقيقة الألوهية... فالكون كلُّه عطاءٌ من عطاءاته... فأنا أذكر ذلك كثيراً... فهل من الممكن أن تصدِّق أنَّ هناك مليون مليون مجرة، وفي كل مجَرَّة مليون مليون نجم، أي لو كتبنا رقم واحد وأمامه أربعة وعشرون صفراً فما هذا الرقم!!! إنه رقم خيالي وكل هذه الكواكب والنجوم مسخَّرةٌ للإنسان، الله عز وجل قال:

﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٢٠ ﴾ [لقمان:٢٠].

فإذا قرأ أحدكم قوله تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ ﴾، ألا يشعر برعشة، بخفقان، بجلد يقشعر، بقلب يخفق... ﴿ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ ﴾.

الدِّين أساسه الحب، إذا أُلغي الحب من الدين صار الدِّينُ ثقافة، وطقوساً، وفلكلوراً، وعادات، وتقاليد، ومعلومات، ومشاعر، وكتباً وهكذا، أمَّا إذا كان في الدين حُبٌّ فإنه يفعل كلَّ مستحيل.

النبي ﷺ قال لفاطمة: «ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به أن تقولي إذا أصبحتِ وإذا أمسيتِ: يا حيُّ يا قيُّوم برحمتك أستغيثُ، أصلح لي شأني كلَّه، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين» [النسائي والبزار، من حديث أنس بن مالك].

قال تعالى: ﴿ كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ﴿٢٦﴾ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧].

قال العلماء: المؤمن يُجلُّ الله فلا يعصيه، ويطيعه فلا يخالفه لأنَّه ذو الجلال والإكرام وذو العظمة والكبرياء، الكافر يقف عند النعمة، ويعمى عن المنعم، والمؤمن يتجاوزها إلى المنعِم.

النبي ﷺ كانت تعْظُم عنده النعمة مهما دقَّت، والمؤمن يتقلَّب في نعم الله، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «أحبُّوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبوني لحبِّ الله، وأحبوا آل بيتي لحبي» [رواه الترمذي من حديث ابن عباس].

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان من حديث ابن عباس، أن رسول الله ﷺ روي عنه أنه قال: «إن داود عليه السلام قال فيما يخاطب ربه عز وجل: يا رب! أي عبادك أحب إليك أحبُّه بحبك؟ قال: يا داود أحبّ عبادي إليَّ نقي القلب، ونقي الكفين، لا يأتي إلى أحد سوءاً، ولا يمشي بالنميمة، تزول الجبال ولا يزول، أحبني وأحب من يحبني، وحببني إلى عبادي، قال: يا رب! إنك لتعلم أني أحبك وأحب من يحبك،

فكيف أحببك إلى عباد؟! قال: ذكرهم بآلائي وبلائي وبنعمائي، يا داود! إنه ليس من عبد يعين مظلوماً، أو يمشي معه في مظلمته، إلا أثبت قدميه يوم تزلُّ الأقدام».

ذكِّرهم بآلائي كي يُعظِّموني، وذكِّرهم بنعمائي كي يحبُّوني، وذكِّرهم ببلائي كي يخافوني.

فالملخَّص: أنَّه لا بدَّ من أن يجتمع في قلب المؤمن تعظيمٌ لله وخوفٌ منه، وحبٌّ له، تعظيم بالآلاء... وتخويف بالمصائب... ومحبَّة بالنِّعم.

كأس من الماء تشربه وطريق الخروج سالكة نعمة كبرى، فلو كان غير سالك فآلام حصر البول لا تُحتمل، فيلزمه الذهاب للإسعاف في الساعة الثالثة ليلاً لفتح مجرى البول، أكلت طعاماً... والطريق سالكة نعمة أخرى كبرى، أيضاً لو كان هناك انسداد... قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ﴿١٥﴾ ﴾ [محمد:١٥].

﴿ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ﴿١٥﴾ ﴾... فالأمعاء ليس بها إحساسٌ لا بالحرِّ ولا بالبرد، فلو وضعت فيها ماءً يغلي فلا إحساس عندها، أمَّا آلام الضغط داخلها فإنها لا تُحتمل، إذا أكلت طعاماً وكان الطريق سالكاً، مشيت متوازناً. فلو اختلَّ جهاز التوازن لاحتجت إلى عصا لتمشي مستعيناً بها، فأنت تمشي متوازناً، والأجهزة تعمل بانتظام، والحواس الخمس سليمة... فهذه من نعم الله العظمى.

إضاءات على الآيات التي ورد فيها اسم الله الأكرم

هذا الاسم ورد في أوَّل سورة أُنزلت من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴿٥﴾ ﴾ [العلق:١-٥].

أودع الله عز وجل في الإنسان قوَّةً إدراكيَّةً يتميز بها من بقيَّة المخلوقات، ولأنَّه أودع فيه قوّةً إدراكيَّةً أصبحت عنده حاجة إلى المعرفة، وهذه الحاجة يمكن أن تُوصف بأنَّها حاجةٌ عليا، إذ هناك حاجات دنيا متعلقة بالأرض وهناك حاجة عليا متعلقة بالسماء، إذ رُكِّب الملك من عقل بلا شهوة، ورُكِّب الحيوان من شهوة بلا عقل، ورُكِّب الإنسان من كليهما فإن سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧﴾ [البينة:٧].

وإن طغت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان، فالله عز وجل سخَّر لهذا الإنسان الكون كلَّه، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ﴾ [الجاثية:١٣].

وأمره أن يقرأ أيّ: يتعلَّم، وطلب العلم فريضة على كل مسلم، وهذا العلم أنواع، قال تعالى: اقرأ باسم ربك، فما لم ينقلك العلم إلى معرفة ربِّك فليس علماً، العلم ما هداك إلى الله، العلم ما عرَّفك بهذا الإله العظيم، العلم ما حملك على طاعته، العلم ما دفعك إلى التقرُّب إليه، العلم ما هداك إلى سرِّ وجودك، العلم ما هداك إلى غاية وجودك، لذلك: اقرأ، أمَّا المفعول به فهو محذوف وحينما يُحذف المفعول يُطلق الفعل، اقرأ في الكون، فالكون قرآن صامت، واقرأ في القرآن فهو كلام الخالق، واقرأ في سيرة النبي ﷺ فهو قرآن يمشي، اطلب العلم، فما لم يطلب الإنسان العلم فلن يؤكِّد إنسانيَّته.

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢﴾ [العلق:١-٢]

يمكن أن نسمِّي القراءة الأولى قراءةَ البحث والإيمان. فالعلم مرتبط بالإيمان وما لم ينقلك العلم إلى الإيمان فليس علماً، وقد يكون ذكاءً ليس غير، لذلك قالوا: ما كلُّ ذكيٍّ بعاقل، إنسان عنده دماغ يمكن أن يفهم دقائق الأشياء، فاختصَّ باختصاص نادر، وجلب له هذا الاختصاص دخلاً كبيراً فلكيّاً، هذا ذكيٌّ جداً، لكن ما لم تعرف سرَّ وجودك، وغاية وجودك، ما لم تعرف الخالق والربَّ والمسيِّر، ما لم تعرف أسماء الله

الحسنى وصفاته الفضلى فلست عاقلاً، العاقل من عرف الله، وأرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً.

وفي بعض الأدعية: يا رب ماذا فقد من وجدك؟ وماذا وجد من فقدك؟ إذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾﴾ [العلق:١] .

تجاوز الحاجات الدنيا إلى الحاجة العليا، ابحث عن الحقيقة، اعمل بها.

إذاً لا بدَّ من أن تبحث عن الحقيقة، ولا بدَّ من أن تتحرَّك وفق الحقيقة، ولا بد من أن تدعو إلى هذه الحقيقة، وقد يكون هناك عقبات وقد تكون هناك صوارف فلا بد من الصبر، قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر:١-٣].

إذاً أول قراءة ينبغي أن تقرأها قراءة البحث والإيمان، ابحث عن الحقيقة، ابحث عن الذي خلقك، تساءل لماذا خُلقت؟ لماذا أنا في الدنيا؟ ما العمل العظيم الذي ينبغي أن أفعله؟ ماذا بعد الموت؟ ماذا قبل الموت؟ من أين وإلى أين ولماذا؟ ابحث.

العلم ما انتهى بك إلى الإيمان، فإن لم ينتهِ بك إلى الإيمان فهو ذكاء فقط، والذَّكاء ينتهي عند الموت، أمَّا العلم الذي أراده الله حينما قال الله عز وجل: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩].

فهو أن تتعرَّف إليه، وأن تتعرَّف إلى منهجه، وأن تحمل نفسك على طاعته، وأن تبذل الغالي والرَّخيص والنَّفس والنَّفيس، هذه القراءة الأولى قراءة البحث والإيمان.

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾﴾ [العلق:١].

أقرب آية لك نفسك التي بين جنبيك، قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾﴾ [الطارق:٥-٦].

هذا الماء الدافق ثلاثمئة مليون حوين، تحتاج البويضة إلى حُوين واحد، قال تعالى: ﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ (٧) إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ (٨) ﴾ [الطارق:٦-٨].

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ (٢٤) ﴾ [عبس:٢٤].

أمر إلهي لذلك هذه قراءة، اقرأ ولتنتهِ قراءتك إلى معرفة ربك، اقرأ ولتنتهِ قراءتك إلى معرفة سرِّ وجودك وغاية وجودك.

وهناك قراءة ثانية متعلِّقة باسم الله الأكرم، قال تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ (٣) ﴾ [العلق:٣].

ماذا منحك؟ نحن موجودون لو اطَّلعت على كتاب نُضِّدت حروفه قبل تاريخ ميلادك، أثناء تنضيد حروف هذا الكتاب أنت من؟ لا شيء، قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا (١) ﴾ [الإنسان:١].

ليس لك أي اسم بأي مكان، لم يكن لك وجود، إذاً الله عز وجل أكرمك أي منحك أكبر عطاء أنَّه أوجدك، منحك نعمة الإيجاد، أوجدك وأودع فيك حاجات، أودع فيك حاجة إلى الهواء، والهواء موجود بنسب رائعة لو أنَّ هذه النِّسب تغيَّرت لاحترق كلُّ ما في الأرض، منحك نعمة الإيجاد، ومنحك نعمة الإمداد، وهذا الكون سخَّره لك.

سخّره لك تسخيرين تسخير تعرف وتسخير تكريم، كلُّ شيء في الأرض مسخَّر لك تسخيرين، تسخيرَ تعريف وتسخيرَ تكريم.

فإذا قرأت كتاباً عن العسل الذي فيه شفاء للناس فدمعت عينك من خشية الله، وقد لا يتاح لك أن تلعق لعقة عسل واحدة، لكنَّك إذا عرفت الله من خلال العسل فقد حققت الهدف من العسل أنَّه عرَّفك بالله، والذي يأكل العسل ليلاً ونهاراً ولم يفكِّر في هذا الشراب الذي جعله الله شفاء للناس فقد عطَّل أكبر هدف من خلق العسل، تأكَّد أنَّ أيَّ شيء في الأرض له وظيفتان، له مهمتان، سُخِّر لك تسخيرين

تسخير تعريف وتكريم، تماماً كما لو قدَّم لك صديق هاتفاً فيه خصائص مذهلة من اختراعه، دون أن تشعر ينطوي قلبك على شعورين، شعور الإعجاب بهذا الاختراع وشعور الامتنان بأنّه هدية.

هذا الكون مُسخَّرٌ لنا تسخيرين، تسخير تعريف وتسخير تكريم، ردُّ فعل التعريف أن تؤمن، وردُّ فعل التكريم أن تشكر، فإذا آمنت وشكرت، فقد حقّقت الهدف من وجودك فإذا حققت الهدف من وجودك توقَّفت المعالجات الإلهية، قال تعالى: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾ [النساء:١٧٤].

لذلك ينبغي أن تكون قراءتك للكون قراءة شكر وعرفان لربّك الأكرم.

القراءة الأولى بحث وإيمان، القراءة الثانية شكر وعرفان، منحك نعمة الإيجاد، منحك نعمة الإمداد، يوجد هواء، يوجد ماء عذب زلال، يوجد زوجة، يوجد أولاد، يوجد طعام، شراب، فواكه، معادن، كلُّ شيء، لذلك القراءة الثانية قراءة شكر وعرفان، وما لم يمتلئ قلبك شكراً لله فأنت بعيد عن الإيمان.

الله هو الأكرم، وممّا أكرمنا به البيان، قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن:١-٤].

بالبيان يتواصل الناس أرقى تواصل، بالبيان تتكلّم فتعبِّر عن أفكارك ومشاعرك، بالكلام تنتقل العلوم من إنسان إلى إنسان، ومن جيل إلى جيل بالكتابة، ومن أمة إلى أمة بالترجمة، لذلك: ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ ﴾ [العلق:٣-٤].

الأكرم جل جلاله منحك نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الهدى والرشاد، هداك إلى مصالحك، أعطاك قدمين لطيفتين لكن يقابلهم جهاز توازن، لولا جهاز التوازن لما أمكنك أن تمشي على قدميك، فالميت لا يقف.

ثم هداك بالوحي، جاءك وحي من السماء، بيّن لك من أنت، أنت المخلوق الأول، ولماذا خلقت؟

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات:٥٦].

ثمَّ تأتي هداية التوفيق، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ [الكهف:١٣].

ثمَّ هداك إلى الجنة، قال تعالى: ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ ﴾ [محمد:٥].

أمّا القراءة الثالثة فهي قراءة الوحي والإذعان ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق:٥].

فأيُّ شيء عجز عقلك عن إدراكه أخبرك الله به، أخبرك الله عن الماضي السحيق وعن بداية الخلق وعن المستقبل البعيد، وأخبرك عن سرّ وجودك وعن غاية وجودك وأخبرك عن ذاته العلية.

هناك قضايا تصنَّف مع المحسوسات، وأداة اليقين بها الحواس الخمس، واستطالاتها كالميكروسكوب والتليسكوب مثلاً.

هناك موضوعات تصنَّف مع المعقولات، فأيُّ شيء غابت ذاته وبقيت آثاره، فأداة اليقين به العقل وهذه تسمى المعقولات، فالكون كلُّه ظاهر لكلِّ إنسان ويمكن أن تقرأ فيه بل إنَّه قرآن صامت ولكن أداة اليقين في المعقولات هو العقل البشري، فالكون مظهر لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، والقرآن الكريم إعجازه يدلُّ عليه، والقرآن الكريم يدلُّ على النَّبيِّ ﷺ لأنه جاء به.

لكن هناك قضايا غابت عينها وغابت آثارها ولا سبيل إلى العقل أن يؤمن بها إلا أنَّه يتلقَّى الخبر الصادق كالإيمان بالجنِّ والملائكة، هذه إخباريَّات، فإذا جاء في الوحيين الكتاب والسنة خبر عن الله عز وجل فهو عندنا يقينيٌّ.

نصيب المؤمن من اسم الله الأكرم

من عرف الله الأكرم فإنه يستخدم ما أكرمه به في طاعته وخدمة عباده، ويعلم أنَّ هذا الإكرام لا يكون إكراماً حقيقة إلا إذا سُخِّر في مرضاة الله تعالى، قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾﴾ [الفجر:١٥].

هذه مقولته، هو يتوهَّم أحياناً أنَّ الله إذا أمدّ إنساناً بالمال، وهذا الإنسان ليس على طاعة الله فهي علامة محبَّة له، وهذا فهم غير صحيح.

﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر:١٦].

جاء الرّدّ الإلهيّ: كلا ليس كذلك يا عبادي، ليس عطائي إكراماً مطلقاً ولا منعي حرماناً، عطائي ابتلاء وحرماني دواء، هل يعدّ المال نعمة؟ هل تعدّ الصحة نعمة؟ هل يعدّ الأولاد نعمة؟ هل تعدُّ المكانة العليَّة في المجتمع نعمة؟

هذا المال إذا وُظِّف في العمل الصالح، وفي طاعة الله أصبح نعمةً حقيقيَّة، أما إذا وُظِّف في نشر الباطل للتمتع بالمتع الرخيصة التي حرمها الله، فهذا المال ليس نعمة، يقول بعض الصحابة: حبذا المال أصون به عرضي وأتقرَّب به إلى ربي. بإمكانك أن تطعم جائعاً، أن تكسو عارياً، أن تعلّم جاهلاً، أن تؤوي مشرداً، أن تعالج مريضاً، بإمكانك أن تعيش في قلوب الآخرين، المال نعمة إذا وُظِّف في طاعة الله:

«لا حَسَدَ إِلاّ في اثْنَتَيْنِ: رَجلٌ آتَاهُ الله مَالاً فَهُوَ يُنْفِقُ منهُ آنَاءَ اللّيْلِ وآنَاءَ النّهَارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ الله القُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللّيْلِ وَآنَاءَ النّهَار» [البخاري عن أبي هريرة].

المال موقوف على طريقة إنفاقه، إذا استعنت بالصحة على طاعة الله فهي نعمة كبيرة فإذا استعان الإنسان بصحَّته على معاصي الله فالصّحّة نقمة، إذا أعطاه بصراً حادّاً فتتبع به عورات المسلمين، ونظر إلى عورات النساء، فهذا البصر نقمة، وإذا آتاه الله عينين فرأى بهما آيات الله الدالة على عظمته وغضَّ بصره عن محارم الله، فالبصر نعمة.

كلُّ شيء نعمة ونقمة، فإذا وُظّف في طاعة الله فهو نعمة وإذا وُظِّف في المعاصي والآثام فهو نقمة، لذلك سئل الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: أندعو الله بالابتلاء أم بالتمكين؟ فقال: لن تمكَّن قبل أن تُبتلى، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المؤمنون:٣٠].

فهذه الحظوظ وُزِّعَت في الدنيا توزيع ابتلاء، أنت ممتحن فيما أعطاك، ممتحن فيما زوى عنك، ممتحن بالمال إن كنت غنياً، وممتحن بقلّته إن كنت فقيراً، ممتحَن بالصّحّة إن كنت صحيحاً، ممتحَن بالمرض إن كنت مريضاً، وفي الدّعاء: «اللهمَّ مَا رَزَقْتَنِي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ قُوَّةً لِي فِيمَا تُحِبُّ» [الترمذي عَنْ عَبْدِ الله بْنِ يَزِيدَ الخَطْمِيِّ الأَنْصَارِيِّ].

أعطيتني صحة يجب أن أستهلكها في طاعتك، أعطيتني مكانة اجتماعية يجب أن أكون آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، أعطيتني منصباً رفيعاً يجب أن يكون هذا المنصب الرفيع في إحقاق الحق وإبطال الباطل، أعطيتني زوجة يجب أن آخذ بيدها إلى الله عز وجل، أعطيتني أولاداً يجب أن أربيهم تربية ترضى بها عني.

«....وَمَا زَوَيْتَ عَنِّي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ فَرَاغًا لِي فِيمَا تُحِبُّ»

المؤمن الصادق يسعى إلى أقصى درجة فإن انتهى به السعي إلى هذا الدّخل فإنّه يرضى به، ويصرف وقته في طاعة الله.

هل هناك شخصٌ ليس له ميْزة؟! هذا يتقن الرياضيات، وآخر يتقن العلوم، وثالث اللغات، وهذه امرأة تتقن الطَّبخ مثلاً، إنها امرأة أصيبت بمرضٍ خبيث في دماغها وشفاها الله عز وجل فنذرت لله عز وجل أن تعمل صالحاً، فقيرة لا تملك من حطام الدنيا شيئاً، فاستأجرت غرفة وصارت تطبخ الطعام الشّهيَّ النفيس وتبيعه للأسر الغنيَّة التي تحبُّ أن تأكل طعاماً بيتياً، وبالربح صارت تعالج المرضى، هذا مثل حيٌّ وناطق... امرأة لا تملك إلا فنَّ الطبخ، وظّفت هذه القدرة في العمل الصالح، وبدأت تسدِّد نفقات عمليات وخِدمات للفقراء المرضى فقد تقرَّبت إلى الله بطبخها.

هل يوجد إنسان ليس له ميزة؟؟ امرأة عمران ماذا تملك؟ تملك ما في بطنها قالت: ربِّ إني نذرت لك ما في بطني محرراً.

في مجتمعنا أخ محامٍ، وأخ طبيب، وأخ مهندس، وأخ مدرِّس، وإنسان حالته المادية جيِّدة، وإنسان عنده قدرة على الإقناع، وإنسان عنده خبرات معينة، فالحياة تحتاج إلى تعاون، قدِّم شيئاً ما لله عز وجلَّ ولا تعجز.

عن بشير ابن الخصاصية السدوسي قال: أتيت رسول الله ﷺ أبايعه، فاشترط علي أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وتصلي الخمس، وتصوم رمضان، وتؤدي الزكاة، وتحج البيت، وتجاهد في سبيل الله فقلت: يا رسول الله أمَّا اثنتان فلا أطيقهما: الزكاة فوالله مالي إلا عشر ذود (ذود: جمال) هنَّ رِسْلُ أهلي وحمولتهم، وأمَّا الجهاد؛ فيزعمون أنه من ولَّى الدُّبُر فقد باء بغضب من الله فأخاف إذا حضرني قتال خشعت نفسي (أي: فزعت) فكرهت الموت، فقبض رسول الله ﷺ يده وحرَّكها وقال: لا صدقة ولا جهاد فبم تدخل الجنة؟ فبايعته عليهن كلِّهن [رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط].

والله أنا أحياناً أكون ممتنّاً جداً ومسروراً من بعض الإخوة إذ يقول لي أحدهم: أنا محامٍ إذا اتَّصل بك أخ فقير له قضية فابعثه إليّ، ويقول لي آخر: أنا محلِّل في مخبر إذا علمت بأخٍ فقير يريد أن يحلِّل فأنا جاهز، أنا طبيب لو أرسلت لي أخاً فقيراً أعالجه مجاناً، وذات مرةٍ أخ من إخواننا الكرام جرَّاح، قال لي: أنا مستعد أن أستقبل أي أخٍ يريد إجراء عملية، بعثنا له أول أخ عمل له عملية بالمشفى وفي الدرجة الثانية ونجحت العملية، بعثنا له أخاً ثانياً وأخاً ثالثاً، فهذا أدَّى زكاة اختصاصه وجزاه الله خيراً كثيراً، فيجب أن نتوسَّع في مفهوم الزكاة، فهناك زكاة مال، وهناك زكاة وقت، وزكاة خبرة... إلخ.

لنا قريب عنده محل للحلويات في دمشق، وهذه القصة منذ ثلاثين سنة، دخل لمحله شخص أرمني، قال له: هل تعلمني صناعة الفرنيَّة (الكاتو)؟ فاستجاب له: ولبّى طلبه وعمل أمامه طبخة -خلطة- وأدخلها إلى الفرن وقال له: اكتب الكميَّات والمعايير، ثم كلَّفه أن يقوم بعمل طبخة واحدة أمام صاحب المحل، فعمل طبخة أمامه، ثم أقسم صاحب المحل: والله يا أستاذ منذ ثلاثين سنة وكلَّ سنة يزورني ذاك الشخص ويحضر لي هدية من القامشلي ويقول: كلُّ هذا الخير من فضلك... لم يَضِعْ معه المعروف... هذا ماذا فعل؟ أدَّى زكاة خبرته، ومن الممكن أن تؤدِّي زكاة مالك، زكاة وقتك بدرس علم، زكاة خبرتك علِّم. بعث شخص ابنه لمحل بدون أجر ليعلمه الصنعة فلم يعلِّمه، بل كان صاحب المحل عندما يريد أن يصلح المحرِّك يقول له: اذهب خارج المحل، لم يعلِّمه خوفاً من أن ينافسه ذات يوم... علِّمه يا رجل، والله هو

الرزاق، أدِّ زكاة خبرتك، أدِّ زكاة مالك، أدِّ زكاة وقتك، أدِّ زكاة صحتك، أعن المرضى، أدِّ زكاة وقتِ فراغِك، أعن الضعفاء.

الله عز وجل هو الأكرم لكن ومن يُهِنِ الله فماله من مُكْرِمٍ، فإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردَّ له، فإذا أراد الله بإنسان أن يهينه فإنّه يتطاول عليه أقرب الناس إليه، وإذا أراد الله إعزاز إنسان جعل أعداءه في خدمته دون أن يشعروا.

﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج:١٨].

إذا أحبَّك الله ألقى محبَّتك في قلوب الخلق، وإذا لم يحبَّك الله ألقى بغضك في قلوب الخلق، الحياة توفيق إلهي والتّوفيق بالطاعة، ومن هاب الله هابه كلُّ شيء ومن لم يهب الله أهابه الله من كلِّ شيء.

كن مع الله تر الله معك ... واترك الكلَّ وحاذر طمعك

وإذا أعطاك من يمنعه ... ثم من يعطي إذا ما منعك

اللهم أعطنا ولا تحرمنا، أكرمنا ولا تُهنّا، آثرنا ولا تؤثر علينا، أرضنا وارضَ عنا، وصلَّى الله على سيدنا محمدٍ النبي الأميّ وعلى آلهِ وصحبه وسلم.

الأحد

هذا الاسم ورد في القرآن الكريم في سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص:١-٤].

وقد ورد أيضاً في السنة الشريفة الصحيحة، فقد أخرج ابن ماجة عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ سمع رجلاً يقول:

«اللهمَّ إِني أسأَلُكَ بأني أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ، لا إلهَ إلا أنتَ، الأَحَدُ الصَّمَدُ، الذي لم يَلِدْ ولم يُولَدْ، ولم يكن له كُفُوا أَحَدٌ، فقال ﷺ: والذي نفسي بيده لقد سأل اللهَ باسمه الأَعظَمِ، الذي إِذا دُعِيَ به أجابَ، وإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى»

من معاني اسم الله الأحد

الأحد من مشتقات الواحد، فالواحد مفتتح العدد، إذ أَوَّل عدد هو واحد، أَمَّا الأحد فهذه للنفي، تقول: ما جاء من أحد، أَمَّا الواحد فللإثبات، تقول: جاء واحد من

القوم، الواحد لا شريك له، لكنَّ الأحد لا مِثْل له، الواحد من حيث الكمِّ، أمَّا الأحد فمن حيث النَّوعُ.

قال تعالى: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ۝٦٥﴾ [مريم:٦٥].

السَّمِيّ: المشابه، و كلُّ ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك.

أمَّا الأحديَّة فقالوا: هي الانفراد ونفي المثليَّة، والانفراد لذاته، وصفاته، وأفعاله.

من معاني الأحد أنَّه يحتاجه كلُّ شيء في كلِّ شيء، وليس محتاجاً إلى شيء، فوجوده ذاتي، أمَّا الإنسان فعبد لله، ووجوده معتمِد على إمداد الله له.

وقد ورد في القرآن جمعان لكلمة عبد وهما عبيد وعباد، والفرق بينهما أنّ العبيد جمع عبد القهر، أمَّا العباد فجمع عبد الشكر، قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ۝٤٦﴾ [فصلت:٤٦].

بينما عبد الشكر تجمع على عباد. ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ﴾ [الإسراء:٦٥].

فأيُّ إنسان ولو كان ملحداً، كافراً، فاجراً فهو عبد لله، بمعنى أنَّ حياته متوقفة على إمداد الله له، فلو توقَّف القلب فأملاكه مهما بلغت تنتقل إلى غيره، كان رجلاً فأصبح خبراً، قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ﴾ [المؤمنون:٤٤].

حتى العتاة، الطغاة، المستكبرون، الملحدون، الكافرون هم عبيد لله قهراً، وكلُّ مكانتك الاجتماعية مبنيَّة على ذاكرتك، وهناك حالات فقدِ الذاكرة، كلُّ مكانتك الاجتماعية مبنيَّة على حركتك، وأقلُّ خثرة من الدَّم في أحد شرايين الدماغ تنهي الحركة، كلُّ مكانتك الاجتماعية، من عقلك، والعقلُ قد يذهب فجأة.

أيُّ إنسان مهما كان قويّاً، ومهما كان متجبِّراً فهو عبد لله قهراً، هذه عبودية القهر، لكنَّ المؤمن حينما عرف الله، وأحبَّه، وأقبل عليه، وأطاعه، وتقرَّب إليه فهذا عبد لله أيضاً من نوع آخر، هذا عبد الشكر.

الأحد يستحيل أن تحيط به، قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة:٢٥٥].

علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

قال بعض العلماء: ما بين دفتي المصحف وصف للواحد الدّيّان، وأمر وخبر، وسورة الإخلاص تعريف بالله، فهي ثلُث القرآن.

في هذا الكون حقيقية واحدة أحديَّة هي الله، الحقُّ كلُّ ما يؤكد وجود الله، ووحدانيته، وكماله، والحق كُلُّ عمل تتقرَّب به إلى هذه الحقيقة الوحيدة الأحديّة.

إذاً اعتقادًا: كلُّ ما يؤكِّد وجود الله ووحدانيته، وكمالَه فهو الحقُّ، وسلوكاً: كلُّ عمل يقرِّب إليه فهو الحقُّ، هذا كلام شموليٌّ، وأمَّا الباطل فكلُّ ما يغفل هذه الحقيقة العظمى الأحديَّة أنَّ الله موجود، وأنَّ الله واحد، وأنَّ الله كامل، فهو الباطل، أيُّ توجُّهٍ إلى غير الله، أيُّ تشريع صادر عن غير منهج الله، أيُّ تقييم لعمل بعيد عن منهج الله، أيُّ شيء يبتعد بك عن الله، فهو الباطل، بل أي عمل يبعدك عن الله أو يجعل حجاباً بينك وبين الله فهو باطل.

الله عز وجل أحد، فرد صمد، لم يلد، ولم يولد، هو الحقيقة الأحديَّة، ولا شيء سواه، فما سواه خاضع له، فأيّ فكر، أيّ كتاب، أي تأليف، أيّة قصة، أي عمل، أيُّ طرح، أيُّ تفسير، يؤكد وجود الله، ويؤكد وحدانيته، ويؤكد كماله فهو الحق، وأيُّ إغفال، أو إبعاد عن هذه الحقيقة فهو الباطل، وأيُّ عمل يقرّب إليه فهو السلوك الحق، وأي عمل يحجب عنه فهو السلوك الباطل، وهذا تعريف جامع مانع للحقِّ والباطل.

الآن... كلُّ عمل، أو كلُّ تصوُّر ينطلق من منهج الله فهو الخير، وكلُّ عمل، أو تصوُّر يناقض منهج الله عزَّ وجلَّ فهو الشّرّ، وإن بدا على شبكية العين ممتعاً، أو نافعاً، لكن في المآل يعدُّ شرّاً.

إذاً: الخير ما جاء به وحي السماء، وما ناقضه فهو شرٌّ، وإن بدا للناس ممتعاً أو مريحاً، أو كسباً لهم.

الجمال الحقيقي كلُّ ما اشتُقَّ من الله عز وجل، من تصوُّر، أو موقف، أو عمل فهو الجمال الحقُّ، وهناك جمال الأخلاق، وجمال التواضع، وجمال الوفاء، وجمال الرحمة، فأيُّ سلوك، وأيُّ تصوُّر لم يؤخذ من منهج الله عز وجل، بل أيّ سلوك تفلت من منهج الله فهو القبح بعينه، هذه الحقيقة الأحديَّة هي ميزان الحق، والخير، والجمال.

ولكن لا بد من وقفة متأنيَّة: ما الحقُّ؟ الحقُّ لابس خلق السماوات والأرض، فكلُّ شيء خلقه الله عز وجل حقٌّ، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [التغابن:٣].

فالحقُّ مشى مع كلِّ شيء خلقه الله، ولابس خلق السماوات والأرض.

ويقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ﴾ [ص:٢٧].

الحقُّ نقيض الباطل، فالباطل هو الشَّيء الزائل، فأي شيء باقٍ على الدوام إلى أبد الآبدين فهو الحقُّ، وأيُّ شيء زائل هو الباطل، وقد قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ٨١﴾ [الإسراء:٨١].

وزهوق على وزن فعول، وفعول من صيغ المبالغة، وإذا بالغنا في الشّيء فالمبالغة تتَّجه إلى الكمِّ والنوع، إذ إنَّ أكبر باطل زائل، كما أنّ صنوف الباطل مهما تنوَّعت فهي زائلة.

إذاً: الحقُّ هو الباقي، فكم من مذهب وضعي ظهر في الأرض؟ كم من إيديولوجيات مِن صنع الإنسان ظهرت، ثم انتهت، بل ثم أصبحت في الوحل؟ لأنها باطلة، أمَّا هذا الدين العظيم، ومع أنَّ العالم كلَّه في قاراته الخمس يحاربه، بل إن حرباً عالمية ثالثة أُعلنت على هذا الدين وهو شامخ كالطود، وهو يزداد نمواً، بل هو الدين الأول نموَّاً.

هذا الذي دعا بعض العلماء الغربيين الذين هداهم الله إلى الإسلام، وقد زاروا جالية إسلامية في بريطانيا، أن يقول: أنا لا أصدق أن يستطيع العالم الإسلامي اللحاق بالغرب على الأقل في المدى المنظور، لاتِّساع الهوَّة بينهما، ولكنني مؤمن أشدَّ الإيمان أنَّ العالم كلَّه سيركع أمام أقدام المسلمين، لا لأنَّهم أقوياء، ولكن لأنَّ خلاص العالم في الإسلام، بشرط أن يحسنوا فهم دينهم، وأن يحسنوا تطبيقه، وأن يحسنوا عرضه على الطرف الآخر.

ويقول تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الأنبياء:١٦].

اللعب هو العبث، هو عمل بلا هدف، كاثنين جلسا ليلعبا النَّرد إلى الساعة الثالثة ليلاً، ماذا ينتج عن هذا؟ عمل بلا هدف، تضييع للوقت، بتعبير آخر قتل للوقت، أمَّا لو قرأت كتاباً، لو التحقت بجامعة، وقرأت الكتاب المقرَّر، وفيه امتحان، ونجحت، وأخذت شهادة، الشهادة فيها تعيين، والتعيين فيه دخل، الدخل معه زواج، الزواج معه بيت، وعمل.

إذاً: الحقُّ نقيض الباطل، والباطل الشّيء الزائل، الحق إذاً الشيء الثابت والباقي والدائم.

الحق نقيض اللعب، واللَّعب هو العبث، والعبث عمل بلا أثر مستقبليّ.

حين يشتري الأب سيارة صغيرة لابنه، ويمضي وقتاً طويلاً في تحريكها فوق أثاث البيت، يرافق هذا التحريك صوت منه يدلُّ على صعوبة الطريق، هذه السيارة الصغيرة تملأ عالمه كلَّه، فلو أخذتها منه فإنَّه يبكي، حينما يصبح طبيباً، ويُذكَّر بأعماله ألا يضحك على نفسه؟

من صفات اللعب أنك إذا تجاوزته رأيته صغيراً، هذا لعب، وقت ضائع، عمل لا طائل منه، عمل لا هدف له، عمل لا جدوى منه.

فلذلك جاء في الحديث: «إن الله يحب معالي الأمور وأشرافها، ويكره سفسافها ودنيها» [أخرجه الطبراني عن حسين بن علي].

نصيب المؤمن من اسم الله الأحد

بطولة الإنسان وذكاؤه وعقله في أن يربط نفسه بالحقِّ، بالله الواحد الأحد، فإذا ربط نفسه بالحقِّ فله مستقبل في الدنيا والآخرة، أمَّا إذا ربط نفسه بالباطل، فما دام هذا الباطل قائماً فإنَّه ينعم به، فإذا أزيح الباطل انتهى معه، فكلُّ الذكاء، وكلُّ البطولة، وكلُّ النجاح، وكلُّ الفلاح، وكلُّ التوفيق، أن تربط نفسك مع الحقِّ الأزليِّ الأبديّ، الثَّابت الباقي في الدنيا والآخرة.

هؤلاء الذين وقفوا مع النّبيِّ الكريم في محنته، في أقسى أيام الدعوة، أين هم الآن؟ في أعلى عليين، أسماؤهم في لوحة الشرف، وهؤلاء الذين انضموا للباطل القويِّ الغنيِّ، أين هم الآن؟ في مزبلة التاريخ.

الله عز وجل واحد أحد، فرد صمد، والحقيقة الإلهية حقيقة أحدية، وأيّ تصور، وأيّ فكر، وأيّ طرح يؤكِّد وجود الله ووحدانيته وكماله فهو الحق، وأيُّ سلوك يقرِّب إليه فهو الحقُّ، وأيُّ إغفال لهذه الحقيقة الأحديَّة فهو الباطل، وأيُّ سلوك يُبعد عنها فهو الباطل، من هنا كانت البطولة أن تكون مع الحقِّ، وأن تكون مع الشيء الثابت.

يروى أن أحد خصوم أبي حنيفة النعمان التقى به عند أبي جعفر المنصور، أراد هذا الخصم أن يوقع أبا حنيفة في حرج كبير، قال له: إذا أمرني الخليفة أن أقتل إنساناً، أأقتله أم أتريث؟ فلعلّه مظلوم؟ فسأله: هل الخليفة على الحقِّ أم على الباطل؟ قال له: على الحقّ، قال له: كن مع الحق، فلما خرج قال: أراد أن يقيِّدني فربطته.

ولأنَّك مخلوق لمعرفة الله، مخلوق لجنَّةٍ عرضها السماوات والأرض، فأنت في أصل الخلق لا نهائي، فلا شيء يملؤك إلا الله، وقد تختار وظيفة، بعد أن تصل إليها تملّها، تختار المال بعد أن تحوزه تملُّه، كلُّ شيء سوى الله مُمِلٌّ، وكلُّ شيء سوى الله يخبو لمعانه، وكلُّ شيء سوى الله لا يمكن أن يمدَّك بسعادة مستمرة، بل متناقصة، هكذا شاءت حكمة الله.

هؤلاء الذين بلغوا كلَّ أهدافهم المادية، يعيشون بحالة ملل، وسقم، لأنّ نفس الإنسان مفطورة على معرفة الله.

وحينما تختار هدفاً أرضياً، فما دام بعيداً عنك لعلك تحلم به، فإذا وصلت إليه انتهى، وهذه مشكلة الناجحين في الحياة.

ليس ثمّة أصعب من إنسان يعيش بلا هدف، إن ربطت نفسك مع الحقّ فأنت مع الله، أنت مع الباقي، الأزلي، الأبدي، الذي كلُّ شيء بيده، وإن لم تصل لهذه الحقيقة فقد تستمتع بالمال أحياناً، بالمرأة أحياناً، بقصر، ببيت، بمركز، بمنصب، هذه الأشياء بعد أن تصل إليها تفقد لمعانها، ويخبو بريقها، وتشعر أنها أصغر بكثير ممّا كنت تتوقّع.

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٤].

هناك فراغ في النفس لا يملؤه المال، لا يملؤه المنصب، لا تملؤه الزوجة الجميلة، لا يملؤه إلا معرفة الله.

فكن مع الواحد الأحد الفرد الصمد، فمن كان مع الله كان الله معه.

الصَّمَد

ورد اسم الصَّمَد في سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص:١-٢].

وقد ورد هذا الاسم أيضاً في السنة النبوية الصحيحة في عدة مواضع، منها: «أنا الأحَدُ الصَّمَدُ الذي لم يَلِدْ ولم يُولَدْ، ولم يكن له كُفُوا» [البخاري عن أبي هريرة].

و: «قال النبي ﷺ: أَيَعْجِزُ أحدُكُم أَن يقرأ ثُلث القرآن في ليلة؟ فشقَّ ذلك عليهم، وقالوا: أَيُّنا يُطيق ذلك يا رسولَ الله؟ فقال: الله أحد، الله الصمد ثلثُ القرآن» [البخاري عن أبي سعيد الخدري].

و:«خرج إلينا رسولُ الله ﷺ، فقال: أقرأُ عليكم ثلث القرآن؟ فقرأ: قُلْ هُوَ الله أَحَد، الله الصمَدُ... حتى ختمها» [مسلم عن أبي هريرة].

و: «كان رسولُ الله ﷺ يوتر -يعني يقرأ في صلاة الوتر- بـ: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى، و: قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ، و: قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ» [أبو داود عن أُبيّ بن كعب].

من معاني اسم الله الصَّمَد

الصَّمَد صفة مشبهة لمن اتَّصف بالصمدية، والفعل صمد، يصمد، صمداً.

الصَّمَد: القصدُ. وفي حديث معاذ بن عمرو بن الجموح في قتل أبي جهل قال: فصمدتُ له حتى أمكنتني منه غِرّة، أي: ثبتُّ له وقصدته وانتظرت غفلته [النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير].

هذا المعنى الأول في اللغة... الصَّمَد: القصد... صمدتُ له: قصدتُه... والصَّمَد كذلك: السيِّدُ المطاع الذي لا يُقضى دونه أمر، سيِّد متمكِّن، مطاعٌ، أمره نافذ... وأصمد إليه الأمر: أسنده إليه.

ويقول بعض علماء اللغة: «إنَّ الصَّمَد في اللغة له وجهان: أنه فعلٌ بمعنى مفعول»... أي: مقصود، صمدتُ إليه، أي: قصدته، أو هو المقصود، أي: السيدُ المقصودُ. المصمود في الحوائج، أي: المقصود في الحوائج. فإذا أحبَّ الله عبداً جعل حوائج النَّاس إليه، أي: أتاح له أسباب العمل الصالح.

هناك شخص يتملَّص من كلِّ عمل، يتملَّص من كلِّ عبء، يتملَّص من كلِّ موعد، يتملَّص من كلِّ بذل، ومن كلِّ عطاء، يأخذ ولا يُعطي، وإذا أردت أن تعرف ما إذا كنت من أهل الدنيا، أو من أهل الآخرة، فاسأل نفسك السؤال الآتي: ما الذي يُفرحك؟ أن تعطي أو أن تأخذ؟

أهل الدنيا يفرحهم أن يأخذوا، وأهل الآخرة يفرحهم أن يُعطوا. وهذا مقياسٌ مهمٌّ، حتى إنَّ العرب في لغتهم يصفون الذي يُسعده العطاء بكلمة أريَحِيّ. هو أشدُّ كرماً من الكريم؛ يرتاح في العطاء. يعطي ليستريح، فإذا كنت من أهل الإيمان فاعلم أنَّ المؤمن حياته مبنيَّةٌ على العطاء، وغير المؤمن حياته مبنيةٌ على الأخذ.

والذي يعطي فإن الله جلَّ جلاله يعطيه، «أنفق بلالُ ولا تخشَ من ذي العرش إقلالاً» [البيهقي في شعب الإيمان، عن أبي هريرة]. «أنفق، أُنفق عليك» [البخاري، عن أبي هريرة].

وهناك في القرآن الكريم آيات عديدة تقرِّر أنَّ كلَّ نفقةٍ يعوِّضها الله أضعافاً مضاعفة فقد قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ﴾ [سبأ:٣٩].

هذا كلام خالق الكون. فالصَّمَد؛ بمعنى المصمود، أي: المقصود في الحوائج كلِّها. وإذا أحبَّ الله عبداً جعل حوائج الناس إليه. والمؤمن لا يتأثَّر لو طُرِق بابه في

اليوم مئة مرة، لو اتصلوا به عشرات المرّات، لو تزاحم الناس على بابه لا يتأثّر؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى قادر على أن يجعلك تأخذ، على أن يجعلك تقف ذليلاً أمام باب إنسان لئيم، فإذا مكَّنك الله؛ أعطاك صحَّةً، وأعطاك مالاً، وأعطاك مكانةً، وأعطاك شيئاً يمكن أن تنفقه، لا تبخل به، لأنَّ الله سبحانه وتعالى يقرُّك على النعم ما بذلتها، فإذا منعتها منعها عنك. والعرب تقول: بيتٌ مصمود: إذا قصده الناس في حوائجهم.

تجد في الأسر رجلاً يسمونه الآن عميدَ الأسرة، يقصده كلُّ أطراف الأسرة في زواجهم، في أعمالهم، في وظائفهم، في حلِّ مشكلاتهم، في كلِّ ما من شأنه أن يتدخَّل من أجله، هذا الإنسان محترم.

وقال بعض متأخِّري اللغة: الصَّمَد هو الأملس من الحجارة الذي لا يقبل الغبار، بمعنى صقيل، ولا يدخله شيءٌ ولا يخرج منه شيء، لا دخول ولا خروج ولا استقرار... هو الصَّمَد.. هذا كلُّه معنى كلمة الصَّمَد في اللغة.

أما الصَّمَد إذا كان وصفاً لله عزَّ وجلَّ، أو كان اسماً من أسمائه، فقال العلماء: الله سبحانه وتعالى صمدٌ؛ لأنَّ الأمور أُسندت إليه، يعني الأمور رجعت إليه وهذا المعنى ورد في القرآن الكريم، فقد قال تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود:١٢٣].

أحياناً تجد في دائرة أو مؤسسة أو معمل أو مدرسة، رجلاً قوياً لا يستطيع أي موظَّف أن يبتَّ في قرار، أو يتّخذ أيَّ قرار، ما لم يرجع إليه فالأمر كلُّه بيده، خيوط كلِّ الموضوع مجموعةٌ بيده، فالله سبحانه وتعالى إذا قلنا: إنه الصمد؛ أي إنَّ الأمور كلَّها أصمدت إليه، أي أسندت إليه.

فما قولك إذا كان الأمر كلُّه بيد الله، أتسأل غير الله؟ أو هل تتوجّه إلى غير الله؟ أتعلّق الأمل على غير الله؟ أتخاف من غير الله؟!

فقد سألني أحدهم مرَّة: ما الذي يقوّي توجُّهي إلى الله؟ قلت له: التوحيد. ما الذي يقوّي إخلاصي؟ التوحيد، ما الذي يقوي عزيمتي؟ التوحيد. ما الذي يبعدني عن الشرك؟ التوحيد. وما تعلَّمت العبيد أفضل من التوحيد. وكلُّكم يعلم أن المصحف كلّه من دفته إلى دفته، من فاتحته إلى سورة الناس؛ كلّه حول التوحيد والدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف:١١٠].

هذا هو الدين... بل إنَّ فحوى دعوة الأنبياء جميعاً دون استثناء هو التوحيد، والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء:٢٥].

الدين كلُّه قائم على عقيدة التوحيد والعبادة؛ وحِّد واعبدْ، تفز في الدنيا والآخرة، بذلك تجمع المجد من كلِّ أطرافه.

الصَّمَد في وصف الله تعالى؛ هو الذي أسندت الأمور إليه، فلم يقضِ فيها غيره. وهو الذي يُصْمَدُ إليه في الحوائج، أي: يقصد. الأمور راجعةٌ إليه... إذاً هو المقصود كنتيجة طبيعية.

فأنت على نحو طبيعيٍّ وعفويٍّ، إذا دخلت إلى دائرة بحاجة إلى موافقة على طلب، تسأل بيد من هذه الموافقة؟ فإذا قيل: إنها بيد المدير العام؟ فلا يمكن أن تبذل ماء وجهك لغيره، ولا يمكن أن تسأل غيره؛ لأنك أيقنت أنَّ الأمر بيد فلان، ما دام الأمر بيده أنت قصدته. من أين يأتي القصد؟ من التوحيد... إن وحّدت، تتجه إلى الله.

لكن أقول: بعض الآيات والأحاديث إدراكها سهل، وشرحها سهل، لكن أن تعيشها فهنا بيت القصيد، أجل أن تعيشها.. فيا ترى هل هناك مشكلة مزلزلة عشتها؟ فأن ترى أن فلاناً هو الذي أوقعك بها، أو فلاناً من الناس هو الذي خلَّصك منها، فهذا هو الشرك، فأفكار التوحيد أفكار سهلة وليست معقَّدةً، أما الممارسات، فهذه تحتاج إلى جهد كبير.

التوحيد محصِّلة جهودك الكبيرة في طريق الإيمان. فأحياناً يقال لك عن سعر العملة...؛ إن محصِّلة الإنتاج الزراعي، والصناعي، والتجاري، وترشيد الاستهلاك، والقدرة على جلب رؤوس أموال من بلاد أخرى، ورواج المبيعات، والثروات الباطنية، كلُّها عوامل مهمة تدخل في تحديد سعر العملة. كذلك كلُّ عوامل الإيمان محصِّلتها التوحيد. وقال العلماء: «الصَّمَد؛ هو الدائم الباقي بعد فناء خلقه»، فقد قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ﴿٢٦﴾ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧].

وقال بعض العلماء: «هو الذي خلق الأشياء كلَّها، ولا يستغني عنه شيء».

بحسب تركيب الجسم المعقَّد جداً فسلامته وعافيته معجزة؛ فالقلب وما به من دسّامات، وأذينين، وبطينين، ومراكز توليد الكهرباء، والأوعية، والشرايين، والأوردة، والكبد، والبنكرياس، والغدد الصماء ومفرزاتها -بنسب دقيقة جداً- وبلازما الدم... قلت: والله، المعجزة أن يستيقظ أحدنا معافى ولا يشكو من شيء... فهذه هي المعجزة، من شدة تعقيد الجسم ودقّته، فأن يسلم جسم الإنسان من المرض فهذه المعجزة، وتفسير هذه المعجزة لدى الإنسان أن يعلم أن الله الذي خلقه هو ذاته الحافظ، وأن الجسم لا يستغني عن خالقه.

أي نسبة تتغيَّر تصبح معها الحياة لا تطاق، لو أنَّ الكلية قصَّرت في وظيفتها تزداد نسب الحموضة في الدم، ومن مضاعفاتها ضيق، وتوتُّر عصبي، وردود فعل عنيفةٌ جداً.

الملح إذا زاد، يؤثر في الدم، وإذا أصبح الدم لزجاً، يتجمَّد فوراً. والتجمُّد يعني الشلل، أو فقد البصر، أو فقد الذاكرة، فالإنسان شديد التعقيد، فهو إذاً شديد الحاجة إلى الله، الله هو الذي خلق الأشياء كلَّها لا يستغني عنه شيء. الإنسان يربي ابنه وعندما يكبر يستقلُّ عن أبيه، وقد يغدو أقوى من أبيه، وقد يغدو أغنى من أبيه، وقد يصبح أبوه بحاجةٍ إليه. لكنَّ الله الذي خلق كلَّ شيء، وكلُّ هذه الأشياء لا تستغني عنه.

أحد العلماء له تعريفات أخرى لاسم الصَّمَد يقول: «الصَّمَد؛ هو العالم بجميع المعلومات»... هذه إشارة دقيقة... فالإنسان إذا نقصته المعلومات ضعف وضعفت قوَّته، فأحد أسباب القوة؛ المعلومات الدقيقة. فالإنسان إن كان يحتلُّ موقعاً قيادياً؛ وإذا كانت معلوماته غير دقيقة، أو ناقصة، أو غير كاملة، يضعف مركزه، فأحد أسباب القوة؛ ألا يغيب عنك شيء. وهذه صفةٌ لله عزَّ وجلَّ، فالإنسان قد يعلم شيئاً وقد تغيب عنه أشياء.

فقل لمن يدَّعي في العلم فلسفةً ... حفظت شيئاً وغابت عنك أشياءُ

فالله سبحانه وتعالى من خلال معاني اسم الصَّمَد: أنه يعلم كلّ شيء، ولا يخفى عليه شيء.

وقيل: الصَّمَد؛ هو الحكيم... أولاً: يعلم كلّ شيء، لكن مع هذا العلم أفعاله فيها حكمة، فالحكمة هي أحد الأدلة الكبيرة على وجود الله... فقد يكون هناك أشياء

متراجحة... فإذا أنت خاطبت إنساناً فهل من الممكن أن ترفع الصوت إلى درجة ليسمع من بُعدِ مئتي متر؟ فلا يكون هناك حكمة. أو أن تهمس همساً من على بُعد خمسة أمتار بحيث لا يسمعك، فلا بد من أن ترفع الصوت إلى درجة ليصله. فتعبير الصوت بحيث يصل إلى السامع دون أن يتجاوزه كثيراً، ودون أن يقصِّر عنه؛ هذه هي الحكمة. فالحكمة؛ وضع الأشياء في أماكنها. والحكمة؛ أن تفعل الشيء المناسب، في الوقت المناسب، في القدر المناسب، للشخص المناسب على الشكل المناسب، فالله سبحانه صمد، هو حكيم...

وقال: الصَّمَد؛ «هو السيِّد الذي عظم سؤدُده»، أي: مجدُه.

وقيل: الصَّمَد... «هو الخالق للأشياء، فإنَّ كونه سيِّداً يقتضي ذلك».

فعندما يقرأ الإنسان في صلاته: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الصَّمد:١-٤].

هذه المعاني كلُّها ينبغي أن ترد على ذهنه وقلبه. فالإنسان يتدبَّر في كلام الله عز وجل، ويتأمل في المعاني التي يقرؤها فيخشع قلبه، ويرقى إلى الله عز وجل بهذه المعاني.

قيل: الصَّمَد؛ «هو المقصود إليه في الرغائب، المُستغاث به عند المصائب». وقيل: الصَّمَد؛ «الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد».

الإنسان يشاء ولا يفعل، لأنه لا يستطيع، الله عز وجل وصف ذاته بقوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦﴾ [البروج:١٦]، لكن قد يريد الإنسان تحقيق قضية ولا يستطيعها، قال أبو الطيب المتنبي:

مــا كــلُّ مــا يتمنــى المــرءُ يدركــه ... تجـري الريـاح بـما لاتشـتهي السـفنُ

أما الله عز وجل فهو: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦﴾ [البروج:١٦].

فقد تجد إنساناً يحبُّك ولك عنده مكانة كبيرة، وتلجأُ إليه فيقول لك: والله لا أستطيع، كان بإمكاني قبل هذا الوقت، كان هناك شاغر وظيفيّ وقد سُدّ هذا الشاغر،

كان هناك شخص أعرفه وقد نُقِل من منصبه، على أنك أثيرٌ عنده لكنَّه يعجز عن مساعدتك.

الدين أساساً صلة بالله. التجاء إلى الله. وغير المؤمن يلتجئ إلى إنسان، يعني إمَّا أن تكون عبداً لله، وإما أن تكون عبداً لعبد الله. فالله سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وما دام يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ولا معقِّب لحكمه ولا رادَّ لقضائه إذاً؛ هو المقصود، هو القوي، هو الغني، هو القهار.

وقال بعض العلماء: «الصَّمَد هو الماجد الذي لا يتمُّ أمرٌ إلا به»، وقيل: الصَّمَد... «الكبير، الذي ليس فوقه أحد».

ففي ذات مرَّة سُئل أحدهم فقالوا له: هل هناك من هو أكبر منك؟ فقال: نعم، والأكبر هناك من هو أكبر منه؟ وأكبر وأكبر وهكذا... والله هو أكبر من الجميع. وأنا مع الله. فالأكبر؛ هناك من هو أكبر منه. فإن كنت عالماً؛ فهناك أعلم منك، وإن كنت قوياً، فهناك أقوى. وإن كنت غنياً، فهناك أغنى. أما الكبير الذي ليس فوقه أحد، فهو الله؛ بالقدرة والعلم والغنى، فإذا كنت مع الله، فأنت أقوى الناس، وأنت أغنى الناس، وأنت أعلم الناس.

وقيل: الصَّمَد... «الكامل في كلِّ الصفات، فيدخل فيه الكمال في العلم والقدرة والحكمة والغنى».

وقيل الصَّمَد... «الذي يحتاج إليه كلّ أحد، وهو مستغنٍ عن كلِّ أحد».

الإنسان الغني يحتاج إليه الناس، وهو محتاج إلى الناس من أجل أن يأكل، ومن أجل أن ينام، مهما كنت غنياً فأنت بحاجة إلى كلِّ الناس، بحاجة إلى من يقدِّم لك رغيف الخبز، بحاجة إلى من يمسح لك سيارتك، بحاجة إلى من يمدِّد لك الكهرباء في البيت، فالغنيُّ يحتاج إليه الناس، ولكنه في المقابل يحتاج إلى الناس. أما الصَّمَد فهو الذي يحتاج إليه كلُّ مخلوق؛ وهو مستغنٍ عن كلِّ أحد، يحتاج إليه كلُّ أحد، وهو مستغنٍ عن كلِّ أحد.

وقيل: الصَّمَد... «هو الذي تقدَّست ذاته عن إدراك الأبصار والعِيان... وتنزَّه جلاله عن أن يدخل تحت الشرح والبيان»، فالأبصار والحواس لا تستطيع أن تُدركه، هذا الصَّمَد والشرح مهما كان لا يوفي جلاله، وقيل: -كما قلت قبل قليل- الباقي بعد خلقه لا يموت، ولا يورث، هو الذي يرث الأرض ومن عليها، الأبدي، الذات الكاملة.

وقيل: الصَّمَد... «الذي لا ينام، ولا يسهو، ولا يغفو».

أحياناً تجد شاحنة (برّاداً) -ثمنه عشرون أو ثلاثون مليوناً- وتجده منقلباً على قارعة الطريق، وسبب ذلك أن السائق قد نام وهو يقود السيّارة، والنوم سلطان قهره، ولكنَّ الله تعالى قال يصف نفسه: ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة:٢٥٥].

وقيل: «إنَّ الصَّمَد هو الذي يصمد إليه في الحوائج، ويقصد إليه في الرغائب»، وقال بعضهم: «الصَّمَد هو الذي لا يزول أبداً».

هذه المعاني كلُّها مما وردت في أثناء الكتب التي تحدَّثت عن أسماء الله الحسنى، أو فسَّرت كلامه جلَّ جلاله، كلُّ هذه المعاني تشير إلى اسم الصَّمَد.

الله عز وجل وصف نفسه بهذا الاسم ليكون مقصد عباده. أحياناً يسأل الإنسان قوياً، لكنَّ القويَّ لا يرغب في أن يلبي الحاجة، فقد يحرج لكي يُلبّي لك حاجتك، لكن الله عز وجل عندما قال لعباده: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ أي اقصدوني، إذاً هناك فرقٌ بين الله جلَّ جلاله، وبين العبد فالله يغضب عليك إن لم تسأله:

لا تسألنَّ بُنَيَّ آدم حاجةً	وسل الذي أبوابه لا تحجبُ
فالله يغضب إن تركت سؤاله	وبُنَيُّ آدم حين يُسأل يغضب

الله قال لك: أنا صمد، أي: اسألني، وهذا معنى قول النبي الكريم في الحديث الصحيح:

عَنِ الأَغَرّ قالَ: أَشْهَدُ عَلَى أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّهُمَا شَهِدَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قالَ: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُمْهِلُ حَتَّى يَذْهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ، ثُمَّ يَنْزِلُ فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ

سَائِلٍ؟ هَلْ مِنْ تائِبٍ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ؟ هَلْ مِنْ مُذْنِبٍ؟ قالَ: فَقَالَ: لَهُ رَجُلٌ حَتَّى يَطْلُعَ الفَجْرُ؟ قالَ: نَعَمْ» [مسند الإمام أحمد].

وهنا يقول بعض العلماء: الله جلَّ جلاله اختار هذا الاسم لذاته، ليقصده عباده في المهمات في دنياهم وفي دينهم.

يقولون لك: دنيا... نعم ولكن هناك دنيا ضرورية للآخرة؛ ففي الدعاء الصحيح: «اللهم اصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، واصلح لي آخرتي التي فيها معادي» [رواه مسلم، عن أبي هريرة].

نعم، أصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا: إذا كانت صحة الإنسان طيِّبة، و كان ذا مال يكفي حاجاته، وله أهل محصَّن بهم، وله أولاد، فهذه دنيا لكن صالحة، لذلك ما ورد في الدعاء اشتمل على صلاح الدنيا والآخرة: اصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها مردُّنا.

قال بعض العلماء: «إنّ من أراد ان يتحلّى بكمالات الصَّمَد، فليقلل من الأكل والشرب، وليترك فضول الكلام، ويداوم على ذكر الصَّمَد».

ألم نقل قبل قليل: الصَّمَد هو الذي يحتاج إليه كلُّ شيء، وهو مستغنٍ عن كلِّ شيء. فكلَّما كان الإنسان شرهاً يريد أن يأكل، وأن يلبس، وأن يسكن، وأن يتزوَّج، وشرهاً للشهوات ابتعد عن التخلُّق بأخلاق الصَّمَد، لكن يقول أحد الأدباء في تصوير بعض العقلاء:

لي صديق كان من أعظم الناس في عيني، وكان رأس ما عظَّمه في عيني، صغر الدنيا في عينيه. أي أن تتأدَّب بهذا الأدب؛ تصغر الدنيا في عينيك، فكان خارجاً عن سلطان بطنه... كيف؟ قال: لا يشتهي ما لا يجد، ولا يُكثر إذا وجد... كلام فيه معيار دقيق... كان لا يشتهي ما لا يجد، ولا يكثر إذا وجد، تجد المؤمن مؤونته خفيفة، ظله خفيف، وحاجاته خفيفة. بل إن النبي ﷺ وصف الزوجة الصالحة بأنها قليلة المؤونة؛ أي طلباتها قليلة تقنع بالقليل. ففي الحديث:

عَنْ عائِشَةَ عَنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «أعْظَمُ النِّساءِ بَرَكَةً أيْسَرُهُنَّ مؤنَةً» [مسند الإمام أحمد].

والله أعرف رجالاً كثيرين جداً دمَّرتهم زوجاتهم. زوجاتهم حملنهم على أكل المال الحرام، وكُشِفوا وسُرِّحوا وعوقبوا وسجنوا؛ هذا معنى قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ [التغابن: ١٤].

تحمله على كسب المال الحرام. أمَّا عادة النساء في السلف فكانت تقف إحداهنّ كلَّ يوم مودِّعةً زوجها قبل ذهابه إلى عمله وتقول له: يا فلان، اتَّقِ الله بنا فنحن بك، نصبر على الجوع، ولا نصبر على الحرام.

نصيب المؤمن من اسم الله الصمد

من أراد أن يتحلَّى بكمالات الصَّمَد فليقلل من الأكل والشرب وليترك فضول الكلام، أي: الهذر... فمن كثر كلامه كثر خطؤه... فكان صاحب هذا الأديب خارجاً عن سلطان بطنه، فلا يشتهي ما لا يجد، ولا يُكثر إذا وجد، وكان خارجاً عن سلطان الجهالة، فلا يتكلَّم بما لا يعلم، ولا يماري فيما علم، وكان لا يُدلي بحجةٍ إلا إذا رأى قاضياً فهماً، وشهوداً عدولاً، وكان يُرى ضعيفاً مستضعفاً، فإذا جدَّ الجد فهو الليثُ عادياً.

فالتخلُّق بكاالات الصَّمَد... أن تُقلل تعلُّقك بالدنيا، أن تُقلل تعلُّقك بمغرياتها، قالوا: دخلت امرأة على سوق من أرقى الأسواق في بعض المدن، فالأصناف التي فيها لا تُعدُّ ولا تُحصى، قالت هذه المرأة: يا إلهي كم هي الحاجات التي لا يحتاج إليها الإنسان!!

يقولون لك: فلان فقير، الفقير له بيت وفيه حاجاته الأساسية، ولكنَّ مقياس الفقر والغنى عند الناس الكماليات؛ الأشياء الثانوية، فعندما يقنع الإنسان بالقليل يكون غنيّاً.

وكثيراً ما قلت: هناك فقر القدر، وهناك فقر الكسل... فقر الكسل مذموم، لكنَّ فقر القدر معذور. وهناك غنى البطر وهناك غنى الكفاية، اسعَ لغنى الكفاية لا لغنى البطر. واقبل فقر القدر، وارفض فقر الكسل... الفقر الذي أسبابه الكسل يجب أن ترفضه؛ لأنَّ علوَّ الهمَّة من الإيمان. أما الفقر الذي أسبابه القدر فيجب أن ترضى به؛

لأنَّ هذه مشيئة الله. إن سعيت إلى المال فلا تسعَ إلى غنى الترف والبطر، بل اسعَ إلى غنى الكفاية: «طوبى لمن هدي للإسلام وكان عيشه كفافاً» [الترمذي، عن فضالة بن عبيد] «قد أفلح من أسلم ورزقَ كفافاً وقنَّعه الله بما آتاه» [مسلم، عن عبدالله بن عمرو].

ومَنْ تخلَّق بكمالات الصَّمَد؛ عليه أن يُكثر من ذكر الصَّمَد. مِن أحبِّ السور إلى النبي ﷺ سورة الإخلاص... وقد ورد في بعض الأحاديث أنها تعدِل ثلث القرآن [البخاري عن أبي سعيد الخدري]، فنلاحظ في شهر رمضان أن الإنسان لتركه الطعام والشراب تصفو نفسه، ألم يقولوا: البطنة تذهب الفطنة؟

ومما نستفيد من اسم الصَّمَد؛ أنَّ المؤمن يعرف جيداً أنَّ الله هو الذي يُطعِمُ ولا يُطعَم... فإذا كان الله وحده هو الذي يُطعم؛ توجَّه إليه وتوكَّل عليه، وارغب فيما عنده وايْئِسْ مما في أيدي الناس.

من عرف أنَّ الله دائمٌ لا يزول، زهد في حطام الدنيا. كلنا نرى رأي العين أن الإنسان عندما يغتني، فكلُّ هذا المال يخلفه وراء ظهره لا يستطيع أن يأخذ منه شيئاً إلى القبر... فإذا توقَّف القلب قال الطبيب لأهله: لقد انتهى ومات، وعظَّم الله أجركم، فكتبوا النعوات وقاموا بتشييعه إلى مثواه الأخير، تخلّت عنه الدنيا فتخلى عنها حتى أخص الأشياء التي كانت له امتنعت عنه كغرفته وأثاثه ومقتنياته الشخصية، فإذا علم الإنسان أن الله حيٌّ لا يموت، وأنَّ الله لا يزول، وأنَّ الله باقٍ على الدوام، وأنه الباقي بعد فناء خلقه، تعلق به وحده لأنه الباقي وغيره فان.

هذا إذاً موضوع الحوائج... فلا تتعلّق بالفاني، ولكن تعلَّق بالباقي. فهناك بيوت جميلة جداً وهناك أذواق رفيعة، الإنسان يشتهي أن يسكنها ولكنها هل تدوم؟! فلا بد من أن يخرج منها أُفقيّاً... مرةً واحدة ولا يعود أبداً. والمشكلة أن توازن بين البيت والقبر فهناك تجد بوناً شاسعاً. وهذا هو مصير كلِّ حيٍّ، فإذا عرف الإنسان أنَّ اللهَ صمدٌ، بمعنى أنه المقصود، يقصده. وإذا أيقن أنَّ الله هو الصَّمَد بمعنى الباقي، لا يتعلقُ بالفاني، وطبعاً هذه الأشياء مهمةٌ جداً في فهم البحث وفي سلامة التوجّه والسلوك.

وبعد فالتطبيق العملي نتيجة هذه التعريفات... فعندك ما هو باقٍ وعندك ما هو فانٍ، فمن تعلَّق بها سوى الله، فالمآل مؤلم جداً؛ وهو أنه يفارقه مهما عاش، وتاركه قهراً. «عش ما شئت فإنك ميِّت... وأحبب من شئت فإنَّك مفارقه» [الطبراني في الأوسط، عن سهل ابن سعد]، إن أحببت هذه الزوجة، لا بد من وقتٍ تفارقها، أو تفارقك. إذاً كما قال ﷺ: «لو كنت متَّخذاً من العباد خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام أفضل» [الطبراني في الأوسط، عن عائشة].

أما الأدب الثالث... من أدب المؤمن مع هذا الاسم ألا يقصد بحوائجه غير الله، وألا يُعوِّل إلا على الله. ألا يقصد إلا الله، وألا يضع الآمال إلا بالله؛ وهذا معنى قول علي رضي الله عنه: «لا يخافنَّ العبدُ إلا ذنبه، ولا يرجونَّ إلا ربّه».

الاستدلال الرابع: أن يتخلَّق الإنسان بهذا الاسم، فيجعل نفسه مقصوداً من قبل الناس للخير، معيناً لهم على حوائجهم، أي إنّ الإنسان إذا فتح بابه واستقبل أصدقاءه وإخوانه وأحبابه وأقرباءه وجيرانه، وقام بحلِّ مشكلاتهم، وأعانهم على حياتهم، ووفّق بينهم، وزوَّج عزبَهم، وأصلح فيما بينهم، فإذا كان مقصوداً في حوائج الناس يلبّي حاجاتهم ويقوم بإسدائها لهم، فقد تخلَّق بهذا الاسم. ويقول ﷺ: «أحبُّ الناس إلى الله تعالى أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه ديناً، أو تطرد عنه جوعاً، ولأن أمشيَ مع أخ في حاجة أحبُّ إليّ من أن أعتكف في هذا المسجد، (يعني مسجد المدينة) شهراً، ومن كفّ غضبه ستر الله عورته، ومن كظم غيظه ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه أمناً يوم القيامة، ومن مشى مع أخيه في حاجة حتى أثبتها له أثبت الله قدمه يوم تَزِلُّ الأقدام» [الطبراني، عن ابن عمر]، وقال: «إن سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل» [الطبراني عن ابن عباس].

إن الإنسان إذا تفكَّر في خلق السموات والأرض، يرى جانباً من عظمة الله عز جل، وقد يرى أسماءه الحسنى وصفاتِه الفُضلى، ظاهرةً في الكون، ظهوراً بيِّناً واضحاً، فالله سبحانه وتعالى يحتاج إليه كلُّ مخلوق، يحتاج إليه كل شيء في كلِّ شيء، إذاً هو

المقصود، وهو باقٍ على الدوام. إذاً تعلَّق بالباقي لا بالفاني. وكلما خففت من شهواتك ومتطلباتك ورغباتك، اقتربت من خالقك. وكلما فتحت بابك للناس لتقضي حوائجهم، تخلَّقت بهذا الاسم... أربعة تطبيقات عملية لهذا الاسم الصَّمَد عرفناها: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾.

ونرجو الله أن يوفقنا لنعيشها عملاً وواقعاً.

الأسماء الثابتة في السّنّة النّبويّة

الوتر

ورد اسم الله تعالى الوِتر في أحاديث صحيحة منها قوله ﷺ: «لله تِسعَةٌ وَتِسْعُونَ اسْما، مِائة إِلا واحِداً، لا يَحفَظُهَا أَحَدٌ إِلا دَخَلَ الجَنَّةَ، وهو وِتْرٌ، يُحِبُّ الوِتْرَ» [أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة].

حفظ الاسم يعني أن تتعرف عليه، وتتخلَّق بخُلُقٍ مستَمدٍّ منه، وتجعل من هذا الخُلق وسيلة إلى الله تعالى، فالله عز وجل رحيم، ويمكن أن تتقرَّب إليه بأن ترحم عباده، وهو محسِن، ويمكن أن تتقرَّب إليه إن كنت محسِناً، والله عز وجل كريمٌ، ويمكن أن تتقرَّب إليه إن كنت كريماً.

وفي صحيح مسلم، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «وَإِنَّ الله وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْرَ» [مسلم عن أبي هريرة].

بمعنى أن الله سبحانه وتعالى واحدٌ لا شريك له، وأحدٌ لا ندَّ له.

وعند الترمذي من حديث عَلِيٍّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ الله وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْرَ، فَأَوْتِرُوا يَا أَهْلَ القُرْآنِ».

من معاني اسم الله الوتر

الوِتر هو الفرد، أو ما لم يتشفَّع من العدد، فالسبعة عدد وتر، والتّواتر هو التّتابُع، قال تعالى: ﴿وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ۝٣﴾ [الفجر:٣].

الله هو الوِتر لأنَّه واحد لا شريك له، وأحدٌ لا مثيل له.والشَّفع هم جميع الخلق، فالإله واحد والخلق كثيرون.

البشر خُلقوا أزواجاً، خُلقوا شفعاً، فالرجل في أصل تركيبه مفتقِر إلى الزوجة، والمرأة في أصل تركيبها مفتقِرة إلى الزوج.

إذاً: شأن العباد أن يكونوا شفعاً، وشأن الله أن يكون وتراً، فالله واحد، والخلق كثُرٌ.

قال تعالى: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ ﴾ [الروم:٢١].

لماذا يسكن الزوجة لزوجته؟ولماذا تسكن الزوجة لزوجها؟ أي تميل إليه، ويميل إليها، ومن أنجح أنواع الزواج ما كان كلُّ طرف فيه قرّةَ عينٍ للطرف الآخر، يسكن إليها، لأنّه يكمِّل بها نقصه، وتسكن إليه لأنها تكمِّل به نقصَها، هي تكمِّل به نقصها القيادي، وهو يكمِّل بها نقصه العاطفي.

لذلك فإنَّ أيَّ مجتمع يسعى لتزويج الشَّباب بالشابات، فهو مجتمع متكامل صحيٌّ، أما حينها تُهاجَم الأسرة، وتُقوَّض أركانها، وحينها يُدعَى إلى التفلت، وإلى قضاء هذه الشهوة عبر الحرام، وعبر القنوات الأخرى فإنَّ مجتمعاً بأكمله ينهار، فتشريعات السماء تدعم الأسرة، وتشريعات الأرض تدعو إلى التَّفلُّت.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾ [الحجرات:١٣].

الإنسان شأنه الشَّفع، شأنه أن يكون مع آخر، الإنسان لا يستقرُّ إلا إذا تزوَّج، هذا شأن الخلق، لكن شأن الحقِّ أنَّه واحد أحد فرد صمد.

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾ [الإخلاص:٣].

﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾ [الجن:٣].

الله عز وجل مكَّنك من اختصاص، من حرفة، من قدرة، من مهارة، وأحاجك إلى آلاف الحاجات، أنت بحاجة إلى طبيب يداويك، بحاجة إلى معلِّم يعلِّم أولادك، بحاجة إلى خيَّاط يخيط لك ثيابك، بحاجة إلى خبَّاز يخبز لك الخبز، بحاجة إلى فلّاح يفلح لك الأرض، بحاجة إلى من يصنِّع لك الأدوات، أنت بحاجة إلى من يصنِّع لك الأثاث، تتقن حاجة، وتحتاج إلى ألف حاجة.

إذاً: قهرك أن تكون مع أخيك الإنسان، أنت مفتقر إلى زوجة، وفضلاً عن ذلك مفتقِر أن تعيش في مجتمع، أنت مدرِّس، طبيب، مهندس، لكنّك بحاجة إلى خيَّاط، بحاجة إلى سبّاك، بحاجة إلى بلّاط لبيتك، بحاجة إلى نجّار، بحاجة إلى حدّاد، حاجات الإنسان لا تعدُّ ولا تُحصى، وكلُّ حاجة هي خبرات متراكمة، وتطوّرات، وصناعات.

إذاً: الله عز وجل جعلك مفتقراً إلى المجتمع، تشترى خبزاً، وهناك مَن فلح الأرض، ومَن زرع القمح، ومَن اعتنى بالقمح، ومَن سمَّد القمح، ومَن سقى القمح لأشهر عديدة، هناك مَن حصد القمح، هناك مَن درس القمح، هناك مَن طحن القمح، هناك مَن خبز العجين، هناك مَن قدَّم لك الخبز، أنت مدرِّسٌ مثلاً، أمَّا هذا الرغيف فقد اشتغل به آلاف الأشخاص حتى وصل إليك.

إذاً: شأن الخلق أنهم مفتقرون إلى بعضهم، لكن الله شأنه أنه واحد أحد، فرد صمد.

يقول تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥].

لا يمكن أن يلتقي فرد من بني البشر مع فرد آخر إلا بإذن الله، لا يسمح الله لدواء أن يؤثِّر في الإنسان إلا بإذن الله، لا يسمح لهذا العقرب أن يلدغ إنسانًا إلا بإذن الله.

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ» [أخرجه الإمام أحمد].

ويقول تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾ [الفرقان:٢٠].

أنت بحاجة إلى طعام، وعلامة بشريَّتك أنك مفتقر إليه، الأنبياء مفتقرون في وجودهم إلى الطعام، بل مفتقرون إلى ثمن الطعام، لذلك يمشون في الأسواق. يقول الله عز وجل: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ﴾ [الذاريات:٤٩]. .

هذه آية مطلَقة، والمطلق على إطلاقه، حتى الذرَّة، هناك كهارب مشحونة سلبياً، ونواة مشحونة إيجابياً.

لو أنَّنا أبعدنا إنساناً عن أخيه الإنسان، وقطعنا عنه الأخبار، وقطعنا عنه الليل والنهار، فإنَّه يختلُّ توازنه خلال عشرين يوماً.

الأصل في الإنسان أنَّه اجتماعيٌّ، من شأنه الاجتماع والافتقار إلى أخيه الإنسان، وربنا جل جلاله واحد أحد، فرد صمد.

المسلمون اليوم بحاجة ماسَّة إلى قيم حضاريّة هي في أصل ديننا، لكنّنا غفلنا عنها، من هذه القيم: الانتماء للمجموع، وأخطر مرض يصيب المجتمع الانتماء الفرديّ.

إنسان مضطجع تحت شجرة تفّاح، قد قُطفت ثمارها كلُّها، لكن بقيت تفاحة واحدة لم ينتبه إليها من قطف الفواكه، ومعه منشار شجر، فنشر هذه الشجرة، فوقعت على الأرض ليأكل هذه التفاحة، هذا هو الانتماء الفردي.

من أجل مصلحته المحدودة يقضي على مصالح المجتمع، من أجل شهواته المنحطَّة يدمِّر أمَّة، أخطر شيء في المجتمع الانتماء الفردي، وأعظم شيء الانتماء الجماعي، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [المائدة:٢].

فالتعاون أصل في ديننا، وهو خصيصة ثابتة عند أعدائنا، وهذه الخصيصة أحد أسباب قوّتهم.هم يتعاونون، وبينهم خمسة بالمئة من القواسم المشتركة، ويبحثون كلَّ يوم عن وسيلة لتقارب مجتمعاتهم، ونحن نتقاتل، وبيننا خمسة وتسعون بالمئة من القواسم المشتركة، وهذه وصمة عار بحق الأمة.

ومن معاني الوِتر أنَّه جلَّ جلاله واحد في كماله. فالشَّفع مخلوقاته، وصفاتهم متنوعة، بل متناقضة، هناك بخيل، وكريم في بني البشر، مستقيم ومنحرف، صادق وكاذب، أمين وخائن، لكنَّ الله سبحانه وتعالى أسماؤه كلُّها حسنى، وصفاته فضلى، متوحِّد بكماله، بينما خَلقه متنوعون بصفاتهم.

نصيب المؤمن من اسم الله الوتر

الله يحبُّ الوتر، فيحب أن تكون متفوِّقاً، والنَّبي ﷺ طلب النُّخبة، طلب التّفوُّق، فعَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «اللهمَّ أَعِزَّ الإِسْلَامَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ، بِأَبِي جَهْلٍ، أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ، قَالَ: وَكَانَ أَحَبَّهُمَا إِلَيْهِ عُمَرُ» [الترمذي].

ولما أسلم حمزة توقَّف إيذاء قريش لرسول الله وأصحابه، ولما أسلم عمر صلَّى المسلمون في بيت الله الحرام.

إذاً: المطلوب أن تكون متفوِّقاً، لا أن تكون رقماً سهلاً، وهناك ملايين أتوا إلى الدنيا، تزوّجوا، وأنجبوا أولاداً، وماتوا، ولم يعلم بهم أحد، لكنَّ القلَّة القليلة في العالم تفوَّقوا، وتركوا أثراً كبيراً في مجتمعاتهم.

سيِّدنا محمد ﷺ واحد، جاء إلى هذه الدنيا، وغادرها بعد ثلاثة وستين عاماً، وعمَّ الهدى الأرض، ألم تسأل نفسك مرة: ماذا فعلت؟ ما الأثر الذي تركته في الدنيا؟ هل كنت في قلوب الناس.

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ [النحل:١٢٠].

فالله عز وجل ينتظرك أن تكون متفوقاً، أن تكون رقماً صعباً.

لا تكن إنساناً عاديّا من الملايين، لا تكن إنساناً من الهمج الرعاع، سيدنا علي ﷺ يقول: يا بنيّ، النَّاس ثلاثة: عالم ربانيٌّ، ومستمِع على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كلِّ ناعق، لم يستضيؤوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق، فاحذر أن تكون منهم.

لا تكن مع هذه الملايين التي شردت عن الله، لا تكن مع الملايين التي عبدت شهوتها من دون الله، لا تكن مع الملايين التي عاشت لتأكل، لا تكن مع الملايين التي جعلت شهوتها إلهها.

عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ» [البخاري].

لا تكن مع الملايين التي غفلت عن الله، لا تكن مع الملايين التي عاشت لحظتها، ولم تذكر ماذا بعد الموت، لا تكن مع الملايين التي عبدت المال من دون الله.

أيعقل أن يقسم الله عز وجل بعمر النبي؟! قال تعالى: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) ﴾ [الحجر:٧٢].

كم من شابٍ في الأرض في القارات الخمس، لو كان بخلوة مع امرأة بارعة الجمال، ودَعته إلى نفسها، بل أجبرته، كم من شاب يأبى ذلك؟

سيدنا يوسف قال: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسف:٢٣].

إذاً: سيدنا يوسف تفوّق، والأكثرية يرونها مغنماً كبيراً، بينما المؤمن يراها بُعداً عن الله عز وجل.

كأنما النبي ﷺ حينما يقول: «وَإِنَّ الله وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْرَ».

فإنَّه يعني كن مع القلَّة المتفوِّقة، كن مع القلَّة التي عرفت ربها، كن مع القلَّة التي أعطت ربها كلَّ ما عندها، كن مع القلَّة التي تركت أثراً في الحياة.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام:١٦٢].

مرة سألت طلاباً: من يذكر لي اسم تاجرٍ عاش في دمشق عام ألف وثمانمئة وسبعة وستين، وله علامة تامة؟ لم يجب أحد، قلت لهم: وأنا أيضاً لا أعرف، لكن من منَّا لا يذكر سيدنا عمر؟ سيدنا خالداً؟ هؤلاء العظام تركوا بصماتٍ واضحةً في الأرض.

كن مع القلَّة المتفوِّقة، كن مع الذين أحدثوا في الحياة أثراً كبيراً، كن مع الذين عاشوا في قلوب الملايين، كن أمّة كما كان سيدنا إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ .

لا تكن رقماً سهلاً، أيّ إنسان إذا بدل قناعاته برقم من المال فقد انتهى، أما المؤمن فرقم صعب، لا يساوم، ولا يبيع مبادئه.

أودع الله في الإنسان حاجة إلى الطَّعام والشَّراب حفاظاً على جسمه، أو على شخصه، أو على فرديته، وأودع فيه حاجة إلى المرأة، وأودع في المرأة حاجة إلى الرجل، حفاظاً على النوع، ولولا هذه الشهوة التي أودعها الله فينا لما كان هناك حياة، فتجد الإنسان يسعى جاهداً، يعمل ليلاً ونهاراً ليجمع مبلغا يتزوّج به امرأة، يشتري بيتاً، يستأجر بيتاً، يجهد جهداً كبيراً، وهذه حاجة أساسية، والفتاة ومعها كلُّ الحقِّ تنتظر خاطبًا، يرعاها، يحفظها، يدافع عنها، يكون ملءَ سمعها وبصرها، هي تنتظر، وهو يبحث، لأنَّ الله أودع فينا دافعاً إلى الجنس، وهذا الدافع إلى الجنس قوي جداً، فإن لم يتحرَّك في القنوات الشرعية تحرَّك في القنوات غير الشرعية، إن وُضعت العراقيل أمام الشباب في زواجهم فإياك أن تظن أنك توقف هذه الحاجة، بل تستمر، ولكن في الحرام، يقول ﷺ:

«إذا جاءكم مَن تَرضَون دينه وخُلُقَه فأنكحوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير» [أخرجه الترمذي عن أبي حاتم المزني].

أما الحاجة الثالثة، فهي تأكيد للذات، أن تكون متميزاً، أن تكون نجماً، أن تكون شيئاً مذكوراً، أن تكون مُهِمًّا، أن يُشار إليك بالبنان، أن يتحدَّث النَّاس عنك، هذه الحاجة قد تُلبَّى في الحق، وقد تُلبَّى في الباطل.

قد يجمع الإنسان أموالاً طائلة، وينفقها على ملذاته، وشهواته، وبيته، ومركبته وحماقاته، وأسفاره، فيصبح حديث الناس، وإنسان آخر: ﴿دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت:٣٣].

فإنَّه يصبح حديث الناس أيضاً، لكنَّ هناك فرقاً بينهما، هذه الحاجة الثالثة تأكيد الذات تدفعك أن تكون متفوِّقًا، لا أن تكون رقمًا بسيطًا، لا أن تكون مع دهماء الناس، لا أن تكون إنسانًا لا يأبه به أحد، همُّه بطنه، أو همُّه فرجه، أو همُّه ثوبه، أو همُّه مسكنه، أو همُّه شهواته.

لا تكن شخصًا عاديًا، لا أحد ينتبه إليك، اعمل عملاً، قدِّم خدمة لأمتك، حلَّ مشكلة من مشكلات أمَّتك، أتقن عملك، وقدِّم للناس بضاعة جيدة بسعر معتدل.

يحبُّك الله أن تكون شيئًا مذكورًا، أن تحقِّق إنجازًا للأمَّة، وكلُّنا يقول: رحم الله صلاح الدين الأيوبي، انتصر على جيوش جرَّارة، وفتح القدس، ورفع رأسنا عاليا، والعالم كلُّه يقول: رضي الله عن سيدنا خالد، الذي خاض مئة معركة، وما في جسمه موضع شبر إلا وفيه طعنة برمح، أو ضربة بسيف.

الجميل

ورد اسم الجميل في صحيح مسلم من حديث ابن مسعود ﵁ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «لا يَدْخُل الجَنَّةَ مَنْ في قَلْبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ، فقال رجلٌ: إن الرجلَ يُحبّ أن يكون ثوبُه حسناً ونعلُه حسنةً، قال ﷺ: إنَّ الله جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمالَ، الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ».

وفي مسند الإمام أحمد عن عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ، وَلَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ كِبْرٍ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ الله، إِنِّي لَيُعْجِبُنِي أَنْ يَكُونَ ثَوْبِي غَسِيلًا وَرَأْسِي دَهِينًا، وَشِرَاكُ نَعْلِي جَدِيدًا، وَذَكَرَ أَشْيَاءَ، حَتَّى ذَكَرَ عِلَاقَةَ سَوْطِهِ، أَفَمِنْ الكِبْرِ ذَاكَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: لَا، ذَاكَ الجَمالُ، إِنَّ الله جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمالَ، وَلَكِنَّ الكِبْرَ مَنْ سَفِهَ الحَقَّ، وَازْدَرَى النَّاسَ» .

لو أنَّ عندك كميَّة قليلة من اللبن، وجاءك ضيوف كُثر، فإنّه يمكنك أن تضيف لهذا اللبن خمسة أضعافه ماءً، ويكون شراباً سائغاً، لقد تحمَّل هذا اللبن خمسة أضعافه

ماء، لكنَّه لا يتحمّل قطرة بترول واحدة، فإن أُضيفت إليه قطرةٌ واحدةٌ من البترول فإنَّه يفسد، لأنَّ البترول يتناقض في طعمه مع اللبن، أمَّا الماء فلا يتناقض، كذلك الكِبر فإنَّه يتناقض مع العبودية لله تعالى.

والكبر؛ بطر الحقِّ أي ردّ الحق، وغمط الناس؛ أي أن تبخسهم مكانتهم، والكِبر معصية إبليس، قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٤﴾ [البقرة:٣٤].

فلمجرد أن يردَّ الإنسان الحق، وأن يرفضه، وأن يتعنت، وأن يركب رأسه، وأن تأخذه العزة بالإثم، فهذا هو الكبر، ولمجرد أن تحتقر الناس، وأن تستهين بهم، وأن ترى نفسك فوقهم، فهذا كِبْرٌ.

وفي الحديث: «بِحسْبِ المرِءِ مِنَ الشرّ أَنْ يَحْقِرَ أخاهُ المُسْلمَ» [رواه الترمذي، عن أبي هريرة].

أمّا التَّجمُّل المعتدل المباح فليس كبراً، فالله يحبُّك أن تكون أنيقاً، ذا ثياب نظيفة، متعطِّرا، شَعْرُكَ مرجَّل.

من معاني اسم الله الجميل

الجميل مأخوذ من الجمال، وهو الحُسن في الخَلْق والأخلاق.

إنَّ الإنتاج العقليَّ والشعوريَّ للبشرية لا يزيد على علمٍ وفلسفة وفن، فالعلم ما هو كائن، والفلسفة ما يجب أن يكون، والفنُّ ما هو ممتع، فمن الفن ما هو مباح، كأن تكون أديباً، أو أن يكون الفعل جميلاً فهو الكمال.

الإنسان فُطر على حبِّ الكمال، وحبِّ الجمال، وحب النَّوال، فالإنسان يحبُّ الجميل، فقد يكون الطِّفل جميل الصورة، يدع في قلب أبيه تعلُّقاً شديدا، وأحياناً يكون العطاء خالصا كريماً، فالإنسان يحبُّ المحسِن.

فالكبر ردُّ الحق، وازدراء الناس، أمّا أن تكون أنيقا، أن يكون بيتك مرتَّباً، منظَّماً، فيه تناسب ألوان، أن تكون مركبتك نظيفةً، أن يكون ثوبك حسناً، أن يكون كلامك فصيحاً، أن تكون تصرفاتك رائعةً، فهذا هو الجمال.

كلَّما ذكرنا الجمال ننطلق إلى تصوُّر جمال الشكل فحسب، لكن أحياناً هناك أعمال وتصرفات تستمع إليها فتبقى شهراً غارقاً في نشوتها، لأنَّها جميلة.

هناك مواقف فيها وفاء، مواقف فيها رحمة، مواقف فيها إنصاف، مواقف فيها حبٌّ، هذه المواقف جميلة جداً، وقد يكون الذي يفعلها ليس جميلاً.

ورد في صفة الأحنف بن قيس، أنَّه كان قصير القامة، أسمر اللون، غائر العينين، ناتئ الوجنتين، أحنف الرِّجل، ليس شيء من قبح المنظر إلا وهو آخذ منه بنصيب، وكان مع ذلك سيد قومه، إذا غضبَ غضب لغضبته مئة ألف سيف، لا يسألونه فيم غضب؟ وكان إذا علم أنَّ الماء يفسد مروءته ما شرب، هذا كمال رائع جداً مع دمامة لا توصف.

لذلك جمال الرجل، بفصاحته، جماله في أخلاقه، جماله في كرمه، جماله في تواضعه، جماله في رحمته، لعلَّ المرأة تتوهَّم أنَّ كلَّ قيمتها في جمالها الجسديِّ، وهذا خطأ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ» [متفق عليه].

يجب أن نحرِّر مفهوم الجمال مما تراكم في أذهان النَّاس أنَّه جمال الشكل فقط، هناك مواقف جميلة، أحيانا تعيش مع امرأة في أعلى درجة من الوفاء، والحب، والتفاني والخدمة، تسعد بها أيّما سعادة، وقد يعيش المرء مع امرأة بارعة الجمال يكرهها من أعماقِ أعماق قلبه، لأنَّ جمال الأفعال من أعلى مستويات الجمال.

وعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يَقُولُ: «اللهمَّ أَحْسَنْتَ خَلْقِي فَأَحْسِنْ خُلُقِي» [أحمد].

وقال بعض الشعراء:

جمال الجسم مع قبح النفوس كقنديل على قبر المجوس

إنسان جميل الصورة، أنيق الثياب جداً، تكلَّم كلاماً بذيئاً، فقال له أحدهم: إمَّا أن تتكلم وَفق ثيابك، أو البس وَفق كلامك، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ، وَلَا يَدْخُلُ رَجُلٌ الجَنَّةَ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ» [أحمد].

الإمام الغزالي عدّ من آفات اللسان أكثر من عشرين آفة، عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: «كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ، وَنَحْنُ نَسِيرُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الجَنَّةَ، وَيُبَاعِدُنِي عَنْ النَّارِ، قَالَ: لَقَدْ سَالتَنِي عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ الله عَلَيْهِ، تَعْبُدُ الله وَلَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ البَيْتَ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ المَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ، قَالَ: ثُمَّ تَلَا: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾، ثُمَّ قَالَ: أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ كُلِّهِ، وَعَمُودِهِ، وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ الله، قَالَ: رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الجِهَادُ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا نَبِيَّ الله، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ، قَالَ: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ الله، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ» [أخرجه الترمذي].

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: «حَكَيْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ رَجُلًا فَقَالَ: مَا يَسُرُّنِي أَنِّي حَكَيْتُ رَجُلًا، وَأَنَّ لِي كَذَا وَكَذَا، قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ صَفِيَّةَ امْرَأَةٌ، وَقَالَتْ بِيَدِهَا هَكَذَا، كَأَنَّهَا تَعْنِي قَصِيرَةً، فَقَالَ: لَقَدْ مَزَجْتِ بِكَلِمَةٍ لَوْ مَزَجْتِ بِهَا مَاءَ البَحْرِ لَمُزِجَ» [رواه أبو داود والترمذي وأحمد].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ لَا يَرَى بِهَا بَأْسًا يَهْوِي بِهَا سَبْعِينَ خَرِيفًا فِي النَّارِ» [الترمذي].

والكلمة الطيبة صدقة، وقد ترقى بكلمة رقيّاً لا يعلمه إلا الله، كلمة تواضع، كلمة مؤانسة، كلمة اعتراف بالحق، هذا كلُّه في ميزان حسنات الإنسان.

وهنالك صبر جميل، قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥﴾ [المعارج:٥].

هناك صبر مع الضيق، مع التوتر، كأن الإنسان مرجل يغلي، مع كلام قاسٍ، هذا ليس صبراً جميلاً، يجب أن تصبر صبراً جميلاً.

وهناك صفح جميل، قال تعالى: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ۝٨٥﴾ [الحجر:٨٥].

فإذا سامحت إنساناً فلا تذكّره بخطئه.

أيُّهما أخطر؛ أن يتآمر إنسان على إنسان فيضعه في السجن، أم يضعه في البئر؟ البئر فيها موت محقّق، وإخوة يوسف وضعوه في البئر، والموت محقق، أما امرأة العزيز فوضعته في السجن، ولما التقى يوسف بإخوته قال: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ [يوسف:١٠٠].

المؤمن إذا فعل خيراً ينساه، وإذا فُعل معه خير لا ينساه حتى الموت.

وهناك هجر جميل، وقد سئل ابن تيمية رحمه الله عن الصبر الجميل، والصفح الجميل، والهجر الجميل، فقال: الهجر الجميل هجر بلا أذى، والصفح الجميل صفح بلا عتاب، والصبر الجميل صبر بلا شكوى.

الله عز وجل جميل وجماله على أربع مراتب، جمال الذات، وجمال الصفات، وجمال الأفعال، وجمال الأسماء، أسماؤه كلُّها حسنى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠].

وصفاته كلُّها صفات كمال، وأفعاله كلُّها حكمة.

قال ابن القيّم رحمه الله: (الشريعة عدل كلُّها، رحمة كلُّها، حكمة كلُّها، مصلحة كلُّها، وأية قضية خرجت من الحكمة إلى خلافها، ومن العدل إلى الجور، ومن المصلحة إلى المفسدة، فليست من الشريعة، ولو أدخلت عليها بألف تأويل وتأويل).

حتى إن علماء العقيدة قالوا: (الحسن ما حسَّنه الشرع، والقبيح ما قبَّحه الشرع).

جمال ذاته جل جلاله لا يدركه أحدٌ في الكون، فلا يعرف الله إلا الله، لكنَّ جمال الصفات يدلُّ على جمال الذات، فأفعاله الجميلة تدلُّ على جمال صفاته، وجمال صفاته يدلُّ على جمال ذاته، وأنت ترى أفعاله، ترى الربيع، ترى العصفور، ترى الوردة، ترى الزهرة، ترى طفلاً جميل الصورة، هذه كلُّها أفعاله.

تأكل طعاماً طيِّباً، مَن أودع في الطعام هذا الطعم؟

يهبُّ نسيم عليل فتنتعش به، مَن ساق هذا النسيم؟

ترى مرجا أخضر، مَن أعطاه هذا اللون الجميل؟

ترى السماء زرقاء، البحر صافيا، الجبال خضراء، الأطفال الذين وهبهم الله مسحة جمال، وهناك إنسان قد يفتن بابنه من جماله، هذه كلُّها أفعاله، أفعاله تشير إلى صفاته، وصفاته تشير إلى ذاته.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:١٦٥].

عصى الله من أجل امرأة، فتنه جمالها، عصى الله من أجل المال، والمال جميل يعطيك بيتاً جميلاً واسعاً، له إطلالة، يعطيك مركبة فارهة، يدعك تختار أجمل زوجة، ثم اكتشف متأخراً أنَّ القوَّة قوّة الجمال والكمال والنوال جميعها لله تعالى.

هذا الإنسان حينما يجهل حقيقة الواحد الديان، يجهل أسماء الله الحسنى، وصفاته الفضلى، حينما يغويه جمال بعض المخلوقات، ويعصي الله من أجل جمال امرأة، أو جمال قصر، أو جمال مركبة، أو جمال موقع، فيظلم نفسه، ويستحق اللعنة، والبعد عن الله عز وجل، يُخاطب: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:١٦٥].

وكلمة القوة هنا واسعة جداً، هناك قوة الجمال، هناك قوة العلم، هناك قوة المال، صاحب المال قوي، وصاحب العلم قوي، والجميل قويٌّ يأخذ جماله الألباب، هؤلاء

الذين عصوا ربهم، وخسروا آخرتهم من أجل جمال مخلوق لو عرفوا أنَّ هذا الجمال مسحة من جمال الله عز وجل، ولو أنَّهم تعرفوا إلى الله لكانوا مع أصل الجمال.

الجميل يتجلَّى على بعض مخلوقاته، فإذا هو جمال أخّاذ، فالذي ينظر إلى الورود والرياحين والنباتات يأخذه العجب العجاب، إن الله سبحانه وتعالى يتجلَّى على هذه المخلوقات باسم الجميل.

الله عز وجل، هو أصل الجمال، فإذا منح الله العبد مسحةً من الجمال تعلَّق الخلقُ به، فكيف بأصل الجمال؟

في صحيح مسلم من حديث أَبِي مُوسَى قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ الله ﷺ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، فَقَالَ: «إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ» [مسلم].

هناك من يتوهَّم أنّ المؤمن فاتته مباهج الدنيا، وأنَّه باستقامته حرم نفسه أشياء كثيرة، لكنَّ العكس هو الصحيح، فإن الله يتجلَّى على قلب المؤمن تجلياً، سمّه إن شئت رحمة، وسمِّه إن شئت سكينة، هذا التجلِّي يُسعده ولو فقد كلَّ شيء، ويشقى بفقده ولو ملك كلَّ شيء.

أيُعقل أن يكون الذي في بطن الحوت نبيٌّ كريم، وهو يناجي ربَّه بقوله: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء:٨٧].

فيتجلَّى الله عليه وينقذه، وأنَّ النبي ﷺ كان في أسعد حالاته وهو في غار ثور، وأنَّ إبراهيم تجلَّى الله عليه وهو في النار، هذه السعادة التي تلقى في قلب المؤمن يشقى الإنسان بفقدها ولو ملك كلَّ شيء.

في نفس الإنسان فراغ لا يملؤه المال، ولا يملؤه جمال الأرض، الأقوياء والأغنياء يعيشون حياة ناعمة جداً، بيوتهم قطعة من الجمال، مركباتهم، مائدتهم، مَن

حولهم، ومع ذلك هم أشقى الخلق، لأنهم ابتعدوا عن الله عز وجل، وحينها تؤمن أنَّ كلَّ السعادة باتصالك بالله تسعد.

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد:٢٨].

سعادتك المطلقة باتصالك بالله، لأنه جميل، ولأن الجمال جزء أساسيٌّ في حياة الناس، والشقاء كلُّ الشقاء في البعد عن الله، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه:١٢٤].

قال بعض العلماء: ما بال الأقوياء والأغنياء أشقياء؟ فجاء الجواب: نعم، شقاؤهم ليس في نقص المال، ولكن في ضيق القلب.

يتجلَّى الله على قلب المؤمن باسم الجميل فإذا هو في جنَّة، يقول ابن تيمية رحمه الله: (في الدنيا جنَّةٌ من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة) ويقول مالك بن دينار: (مساكين أهل الدنيا، جاؤوا إلى الدنيا وغادروها، ولم يذوقوا أطيب ما فيها، قيل له وما أطيب ما فيها؟ قال: محبَّة الله عزّ وجلّ).

حينما ترى أناساً مجتمعين في ملهى فهم رأوا سعادتهم في هذا المكان، ولو كُشف لهم أنهم إذا أقبلوا على الله كانوا في نشوة ما بعدها نشوة، وفي سعادة ما بعدها سعادة، لسفهوا أعمالهم، ولاحتقروا ذواتهم.

أنت تتعامل مع الله، مع ذات كاملة، مع قويٍّ، مع جميل، مع غنيٍّ، مع قدير، مع رحيم، مع لطيف.

مستحيل وألف ألف الف مستحيل أن يكون هناك شقاء في الدنيا مع معرفة الله، إنَّهما لا يجتمعان أبداً، ولا أقول: إن المؤمن إذا كان مع الله كان في بحبوحة، قد يكون في يسر، وقد يكون في عسر، وقد يكون في فقر، وقد يكون في مرض، لكن لأنه مع الله فهو في سعادة لا تُوصف.

حينما يختار الإنسان هدفاً محدوداً، والإنسان في أصل خلقه لا نهائي، لا يملأ طموحه إلا الله، فإذا اختار هدفاً أرضياً؛ اختار المال، يسعى إليه جاهداً، فإذا حصَّله، وأحاط به يكتشف حقيقة مُرّة؛ أنه شيء، و ليس كلَّ شيء، فإذا اقترب من مغادرة الدنيا يراه لا شيء.

قد يُقبل الإنسان على المرأة في مقتبل حياته، إن كان شارداً عن الله يظنُّها كلَّ شيء، في منتصف حياته هي شيء، وليست كلَّ شيء، في وقت مغادرة الدنيا يراها ليست بشيء.

ما من شيء في الدنيا يمكن أن يمدَّ الإنسان بسعادة متنامية، ولا بسعادة مستمرة، بل بسعادة متناقصة، والدليل أنَّ الإنسان قد يشتري بيتاً يلفت النظر، بعد شهر أصبح كأيِّ بيت آخر، وقد يقتني مركبة من أعلى مستوى، بعد حين تصبح هذه المركبة شيئاً عادياً، كلُّ ما يحيط بالإنسان من مظاهر الجمال المادي يخبو بريقه بعد حين، وهذا الاهتمام يضعف، هذه الدهشة تقلّ إلا إذا أردت أن تعرف الله.

الأصل في الموضوع أنك تتمتع بنفس طموحة لا يملؤها إلا معرفة الله، أما إذا اخترت هدفاً أرضياً فهذا الهدف ما إن تصل إليه حتى يبدأ الملل والسأم، لذلك انظر إلى أهل الدنيا الناجحين في حياتهم، بعد أن ينجحوا تصير حياتهم مملَّة، لأنَّ النجاح أصبح مألوفاً، لكنهم إذا اختاروا الذات الكاملة، إنهم إن اختاروا الله عز وجل فهم في شباب دائم.

إن أردت أن تعرف الله فأنت في طريق السعادة، من هنا نؤمن أن المؤمن لا يشيخ أبداً، بل هو شاب دائماً.

الإسلام جميل، وربنا جميل، ويحبُّ الجمال، لكنَّ بعض المنحرفين يفهمون من هذا الموضوع شيئًا آخر ما أراده الله، يفهم أن يتعلق بالمرأة، يطلق بصره في الحرام، ويخالف الواحد الدّيّان ويقول: «إنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ».

الجمال له معانٍ لا تنتهي، له معانٍ حسية، وله معان أخلاقية، هناك فعل جميل، هناك إنسان قوي، ومتواضع، إنسان غني وسخي، إنسان متفوق في علمه، ومع ذلك يحبه مَن حوله، وهذا كلُّه من الجمال.

إن أقلّ الجمال الجمال الحسيُّ، لكنَّ اتساع المفهوم يشمل كلَّ شيء، فهناك كلمة جميلة، والأدب فن جميل.

مثلاً قال أحدهم: تكاثرت عليّ المصائب، هذا كلام عاديّ، لكنَّ المتنبي قال:

رماني الدَّهر بالأرزاء حتى فؤادي في غشاء من نبال

فصرت إذا أصابتني سهام تكسَّرت النِّصال على النِّصال

وهناك صوت جميل، ففي الحديث: «فَقُمْ مَعَ بِلَالٍ فَالقِ عَلَيْهِ مَا رَأَيْتَ فَلْيُؤَذِّنْ بِهِ، فَإِنَّهُ أَنْدَى صَوْتًا مِنْكَ» [الترمذي وأبو داود].

مرَّ سيدنا عمر ﷺ على أناس يشعلون النار، فقال: السلام عليكم، يا أهل الضوء، ولم يقل: السلام عليكم يا أهل النار.

جاءت امرأة تشكو زوجها إلى سيدنا عمر، وقد أهملها إهمالاً كلياً، قالت: يا أمير المؤمنين، إن زوجي صوّام قوّام، انظر إلى الأدب، وهي تشكو زوجها.

نصيب المؤمن من اسم الله الجميل

من عرف الله الجميل كان جميلاً في حياته، جميلاً في ثيابه، في بيته، والجمال لا يعني الفخامة، ولا البذخ، ولا الترف ولا الإسراف.

قد يكون في البيت مسحة جمالية، بيت مريح، المكتب التجاري فيه مسحة جمالية، الدكان فيها مسحة جمالية، الثياب فيها ألوان متناسقة، لماذا ترى الجمال الصارخ في الطرف الآخر، وفي بلاد أخرى؟ وهم بعيدون عن الله بُعد الأرض عن السماء، لماذا هناك الجمال، وعندنا الإهمال؟ هذه مشكلة كبيرة، يجب على المؤمن أن يتجمَّل.

قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ لَنَا: «إِنَّكُمْ قَادِمُونَ عَلَى إِخْوَانِكُمْ فَأَصْلِحُوا رِحَالَكُمْ وَلِبَاسَكُمْ حَتَّى تَكُونُوا فِي النَّاسِ كَأَنَّكُمْ شَامَةٌ فَإِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ لَا يُحِبُّ الفُحْشَ وَلَا التَّفَحُّشَ» [أخرجه أحمد].

المؤمن نظيف، وذو أذواق عالية في حياته، والأذواق العالية تجذب الناس إليه، أما إذا أهمل ثيابه، أهمل مركبته، أهمل بيته، أهمل دكانه فإنَّ النَّاس يفرُّون منه.

أحيانا تدخل إلى دكان صاحبها مؤمن، فترى النظافة، والترتيب، والنظام، فتؤخذ به، وأحيانا تجد إنساناً مقصِّراً، في دكانه فوضى، وغبار، وإهمال، هذا شيء منفِّر، وأهل الدنيا اكتشفوا هذه الحقيقية، فتأنَّقوا في حياتهم، وتأنَّقوا في نظام حياتهم، هذا التأنق وهذا الجمال في حياتهم يجذب الناس إليهم، تذهب إلى بلاد بعيدة فترى عناية بجمال البلاد منقطعة النظير.

الإنسان بحاجة ماسَّة إلى الجمال، وهذا مودع في أصل فطرة الإنسان، فإذا لبّى هذه الحاجة، وتخلَّق بكمالات الله سعد في دنياه.

«إِنَّ الله جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ» [رواه مسلم عن ابن مسعود].

تغدو حياتنا جميلة، تغدو حياتنا براقة، ما الذي يمنع أن نعتني بمساجدنا؟ بنظافة مساجدنا، بأناقة مساجدنا، ما الذي يمنع أن نعتني ببيوتنا؟

دخلت مرَّة إلى بيت متواضع بشكل لا يوصف، لكن لا تجد فيه خطأً جمالياً، لا شيء فيه يمكن أن تنتقده، مع أنه بيت متواضع جداً، أنا أرى أنك إذا اعتنيت بدنياك عناية تجذب الناس إليك فهذا جزء من الدين، النبي ﷺ كان نظيفا، كانت ثيابه حسنة، يتعطَّر دائماً.

وفي بعض أدعية النبي ﷺ: عن عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: صَلَّى بِنَا عَمَّارُ ابْنُ يَاسِرٍ صَلَاةً فَأَوْجَزَ فِيهَا، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ القَوْمِ: لَقَدْ خَفَّفْتَ، أَوْ أَوْجَزْتَ الصَّلَاةَ، فَقَالَ: أَمَّا عَلَى ذَلِكَ فَقَدْ دَعَوْتُ فِيهَا بِدَعَوَاتٍ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ، فَلَمَّا قَامَ

تَبِعَهُ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، هُوَ أُبَيٌّ، غَيْرَ أَنَّهُ كَنَى عَنْ نَفْسِهِ، فَسَأَلَهُ عَنْ الدُّعَاءِ، ثُمَّ جَاءَ فَأَخْبَرَ بِهِ الْقَوْمَ:

«اللهمَّ بِعِلْمِكَ الغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الخَلْقِ أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الوَفَاةَ خَيْرًا لِي، اللهمَّ وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الحَقِّ فِي الرِّضَا وَالغَضَبِ، وَأَسْأَلُكَ القَصْدَ فِي الفَقْرِ وَالغِنَى، وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَنْفَدُ، وَأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ، وَأَسْأَلُكَ الرِّضَاءَ بَعْدَ القَضَاءِ، وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ العَيْشِ بَعْدَ المَوْتِ، وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ، فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللهمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ» [النسائي، أحمد].

الحيِيّ

ورد اسم الحييّ في السّنّة، في قوله ﷺ: «إن الله عز وجل حليم حييٌّ ستّير يحبُّ الحياء والستر فإذا اغتسل أحدكم فليستتر» [رواه أبو داود عن يعلى بن أمية].

وقد ورد هذا الاسم مطلقاً مراداً به العلميَّة دالاً على كمال الوصفيَّة، يقول ﷺ: «إنَّ ربّكم تبارك وتعالى حييٌّ كريم يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردَّهما صفراً» [أخرجه أبو داود عن سلمان الفارسي].

أي إن الله تعالى يستحي من عبده إذا سأله ألا يجيبه، إذا دعاه ألا يلبيه، إذا استغفره ألا يغفر له، إذا تاب إليه ألا يتوب عليه، لذلك قالوا: ما أمرنا أن نتوب إليه إلا ليتوب علينا وما أمرنا أن نستغفره إلا ليغفر لنا وما أمرنا أن نسأله إلا ليعطينا.

اسأله ما يرضيه، اسأله ما يقربك إليه، اسأله خير الدنيا والآخرة، اسأله أن تعرفه، اسأله أن تستقيم على أمره، اسأله عملاً صالحاً تتقرَّب به إليه، اسأله العلم لأن كرامة العلم أعظم كرامة.

﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء:١١٣].

البطولة أن تسأله بقدر كرمه، أن تسأله بقدر غناه، أن تسأله بقدر محبته لك، أن تسأله لأنَّه على كلِّ شيء قدير.

من معاني اسم الله الحيي

الحييُّ هو المتَّصف بالحياء، والحياء صفة خُلُقيَّة رقيقة لطيفة تمنع النفس أن تقترف شيئاً مناقضاً لما هو معروف عندها.

فقد سمَّى الله تعالى الأعمال الطيبة التي تنسجم مع الفطرة معروفاً، لأنَّ الفطر السليمة في أصل خلقها تعرفها، فالحياء أن تمتنع عن فعل شيء تعرفه فطرتك السليمة بداهة وابتداءً.

إذ ما أمرنا الله بشيء إلا وفطرتنا وجبلتنا ترتاح إليه، وما نهانا عن شيء إلا وفطرتنا وجبلَّتنا تنفر منه.

لذلك سُمِّيت الأعمال الطيبة معروفاً، وسمي الشيء الذي تأباه الفطر السليمة منكراً، قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ [الروم:٣٠].

أي: إنَّ إقامة وجهك للدين حنيفاً هي فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله، وقال تعالى: ﴿ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ ﴾ [الحجرات:٧].

الإنسان حينما يصطلح مع الله فإنَّه يصطلح مع فطرته، فيرتاح، وهذه الراحة لا تُوصف، بعد أن يتوب الإنسان كأنَّ جبالاً أُزيحت عن صدره، صار خفيفاً، انسجم مع فطرته، تماماً كمركبة من أرقى الأنواع سرت بها في طريق وعرةٍ، هذه المركبة مصنَّعة للطريق المعبَّدة، لذا فإنَّك لا تكتشف ميزاتها إلا في الطريق المعبّدة؛ سهولة في الحركة،

نعومة في الصوت، سرعة في المشي، أمَّا إذا سرت بها في طريق وعرة؛ كلُّها صخور وأكمات فإنَّها تتكسَّر.

الله عز وجل حييٌّ، وهذه صفة من صفات الله عز وجل، واسم من أسمائه، هو حييٌّ في ذاته وفي صفاته وقد فطرنا على الحياء فالإنسان إذا كان وقحاً يسقط من عين نفسه، ينهار داخلياً، بذيء اللسان، قاسي الكلمات.

يقول ﷺ: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت» [أخرجه البخاري عن ابن مسعود].

الإيمان علامته الحياء، فالذي لا يستحي لا خير فيه ولا جدوى منه ولا أمل في صلاحه.

لكن لابد من التفريق بين الحياء وهو فضيلة والخجل وهو مرض نفسيٌّ، قد يخجل الإنسان من المطالبة بحقه، من النّطق بكلمة الحق، هذا مرض، والخجل يعدّ نقيصة في شخصية الإنسان، لكنَّ الحياء فضيلة، أنا أستحي ولكني أطالب بحقي بأدب، أنا أستحي ولكنني لا أستحي من الحق.

المؤمن يتعامل مع جهةٍ واحدة هي الله عز وجل، المؤمن يخاف الله وحده ولا يعبأ بكلام الناس، وإرضاء الناس غاية لا تدرك، ومن أرضى الناس جميعاً فهو منافق، الناس أحياناً يضحُّون بطاعتهم لربهم مراعاة لسمعتهم بين الناس وهذا خطأ كبير، فإذا لم تستح من الله وكان عملك صحيحاً وفق المنهج تبتغي به رضوان الله عز وجل، فاصنع ما تشاء، وهذا معنى ثان للحديث.

الحياء وصف لكمال الله عز وجل، فالله عز وجل ذات كاملة وحياؤه لا يتعارض مع حكمته، ولا يتعارض مع بيان الحق، ولا مع بيان الحجة، والمؤمن حيي يشتقُّ حياءه من كمال الله عز وجل، لكنَّ حياءه لا يمنعه أن يدلي بالحجة وأن يصدح بالحق وأن يقول الحق ولو كان مرّاً، فإذا منعه شيء ما أن ينطق بالحق أو أن يكون منصفاً فهو نقيصة في الإنسان يمكن أن تسمى الخجل.

وفي الحديث: «إن الإيمان بضع وسبعون شعبة أفضلها قول لا اله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان» [أخرجه مسلم عن أبي هريرة].

التوحيد ألا ترى مع الله أحداً، أن ترى أن يد الله تعمل وحدها، التوحيد أن تؤمن بقوله تعالى: ﴿ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الكهف:٢٦].

التوحيد أن تجعل علاقتك بالله وحده، أن تعمل لوجه واحد عندئذ يكفيك الهموم كلَّها، التوحيد ألا تدعو مع الله إلهاً آخر، قال تعالى: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٣].

التوحيد أن ترى أنَّ كلَّ الخلق لا شيء أمام إرادة الحق، كلما زاد التوحيد زاد الكمال، كلما زاد التوحيد زادت الخشية، كلما زاد التوحيد زادت الطاعة، كلما زاد التوحيد ازداد الأمن في قلب الإنسان، قال تعالى: ﴿ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنعام:٨١-٨٢].

التوحيد هو الذي ينجِّي بل إن نهاية العلم التوحيد ونهاية العمل التقوى، فإذا وحدت واتقيت الله جمعت طرفي المجد، نهاية العلم أن توحده ونهاية العمل أن تتقيه، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنبياء:٢٥].

فالإيمان بضع وسبعون شعبة أفضلها قول لا اله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق.

حجر قد يسبب حادثاً مروِّعاً، تقف وتزيحه إلى جانب الطريق، هذا إيمان، حينما تعمل عملاً تبتغي به وجه الله فهذا تعبير عن إيمانك.

الإيمان حركة، لا يوجد إيمان سكوني، لا يوجد إنسان مؤمن معجب بالإسلام، الإعجاب السلبي ليس إيماناً، النمط الساكن غير الحركيّ ليس إيماناً، ما إن تستقرّ حقيقة الإيمان في نفس المؤمن حتى تعبّر عن ذاتها بحركة نحو الخلق، فالإيمان حركة، الإيمان عمل، الإيمان إيجابية، الإيمان عطاء، لذلك: وأدناها أن تميط الأذى عن الطريق، أن تعمل عملاً صالحاً، أن تطعم جائعاً، أن ترشد ضالاً، أن تنصح، أن تنطق بالحق، والحياء شعبة من الإيمان، فمن لا حياء له لا إيمان له، ومن لا إيمان له لا حياء له، والعلاقة ترابطية بين الحياء و الإيمان.

نصيب المؤمن من اسم الله الحيي

يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ۚ﴾ [الأحزاب:٥٣].

يجب أيها المؤمن إن أردت أن تتقرَّب من الله بكمال الله، بالحياء، يجب ألا تستحي من الحق، إن استحييت من الحق فهذا ليس حياء بل هو خجل والخجل نقيصة في الإنسان.

عوِّدْ نفسك أن تكون جريئاً، سيدنا عمر كان يمشي في الطريق، فرأى غلماناً يلعبون فلما رأوه وكان ذا هيبة عظيمة تفرَّقوا إلا واحداً منهم وهو عبدالله بن الزبير بقي في مكانه بأدب، لفت نظره فلما وصل إليه قال: أيُّها الغلام لِمَ لمْ تهرب مع من هرب؟ قال: أيها الأمير لستَ ظالماً فأخشى ظلمك، ولستُ مذنباً فأخشى عقابك، والطريق يسعني ويسعك.

رجل تأتيه ابنة أخيه زائرة بثياب فاضحة فيستحي أن ينصحها! قل لها: يا بنيتي هذه الثياب لا تليق بك ولا بأبيك ولا بأسرتك، قال تعالى: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ﴾ [المائدة:٧٩].

سيدنا عمر كان بين أصحابه فقال له أحدهم: والله ما رأينا خيراً منك بعد رسول الله، فتغيَّر لونه وأحدّ فيهم النظر، إلى أن قال أحدهم: لا والله لقد رأينا من هو خير

منك، قال من هو؟ قال الصديق، قال عمر رضي الله عنه: كذبتم جميعاً وصدق، عدّ سكوتهم كذباً، كنت أضلَّ من بعيري وكان أبو بكر أطيب من ريح المسك.

تجلس أحياناً في مجلس فيأتي ذكر أخيك بسوء، من يتهجم عليه وأنت تعلم علم اليقين أنه بريء من هذه الصفة، هل تبقى ساكتاً؟! بل دافع عنه فهذا واجبك، فالحياء لا أن تستحي من النطق بالحق بل أن تستحي من فعل المنكرات.

يقول أبو سفيان لهرقل في حواره معه: فوالله لولا الحياء من أن يؤثروا عليّ كذباً لكذبت، الحياء يردع، والحياء ضمانة.

وقد قيل: العدل حسن لكن في الأمراء أحسن، والحياء حسن لكن في النساء أحسن، والسَّخاء حسن لكن في الأغنياء أحسن، والصبر حسن لكن في الفقراء أحسن، والتوبة حسن لكن في الشباب أحسن.

فالشاب ألزم ما يلزمه التوبة، والمرأة ألزم ما يلزمها الحياء، والغنيُّ ألزم ما يلزمه السَّخاء، والفقير ألزم ما يلزمه الصبر، والأمير ألزم ما يلزمه العدل.

حياء الشَّرع هو الحياء الذي يحفظ للعبد استقامته، ففي الحديث عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «اسْتَحْيُوا مِنْ الله حَقَّ الحَيَاءِ، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله، إِنَّا نَسْتَحْيِي وَالحَمْدُ لله، قَالَ: لَيْسَ ذَاكَ، وَلَكِنَّ الِاسْتِحْيَاءَ مِنْ الله حَقَّ الحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَالبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلْتَذْكُرْ المَوْتَ وَالبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنْ الله حَقَّ الحَيَاءِ» [أخرجه أحمد، والترمذي والحاكم، والبيهقي عن عبد الله بن مسعود].

البطولة أن تبدأ من النهاية، ابدأ من الموت ثم اعمل، تؤسّس عملاً، تدرس، تنال الدكتوراه، تؤسس شركة، ولكن لأنك بدأت من الموت فأنت تراقب الله عز وجل.

الحياء أن تستحي من الله أن تعصيه، أن تستحي من الله أن تستخدم جارحة من جوارحك في معصية الله، الحياء أن ترى أن الله معك.

السَّتير

وردَ اسم السِّتِّير في السّنّة، في قوله ﷺ: «إن الله عز وجل حليم حييٌّ ستّير يحبُّ الحياء والستر فإذا اغتسل أحدكم فليستتر» [رواه أبو داود عن يعلى بن أمية].

وفي سنن البيهقي عن ابن عباس رضي الله عنه: «إن الله ستير يحب الستر» .

من معاني اسم الله الستير

السِّتّير في اللغة على وزن فعِّيل، وهذه الصيغة من صيغ المبالغة، فالله تعالى يستر الذنوب مهما كثرت، ويستر أكبر فضيحة.

السِّتّير من شأنه حبُّ السَّتر والصون والحياء، يروي ابن قدامة في كتابه (التوابون) أنَّ سيدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام استسقى ربه، فقال الله له: يا موسى، إنَّ فيكم من يبارزني بالمعصية منذ أربعين سنة، فبشؤم ذنبه حرمتم القطر من السماء، فقال: من كان يعصي الله فليغادرنا، فما غادره أحد، وبعد حين نزلت الأمطار كأفواه القرب، قال: يا رب، مَن هذا الذي كان يعصيك؟ قال: عجبتُ لك يا موسى، أستره عاصياً، وأفضحه تائباً؟!

الستر يأتي بمعنى المنع والابتعاد عن الشيء، فقد ورد في الحديث الصحيح أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: «جَاءَتْنِي امْرَأَةٌ مَعَهَا ابْنَتَانِ تَسْأَلُنِي، فَلَمْ تَجِدْ عِنْدِي غَيْرَ تَمْرَةٍ وَاحِدَةٍ فَأَعْطَيْتُهَا فَقَسَمَتْهَا بَيْنَ ابْنَتَيْهَا، ثُمَّ قَامَتْ فَخَرَجَتْ، فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَحَدَّثْتُهُ فَقَالَ: مَنْ يَلِي مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ شَيْئًا فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ» [متفق عليه].

إذاً: الستر هنا بمعنى البعد، فتربية هذه البنت تربية صالحة تبعدك عن النار.

السِّتِّير سبحانه وتعالى، يحب الستر، ويبغض القبائح، ويأمر بستر العورات، ويبغض الفضائح، ويستر العيوب على عباده، وإن كانوا بها مجاهرين، ويغفر الذنوب مهما عظمت، طالما كلُّ عباده موحِّدون.

السِّتر في اللغة ما يُستر به، وهو اسم... وجمعه أستار، وسَتَرَ الشيء أخفاه فانستر، فعل انستر فعل مطاوع: سَتَرَ... ينْسَتِرُ... انْسَتَرَ، قَبِل أن يُستر، تستَّر، أي: تغطَّى، السِّتر هو الحياء، يقال: ما لفلانٍ سِتْرٌ ولا حِجْر، أي: لا حياء ولا عقل، السِّتْر هو الحياء، فلان لا يسْتتر من الله بستر؛ أي: لا يستحيي من الله بنوعٍ من الحياء، والسِّتر هو العقل، من كان عقله برأسه تصرَّف بحكمةٍ فحجب عن الناس مغيبته... والسِّتارة... ما يُسْتَتَر به من شيءٍ كائناً ما كان، وفي الحديث الشريف: أن من أغلق باباً أو أرخى ستراً فقد وجب المهر ووجبت العدة [البيهقي في السنن الكبرى، عن زرارة بن أوفى، مرسلاً].

قال أبو حنيفة وأصحابه، قالوا: إذا خلا بها خلوة صحيحة يجب كامل المهر والعدة، دخل بها أو لم يدخل بها؛ لما رواه الدارقطني عن محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «من كشف خمار امرأة ونظر إليها فقد وجب الصداق دخل بها أو لم يدخل بها». وقال عمر: إذا أغلق باباً وأرخى ستراً ورأى عورةً فقد وجب الصداق وعليها العدة ولها الميراث. وعن علي: إذا أغلق باباً وأرخى ستراً، أو رأى عورةً فقد وجب الصداق [روى ذلك الدارقطني في سننه].

وفلانٌ هتك سِتر فلان... أي أطلعه على معايبه، والاستتار: الاختفاء، وفي التنزيل قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾﴾ [الكهف: ٩٠].

السِّتِّير في حقِّ الله تعالى كثير السّتر لعيوب عباده، فسبحان الله... الإنسان العادي من شأنه أن يظهر القبيح ويخفي المَليح، وقد روي أن النبي ﷺ دعا فقال:

«تعوذوا بالله من ثلاث فواقر: جار سوء إن رأى خيراً كتمه، وإن رأى شراً أذاعه؛ وزوجة سوء إن دخلت عليها لسنتك، وإن غبت عنها خانتك؛ وإمام سوء إن أحسنت لم يقبل، وإن أسأت لم يغفر» [أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، من حديث أبي هريرة].

عن الهيثم بن عدي الطائي قال: حدثنا مجالد عن الشعبي قال: لقيني شريح فقال: يا شعبي، عليك بنساء بني تميم، فإني رأيت لهن عقولاً. قال: وما رأيت من عقولهن؟ قال:

أقبلت من جنازة ظهراً، فمررت بدورهم، فإذا أنا بعجوز على باب دار، وإلى جنبها جارية كأحسن ما رأيت من الجواري، فعدلت فاستسقيت، وما بي عطش. فقالت: أي الشراب أحب إليك؟ فقلت: ما تيسَّر، قال: ويحك، يا جارية إيتيه بلبن، فإني أظن الرجل غريباً، قلت: من هذه الجارية؟ قالت: هذه زينب بنت جرير إحدى نساء بني حنظلة، قلت: فارغة هي أم مشغولة؟ قلت: بل فارغة. قلت: زوّجنيها. قالت: إن كنت لها كفئاً، فمضيت إلى المنزل لأقيل، فامتنعت مني القائلة، فلما صليت الظهر أخذت بأيدي إخواني من القراء الأشراف، فتقدمت إلى أهلها وطلبتها منهم فزوجوني، وعندما دخلت عليها، صليت ركعتين أسأل الله من خيرها، وأعوذ بالله من شرها، ولما انتهيت من صلاتي وسلمت إذا هي من خلفي تصلي بصلاتي، فلما خلا البيت دنوت منها، فقالت على رسلك أبا أمية: إني امرأة غريبة فبين لي ما تحب فآتيه وما تكره فأزدجر عنه، فقلت: أحب كذا وأكره كذا، ونحن جميع فلا تفرقي، وما رأيت من حسنة فانشريها وما رأيت من سيئة فاستريها؛ وقالت شيئاً لم أذكره: كيف محبتك لزيارة الأهل؟ قلت: ما أحب أن يملني أصهاري. قالت: فمن تحب من جيرانك أن يدخل دارك آذن لهم، ومن تكرهه أمنعه؟ قلت: بنو فلان قوم صالحون وبنو فلان قوم سوء.

قالت: فبتُّ يا شعبي بأنعم ليلة، ومكثت معي حولاً لا أرى إلا ما أحب. فلما كان رأس الحول جئت من مجلس القضاء، فإذا بعجوز تأمر وتنهى في الدار. فقلت: من هذه؟ قالوا: فلانة ختنك، فسُرِّي عني ما كنت أجد، فلما جلست أقبلت العجوز، فقالت: السلام عليك أبا أمية. قلت: وعليك السلام، من أنت؟ قالت: أنا فلانة ختنك، قلت: قربك الله، قالت: كيف رأيت زوجتك؟ قلت: خير زوجة، فقالت لي: أبا أمية، إن المرأة لا تكون أسوأ حالاً منها في حالين، إذا ولدت غلاماً أو حظيت عند زوجها، فإن رابك ريبٌ فعليك بالسوط، فوالله ما حاز الرجال في بيوتهم شراً من المرأة المدللة. قلت: أما والله لقد أدبت فأحسنت الأدب ورضت فأحسنت الرياضة، قالت: تحب أن يزورك أختانك؟ قلت: متى شاؤوا. قالت: فكانت تأتيني في رأس كلِّ حول توصيني تلك الوصية، فمكثت معي عشرين سنة لم أعتب عليها في شيء إلا مرة واحدة، وكنت لها ظالماً، أخذ المؤذن في الإقامة بعدما صليت ركعتي الفجر، وكنت إمام الحي، فإذا بعقرب تدب، فأخذت الإناء فأكفأته عليها، ثم قلت يا زينب، لا تحركي الإناء حتى آتي. فلو شهدتني يا شعبي، وقد صليت ورجعت فإذا أنا بالعقرب قد ضربتها. فدعوت بالقسط والملح، فجعلت أمغث أصبعها وأقرأ عليها بالحمد والمعوذتين.

الشاهد من هذا الكلام: وما رأيت من حسنةٍ فانشريها، وما رأيت من سيئةٍ فاستريها.

وإنّ من أرقى صفات المرأة المؤمنة أنها سِتِّيرة، فالإنسان في بيته أحياناً يغضب، وأحياناً يفتقر فلا تجد بين يديه مالاً فيأكل أخشن الطعام، وأحياناً ينضغط من الخارج فينفجر في الداخل، والمرأة المؤمنة لا تفضح زوجها، لا تنشر أحواله ولا تتحدث عن أفعاله بين الناس، لا تعطي الناس أسوأ صورة عن زوجها، المرأة المؤمنة ستِّيرة، يروى عنه ﷺ:

«إنّي أكره المرأة تخرج من بيتها تجر ذيلها تشكو على زوجها» [رواه الطبراني في الأوسط والكبير، من حديث أم سلمة] وصحَّ عنه ﷺ أنه قال: «لا ينظر الله تبارك وتعالى إلى امرأةٍ لا تشكر لزوجها وهي لا تستغني عنه» [رواه الطبراني والحاكم والبيهقي عن عبد الله بن عمرو].

«لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين لا تؤذيه قاتلك الله فإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك إلينا» [رواه الترمذي، عن معاذ بن جبل].

فالسِّتِّير في حقِّ الله تعالى كثير الستر لعيوب عباده قال تعالى: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾﴾ [الشورى:٣٤].

نصيب المؤمن من اسم الله الستير

من كمالِ ربنا عز وجل أنه يظهر الحسن ويستر القبيح، لكن الإنسان من لؤمه يظهر القبيح ويستر الحسن، فالمؤمن كلما اقترب من الله يتخلق بالكمالات الإلهية، الله ستِّير، والمؤمن ستِّير، يستر العيوب.

فأدبُ الإسلام يدعو المؤمن إلى أن يستتر ولا يجاهر بالمعصية، كلُّكم يعلم أن هناك عاصياً، وأن هناك فاجراً، فالعاصي مثلاً كالذي يفطر في رمضان بينه وبين نفسه، فمن الفاجر إذاً؟ الذي يفطر في الطريق أمام الناس، إذا جاهر المرء بالمعصية فالمجاهر فاجر، والفاجر لا غيبة له، لأنه لا يستحي من هذه المعصية فهو يذكرها للناس، هو يُري الناس معصيته... وقد قيل: «إذا بُليتم بالمعاصي فاستتروا».

على من يقع حدَّ الرجم؟ يقع على الزانية الفاجرة التي استطاع أربعة من الرجال أن يَروها وهي تزني، أي أنها لا تُبالي، فحدُّ الرجم ليس على الزانية المحصنة فحسب، بل على الزانية المحصنة التي تمكِّن أربعةُ رجالٍ من أن يروها وهي تزني، ما اسمها إذاً؟ فاجرة... فقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [المائدة:٣٣].

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ﴾ هل من فسادٍ أشد من أن يزني رجل محصن له زوجة وأولاد بامرأةٍ محصنة لها زوجٌ وأولاد جهاراً حتى تمكِّن الشهود من أن يروها وهي تزني؟ إذاً: «إذا بُليتم بالمعاصي فاستتروا».

وقد نعى القرآن الكريم على الذين لا يستترون من غيرهم أو من جوارحهم فقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [فصلت:١٩-٢٤].

قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [يس:٦٥].

يُروى أنَّ النبي ﷺ استأجر أجيراً فرآه يغتسِلُ عُرياناً بالبراز لا يستتر بستر فقال له ﷺ: «أراك لا تستحيي من ربك، خذ أجارتك لا حاجة لنا بك» [رواه عبد الرزاق في مصنفه عن ابن جريج].

الإسلام أمر بالتستُّر في مواضع، منها التستُّر عند الغُسل، وعند اللقاء الزوجيّ، وعند قضاء الحاجة.

النبيُّ ﷺ قال: «إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ حَلِيمٌ حَيِيٌّ سِتِّيرٌ يُحِبُّ الحَيَاءَ وَالسَّتْرَ، فإذَا اغْتَسَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَتِرْ» [رواه أبو داود والنسائي وأحمد عن يعلى بن أمية].

فالإنسانِ كلما اقترب من الإيمان ازداد تستُّراً، وكلما تفلَّت من قواعد الشرع قلَّ تستُّره، ولقد جاءتنا مظاهر من الغرب بعيدة عن ديننا وأعرافنا وتفشَّت في بعض الناس فتجد مثلاً إنساناً يسافر من بلد إلى بلد آخر ببنطال قصير، ويمكن أن يخلع معظم ثيابه أمام الناس.

وقد ورد في الحديث الصحيح عن أبي هريرة أن النبي ﷺ يقول: «كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إلا المُجاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ المُجاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلاً ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ

سَتَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ فَيَقُولَ: يَا فُلانُ عَمِلْتُ البَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللهِ عَنْهُ» [متفق عليه].

أليس في بيوت المسلمين الفتيات الشابات يقمن بثيابٍ رقيقة أمام إخوتهن، وهناك إخوةٌ يقومون بثياب داخلية أمام أخواتِهِمْ، وأمام أمَّهاتهم وآبائهِمْ، هذا التبذُّل في البيت فيما بين الإخوة، وفيما بين الأخوات، وفيما بين الإخوة والأخوات، وفيما بين الآباء والأبناء، والأبناء والآباء، والبنات والأمهات، هذا مخالفٌ للشرعِ، كلما ازداد إيمانك ازداد التستُّر، وكلما بعُد المرءُ عن الإيمان تفلَّت من السِّتر، وإنَّ من المجون والجنون أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح فيقول: يا فلان عمِلت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربُّه ويكشف هو سِتر الله عنه.

من أخطر الأعمال أن يُحدِّث الناس بعضهم بعضاً ما لا ينبغي لهم أن يتحدثوا به، الأسرار الزوجية أسرار مصونة لا ينبغي أن تشيع، في أكثر من مجتمع يتحدَّث الأزواج عن زوجاتهم وعن لقاءاتهم، وتتحدَّث الزوجات عن أزواجهِنَّ وعن لقاءاتِهِنَّ، وهذا من أكبر المعاصي، لأنَّ هذا ينبغي أن يبقى سراً بين الزوجين.

ذكرت سابقاً أن امرأةً تعمل في الفن في بلدٍ غريب وهي امرأة فاسقة فاجرة، لكنها تكلَّمت بصدق حين سُئِلت عن شعورها وهي على خشبة المسرح -وقد حفظت كلامها لدقته البالغة- قالت: إنَّ شعوري شعور الخزي والعار، وهو شعور كلِّ امرأةٍ تعرض مفاتنها على الناس، إنَّ الحبَّ يجب أن يبقى بين الزوجين وفي غرفٍ مُغلَقة.

فموضوع السِّتر إذاً؛ أنه كلما تفلَّت الناس، وكلَّما اقتربوا من طباع الغرب وعاداته وكلَّما تغذَّوا بالثقافات الغربية التي تأتيهم عبر الصحون التي على أسطح المنازل، وكلَّما تفلَّتوا من ثيابهم في بيوتهم، وكلَّما تفلَّت الإنسان من ثيابه كان هناك احتمال الانزلاق، فحينما يأمر الشرع الحنيف ألا تظهر امرأةٌ على أُختها بملابس فوق الركبة فهناك حكمةٌ بالغة، حتى بين الأخوات، حتى بين البنت وأمِّها، هناك حدود، أما إذا رفعنا الحدود فربما انزلق الناس إلى ما لا يُحتمل.

فالشرع ليس قيوداً لحرية الإنسان، ولكنه ضمانٌ لسلامته، تماماً كما لو كنت في مكان ورأيت لوحةً كتب عليها: انتبه حقل ألغام، فهل تعدُّ هذه اللوحة تقييداً لحريَّتك، أم ضماناً لسلامتك؟ إنها ضمانٌ لسلامتك، أنا لا أتكلَّم من فراغ فبحكم عملي في الدعوة إلى الله تأتيني قضايا كثيرة، حتى إن هناك فواحش ظهرت بين المحارم بسبب التفلُّت.

أقول هذا الكلام لأن هناك أخطاراً بدأت تهدد المسلمين، فأكبر شيء يجرُّ الإنسان إلى المعاصي موضوع النساء، وموضوع المال وقد أكثرت من ذكر هذا والتذكير به من قبل في أبحاث عدة.

وفي الصحيحين، عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إلا المُجاهِرِينَ، وإنَّ مِنَ المُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلاً ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ فَيَقُولَ: يَا فُلانُ عَمِلْتُ البَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ ويُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ الله عَنْهُ» [متفق عليه].

فإذا تفضَّلَ الله عز وجل بستره على عبدٍ في الدنيا فإنَّ هذا السِّتر يستمر إلى يوم القيامة.

وروى البخاري في صحيحه قال:

حَدَّثَنَا ابْنُ أَخِي ابْنِ شِهابٍ عَنْ عَمِّهِ قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو إِدْرِيسَ عَائِذُ الله أَنَّ عُبَادَةَ ابْنَ الصَّامِتِ مِنِ الَّذِينَ شَهِدُوا بَدْراً معَ رَسُولِ الله ﷺ وَمِنْ أَصْحَابِهِ لَيْلَةَ العَقَبَةِ أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: «تَعَالَوْا بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لا تُشْرِكُوا بِالله شَيْئاً، وَلا تَسْرِقُوا وَلا تَزنُوا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ، وَلا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلا تَعْصُونِي فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى الله، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذلكَ شَيْئاً فَعُوقِبَ بِهِ فِي الدُّنْيا فهو كَفَّارَةٌ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً فَسَتَرَهُ اللهُ فَأَمْرُهُ إلى الله إنْ شَاءَ عَاقَبَهُ وإنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ، قالَ: فَبَايَعْتُهُ عَلَى ذَلِكَ» [رواه البخاري].

لو أنَّ إنساناً اقترف معصية فليس مكلَّفاً أن يبلِّغ عن هذه المعصية أحداً، فإذا لم يكتشف أحد هذا الذنب فمعنى ذلك أنَّ الله أسبل عليه ستره، وإنه ليقترفُ معصيةً كبيرة حينما يفضح نفسه.

فإذا اقترف الإنسان ذنباً فليس مكلّفاً شرعاً أن يُبلِّغ عن نفسه، ما دام لم يدرِ به أحد؛ ومعنى ذلك أنَّ الله أسبل عليه ستره، فإذا فضح نفسه كأنَّه ارتكب معصيةً جديدة... هذا حكم شرعي، أنت لست مكلّفاً أن تفضح نفسك ما دام الله قد سترك.

وهذه معلومة أخرى: إنْ لم تكن مِمَّن يُكلَّف بتنفيذ أمر الله، فأنت إنسانٌ عاديٌّ لست كالإمام، فإذا اقترف إنسان آخر معصيةً أمامك لست مكلّفاً أن تُبلِّغ عنه، أما الإمام فإذا بَلَّغَهُ أحد أنه قد انتُهك حدٌّ من حدود الله فلا عفا الله عنه إن عفا عن مقترف ما يوجب الحد، فالإمام له موقفه، والمؤمن له موقف آخر، فالمؤمن ليس مكلّفاً أن يفضح نفسه ولا أن يفضح غيره، أما الإمام فإذا بَلَغَهُ عن أحد أنه قد اقترف ما يوجب الحدَّ فلا عفا الله عنه إن عفا.

لذلك ورد في البخاري:

عَنِ ابْنِ شِهَابٍ أَنَّ سَالِماً أَخْبَرَهُ: أَنَّ عَبْدَ الله بْنَ عُمَرَ رضي الله عنهما أَخْبَرَهُ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قالَ: «المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ لا يَظْلِمُهُ وَلا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجة أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُباتِ يَوْمِ القِيَامَةِ. وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِماً سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ» [رواه البخاري].

وهذا الذي بلَّغ النبي عن إنسان زنى، فقال ﷺ: «يا هزّالُ! لو سترته بثوبك كان خيراً لك» [رواه أحمد، عن نعيم بن هزال].

فهذا حكم شرعي... ليس القصد أن تقطَّع الأيدي ولا أن يُجلد الناس، فالقصد أن تكون الحدودُ الشرعية رادعةً للمسلمين، لذلك حينما يطالب الشرع بأربعة شهود رأوا حالة الزنا رأي العين، فالهدف منه أن يكون هذا الحدُّ رادعاً.

ومما يدلُّ على محبَّة الله السِّتِّير إخفاء الذنوب والمعاصي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النور:١٩].

أي أنَّ هذا الذي يحبُّ أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا له عذابٌ أليمٌ في الدنيا والآخرة... ماذا فعل؟ لم يفعل شيئاً إلا أنه تمنَّى أن تشيع هذه الفاحشة، معنى ذلك أنَّه في خندق المنافقين، لو كان في خندق المؤمنين لآلمه هذا الأمر أيّما إيلام، فلمجرَّد أنَّه رضي أو تمنَّى أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا فله عذابٌ أليم. فقد قال تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران:١٢٠].

قيل في هذه الآية: «هذه الآية تأديبٌ لمن سمع شيئاً من الكلام السيئ، فقام بذهنه منه شيءٌ وتكلم به».

إن سمعت قصة لا تليق بمؤمن فلا ينبغي لك أن تروِّجها، ولا ينبغي لأحد أن ينقلها، ولا ينبغي أن يفرح بها، إن فرحت بها ففي الإيمان خلل، وإن روَّجتها فقد سببت فتنة لا يعلم مداها إلا الله، ومتى تنتهي... ففي بعض الأحيان خطأ بسيط قد ينتهي بجريمة.

أنا ذكرت لكم نقلاً عن أحد مخابر التحليل أن إنساناً استراب بابنته، واعتراه شك نحوها، فطلب منها إجراء تحليل. فالموظف في هذا المخبر وقعت منه العينة فانكسرت فخاف من سيده فكتب نتيجة التحليل حمل إيجابي، فلما جاء الأب مساءً وتلقَّى النتيجة أنها إيجابية فذهب وقتل ابنته مع أن النتيجة غير صحيحة والبنت بريئة... فهؤلاء الذين يسمعون قصةً لعلها كاذبة، إذا نقلها وروَّجها فما أدراك أن تقع جريمة من أجلها، فقضايا الأعراض خطيرة جداً، فلذلك هؤلاء الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات حدّهم أن يجلدوا ثمانين جلدة، وأن يفقدوا حقَّهم المدني، فلا تُقْبَل شهادتهم أبداً لعِظَم حقِّ المرأة المؤمنة عند الله.

هناك معنىً آخر ذكره بعض العلماء؛ وهو أن الذي يفعل شيئاً قبيحاً ويحدِّث الناس به فكأنه أراد أن تفشو الفاحشة في الذين آمنوا، ألم تسمعوا بالقول: رحم الله عبداً جبَّ الغيبة عن نفسه.

وبعد... فهذا معنى آخر: إنسان فعل فاحشة، والفاحشة انتقلت وشاعت وسرت بين الناس، ما الذي حصل؟ إن هذا العمل القبيح شاع بين الناس، وكلما شاعت الفواحش استمرأها الناس، وأقبلوا عليها ولم يروا بها شيئاً خطيراً.

عَنْ ثَوْبَانَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لا تُؤْذُوا عِبادَ الله، وَلا تُعَيِّرُوهُمْ، وَلا تَطْلُبُوا عَوْرَاتِهِمْ، فإِنَّهُ مَنْ طَلَبَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ طَلَبَ اللهُ عَوْرَتَهُ حَتَّى يَفْضَحَهُ فِي بَيْتِهِ» [مسند الإمام أحمد].

هناك أشخاص -والعياذ بالله- همُّهم تتبع العورات، قنص الزلاَّت، همُّهم أن يصطادوا في الماء العكر، أن يبحثوا عن فضيحةٍ فيشيعوها، هؤلاء يتتبعون عورات الناس... من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته حتى يفضحه في عقر داره.

وقد قال ﷺ حينما أمر أن يستر الإنسان ذنبه، كما في حديث أبي اليَسَرِ قالَ: أَتَتْنِي امْرَأَةٌ تَبْتَاعُ تَمْراً، فقُلْتُ: إنَّ فِي البَيْتِ تَمْراً أَطْيَبَ مِنْهُ، فَدَخَلَتْ مَعِي فِي البَيْتِ، فأَهْوَيْتُ إِلَيْها فَقَبَّلْتُهَا، فأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ قالَ: اسْتُرْ عَلَى نَفْسِكَ وَتُبْ وَلا تُخْبِرْ أَحداً، فَلَمْ أَصْبِرْ فَأَتَيْتُ عُمَرَ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ فقالَ: اسْتُرْ عَلَى نَفْسِكَ وَتُبْ ولا تُخْبِرْ أَحَداً، فَلَمْ أَصْبِرْ، فأَتَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ فقالَ: «أَخَلَفْتَ غَازِياً في سَبيلِ الله في أَهْلِهِ بِمِثْلِ هَذَا»، حتَّى تَمَنَّى أَنَّهُ لَمْ يَكنْ أَسْلَمَ إلا تِلْكَ السَّاعَةَ، حَتَّى ظَنَّ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النارِ، قالَ: وَأَطْرَقَ رَسُولُ الله ﷺ طَويلاً حَتَّى أَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ ﴾ إلى قَوْلِهِ ﴿ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤ ﴾ [هود:١١٤] [سنن الترمذي].

وعَنْ جُبَيْرِ بْنِ أَبِي سُلَيْمَانَ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعَمٍ قالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عُمَرَ يَقُولُ: لَمْ يَكُنْ رَسُولُ الله ﷺ يَدَعُ هَؤُلاءِ الدَّعَوَاتِ حِينَ يُمْسِي وَحِينَ يُصْبِحُ «اللهمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ

العَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ، اللهمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ العَفْوَ وَالعافِيَةَ في دِيني ودُنْيَايَ وأَهْلِي ومَالِيَ، اللهمَّ اسْتُرْ عَوْرَتِي»، وقالَ عُثْمَانُ بن أبي شيبة في روايته: «اللهم استر عَوْرَاتِي وآمِنْ رَوْعاتِي، اللهمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ ومِنْ خَلْفِي، وعَنْ يَميني وعَن شِمالِي ومِنْ فَوْقِي، وأعُوذُ بعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي» [سنن أبي داود].

وإني لأعتقد أن المؤمن الصافي حينما يسمع قصة ويكتمها يشعر بسعادةٍ لا يعلمها إلا الله، فالنفس تميل للفضائح، الإنسان يميل إلى أن يُضحك الناس فيقول: هل سمعتم فلاناً ماذا فعل؟ هل عرفتم لماذا طلق زوجته؟ هل عرفتم فلاناً عندما صاحب فلاناً كيف خانهُ مع زوجته؟ هذه قصص يراها مرضى القلوب ممتعة، ويحبُّ الناس أن يرووها ويتحدثوا بها في مجالسهم، دائماً التكليف يتناقض مع طبع الإنسان، لكنَّ الفطرة تتوافق مع التكليف، عندما ينفذ الإنسان أمر الله عز وجل يشعر في البداية بمجاهدة، أما حينما ينتصر على نفسه فإنها ترتاح... فالتكاليف سمَّاها الله تكاليف لأنها ذات كُلفة، أما الأعمال الكاملة والصالحة فهي تتوافق مع الفطرة، فالتكاليف تتناقض في البداية مع الطبع المتعلِّق بالجسم، وتتوافق في النهاية مع الفطرة المتعلقة بالنفس، لذلك المستقيم لعلَّ جسمه يتعب، أمَّا نفسه فمرتاحة.

عَنْ حَفْصِ بْنِ عَاصِمٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «كَفَى بِالمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ» [رواه مسلم].

والنبي ﷺ يعلِّمنا أن إنساناً يحدثك بحديث، ولم يقل لك: هذا الحديث أمانة، لكن سمع خطوة نعال وراءه مثلاً فالتفت، فالتفاته تعني أنَّ هذا الحديث أمانة لا ينبغي نشره، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِذَا حَدَّثَ الرَّجُلُ بِالحَدِيثِ، ثُمَّ التَفَتَ فَهِيَ أَمَانَةٌ» [أبو داود والترمذي].

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِالله قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «المَجَالِسُ بِالأَمَانَةِ...» [أبو داود وأحمد].

أعظم ما عند المؤمنين أنَّهم مجتمع ستّير، وأحقر ما في مجتمع التفلّت أنَّه مجتمع فضائحي، أساسه الفضائح، وبعض الإعلام اليوم أساسه الفضائح.

من الأدعية المتعلقة باسم السِّتِّير: اللهمَّ! أنت الحليم السِّتِّير، وأنت عالم الغيوب والأسرار، أمدُّ إليك يدي تحت ستار الليل وقد مدَّ الليل أستاره، ومددتَ لعبادك يَد الحليم الغفار، فاستر اللهمَّ عورتي، وامحُ حوْبتي، وآمن روعتي، وشدَّ من عزيمتي، فإني أستحيي منك، يا غفار الذنوب! وسِتِّير العيوب! بضعفي أمام قوتك، وعجزي أمام قدرتك، أسألك العفو والصفح، والمغفرة والرضوان يا ذا الجلال والإكرام.

أرجو الله سبحانه وتعالى، أن يكون لنا من هذا الاسم (السِّتِّير) مبدأ وأن نطبّق هذا المبدأ «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس».

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ» [سنن الترمذي].

قال ﷺ: «من ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة» [رواه أبو داود في سننه عن عبدالله بن عمر].

إن موضوعَ الستر أحد أخلاق المؤمن الأساسية، والله عز وجل هو السِّتِّير، فالله عز وجل من شأنه أن يظهر الحسن ويخفي القبيح، والإنسان المؤمن يتخلّق بكمالات الله، ويقتدي برسول الله ﷺ، والإنسان الكافر والعاصي يبحث عن العيوب ويُخفي الصفات الطيبة في غيره، فهو قنَّاص، فحينما يعثر على خطيئة كأنه عثر على كنزٍ ثمين فيأخذها ويفضح نفسه أو غيره بها وينشرها في الناس.

فأنت مؤمن ستِّير، تستُر على إخوتك أخطاءهم، حتى النصيحة إن كانت أمام ملأ كانت فضيحة، لا تكون النصيحة نصيحةً إلا إذا كانت بينك وبين أخيك... فإذا أحببت أن تنصح فيجب أن تختار الوقت المناسب والمكان المناسب، أما إذا نصح الناصح أمام ملأٍ فربما انقلبت النصيحة فضيحة وابتعد عن اسم السِّتِّير.

فأحياناً يخطب شاب فتاة ثم تُفسَخُ هذه الخطبة، فتجد معظم الناس يتكلمون على أشياء كانت وأشياء لم تكن حتى يسوِّغوا انسحابهم من هذه الخطبة، ما كان ينقصهم لو قالوا كلاماً موجزاً: ليس هناك من نصيب، والله؛ هم أحسن منا ولكن لا يوجد نصيب، لا تدخل في الأعراض والأخطاء.

فكلَّما ارتقى الإنسان في مراقي الإيمان يُظهر الحسن ويُخفي القبيح، وكلّما هبط يُظهر القبيح ويُخفي الحسن.

المقدم

ورد هذا الاسم في السنة الصحيحة ففي صحيح البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قام من الليل يتهجّد فقال:

«اللهمَّ رَبَّنا لك الحمدُ، أنْتَ قَيِّمُ السماوات والأرضِ ومَن فِيهنَّ، ولك الحمدُ أنت نورُ السماوات والأرضِ ومن فيهن، ولك الحمدُ، أنتَ مَلِك السماوات والأرضِ ومن فيهن، ولك الحمدُ، أنت الحقُّ، وَوَعْدُكَ الحقُّ، ولقاؤكَ حَقٌّ، وقَولك حَقٌّ، والجنَّةُ حَقٌّ والنَّارُ حَقٌّ، والنَّبيُّونَ حَقٌّ، ومحمدٌ حَقٌّ، والساعةُ حَقٌّ، اللهمَّ لك أسلمتُ، وبِك آمَنتُ وعليك توكلتُ، وإليك أَنَبتُ، وبكَ خَاصَمتُ، وإِليكَ حاكمتُ، فاغفر لي ما قَدَّمتُ، وما أَخَّرْتُ، وما أسررتُ، وما أَعلَنتُ، أنت المقَدِّمُ وأنت المؤخِّرُ، لا إِلهَ إلا أنت، ولا إله غَيرُكَ» [البخاري ومسلم عن عبد الله بن عباس].

وإذا سلَّم من الصلاة قال:

«اللهمَّ اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت وما أنت أعلم به مني، أنت المقدِّم وأنت المؤخِّر، لا إله إلا أنت» [ابن خزيمة عن علي بن أبي طالب].

من معاني اسم الله المقدم

المقدِّم اسم فاعل، من فعل رباعي مضعف، قدَّم، يقدِّم، فهو مقدِّم، والمصدر تقديم، وعند البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «من صام رمضانَ إيمانا واحتسابا غُفِرَ له ما تقدَّم من ذَنْبِهِ» [أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أبي هريرة].

القَدَم: كلُّ ما قدَّمت أيها الإنسان من خير أو شر وتقدَّمت لفلان فيه، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس:٢]. ،

العمل الصالح الذي قدَّمته ابتغاء وجه الله هو قدم.

لو أنَّ شخصاً سأل نفسه هذا السؤال المحرج: أنا آكل وأشرب، لكن ماذا قدَّمت من عمل بين يدي ربي يوم القيامة؟ هناك آلاف النشاطات لمصلحتك، لتحسين معيشتك، للحفاظ على منصبك، آلاف النشاطات تصبُّ في النهاية لصالحك، أمَّا العمل الصالح فخالص لا تبتغي به إلا وجه الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الكهف:١١٠].

فأنت بالاستقامة تسلم، وبالعمل الصالح تسعد، وبتربية أولادك يستمر وجودك.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الحجر:٢٤].

أي علمنا المستقدمين منكم في الطاعة، من بادر إلى هذه الطاعة، من بادر إلى إنفاق ماله في سبيل الله، من بادر إلى الإصلاح بين اثنين، من بادر إلى رعاية الأيتام، فالعمل الصالح الذي تبادر إليه يصنفك مع المستقدمين.

الله تعالى هو المقدِّم يقدِّم ويؤخِّر وفق مشيئته، وإرادته، وحكمته، فالتقديم من أنواع التدبير الذي يتعلق بفعل الله جلّ جلاله، تدبير الله عز وجل أن يقدِّم زيداً، أو أن يؤخِّر عبيداً، هذا من تدبير الله عز وجل، وهذا التقديم على نوعين، تقديم كوني، وتقديم شرعي، أمّا التقديم الكوني فكما في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف:٣٤].

فالذي يموت قبل الآخر يعد مقدَّماً للموت، والذي يؤخَّر بعد الآخر يعدُّ متأخِّراً في الموت.

والله عز وجل يقول: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [سبأ: ٣٠].

حينما تؤمن إيماناً قطعياً أنَّ حياتك بيد الله، ولها موعد لا يتقدَّم ولا يتأخَّر، ترتاح نفسك، وتصبح شجاعاً، وتصبح عزيزاً ولا تتذلل أمام إنسان، ولا تتضعضع أمام قوي أو غني، الأمر بيد الله، حياتك بيده، والموت بيده.

وهو المقدِّم يقدِّم بعض خلقه على بعض، بناء على حكمة في الابتلاء، يقدِّم نبياً على نبيّ، يقدِّم صحابياً على صحابيّ، يقدِّم مؤمناً على مؤمن، قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [آل عمران: ٤٢].

وقال جلّ جلاله عن طالوت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ [البقرة: ٢٤٧].

هذا اصطفاء، يصطفي نبياً على نبي، ولياً على ولي، قوياً على ضعيف، غنياً على فقير، الله عز وجل يقدم ويؤخر.

أمَّا التقديم الشرعي فهذا متعلق بمحبة الله لفعل دون فعل.

«إن الله يحب معالي الأمور وأشرافها ويكره سفسافها» [أخرجه الطبراني عن حسين بن علي].

الله قدَّم في محبته معالي الأمور، فأنت أيها المؤمن هل تحمل هماً كبيراً؟ هل تحمل همّ المسلمين؟ هل تعيش الدعوة إلى الله؟ هل تعيش مصالحك الذاتية أو تعيش

خصومات سخيفة بين الناس؟ أو تعيش القيل والقال، وابتزاز الأموال، وإضاعة الوقت؟

فالله تعالى أحبَّ أعمالاً فقدَّمها في الثواب، وأبغض أعمالاً فأخَّرها في الثواب، يقول ﷺ: «إنَّ الله وملائِكَتَه يُصَلُّون على الصفِّ المقدَّم، والمؤذِّنُ يُغْفَرُ له بمدِّ صوته ويصدِّقُه مَنْ سمعه مِن رَطْب ويابس، وله مثل أجرُ مَنْ صلَّى معه» [أخرجه النسائي عن البراء بن عازب].

وفي صحيح مسلم: «لو يعْلَمُونَ -أو تعلمون- ما في الصَّفِّ الأوَّلِ لكانت قُرْعة» [مسلم عن أبي هريرة].

و: «أتِمُّوا الصفَّ المُقدَّم، ثم الذي يليه، فما كان من نقْص فليَكُن في الصف المؤخَّر» [أبو داود عن أنس].

والله قدّم تجهيز الميت على أي شيء آخر، قال: «أسْرِعوا بجنائزكم، فإن تكُ صالحة، فخير تقدِّمونها وإن تَكُ سوى ذلك فَشَر تضعونه عن رقابكم» [أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي ومالك عن أبي هريرة].

فالمقدِّم هو الله جل جلاله الذي يقدِّم الأشياء، ويضعها في مواضعها على مقتضى حكمته، وعلى مقتضى الاستحقاق، فمن استحقَّ التقدُّم قدَّمه الله، ومن استحقَّ التأخُّر أخَّره الله.

الله عز وجل يقدِّم استحقاقاً، ويؤخِّر استحقاقاً، الذي قدمك فيه في الأعمّ الأغلب عن استحقاق، والذي أخرك فيه في الأعمّ الأغلب عن استحقاق، وقد يقدِّم تفضُّلاً، تشجيعاً لك، وقد يؤخِّر حكمةً، فلو جاءتك الدنيا كما تتمنى لربما كانت حجاباً بينك وبين الله، وإذا حرمك منها لحكمة بالغةٍ بالغة ربما كان هذا الحرمان باعثاً لك إلى الله، إذاً ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك، وإذا كشف لك الحكمة في المنع عاد المنع عينَ العطاء.

شاءت حكمة الله -جل جلاله- أن يكون الناس درجاتٍ في حياتهم الدنيا قال تعالى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [الإسراء:٢١].

من حيث الشكل؛ أشكال متباينة، ومن حيث المال؛ مستويات متباينة، من حيث القوة؛ مستويات مختلفة، من حيث الذكاء؛ مستويات متفاوتة، فربنا عز وجل قدَّم إنساناً وأخَّر إنساناً.

إنَّ الإنسان مكلَّف، وهو مخيَّر فيما كُلّف، لكنه مسيَّر في أشياء كثيرة، فالإنسان مسيَّر من حيث والداه، من حيث مكان ولادته، من حيث زمن ولادته، من حيث قدراته من حيث إمكاناته، أشياء كثيرة قدرها الله عز وجل على الإنسان، لكن يجب أن يعلم الإنسان علماً يقينيّاً أنَّ هذا الذي قدَّره الله عليه لصالحه، وإذا كُشف الغطاء اخترتم الواقع، فالإنسان إذا صدَّق الله عز وجل وعلم أنَّ حكمة الله حكمةٌ مطلقة، وأنَّ حكمته تقتضي أنَّ كلَّ شيءٍ لو كان على غير ما كان عليه لكان نقصاً في حكمة الله، إذا أيقن بهذا يرضى ويستسلم.

قد يفضِّل الله -عز وجل- إنساناً بالشكل، وقد يفضّله بالذكاء، وقد يفضِّله بالمال، أو يفضِّله بالقوة، أو يفضِّله بأن يكون ابناً لملك، أو يكون ابناً لإنسان فقير، فالله عز وجل يقدِّم ويؤخِّر، إمَّا أنه يقدِّم رتبةً أو أنه يقدِّم زمناً...، فقد نجد أنفسنا في يوم واحد نذهب لنعزي أناساً في ميت، وفي اليوم نفسه قد نذهب ونهنئ أناساً آخرين بمولودٍ جديد، من قرَّر أنَّ هذا الذي توفَّاه الله اليوم مثلاً وُلِد قبل هذا الذي ولد اليوم بسبعين سنة؟ تقديم زمني، وتقديم رُتبي، فالله عز وجل هو المقدِّم وهو المؤخِّر.

إذا أيقنت بحكمته، وإذا أيقنت برحمته، وإذا أيقنت بعدالته فإنَّك تستسلم وترضى.

«التقديم كما قال بعض العلماء ضدُّ التأخير، والمقدِّم لغةً هو الذي يقدِّم الأشياء ويضعها في موضعها، فمن استحقَّ التقديم قدَّمه»... وبعد فلدينا معنى جديد وهو أن الله يقدِّم استحقاقاً، ويؤخِّر استحقاقاً، يقدِّم رتبةً استحقاقاً ويؤخِّر رتبةً استحقاقاً، ويوجد مع التقديم حكمة، ومع التقديم عدالة، ومع التقديم علم.

والله تعالى هو المقدِّم الذي قدَّم الأحباء بخدمته... فهل من الممكن أو من المعقول أن إنساناً خطب ودَّ الله عز وجل ولا يقدِّمه الله؟! إنسان أطاع الله والله لا يقدِّمه؟ فإذا لم يقدِّم الله عز وجل الطائعين فقد استوى عند الناس الطائع والعاصي، فالطائع عندئذ فقد الباعث والحافز، والعاصي فقد الرادع، وإذا لم يقدِّم الله الطائع ولم يؤخِّر العاصي، وإذا لم يقدِّم المحسن ولم يؤخر المسيء، وإذا لم يقدِّم المستقيم ولم يؤخر المنحرف، وإذا لم يقدِّم الرحيم ولم يؤخر القاسي... فالرحيم يملُّ من عمله والمنحرف يستمرئ عمله.

لذلك هناك في علم التربية قاعدة أساسية... ما لم يُكافأ المحسن ويعاقب المسيء فالأمور تصبح فوضى. على مستوى مدرسة، على مستوى مشفى، على مستوى معمل... فمثلاً يتأخَّر عامل كلَّ يوم ساعة ولا يعاقب، وعامل ينضبط أشدَّ الانضباط ولا يُكافأ! بعد حينٍ نجد المنضبط يتفلَّت والمقصِّر يزداد تقصيراً.

فكأن اسم المقدِّم مرتبطٌ باسم المربي... والله يقدِّم، فهل من المعقول أنَّك شابٌّ مستقيم ولا يقدِّمك؟ ليس هذا معقولاً بل يقدِّمك ويكرمك، فالله عز وجل قال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح:١-٤].

فهل تجد إنساناً على الأرض يُذكر مع الله إلا رسول الله ﷺ؟ ألا تقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله؟ ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾... كلمة محمد ﷺ الآن في العالم كم إنسان يذكرها؟ ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ تُذكر في الأذان خمس مرات كلَّ يوم ملءَ الجو وفي الصلاة عند كلِّ تشهُّد ملءَ النفْس.

... الله تعالى هو المقدِّم الذي قدَّم الأحباء بخدمته... أجل لقد قدَّمهم، يريد الله من المؤمنين أن تكون معنوياتهم عالية، لقد ذهب النّبيّ ﷺ إلى الطائف بعد أن أخرجته مكة وكذَّبته ونكَّلت بأصحابه، ذهب إلى الطائف يستنصرهم فكذبوه وردّوا

دعوته وسخروا منه وأغروا سفهاءهم بإيذائه، فلما أراد أن يعود إلى مكة ويدخلها قال له سيدنا زيد بن حارثة: كيف تدخل عليهم مكة وهم قد أخرجوك؟ فقال: «يا زيد، إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً، وإن الله ناصر دينه، ومظهر نبيِّه» [زاد المعاد لابن القيم].

حينما كان في طريقه إلى الهجرة تبعه سُراقة بن مالك قال: كيف بك يا سُراقة إذا لبست سواري كِسرى [أعلام النبوة للماوردي]، معنى ذلك أن النبي ﷺ واثقٌ من نصر الله عز وجل، فأنت أيُّها المؤمن يجب أن تؤمن أنك إذا استقمت على أمر الله، وإذا أحببته وإذا أخلصت له، وإذا أقبلت عليه فلا بد من أن يُقدِّمك، هكذا حكمة الله، وهذه عدالته، وهكذا رحمته.

قال العلماء: «الله تعالى هو المقدِّم، قدَّم الأحباء بخدمته، وعصمهم من معصيته». وقال بعضهم: «المقدِّم هو الذي قدَّم أحبابه وأسعدهم بالفهم والحِكم، والذي قدَّم العارفين على الجاهلين». فالله عز وجل قال: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر:٩].

ليس هناك نسبة... فهل يكون الطائع كالعاصي، أو أن تجد إنساناً مستقيماً كالمنحرف، فالله يقدِّم المستقيم ويدافع عنه.

فقد حدَّثني أخ يعمل في دائرة له مدير غير ملتزم إطلاقاً، لكنه يحترم هذا الموظَّف أشدَّ الاحترام لأنه ملتزم، ويتورَّع هذا المدير عن أن يرتكب مخالفة للشرع أمام هذا الموظَّف... ففي ظاهر الأمر أنَّ هذا موظف بسيط، والمدير لا شكَّ أنَّه أعلى مرتبة منه، فانظر إلى الأعلى يحترم الأدنى لدينه، فالله قدَّمه، فبدينك واستقامتك قد تكون مكانتك أعلى من مرتبتك.

قد يكون هناك في البيت شاب مستقيم، وله أربعة أو خمسة إخوة متفلتون يأتون في ساعة متأخرة ليلاً لهم أصدقاء وأصحاب منحرفون، هذا الشاب الورع المستقيم له مكانة في البيت لا تقلُّ عن مكانة والده، هذا مقدَّم... الله قدَّمه، كلُّ إنسان في عمله وفي حيِّه وفي أسرته إذا كان مستقيماً له اتصال بالله عز وجل، الله يقدِّمه الله، هو المقدِّم.

قال العلماء: قدَّم العارفين على الجاهلين وفتح لهم أبواب اليقين، قدَّم العلماء على الجهلاء، وجعلهم نجوم الاهتداء، قدَّم رسول الله ﷺ بدءاً وختاماً.

سيدنا عمر رضي الله عنه عندما وقف على المنبر ليخطب بعد أن تولَّى الخلافة نزل درجة، وقال: ما كان الله ليراني أضع نفسي في مقام أبي بكر... معنى ذلك أنَّ مقام أبي بكر محفوظ أشدَّ الحفظ.

قدَّم الله عز وجل رسولَ الله ﷺ على كلِّ الرُّسُل والأنبياء، قال تعالى مخاطباً رسله وأنبياءه: ﴿ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ﴾ [آل عمران:٨١].

قدَّمه ليلة الإسراء حيث صلَّى بجميع الأنبياء... أريد أن أستخلص من هذا الشرح أنَّ لك مكانةً عند الله بحجم عملك الصالح، هذه المكانة تنالها بعدالةٍ مطلقة، لا يمكن أن يستوي عند الله إنسانان متفاوتان في عملهما أبداً، إذا كان عملك أصلح فمرتبتك أعلى، ورعك أكثر فمرتبتك أعلى، محبَّتك أسمى فمرتبتك أعلى، استقامتك أشدّ فمرتبتك أعلى، فقد قال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [الأنعام:١٣٣].

كلُّ واحد منَّا له عند الله مرتبة... له درجة، له مكانة من خلال هذه المكانة يعامَل، قد نرى إنساناً أثيراً عند الله وقد نرى إنساناً هيِّناً على الله، فالكفار لهم صغارٌ عند الله... قال تعالى: ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الكهف:١٠٥].

فالله يقدِّم... وإذا قدَّم الله فالأمر عجيب، وإذا ألقى محبَّتك في قلوب الخلق فهذه سعادة كبيرة جداً الإنسان المؤمن كيفما تحرك يكون محبوباً، كيفما مشى يكون محترماً، في غيبته يُثنى عليه، وفي حضرته يُثنى عليه، فالله قدَّمه... لماذا قدَّمه؟ لعمله الصالح، لطهارته، قدَّمه لإخلاصه وقدمه لاستقامته، فالله هو المقدِّم.

قال تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ [ق:٢٨-٢٩].

أتظن أن الله عز وجل يظلمك؟! أو يبخسك عملك؟! أو يضعك في مكانة تستحق أعلى منها؟! أو يطمس لك تألُّقك؟ هذا شيء مستحيل، أنت بعلمك وعملك وإخلاصك واستقامتك تحتلُّ عند الله مرتبةً تتناسب مع أحوالك.

فمثلاً... أتجد إنساناً قوياً جداً، وتقول له: افعل بي ما تشاء؟ لا يمكن، فلعل عندك أخطاءً سابقة، فينتقم منك انتقاماً شديداً، أما سيدنا هود فقد قال لقومه: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود:٥٥-٥٦].

الإنسان يمتحن مكانته عند الله بالدعاء، يقع في أزمة وفي شدة، فيدعو الله بإخلاصٍ شديد، فإن استجيب له فمعنى ذلك أنَّ له شأناً عند الله، كما قيل: ابتغوا الرفعة عند الله.

بعض الناس يبتغي الرفعة عند الخلق... يُحسِّن بيته، يزيِّن بيته، ويشتري أثاثاً فخماً ويركب مركبة فارهةً، ويرتدي ثياباً قشيبة غالية، ويزهو بثيابه وبمركبته وببيته، هو يحاول أن ينتزع إعجاب الناس بهذه المظاهر الفارغة، يسعى ليسمو مكانةً عند الناس، ومن علامات آخر الزمان أنَّ قيمة المرء متاعه.

عشرة أشخاص يملكون مركبات من مصنع واحد لكن يتباهون، فالإنسان ينتزع مكانته فقط من مركبته، من موقع بيته، من مساحة بيته، من ثيابه وهذا كلُّه من علامات تخلُّف المجتمع، القول الرائع النافع: «ابتغوا الرفعة عند الله».

سُلَّمُ الرفعة عند الله بيد كلِّ إنسان، فهو بيدك... ألا تستطيع أن تقيم الإسلام في بيتك؟ ألا تستطيع أن تقيمه في عملك؟ ألا تستطيع أن تضع متعَ الدنيا ومغرياتها تحت

قدميك إرضاءً لله عز وجل؟ ألا تستطيع أن تكون صادقاً، ألا تستطيع أن تصلي الصلوات على وقتها؟ ألا تستطيع أن تضبط لسانك؟ أنْ تضبط جوارحك، أن تربي أولادك؟ سلّم الرفعة إلى الله بيد كلِّ واحد، فالعاقل من ابتغى الرفعة عند الله، إن هذه الرفعة تراها شيئاً لا يُقدَّر بثمن حينما ينتهي الأجل، قال تعالى: ﴿ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [يس:٢٦].

الله هو الذي يقدِّم... أنت تُقدِم على الله فيقدِّمك، إذا أخلص الإنسان لله ألقى الله في قلب الناس محبته وهيبته، من اتقى الله هابه كلُّ شيء، والإنسان إذا ازورَّ عن الله، وأعرض عنه انتزع هيبته من قلوب الخلق، تطاولٌ، مزاحٌ رخيص، يمزح معه مَن هو دونه، وقد ينال من كرامته.

المؤمن لا يبتغي الرفعة في الدنيا بل يبتغي الرفعة عند الله، لكنَّ الله عز وجل أجلّ وأكرم من أن يكافئه في الآخرة فحسب، ويدعه في الدنيا هيناً، فالدنيا تأتيه وهي راغمة تكرمةً له من ربه.

قال ﷺ: «ما نفعني مالٌ قطُّ، ما نفعني مالُ أبي بكر» [أحمد في مسنده، من حديث أبي هريرة].

وقال ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً... ولكن أُخُوَّةُ الإسلام، لا تبقين في المسجد خوخة إلا خوخة أبي بكر» [متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري].

وعن عمر: أبو بكر سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله ﷺ [سنن الترمذي].

فالله قدَّمه... ما أخذ رسول الله ﷺ من أحدٍ ماله كلَّه إلا أبا بكر.

وقال ﷺ: «إن من أمنِّ الناس عليّ في صحبته وماله أبو بكر...» [البخاري، من حديث أبي سعيد الخدري].

لذلك أنت حينما تعتمر تقف أمام مقام النبي ﷺ ثم تقف أمام مقام سيدنا الصديق ثم أمام مقام سيدنا عمر.

الله قدّمها.. في كل مجتمع مقدَّم ومؤخَّر، الله يقدِّم الطائع، فقد تجد إنساناً يعمل بلا ضجيج، وهؤلاء الأتقياء الأخفياء يعملون بصمت، يعملون بلا ضجيج، يبذلون جهوداً كبيرة، يعلِّمون، يتصدقون، يمسحون عن الناس جراحاتهم، هؤلاء قد تراهم في الظل وفجأةً يتقدمون... فالله قدَّمهم، الله هو المقدِّم وهو المؤخِّر.

حتى في عملك إذا كنت من المحبوبين عند الله يقدِّمك في عملك، يلهمك من الأساليب التي لا يلهمها غيرك، يلهمك تصرُّفات لا يعرفها الآخرون، يدافع عنك في غيبتك فهو المقدّم، يقدِّمك.

ورد عن سفيان الثوري: من قدَّم على أبي بكر وعمر أحداً فقد أزرى على اثني عشر ألفاً من أصحاب رسول الله ﷺ توفي رسول الله وهو عنهم راضٍ [السنّة لأبي بكر الخلال].

بعض العلماء يقول: «المقدم والمؤخر... هو الذي يقدم من شاء ويؤخر من شاء على بابه».

ففي بعض الأيام يفتح لك بابه، وفي بعضها الآخر يغلقه، وأحياناً يحجبك، وأحياناً يفتح قلبك، ويتجلَّى عليك، أو لا يتجلَّى، هو المقدم والمؤخر.

فأنت لا تكن عبد الفتح بل كن عبد الفتاح، فالله إذا فتح فاحمد الله على ذلك، وإن لم يفتح فأنت مستقيم ولا تضجر، لا يفتح، تعطيشاً لك، ثم يفتح عليك فتحاً كبيراً، يضر لينفع، يأخذ ليعطي، ويذل ليعز، ويقبض ليبسط.

أحيانا يكون الإنسان صادقاً مع الله صدقاً من مستوى عالٍ، فالله يقدِّم له قدرات تتناسب مع هذا الصدق.

فلدينا سؤال له جواب وهو: لم أعطى الله فلاناً قدرات عالية ولم يعطها لفلان؟ يكون هذا المعطَى له طلبٌ عالٍ جداً، الشاب إذا كان طموحاً جداً فإنّه يعطَى إمكانات تتناسب مع طموحاته، فالله إذا أخَّر وقدَّم فالتقديم أولاً متعلِّق بتطلعات الإنسان

ومتعلِّق بحكمة وعدالة، فقد تشعر بإنسان في نفسه طموحات عالية جداً، هذه الطموحات تحتاج إلى قدرات عالية فيمنح هذه القدرات، هذه القدرات قُدِّم بها ولكن لم يقدم بها ظلماً، أو تخصيصاً لا معنى له، بل قُدِّم بها لسببٍ يعلمه الله عز وجل، فكن أديباً مع الله عز وجل.

فإذا قدَّم الله عليك إنساناً في باب الخير فمعنى ذلك أنَّ صدقه أكبر من صدقك، ومعنى ذلك أن الله عنده علم أن هذا الشخص له قدم صدق عند ربه أعلى مما تتحلى أنت به، من صدق.

قال العلماء: «هو الذي قدم الأبرار وأخّر الفجار، قدم الأبرار وشغلهم به، وأخّر الفجار وشغلهم بالأغيار».

فإذا استرذل الله عز وجل عبداً شغله بالدنيا، حتى لكأنه يعيش في قنوات المجاري، أما إذا أحب الله عبداً شرَّفه بمعرفته، فالنبي الكريم ﷺ منزلته بالأُفق الأعلى، وهناك من يعيش في تفاهات الناس وقصصهم وخلافاتهم وصراعاتهم، في قلبه حسد وغيرة، ويدخل فيما لا يعنيه، فإذا غضب الله على إنسان شغله بتوافه الأمور، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤﴾ [المؤمنون:٣-٤].

اللغو كلُّ حديث فيما سوى مرضاة الله، إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفسافها ودنيَّها، فليلاحظ أحدنا ما الذي يشغله؟ قد تشغله معرفة الله وخدمة الخلق، ونشر الحق والأمر بالمعروف، وقد تشغله هموم المسلمين، وقد يشغله بيته، وأثاث بيته وطلبات زوجته ونزوات أولاده، فمن كان هذا مستواه فهو بالرثاء جدير، فكلما كبر الإنسان عند الله عز وجل تكبر همومه وكلما صغر يصبح شغله الشاغل في تفاهاتٍ لا تقدِّم ولا تؤخِّر.

أحد العلماء يقول: «المقدِّم والمؤخِّر هو الذي يقرِّب ويبعد، يقرِّب أحبابه، ويبعد أعداءه».

فأكبر عقاب يناله أعداؤه منه أنَّه يلعنهم، يحجبهم، وأكبر مكافأة ينالها أحبابه أنه يتجلى على قلوبهم.

وهو جل جلاله يقدِّم أنبياءه وأولياءه بتقريبهم وهدايتهم، ويؤخِّر أعداءه بإبعادهم وضرب الحجاب بينه وبينهم.

نصيب المؤمن من اسم الله المقدم

ما دام الله عز وجل يقدِّم، فأنت أيُّها العبد ألا تستطيع أن تتخلَّق بالكمالات التي تليق بك؟ أنت أمام ألف خيار ما الذي ينبغي أن تقدِّمه؟ وما الذي يجب أن تؤخِّره؟ المؤمن الصادق يقدِّم أعمال الآخرة، ويؤخِّر أعمال الدنيا.

إذا كان منهمكاً في عمل ودخل وقت الصلاة، فإذا أخر الصلاة وتابع العمل فقد تخلَّف عن أن يكون الأول عند الله، أمَّا إذا قدَّم عمل الآخرة وأخَّر عمل الدنيا فيكون قد عرف قيمة الدنيا، وعرف أنَّها مزرعة الآخرة، فكن ممن يقدِّم الأعمال الصالحة ففيها رفعة شأنك، ومن آثر الآخرة على الدنيا خسر الدنيا والآخرة.

هناك أشخاص أرى نفسي معجباً بهم ففي حياتهم أولويات، مثلاً حفاظه على أوقات صلواته، طلبه للعلم، طاعته لله عز وجل، فقد برمج حياته كلَّها وفق هذه الأهداف، ووقته الزائد يصلح فيه شأن دنياه، فلن يؤثر نزهة على صلاة الجمعة؟ ولن يقدِّم جلسة تافهة على مجلس علم؟ دنياه مرتبتها الثانية في كلِّ أحواله، يؤثر مرضاة ربه على سائر متطلباته.

أنت أمام خيارات كثيرة، يجب أن تقدِّم ما كان لله ورسوله، أن تقدِّم ما كان للآخرة، تلاحظ بائعاً مثلاً لديه زبون فيهتم به اهتماماً بالغاً، فلو طلب منه شخص خدمة لله، فما دام عنده تجارة رابحة، يقول له: «مشغول ليس لدي فراغ»، أي هو بحسب رؤيته أنَّ هذه التجارة تأتيه بربح وفير، وأما السائل فلربما يدعو له، فماذا سيجني من الدعاء؟ أمَّا لو عرف قيمة حياته الدنيا وعرف أنها مزرعة الآخرة، لأقبل على العمل الصالح أكثر من إقباله على الرِّبح المادي.

وثق أنَّ هناك أشخاصاً يقدِّمون خِدمات لله دون أن يرجوا من الناس أجراً، وإذا عملوا فأعطيتهم أجراً لتألَّموا أشدَّ الألم، ولسارع قائلاً لك: أنا فعلت هذا لله، لا أريد جزاءً ولا شكوراً.

قال لي يوماً أخ كريم... لديه أزمة في قلبه، يحتاج إلى عملية، تكلِّف مبلغاً ضخماً، تلقى اتصالاً هاتفياً من امرأةٍ محسنة، قالت له: اتَّصل غداً بالطبيب الفلاني إنه سيجري لك العملية مجاناً، وهناك إنسان آخر يقيم احتفالاً يكلف ملايين ليزهو أمام الناس ويضنُّ أن يتصدَّق بمئة ليرة.

الذي قدَّم العمل الصالح كان مقدَّماً عند الله، والذي قدَّم شهواته على أعماله الصالحة كان مؤخَّراً عند الله، فالله سبحانه وتعالى يقدِّم ويؤخِّر.

في الحقيقة يجب أن يكون مسارك في الحياة واضحاً جلياً... فكثيرة هي المقاييس المادية، فإنسان يتقدَّم بماله، يتقدَّم بمرتبته، أحياناً يتقدَّم بنَسَبه، أو بقوَّته، يتقدَّم بذكائه، يتقدَّم تقدماً مبدئياً، أو تقدُّماً مؤقتاً، فإن لم يكن مطيعاً لله أخَّره الله، هذا التقديم تقديم امتحان، أو تقديم استدراج، إن لم يكن في مستوى هذا التقديم أخَّره الله عز وجل، إمَّا أن يؤخره بفضيحة، أو بكفِّ يدٍ، أو بإهمالٍ وازدراء، أو بخطأٍ فاحشٍ يرتكبه يُعاقَب عليه، أما المؤمن فدائماً خطُّه البياني صاعدٌ صعوداً مستمراً...

فالكافر قد يصعد خطُّه البياني صعوداً حادّاً ليسقط بعدها سقوطاً مريعاً، أمَّا المؤمن فصعود خطّه منتظمٌ بطيءٌ مستمرٌّ، وهذا الصعود إلى أبد الآبدين، الله مقدِّم ومؤخِّر، يقدِّم أناساً ويؤخِّر أناساً.

كلُّكم يعلم قصة سيدنا عبد الله بن رواحة عندما عيَّنه النبي ﷺ قائداً ثالثاً لجيش مؤتة، وكيف أنَّ القائد الأول سيدنا زيد تقدَّم وأخذ الراية فقاتل بها حتى قُتل، وقد قال عنه النبي ﷺ: إني لأرى مقامه في الجنة، وكيف أنَّ سيدنا جعفراً رضي الله عنه أخذ الراية بَعْدَهُ وتقدَّم بها فقاتل حتى قُتل، وقال عنه النبي ﷺ: وإني لأرى مقامه في

الجنة، وتروي بعض الروايات أن القائد الثالث سيدنا عبد الله بن رواحة لما رأى صاحبيه قُتلا في وقت قصير تردَّد في أخذ الراية، وقال:

يا نفسُ إلا تُقتلي تموتي ... هذا حِمام الموت قد لَقيتِ

إن تفعلي فعلهما رضيتِ ... وإن توليتِ فقد شَقيتِ

حدَّث النبي ﷺ أصحابه عن سيدنا زيد وسيدنا جعفر ثم سكت. قال أصحابه من الأنصار: يا رسول الله ما فعل عبد الله بن رواحة؟! قال: ثم أخذها عبد الله بن رواحة، فقاتل بها حتى قُتل شهيداً ثم قال: «لقد رفعوا لي في الجنة فيما يرى النائم على سُررٍ من ذهب، فرأيت في سرير عبد الله ازوراراً عن سريري صاحبيه فقلتُ: عَمَّ هذا؟ فقيل لي: مضيا وتردد عبد الله بن رواحة بعض التردد [حلية الأولياء، للأصبهاني] فالله يقدِّم ويؤخِّر.

المؤمن إذا أراد أن يتخلَّق بكمالات الله، يقدِّم أمور الآخرة على أمور الدنيا... فقد تجد إنساناً مستعداً لأن يترك صلاة ومجلساً للعلم لإصلاح آلة تافهة في بيته... أليس كذلك؟ أو يترك صلاة ومجلس علم لاستقبال ضيف بسيط حديثه فارغ، يستحي أن يقول له: لدي الآن درس وهيا نذهب معاً إلى المسجد لسماعه.

المؤمن إذا أراد أن يتخلق بكمالات الله فإنَّه يقدِّم أعمال الآخرة على أعمال الدنيا، ففي حياته أولويات... تلاحظ أن أصحاب الأعمال الناجحين أحدهم يمضي وقتاً معيناً يقرأ جريدة، ويشرب كأساً من الشاي، لكن إذا جاءه زبون ترك الجريدة وترك كأس الشاي، وقام بإقناع الزبون بالشراء... معنى ذلك أن هذا المحل تجاريٌّ وأساسه الربح، فإذا جاء زبون يجب أن نهتم جميعاً به، وليس من المعقول أن ينتظر الزبون حتى تنتهي المقالة التي نقرؤها؟ لا أحد يفعل ذلك، كلُّنا نقدِّم الأهم على المهمِّ، وإذا أنت فعلت ذلك فمن باب أولى أن تقدِّم الأهم على التافه، فأمور الدنيا تافهة.

قمنا بتشييع جنازة يوماً ودخلنا إلى المقبرة، قلت لمن كان إلى جانبي: كل هؤلاء الموتى ماتوا وفي دفاترهم قوائم لأعمال طويلة وكثيرة لم تنتهِ بعد.

الإنسان يُنتزع من بيته، من عمله، لم يفرغ بعد من إعمار بيته، أو لم ينتهِ من دراسته الجامعية، فكلٌّ هؤلاء الموتى تركوا الدنيا وتركوا همومها ومتاعبها، كما تركوا قوائم أعمال لم تُنجز بعد... فعلى الإنسان أن يقدِّم الآخرة على الدنيا.

أنت مؤمن وينبغي أن تشتق من كمال الله كمالاً تتقرب به إليه، أنت رئيس دائرة، مدير مستشفى، رئيس جامعة، صاحب شركة، عندك موظفون، يجب أن تقدِّم، لكن من تقدِّم؟ المؤمن يقدِّم بمقاييس موضوعية، وغير المؤمن يقدِّم بمقاييس انتمائية، والدول المتقدِّمة جداً والقوية جداً تقدِّم بمقاييس موضوعية، والدول المتخلفة تقدم بمقاييس انتمائية.

المؤخر

ورد هذا الاسم في السنة الصحيحة ففي صحيح البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قام من الليل يتهجّد فقال:

«اللهمَّ رَبَّنا لك الحمدُ، أنْتَ قَيِّمُ السماوات والأرضِ ومَن فِيهنَّ، ولك الحمدُ أنت نورُ السماوات والأرضِ ومن فيهن، ولك الحمدُ، أنتَ مَلِك السماوات والأرضِ ومن فيهن، ولك الحمدُ، أنت الحقُّ، وَوَعْدُكَ الحقُّ، ولقاؤكَ حَقٌّ، وقَولك حَقٌّ، والجنَّةُ حَقٌّ والنَّارُ حَقٌّ، والنَّبيُّونَ حَقٌّ، ومحمدٌ حَقٌّ، والساعةُ حَقٌّ، اللهمَّ لك أسلمتُ، وبِك آمَنتُ وعليك توكلتُ، وإليك أَنبتُ، وبِكَ خَاصَمتُ، وإِليكَ حاكمتُ، فاغفر لي ما قَدَّمتُ، وما أَخَّرْتُ، وما أسررتُ، وما أَعلَنتُ، أنت المقَدِّمُ وأنت المؤخِّرُ، لا إِلهَ إلا أنت، ولا إله غَيرُكَ» [البخاري ومسلم عن عبد الله بن عباس].

وإذا سلَّم من الصلاة قال: «اللهمَّ اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت وما أنت أعلم به مني، أنت المقدِّم وأنت المؤخِّر، لا إله إلا أنت» [ابن خزيمة عن علي بن أبي طالب].

من معاني اسم الله المؤخر

المؤخِّر عكس المقدِّم، والفعل أخَّر، يؤخِّر، والمصدر تأخير، وقد ورد عند البخاري من حديث عمر بن الخطاب:

«لَمَّا مَاتَ عبدُ الله بن أُبيٍّ بن سَلول ودُعيَ له رسولُ الله ﷺ لِيُصليَ عليه، فلما قامَ رسول الله ﷺ وَثَبْتُ إليه فقلتُ: يا رسولَ الله أَتُصلِّي على ابن أُبَيٍّ وقد قال كذا وكذا يوم كذا وكذا؟! أُعَدِّدُ عليه قولَهُ، لئن رجعنا إلى المدينة ليخرج الأعز منا الأذل، فتبسَّمَ رسولُ الله ﷺ، وقال: أَخِّرْ عَني يا عُمَرُ فلما أَكْثَرْتُ عليه قال: أما إني خُيِّرْتُ فاخترتُ لو أَعلمُ أَني إن زدتُ على السبعين يُغْفرْ له، لَزِدْتُ عليها.

فصلىَّ عليه رسوله الله ﷺ، ثم انْصَرَفَ، فلم يَمكُثْ إلا يسيرا حتى نزلت الآيتان: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [التوبة:٨٤].

«قال: فعجبتُ بعدُ من جُرْأَتي على رسول الله ﷺ يومئذٍ والله ورسولُهُ أعلم، فما صلى رسول الله ﷺ بعده على منافق، ولا قام على قبره، حتى قَبَضَهُ اللهُ» [أخرجه البخاري والترمذي والنسائي عن عمر بن الخطاب].

أخّر عني أي ابتعد عني، وفي الحديث: «ما سُئِلَ النبيُّ ﷺ يومئذ عن شيءٍ قُدِّمَ ولا أُخِّرَ، إلا قال: افْعَلْ، ولا حَرَجَ» [البخاري عن ابن عمر].

هذه في الحج.

وفي حديث آخر: «كان النبي ﷺ إذا ارتحل قبل أن تزيغ الشمس أخر الظهر إلى وقت العصر ثم يجمع بينهما، وإذا زاغت صلى الظهر ثم ركب» [البخاري عن أنس بن مالك].

الله جل جلاله هو المؤخِّر أي هو الذي يؤخِّر الأشياء فيضعها في مواضعها، إمَّا تأخيراً كونياً أ وتأخيراً شرعياً، فعن أم حبيبة أنها قالت:

«اللهمَّ أَمتعني بِزَوجي رسولِ الله ﷺ، وبأَبي أبي سفيان وبأَخي معاوية، فقال النبي ﷺ: سَالتِ الله لآجالٍ مَضروبة، وأَيَّام مَعدودةٍ، وأرزاقٍ مقسومة، لن يعَجِّلَ شيئاً منها قبل حِلِّه ولا يُؤَخِّرَ، ولو كنْتِ سأَلتِ الله أَنْ يُعِيذَك من عذابٍ في النَّار وعذابٍ في القبرِ كان خيراً وأفضلَ» [مسلم عن ابن مسعود].

إذاً هناك تأخير كوني، فلان ولد قبل فلان فهو مقدَّم، وفلان جاء بعد فلان فهو مؤخَّر، فالتقديم والتأخير الكونيُّ متعلِّق بالآجال.

امرأة قدَّمها بالجمال، وأخَّر امرأة أخرى بالجمال، أمَّا المؤخرة في الجمال فقد قدمها في العلم، هذا التقديم والتأخير الكوني، أمَّا الشرعي فمن أمثلته أنّه شرع لنا أن نقدِّم الإفطار مباشرة، أن نؤخِّر السحور.

فكما ورد من حديث أبي عطية أنه قال: «دخلتُ أنا ومسروق بن الأجدع على عائشةَ أمِّ المؤمنين فقلتُ: يا أمَّ المؤمنين، رَجُلانِ من أصحاب محمد ﷺ، أحدهما يعجِّلُ الإِفطار، ويعجِّل الصلاة، والآخرَ يؤخِّرُ الإِفطارَ ويؤخِّر الصلاةَ، قالت: أيُّهما الذي يُعجِّلِ الإِفطار ويعجِّل الصلاةَ؟ قال: قلنا: عبد الله بن مسعود، قالت: كذا كان يصنع رسولُ الله ﷺ» [مسلم عن أبي عطية].

هذا تأخير شرعي، وهو متعلِّق بالأعمال.

من معاني المؤخر في حقِّ الله تعالى كما يقول العلماء: الذي يؤخِّر المشركين... القتلى المشركون في بدر... جعل النبي ﷺ يناديهم بأسمائهم، وأسماء آبائهم: يا فلانُ بن فلان، ويا فلان بن فلانُ، أيَسُرُّكم أنَّكُم أطعتُم الله ورسوله؟ فإنا قد وجدنا ما وَعَدنا ربُّنا حقاً، فهَل وجدتم ما وعدَ ربكمْ حقّاً؟ فقال عمر: يا رسولَ الله، ما تُكلِّم من أجساد لا أرواح لها؟ فقال النبيُّ ﷺ: والذي نفسُ محمدٍ بيدِهِ، ما أنتُم بأسمعِ لما أقولُ منهم. قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قولَهُ، توبيخاً، وتصغيراً، ونقيمة، وحسرة، وندماً [البخاري ومسلم من حديث أنس عن أبي طلحة].

الله أخّرهم... ماتوا حتفَ أنوفهم، ماتوا كالجيف، أما أصحابه الكرام فقد تألَّقوا كالنجوم.

فنحن نذكر اسم سيدنا عمر مئات المرات، ونترضى عنه كلَّ يوم وكلَّ ساعة، وفي كلِّ مسجد، وفي كلِّ بلد إسلامي... استحقَّ ثناء الخالق والمخلوقين، على حين أنَّ هناك من استحقَّ لعنة الله والملائكة والناس أجمعين كأبي جهل وأمثاله.

المؤخِّر في حقِّ الله تعالى هو الذي يؤخِّر المشركين، ويرفع المؤمنين، يؤخِّر العصاة، ويرفع الطائعين.

روى ابن المبارك قال: حدثنا جرير بن حازم قال: سمعت الحسن يحدث، يقول: حضر الناس باب عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفيهم سهيل بن عمرو وأبو سفيان ابن حرب وأولئك الشيوخ من قريش، فخرج آذِنُه فجعل يأذن لأهل بدر: لصهيب وبلال وعمار وأهل بدر وكان يحبهم، وكان قد أوصى بهم، فقال أبو سفيان: ما رأيت كاليوم قط، إنه ليؤذَن لهؤلاء العبيد ونحن جلوس لا يلتفت إلينا! فقال سهيل بن عمرو: -قال الحسن: ويا له من رجل ما كان أعقله- أيها القوم إني والله قد أرى الذي في وجوهكم، فإن كنتم غضاباً فاغضبوا على أنفسكم، دُعي القوم ودُعيتم، فأسرعوا وأبطأتم، أمَا والله لما سبقوكم به من الفضل أشدُّ عليكم فوتاً من بابكم هذا الذي تتنافسون فيه، ثم قال: أيُّها القوم إنَّ هؤلاء القوم قد سبقوكم بما ترون ولا سبيل لكم -والله- إلى ما سبقوكم إليه! فانظروا هذا الجهاد فالزموه عسى الله عز وجل أن يرزقكم شهادة.

قال الحسن: فصدق والله! لا يجعل الله عبداً له أسرع إليه كعبد أبطأ عنه [المستدرك للحاكم].

الله قدَّم بلالاً وصهيباً وأخّر أبا سفيان... أسلم متأخراً ورضي الله عنه، ولكن ليسوا سواءً، فمن خاض ضدَّ رسول الله المعارك أكثر من عشرين سنة ثم بعد ذلك أسلم، كَمَنْ قام بنصره منذ البداية؟! فهناك فرقٌ كبير جداً بينهما، ولكلٍّ حسابه.

إذاً... يؤخِّر المشركين، ويقدِّم المؤمنين، ويؤخِّر العصاة ويقدِّم الطائعين.

ومن معاني المؤخِّر أنَّه يؤخِّر العقوبة لحكمةٍ بالغة، قد يكون إنسانٌ مرتكباً لمعصية، ومتلبساً بها ولكن في علم الله فيه خير، لو أنَّ الله عاقبه بمعصيته لأهلكه، فالله عز وجل يعلم حقيقة نفسه فيؤخِّر عنه العقوبة فلعله يتوب، فيكون التأخير منه سبحانه لحكمةٍ بالغة.

مصائب المنحرفين، والعصاة، نوعان... مصائب قصمٍ، ومصائب ردع، القصم كما قال الله عز وجل عن قوم نوح: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [هود:٣٦].

هناك أشخاصٌ في علم الله لا يهتدون، لذلك يقصمهم الله عز وجل، أشخاص فيهم بقية خير، فالله عز وجل يسوق لهم بعض الشدائد ليرجعهم لكن لا يقصمهم، فالله يقدِّم هلاك إنسان ويؤخِّر هلاك إنسان، لذلك أخَّر فَتْحَ مكة قال الله عز وجل: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الفتح:٢٥].

أناس مؤمنون ضعفاء خافوا أن يُعلنوا إيمانهم في مكة، فالله عز وجل أخّر فتح مكة ومنع الصحابة الكرام من قتال أهل مكة إكراماً لهؤلاء.

والله تعالى يقدِّم العقوبة أو يؤخِّرها، يقدِّم المكافأة أو يؤخِّرها.

أحياناً قد يقدِّم الله المكافأة لإنسان، فيرتاح ويقعد ويتوانى ويتكاسل، وأحياناً يؤخِّر الله لإنسان المكافأة فييأس... ولحكمةٍ أرادها الله يقدِّم المكافأة أو يؤخِّرها، يقدِّم العقاب أو يؤخِّره... فمن أسمائه المقدِّم والمؤخِّر.

والآية التي تؤكِّد تأخير العقاب هي قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النحل:٦١].

كل شيء خلقه الله تعالى فهو الكمال المطلق، وأيُّ عدول عن فطرة الخالق سيكون نحو الأسوأ، وفي الحديث أنَّ رسول الله ﷺ: «رأى في أصحابه تأخُرا، فقال لهم: تقدَّمُوا فأتمُّوا بي، وليأتَمَّ بكم مَنْ بَعْدَكم، ولا يزالُ قومٌ يتأخرُونَ حتى يؤخِّرُهم الله» [مسلم عن أبي سعيد الخدري].

هو المؤخر حينما تأخّرت، فتأخير الله هو تجسيد لرغبتك في التأخر.

فالتأخير هنا تأخير جزائيّ مبنيٌّ على تأخُّر اختياري.

نصيب المؤمن من اسم الله المؤخر

قال العلماء: متى أشرق في قلبك نور اسمه المؤخِّر، صرت في كلِّ الأمور متدبِّراً فتؤخِّر كلَّ ما أخَّره الله.

فالله يقدِّم ويؤخِّر... وأنت أيُّها المؤمن من لوازم تأدُّبك مع اسم المؤخِّر أن تقدِّم أهل الإيمان، وأن تؤخِّر أهل الدنيا، فإذا دعي الإنسان العادي من قبل إنسانٍ غنيٍّ تراه يلبّي الدعوة مئة في المئة، أمَّا إذا دُعي من قِبَل إنسان فقير يسكن في أطراف المدينة فإنَّه يعتذر متعلِّلاً بعمله وانشغاله وبعدم فراغه وأنه محمي عن الطعام... تلبية دعوة الأغنياء والأقوياء من الدنيا، وتلبية دعوة المؤمنين من الآخرة، قال ﷺ: «لو دُعِيتُ إلى كُراعٍ لأجَبْتُ، ولو أُهديَ إليَّ كُراعٌ لقَبِلتُ» [البخاري، من حديث أبي هريرة].

والنبي ﷺ بهذه المناسبة حضَّنا على تلبية الدعوة فقال: «فمن لم يأتِ الدَّعوة فقد عصى الله ورسوله» [رواه مسلم، من حديث أبي هريرة].

وروي أيضاً:

عَنْ نَافِعٍ قَالَ: قَالَ عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ: قَالَ رَسولُ الله ﷺ: «مَنْ دُعِيَ فَلَمْ يُجِبْ فَقَدْ عَصَى اللهَ وَرَسُولَهُ، وَمَنْ دَخَلَ عَلَى غَيْرِ دَعْوَةٍ دَخَلَ سَارِقاً وخَرَجَ مُغِيراً» [سنن أبي داود، من حديث عبدالله بن عمر].

دُعي أحد الصحابة ذات مرَّة إلى وليمة فقال: إني صائم، فقيل له: اذهب معنا، وصلِّ وقت طعامنا، وقال ﷺ: «إذا دُعي أحدكم إلى طعام، وهو صائم، فليقل: إني صائم» وفي رواية قال: «إذا دعي أحدكم فليجب، فإن كان صائماً فليُصَلِّ، وإن كان مفطراً فليطعم» [رواه مسلم، من حديث أبي هريرة].

معنى ذلك أنّه ليس القصد من الدعوة أن تملأ البطن، القصد من الدعوة أن تلتقي بإخوانك، أن تجتمع إليهم، أن تذْكُر الله معهم، يعني أنك لو كنت صائماً فلبِّ الدعوة وإن لم تأكل شيئاً، فإذا كان الهدف الأكل فليس للدعوة أيّة قيمة في أن يلبي صائمٌ الدعوة، وأما إذا كان الهدف اللقاءَ مع إخوانك وأن تتذاكر معهم أمور الدين فالأكل أصبح شيئاً ثانوياً، فإذا كنت صائماً فلبِّ الدعوة واجتمع إليهم وادعُ وقت الطعام.

عن أبي سعيد الخدري قال: صنعت لرسول الله ﷺ طعاماً فأتاني هو وأصحابه فلما وُضع الطعام، قال رجل من القوم: إني صائم فقال رسول الله ﷺ: «دعاكم أخوكم وتكلف لكم» ثم قال له: «أفطر وصم مكانه يوماً إن شئت» [البيهقي في السنن الكبرى بإسناد حسن].

إذاً المؤمن يقدم أهل الإيمان ودعوة أهل الإيمان.

سرّني أن أحد الأشخاص وصل إلى منصب رفيع جداً، وزاره أستاذه وهو رجل علم ودين، فنزل من الطابق الثالث وفتح له باب السيارة وبالغ في توقيره أمام الناس، وإن من إجلال الله إجلال ذي الشيبة المسلم.

فأنت عندما تقدِّم أهل الإيمان تنعشهم، ألم يقل رسول الله ﷺ: «إن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم، رضاً بما يصنع» [ابن حبان في صحيحه، من حديث صفوان بن عسال]، أنت عندما تتخلَّق بكمالات الله، تقدِّم المؤمن وتجله، وإذا وجدت فاسقاً أو فاجراً تؤخِّره، تأخيرك إياه له معنى ردع له وتحجيم لحاله، أما أكثر الناس فيعظمون أهل الدنيا، ويثنون عليهم.

ولقد سمعنا عن أدباء في بلدٍ عربيٍّ مسلم من خلال كتاباتهم أنهم كانوا زُناة في أوروبا، والآن يوصف بأنه الأديب الكبير، المسرحي الكبير، فهذا إنسان غير ملتزم بقيم دينه، مقترف لأكبر المعاصي، فأنت أيها المؤمن عليك أن تتخلق بكمالات الله، أن تقدم المؤمنين، أن تقدم الورعين، أن تقدم الأتقياء، وأن تؤخر أهل الدنيا العصاة، الفساق، لأن الله عز وجل كما روي عن رسول الله ﷺ يغضب إذا مُدح الفاسق في الأرض [البيهقي في شعب الإيمان، من حديث أنس].

أي إذا مدحت فاسقاً فإنك قلبت الأمور رأساً على عقب، ابنك يعرفه مثلاً منحرفاً، يعرف بيته متفلتاً، وأنت تثني عليه أمام ابنك، وابنك في الصف السابع... تقول عنه: ما شاء الله فهم وذكاء ولباقة وعلم وأدب وأسرة راقية ونسب مع أنه لا يصلي، سلوكه منحرف وكلامه أحياناً بذيء، والابن يراه أمامه، فهذا المديح لأشخاص ينبغي أن يؤخَّروا استهتار منك وهدر للقيم، يجب أن تقدم أهل الإيمان، وكلُّ إنسان يقدِّم أهل العلم وأهل الإيمان، يكون ذا إيمان قوي، وإذا وَجَدَ إنساناً عاصياً ومنحرفاً وفاجراً أخّره.

لذلك من السنّة ألا تحترم المبتدع، فالإنسان المبتدع عقيدته فاسدة، ويروِّج فكراً منحرفاً، ويروّج ضلالات. تحترمه وتعظمه وتبجله وتثني عليه؟ أنت أحدثت في الناس فتنة وبلبلت الأمور، فإن الله ليغضب إذا مُدح الفاسق.

من تطبيقات هذا الاسم: يجب أن تقدم المستقيم المؤمن الورع، فإذا كانت قيمنا مادية، نقدم الأغنياء، ونقدم الأقوياء، أما إذا كانت قيمنا إسلامية نقدم أهل العلم، نقدم أهل الفضل، نقدم الورعين، الطائعين.

عَنْ عائِشَةَ أَنَّ قُرَيْشاً أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا: مَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ الله ﷺ؟ فَقَالُوا: ومَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إلا أُسَامَةُ حِبُّ رَسُولِ الله ﷺ؟! فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَتَشْفَعُ في حَدٍّ مِنْ حُدُودِ الله» ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ فَقَالَ: «أَيُّها النَّاسُ إِنَّما أَهْلَكَ الذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إذا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ،

وَإذا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعيفُ أقامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ، وَايْمُ الله لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَها» [صحيح البخاري].

هذا هو ديننا، لو أن فاطمة بنت محمدٍ سرقت لقطعت يدها.

لذلك فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم... فالنبي ﷺ روي عنه: «اللهمَّ! لا تجعل لفاجر عندي نعمة أكافيه بها في الدنيا والآخرة» [أخرجه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، من حديث معاذ بن جبل].

لا تخضع لكافر، لا تقبل منه عطاء أو نحوه كأن يقوم بإيصالك بمركبته ويستعلي عليك، فأنت عزيز، أما إذا كان مؤمناً فلا مانع من ذلك، لكن إذا كان إنساناً منحرفاً ومتفلِّتاً يمنّ عليك ويتفضَّل عليك أن تقبل عطاءه؟ فلا تقبل منه شيئاً.

قال العلماء: من أدب المؤمن مع اسم المؤخِّر... أن يؤخر حظوظ نفسه، وأن يؤخر نزواتها، أن يؤخر أهواءَها. قال عبد الرحيم البرعي:

لا تتبــــع الـــــنفس هواهـــــا إن اتبـــــاع الهــــــوى هـــــوان
واخجلتـــــي مـــــن عتـــــاب ربي إنْ قـــــال لي أسرفـــت يـــــا فـــلان
إلى متـــــى أنـــــت في المعـــــاصي تســـير مرخــــى لــــك العنــــان
عنـــدي لـــك الصـــلح وهـــو بـــرِّي وعنـــــدك الســـــيف والســـــنان
تــــرضى بــــأن تنقـــضي الليـــالي ومـــا انقضـــت حربـــك العـــوان

يجب أن تؤخر حظوظ النفس، وقد ذكرت كثيراً: ضع حظوظ نفسك تحت قدميك، إذا كنت تحب الله ورسوله.

قال أبو مريم السلولي لسيدنا عمر: أتحبني؟ فقال له: لا والله لا أحبك حتى تحب الأرض الدم. فقال له: وهل يمنعك بغضك لي من أن تعطيني حقي؟ قال له: لا والله، قال: فلا ضير إذاً. إذن هو يعطي الحق لأصحابه؟

الإنسان يوم القيامة يُنبّأ بما قدم وأخر... مثلاً استحق على هذا الإنسان زكاة ماله وبيته يحتاج إلى طلاء، فإذا قدم أداء زكاة ماله فهو مؤمن، أما إذا قدم طلاء بيته على أداء زكاة ماله، فقد أخّر ما ينبغي أن يقدّمه، وقدّم ما ينبغي أن يؤخّره... يُنبأ الإنسان يومئذٍ بما قدّم وأخَّر.

بعض الناس قد يقدِّم مصالحه الشخصية على دينه، ويقدِّم دخلاً مشبوهاً على نزاهته، يقدِّم شيئاً ينفعه في دنياه لكن يغضب ربه، ينبأ الإنسان يومئذٍ بما قدَّم وأخَّر.

قد يقدِّم شهوته على طاعة ربه، يُقْدِم على كسب مال غير مشروع ويقدِّمه على طاعة ربِّه، وكل إنسان يوم القيامة يُنبّأ بما قدَّم وأخَّر، هذا قدَّمته وهذا أخَّرته، هذا فضَّلته وهذا أهملته، هذا أعطيته وهذا منعته، هذه الشهوة فعلتها خلاف منهج الله، وهذه الطاعة تركتها خلاف منهج الله، فقد قال تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ (١٥)﴾ [القيامة:١٣-١٥].

قال الله عز وجل: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء:٣٤].

فإذا قدَّم الله الرجال في قيادة الأسرة، وجعلهم قوامين على النساء، فأيُّ إنسان يقدِّم المرأة في القوامة فقد قدَّم ما أخره الله، وأيُّ إنسان يؤخِّر الرجل في القوامة فقد أخَّر ما قدَّمه الله، فالمؤمن يقدِّم ما قدَّمه الله، ويؤخِّر ما أخره الله.

وفي آية ثانية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢)﴾ [الحجرات:٢].

هذه الآية في حياة النبي لها معنىً معين، لكن بعد انتقال النبي إلى الرفيق الأعلى فهناك معنى آخر، أنت حينما ترفع صوتك فوق صوت السنة، وترى أن هذه السنة لا تصلح لهذه الأيام، هذه السنة تصلح لعصر الصحراء والجمل، لا تصلح لعصر

الحواسيب والفضائيات، حينما تتهم السنة أنها لا تلبي حاجات العصر فقد رفعت صوتك فوق صوت النبي، إذا قدَّمت شيئاً لا يرضي الله على سنة رسول الله، قدَّمت ما أخَّره الله.

ينبغي للمؤمن باسم المؤخِّر أن يحذر من تقديم ما أخَّره الله، ولو اجتمع الخلق على تقديمه، فهل من المعقول أنَّ مصمم أزياء كافراً، يصمِّم أزياء فاضحة لنساء المسلمين، ونحن خاضعون لهذا المصمّم، قدّمنا إنساناً لا وزن له عند الله ورجحت مكانته على شرع الله القاضي بالتستر.

المؤمن يقدِّم ما حقُّه التقديم، ويؤخِّر ما حقُّه التأخير، والمؤمن يتخذ مقاييس متوافقة مع مقاييس القرآن.

رجل أعرفه زكاة ماله تقدَّر بعشرة آلاف وأربعمئة و خمسين ليرة، ضغطت عليه زوجته من أجل طلاء البيت، وتجديده، وعليه زكاة يجب أن يؤديها، فقدَّم طلاء البيت على دفع زكاة ماله، له مركبة، صار معه حادث، يقسم لي بالله: كلفة إصلاح المركبة وطلائها، وثمن القطع قدِّر بعشرة آلاف وأربعمئة و خمسين ليرة بالضبط، هو قدَّم طلاء البيت استجابة لضغط زوجته على أداء الزكاة وهي فرض فعاقبه الله عز وجل بحادث، دفع هذا المبلغ الذي يساوي الزكاة تماماً على إصلاح مركبته ديناً.

فلذلك إذا قدم الإنسان ما حقه التأخير أو أخّر ما حقُّه التقديم فإنّ الله تعالى يؤدبه إذا كان مؤمناً، فالبطولة أن تقدم ما قدمه الله، وأن تؤخر ما أخره الله، وأن ترعى حق الله وحق الناس، وأن تأتي مقاييسك متوافقة مع مقاييس القرآن الكريم، عندئذٍ تكون قد استفدت من اسمي المقدّم و المؤخِّر.

من أدعية النبي ﷺ أنه كان يدعو ويقول:

«رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وإِسْرَافِي فِي أَمْرِي كُلِّهِ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللهمَّ اغْفِرْ لِي خَطَايَايَ، وعَمْدِي وجَهْلِي وهَزْلِي، وكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي، اللهمَّ اغْفِرْ لِي مَا

قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ، وأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، وأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» [صحيح البخاري من حديث أبي موسى الأشعري].

قدِّم كل ما يُرضي الله وأخِّر شهوتك وكل ما لا يُرضي الله، تكن من أسعد الناس في الدنيا والآخرة.

المُسعِّر

ورد هذا الاسم في حديث صحيح في سنن الترمذي عَنْ أَنَسٍ قَالَ:

«غَلَا السِّعْرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله، سَعِّرْ لَنَا، فَقَالَ: إِنَّ الله هُوَ الْمُسَعِّر الْقَابِضُ الْبَاسِطُ الرَّزَّاقُ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ الْقَى رَبِّي وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَطْلُبُنِي بِمَظْلِمَةٍ فِي دَمٍ وَلَا مَالٍ».

من معاني اسم الله المسعر

الْمُسَعِّر اسم فاعل، من فعل رباعي، سعَّر يسعِّر فهو مسعِّر.

ويقال: سعّر يسعِّر تسعيراً وتسعيرة، أي وضع سعراً محدداً لهذه السلعة، وقولك: سعّر النار؛ أي أشعلها، والآية الكريمة: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ۝٩٧﴾ [الإسراء:٩٧].

﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢﴾ [التكوير:١٢].

والمُسَعِّر هو سبحانه وتعالى، لأنه يزيد الشيء، ويرفع من قيمته، أو من تأثيره، أو من مكانته، أو يخفض من قيمته أو تأثيره أو مكانته، يقول الله عز وجل: ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ ﴾ [الفتح:١٣].

اسم المُسَعِّر يدلُّ على ذات الله، وعلى صفة التسعير، يقول أبو هريرة رضي الله عنه: حدثني رسول الله ﷺ أن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم وكلُّ أمة جاثية، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن ورجل يقتتل في سبيل الله ورجل كثير المال، فيقول الله للقارئ ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي قال بلى يا رب قال فماذا عملت فيما علمت قال

كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار فيقول الله له كذبت وتقول له الملائكة كذبت ويقول الله بل أردت أن يقال إن فلانا قارئ فقد قيل ذاك، ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد قال بلى يا رب قال فماذا عملت فيما آتيتك قال

كنت أصل الرحم وأتصدق فيقول الله له كذبت وتقول له الملائكة كذبت ويقول الله تعالى بل أردت أن يقال فلان جواد فقد قيل ذاك

ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله فيقول الله له في ماذا قتلت فيقول أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قتلت فيقول الله تعالى له كذبت وتقول له الملائكة كذبت ويقول الله بل أردت أن يقال فلان جريء فقد قيل ذاك ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي فقال يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة [أخرجه مسلم والترمذي والنسائي عن أبي هريرة] .

العلم ما أفضى بك إلى قانون، والقانون هو علاقة ثابتة بين متغيرين، مقطوع بصحتها، تطابق الواقع، عليها دليل، فإن لم تطابق الواقع كان الجهل، وإن لم يكن عليها دليل كان التقليد، وإن لم يكن مقطوعاً بصحَّتها كان الوهم والشّكُّ والظَّنُّ.

فالعلم يقينيٌّ، شموليٌّ، مطّرد.

إذاً: في الكون قوانين كثيرة، وهذه القوانين ثبَّتها الله عز وجل، كي تستقرَّ حياتنا، ألوف القوانين، الفيزيائية، والكيميائية، والفلكية، وخصائص المواد، ثابتة من آدم إلى يوم القيامة.

مثلاً: يمكن أن تقول: في عام ٢٧٠٠ - في يوم ٢٨ شباط تشرق الشمس في الرابعة والنصف، لأن دورة الأفلاك ثابتة، بالثواني، الحديد له خصائص، أنشأنا بناء من مئة طابق، لو أنَّ الحديد يغيِّر خصائصه لانهار البناء، تشتري سبيكة ذهبية بمبلغ كبير جداً، لو أنَّ الذهب يغير خصائصه لفقدت هذه السبيكة قيمتها.

هناك نِعم لا تُعدُّ ولا تُحصى، قوانين ثابتة، تزرع فاكهة معينة، ثم تأتي الثمرة من هذه الفاكهة، لأن قوانين الإنبات ثابتة، وقوانين الأفلاك ثابتة، وقوانين الدوران ثابتة، وقوانين الليل والنهار ثابتة، وخصائص المواد ثابتة، وقوانين الزراعة ثابتة، هذه نعمة لا تعدلها نعمة، فكل هذه القوانين ثابتة مطّردة، شاملة، لا تتغير، ولا تتبدل، وهي محل اتفاق في العالم كلِّه، فقانون التمدد لا علاقة له بالسياسة، في الشرق، والغرب، والشمال، والجنوب، وقديماً وحديثاً، في بلد متخلف، وفي بلد متقدم، القانون هو القانون، هناك نِعم لا تعد ولا تحصى منها ثبات القوانين لتكون حياتنا مستقرة.

ولكن لحكمة بالغة حرَّك الله بعض القوانين، من هذه القوانين الرزق، هذا قانون متبدِّل، وكذلك الصحة، والإنسان حريص على صحته حرصاً لا حدود له، وحريص على رزقه حرصاً لا حدود له، ولعل الحكمة من ذلك أنَّ الله عز وجل يريد أن يكون الرزق والصحة وسيلتين من وسائل التربية.

الطاولة مثلا صنعت لاستخدام لا يزيد على بضع مئات من الغرامات، لكن يمكن أن يقف عليها ستة أشخاص، معنى ذلك أن فيها ألف ضعف احتياطيّ عن استعمالها، إذاً يمكن أن تعيش مئات السنين كما هي، لأنه فيها احتياطًا على مهماتها ألف ضعف.

كان من الممكن أن يكون لكلِّ جهاز في جسمنا، ولكلِّ عضو ألف ضعف احتياطاً، فلا مرض، والإنسان بالتعبير المعاصر سريع العطب، خثرة في الدماغ تنهي حياته، أو سكتة قلبية، فكان من الممكن لإنسان أن يعيش مليون سنة كما هو شاب تماماً، لكن شاءت حكمة الله أن يكون المرض، والصحة متبدلة.

بالتعبير الاقتصادي: الكمُّ له علاقة بالسِّعر، فأحيانا تكون كميات المحاصيل كبيرة جدّاً، فينخفض السعر، وأحيانا يكون الكمُّ قليلا، فيرتفع السعر، إذاً الله تعالى هو المسعِّر.

فالله عز وجل ثبَّت أشياء كثيرة، وحرَّك بعض الأشياء، من أجل أن يربينا، لأنَّ الإنسان في الأصل خُلِقَ هلوعاً، وهذا ضعف في أصل خلقه، وهو ضعف لصالحه، من أجل تربيته، لو لم يكن الإنسان هلوعاً لما تاب بعد شدّة، ولما اصطلح مع الله بعد عسر، لأن العسر يقلقه، والشدة تقلقه، والخوف يقلقه، قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المعارج:١٩-٢٢].

الإنسان أحياناً يسعد بصحته، فإذا لاح له شبح مرض لجأ إلى الله، وهذا من فضل الله علينا.

وخلق ضعيفاً ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [النساء:٢٨].

لأنه إذا كان ضعيفاً افتقر في ضعفه، فسعد بافتقاره، ولو خلقه الله قوياً لاستغنى بقوته فشقي باستغنائه.

أحياناً يكون الإنسان قويًا، وغنيا، يتوهم أنه مستغنٍ عن الله، وكلُّ إنسان يعتدّ بحجمه المالي، أو بصحته، أو بمكانته، أو بقوَّته، أو بمنصبه، لحكمة بالغةٍ يؤتى الحذر من مأمَنه، من جهة أمنه، من جهة ثقته، من جهته قوته، وقد قيل: عرفت الله من نقض العزائم.

الله تعالى هو المُسَعِّر بيده الرزق، الأمطار بيده، زرت بلدا في إفريقيا فوجدت أنَّ ما يهطل من أمطار في الليلة الواحدة يساوي أمطار دمشق في عامين، وفي أماكن أخرى فيضانات مهلكة، وفي أماكن الريح مدمِّرة.

بالتعبير المستخدم حديثاً: الخيارات التي عند الله لا تعد ولا تحصى، الشيء الثمين جداً الذي هو قوام الحياة كالهواء يغدو مدمراً، والماء مدمر، فقلّته مدمرة، وكثرته مدمرة، بحكمة حكيم، وقدرة قدير، وعلم عليم.

ما من نشاط يمارسه الإنسان أوسع من نشاط البيع والشراء، فالبيع والشراء أوسع نشاط بشري، أنت مضطر أن تشتري طعامك وشرابك، وأن تشتري لباسك، وحاجاتك، وأجهزتك، فالبيع والشراء عمل مستمر يومي، وأخطر ما في البيع والشراء السِّعر.

لذلك كان سيدنا عمر رضي الله عنه يسأل الولاة: كيف الأسعار عندكم؟ لأن رحمة الله تتجلى في الأسعار، وقد تجد كلَّ شيء متوفِّرا، لكنَّ الأسعار فوق طاقة المشتري.

والنّبيّ ﷺ لم يسعِّر لئلا يظلم البائع، فأحيانا يكون السعر أقلَّ من الكلفة، فإذا باع الحاجة بسعر أعلى من الكلفة قليلاً فلأنه تحت سيف القانون، وأحيانا التسعير ظالم، وأحياناً يكون الاستيراد ممنوعاً، ولو سُمح باستيراد السلعة لعاد إلى السعر الطبيعي، إلى القانون الذي يسمونه قانون العرض والطلب.

في الإسلام مئات الأحاديث التي تمنع الغش، والاحتكار، والإيهام، والتدليس، ومعاصي البيع والشراء لا تُعدُّ ولا تُحصى، لو أننا تلافيناها جميعاً، واستقمنا على أمر الله جميعاً لفوجئنا أنَّ السعر أصبح معتدلاً في كلِّ شيء، لأنَّ السعر بيد الله، بحسب الكمِّ وبحسب الحاجة، الكمُّ والحاجة يتداخلان، ويتفاعلان فيشكلان السعر، وهناك مواد كثيرة كان ممنوعاً استيرادها فبلغت سعراً خياليّاً، فلما سُمح باستيرادها أخذت سعراً طبيعياً جداً، وهو سعر السوق كما يسمونه، ففي السوق عرض وطلب، أما إذا منعت شيئاً، أو احتكرته، أو أوهمت الناس بشيء، أو دلست عليهم فالسعر يغلو عندئذٍ.

فالإسلام حرص حرصاً شديداً على أن يبتعد المسلم عن كلِّ المعاصي في البيع والشراء، فإذا ابتعد كان السعر طبيعياً، ولا يحتاج إلى تسعير.

إن الدراسة المطولة حول هذا الموضوع تؤكِّد أنَّ وليَّ أمر المسلمين في مناسبات معينة، في أيام الشدة، في أيام الحروب، من حقه أن يسعِّر، حفاظاً على مصالح المسلمين، هذا الاستثناء لا يلغي القانون، القانون أن الله هو المُسَعِّر، لكن أحياناً تكون أزمات اقتصادية طاحنة، وهناك مخزون كبير جداً من هذه البضاعة، لكنه رهن الاحتكار وعدم البيع، وهذه معصية كبيرة.

من منَّا يصدِّق أنَّ المشتري أحيانا يعدُّ محتكِراً، فهناك سلعة مثلاً لها إنتاج معين، فأنت حين تشتري الحاجة الطبيعية لك فسعرها معتدل، وحين يكون هناك قلق، وتشتري خمسة أضعاف حاجتك، فالمشتري هو المحتكر، لأنه ساهم بفقد البضاعة، وبرفع سعرها.

الوعي الاقتصادي مهم جداً، في الأزمات إذا أقبل الناس على شراء سلعة معينة يرتفع سعرها، إلى درجة جنونية.

الأصل أنَّ الله هو المُسَعِّر بشرط أن يُنفى الاحتكار، أن يُنفى التدليس والغش، والإيهام، وهناك مئات المعاصي التي نصَّ عليها النبي ﷺ في البيع والشراء، مثل تلقِّي الركبان، يخرج الإنسان إلى ظاهر المدينة يتلقى مَن يحملون بضاعة إلى المدينة، هم لا يعلمون السعر، يوهمونهم بسعر معين، فيبيعون، ويعودون إلى بلدتهم، لكنهم اشتروا البضاعة بنصف قيمتها، لذلك تلقي الركبان منهي عنه، الإيهام منهي عنه، التدليس منهي عنه، الاحتكار منهي عنه، الغش منهي عنه، فإذا تلافينا كلَّ هذه المعاصي في البيع والشراء فوجئنا أنَّ السعر طبيعي، سعر أساسه العرض والطلب، أساسه الكمية، والحاجة.

قد يأتي صقيع فيتلف محاصيل مخيفة بالمليارات، والصقيع إذا استمر ستَّ ثوانٍ بدرجة معينة قد يُتلف المحصول كلَّه، وتسودّ الثمار كلُّها، قال تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ (٢٠)﴾ [القلم:١٩-٢٠].

ويقول تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن:١٦-١٧].

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:٩٦].

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة:٦٦].

أما المعاصي فتؤدي إلى الجفاف، وكلما قلَّ ماءُ الحياء قلَّ ماء السماء، وكلما رخص لحم النساء غلا لحم الضأن، وكلما اتسعت الصحون على السطوح ضاقت صحون المائدة، الرّزق كما قال عنه النبي ﷺ في حديث ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَا يَزِيدُ فِي العُمْرِ إِلَّا البِرُّ، وَلَا يَرُدُّ القَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ» [ابن ماجه].

قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا﴾ [طه:١٣٢].

بيت تُؤدَّى فيه الصلوات الخمس، بيت فيه معالم الإيمان، يُتلى فيه القرآن هو بيت مرزوق، ومحل تجاري ليس فيه معاص ولا آثام، فيه غض بصر، فيه ضبط لسان، هذا المحل التجاري مرزوق، والرزق متعلق بالاستقامة.

الله هو المُسَعِّر، وإذا أعطى أدهش، وإذا حاسب فتش، والخيارات التي بيد الله عز وجل لا تعدُّ ولا تحصى.

الله عز وجل له فعل تكويني، وأمر تكليفي، وهو المسعِّر بفعل تكويني: الأمطار بيده، الإنتاج بيده.

شحت الأمطار في دمشق إلى درجة حتى إن الخبراء في حوض دمشق قالوا: دمشق مقدِمة على جفاف، والله حدثني طبيب عضو في هذه اللجنة، قال لي: يمكن أن

يموت النبات كلُّه، في العام القادم نزلت أمطار لم ينزل مثلها من خمسين عامًا، فتفجرت ينابيع كثيرة قد جفّت من عشرين سنة.

لا يمكن أن يكون تقليل الله تقليل عجز، نحن أحياناً نقلل الكهرباء، تقليل عجز، المولدات معطلة، هناك نقص في الطاقة الكهربائية، لكن خالق الأكوان حينما يقلل، فهو تقليل تأديب فقط، لقول تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحجر:٢١].

النقص في المياه تأديب، الفيضانات تأديب، نقص الرياح تأديب، اشتداد الرياح تأديب، فالعبرة أن نستفيد مما يحصل، لأنه من لم تحدث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه أكبر.

فالله عز وجل له فعل تكويني في التسعير، وله فعل تكليفي، إذ منعك من الغش، منعك من الاحتكار، منعك من التدليس، منعك من الكذب بالبيع والشراء.

أمّا إذا كان الناس في رخاء وفي بحبوحة، والمواد موفورة، والناس في غنى، وسعَّر ولي الأمر أسعارا متدنيّة فهذا يعيق الناس عن أرباحهم، وهذا ظلم، من هنا تبين أن النبي ﷺ رفض أن يسعِّر، لما قيل له: «يَا رَسُولَ الله، سَعِّرْ لَنَا، فَقَالَ: إِنَّ الله هُوَ الْمُسَعِّرُ» .

حينما يكون البائع جشعاً، ويريد أن يربح أرباحاً طائلة، ويحتكر المواد، ويقلل على الناس بغية ارتفاع الأسعار، ومضاعفة الأرباح، حينئذٍ يتدخل ولي الأمر لرحمة الناس، ولتوفير المواد فيسعِّر.

إذاً: التسعير الذي يؤدّي إلى الظلم حرَّمه النبي ﷺ، أمّا التدبير الحكيم الذي يؤدي إلى إيصال المواد إلى المستهلك الفقير بغية أن تقوم حياته على شكل معقول فقد أقرَّه الفقهاء استثناء من هذا الحديث.

فقد ذهب جمهور الفقهاء إلى حرمة التسعير في الأحوال العادية استناداً على الأدلة السابقة، وذهب الحنفية وبعض المالكية ووافقهم ابن القيم وابن تيمية إلى جواز التسعير في حالات غلاء الأسعار وفي الحالات الاستثنائية الطارئة

نصيب المؤمن من اسم الله المسعر

يقول الله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠].

وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله سعِّر، فقال: بل أدعو [أخرجه أبو داود عن أبي هريرة].

وكان الرجل إذا أسلم علَّمه النبي الصَّلاة، ثم أمره أن يدعو بهؤلاء الكلمات: «اللهمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي وَاهْدِنِي وَعَافِنِي وَارْزُقْنِي» [مسلم عن أبي مالك الأشجعي عن أبيه].

فكلُّ دعاء بالرزق إنّما هو دعاء باسم المُسَعِّر، كأن تقول: اللهم ارزقني.

والنبي ﷺ كان يدعو فيقول: «اللهمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يَنْفَعُنِي حُبُّهُ عِنْدَكَ، اللهمَّ مَا رَزَقْتَنِي مِمَّا أُحِبُّ، فَاجْعَلْهُ قُوَّةً لِي فِيمَا تُحِبُّ اللهمَّ، وَمَا زَوَيْتَ عَنِّي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ فَرَاغًا لِي فِيمَا تُحِبُّ».

ومن عرف أنّ الله تعالى هو المسعِّر اختار مهنة شريفة، فالرزق من الله، وقد فرق العلماء بين الكسب والرزق، فالرزق ما انتفعت به فقط، كالثوب الذي تلبسه، والطعام الذي تأكله، والسرير الذي تنام عليه، أما حجمك المالي فهو كسبك، الكسب مال جمعته، ولم تنتفع به، بل ستُسْأل عنه يوم القيامة، من أين اكتسبته؟ وفيمَ أنفقته؟

وحينما يصح دخلك يستقيم الطريق إلى الله عز وجل، لأن تسعة أعشار المعاصي في كسب الأموال والعلاقة بالنساء، ولو جمعنا الأحكام لوجدنا أن تسعة أعشارها متعلقة في موضوعين: موضوع كسب المال، وموضوع العلاقة بالنساء، لذلك أحكام الشريعة واسعة جداً في هذين الموضوعين.

ولا بد من تنويه إلى قضية وهي: أن الرزق الحلال صعب، وأن الرزق الحرام سهل، ولو عُكست الآية، لو أن الكسب الحلال سهل جداً، والكسب الحرام صعب جداً لأقبل جميع الناس على الحلال، لا طاعة لله، ولا حباً له، ولا ابتغاء مرضاته، ولكن طلباً للأسهل، لذلك شاءت حكمة الله أن يكون الرزق الحلال صعباً، والرزق الحرام سهلاً.

أحياناً يعمل إنسان عاماً بأكمله، يشتري بضاعة، يعرضها، يوزعها، يبيعها، بعضها نقداً، وبعضها ديناً، يجمع ثمنها، يدفع مصاريفها، يعين موظفين، في النهاية قد يربح وربما لا يربح، وأحياناً يغض الإنسان بصره عن مخالفة تؤذي المسلمين، فيأخذ الملايين رشوة مقابل ذلك، فالحرام سهل، أما الحلال فصعب، لذلك البطولة أن تكسب المال الحلال، ولو كان صعباً.

الدنيا مفعمة بالامتحانات، فقد يعرض على إنسان عمل بدخل كبير، لكن هذا العمل لا يرضي الله، قد يبنى على مضرة الآخرين، قد يُبنى على أخذ أموالهم بالباطل، فأي عمل قادك إلى معصية الله فهو خسارة لا تعدلها خسارة، وأي عمل مهما يكن دخله قليلاً إذا كان في مرضاة الله كان ربحاً كثيراً، لذلك كان الرجل إذا أسلم علّمه النبي ﷺ الصلاة، ثم أمره أن يدعو بهؤلاء الكلمات: «اللهمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي وَاهْدِنِي وَعَافِنِي وَارْزُقْنِي» [مسلم عن أبي مالك الأشجعي عن أبيه].

وفي كسب الرزق يقول ﷺ: «رَحِمَ اللهُ رجلاً سَمْحاً إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقْتَضَى» [أخرجه البخاري عن جابر بن عبد الله].

وفي الحديث الشريف: «التَّاجِرُ الأمينُ الصَّدُوقُ: مع النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقين والشُّهداء» [أخرجه الترمذي عن أبي سعيد الخدري].

لأن التاجر يحقق لك أكبر حاجة في حياتك؛ موادك الأولية، طعامك، شرابك، ثيابك، وأنت إنسان تحتاج مليون حاجة، فهذا الذي يقدمها لك بنوعية جيدة، وبسعر معتدل هو داعية إلى الله دون أن يشعر، لذلك أكبر قطر إسلامي في العالم إندونيسيا فتح

عن طريق التجار، لا سلاح، ولا حرب، ولا جيوش، تاجر صدوق أمين، فلا تستهن بهذه الحرفة، التي تلبي حاجات الناس.

من عرف الله المسعّر دعاه وطلب منه الرزق، والتاجر الذي يعرف أن الله هو المسعِّر يتقي الله في زبائنه ويوفِّر لهم البضاعة الجيدة بالسعر المعتدل ويتقرّب إلى الله بخدمتهم ومساعدتهم.

القابض

ورد هذا الاسم في السنة الصحيحة، يقول ﷺ: «إنَّ الله هو المُسَعِّرُ، القابضُ، الباسط، الرازق، وإني لأرجو أن ألقى اللهَ وليس أحدٌ منكم يُطَالبني بِمَظْلَمَةٍ في دَمٍ ولا مَالٍ» [أخرجه أبو داود والترمذي عن أنس بن مالك].

من معاني اسم الله القابض

القابض اسم فاعل، فعله قبض، يقبِض، والمصدر قبض، وقبضة، والقبض خلاف البسط، وهو في حقِّ الإنسان جمع الكفِّ على الشيء، وهو من أوصاف اليد وفعلها، والقبضة ما أخذتْ بجمع يدِك كلِّه، يمكن أن تملأ كفك بالقمح، فنسمي كمية القمح التي استوعبتها يدك قبضة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ [طه:٩٦].

وقد ورد عند مسلم من حديث إياس بن سلمة عن أبيه:

«غَزَوْنا مع رسولِ الله ﷺ حُنَيْنا، فلما وَاجَهْنَا العدوَّ تقدَّمْتُ فَأَعْلُو ثَنِيَّة، فاستقبلني رجل من العدوِّ، فأرميه بسهم، فتوارى عني، فما دَرَيْتُ ما أصنعُ؟ ونظرتُ

إلى القوم، فإذا هم قد طلعوا من ثنيَّة أخرى، فَالتَقَوا هم وأصحابُ النبي ﷺ، فولّى أصحابُ النبيِّ ﷺ، فأَرجعُ مُنْهَزِما وعليَّ بُردَتان، مُتَّزِر بإحداهما، مُرْتَد بالأُخرى، فاسْتَطْلَقَ إِزَاري، فجمعتُهُما جميعاً، ومَرَرْتُ على رسولِ الله ﷺ مُنهزِما، وهو على بغلته الشَّهباءِ، فقال: لقد رأى ابن الأكوع فَزَعا، فلما غَشُوا رسولَ الله ﷺ نزل عن بغلته، ثم قبض قَبْضَة من ترابِ الأرض، ثم استقبلَ به وجوهَهم، وقال: شاهَتِ الوجوه، فما خلق الله منهم إنسانا إلا مَلأ عينيه ترابا بتلك القبضة، فَوَّلوْا مُدبرين، فهزمهم الله عز وجل» [مسلم عن إياس بن سلمة عن أبيه].

والقبض يأتي بمعنى تأخير اليد، وعدم مدِّها، وفي الحديث الشَّريف: «أن امرأة مدت يدها إلى النبي ﷺ بكتاب فقبض يده، فقالت يا رسول الله مددت يدي إليك بكتاب فلم تأخذه، فقال: إني لم أدرِ أيد امرأة هي أو رجل» [النسائي عن عائشة].

فمصافحة الرجل للمرأة الأجنبية محرَّمة فقد ذهب الحنفية، والمالكية، والشافعية، والحنابلة، في الرواية المختارة إلى تحريمها، وقال الحنابلة: وسواء أكانت من وراء حائل كثوب أو نحوه أم لا، واستدلَّ الفقهاء على تحريم مصافحة المرأة الأجنبية بحديث عائشة رضي الله عنها قالت: «مَا مَسَّتْ يَدُ رسول اللهّ ﷺ يَدَ امْرَأَةٍ قَطُّ» [أخرجه مسلم عن عائشة].

والقبض: قبولُك المتاع، رأيتَ المتاع فتسلّمته، ولو لم تحوِّله إلى مكانه، صار تقابضاً، والقبض أيضاً تحوُّل المتاع إلى حرزك، أي إلى مستودعك، فالقبض قد يكون بالعين، رأى البضاعة، تفحَّصها بعينه، فقبضها، وقد يكون القبض بأن ينقلها إلى مستودعه، وصار الشيء في قبضتي، أي في ملكي، وقُبض المريض إذا توفي أو أشرف على الموت.

«أَرسلتْ بنتُ النبيِّ ﷺ إليه: إن ابناً لي قُبض، فائتنا» [البخاري عن أسامة بن زيد].

وقال تعالى في وصف المنافقين: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧].

أي يبخلون، أي يقبضونها عن النفقة والصدقة، فلا يؤتون الزكاة.

أما الله جلّ جلاله فهو القابض الذي يمسك الرزق وغيره من الأشياء عن العباد بلطفه وحكمته.

يقبض الأرواح عند الممات بأمره وقدرته، ويضيّق الأسباب على قوم، ويوسّع على آخرين ابتلاءً وامتحاناً، وقبضُه تعالى وإمساكُه وصفٌ حقيقيٌّ، لا نعلم كيفيته، يؤمَن به على ظاهره وحقيقته، لا نمثّل، ولا نكيِّف، ولا نعطِّل، ولا نحرِّف، فالإيمان بصفات الله فرع من الإيمان بذاته، والقول في صفاته كالقول في ذاته، لأننا ما رأينا الله تعالى وما رأينا لذاته مثيلاً، فهو أعلم بكيفية قبضه وبسطه، وإمساكه وأخذه، فنؤمن بما أخبر الله جلّ جلاله بلا تمثيل ولا تعطيل، وهكذا كان اعتقاد الأمة في جميع الصفات والأفعال، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧)﴾ [الزمر:٦٧].

وقد ورد: «إنَّ الله تباركَ وتعالى خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبضَةٍ قَبضها مِنْ جَميع الأرضِ، فجاءَ بَنو آدَمَ على قدر الأرض، منهم الأحمَرُ، والأبيَضُ، والأسوَدُ، وبين ذلك، والسَّهلُ والحَزْنُ والخَبيث، والطَّيِّبُ» [أبو داود عن أبي موسى الأشعري].

ويقول الله عز وجل: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥)﴾ [البقرة:٢٤٥].

القبض لغةً هو الأخذ؛ فكلُّ أمرٍ ضيقه الله عز وجل فقد قبضه، ثم علينا أن نتحول إلى بعض أبواب القبض، فالمعنى الأول: الرزق، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢)﴾ [العنكبوت:٦٢].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧)﴾ [الروم:٣٧].

فلا تقل: فلان ذكي، وثان عنده خبرات في التجارة رائعة جداً، وثالث خطط، ورابع مقتدر، وآخر صاحٍ، فالله عز وجل يقبض ويبسط ويرزق ويسلب ويعطي ويمنع، فإذا أراد الله سبحانه أن يرزقك ألهمك الوسائل والأساليب والموضوعات والمواقف والتحركات المناسبة للربح، وإذا أراد أن يقبض وكنت غنياً فقد سرت في طريق الإفلاس وأنت لا تدري، وإذا أراد ألا يرزقك لحكمة أرادها، سَدَّ في وجهك كلَّ الأبواب، إذ قد تكون ذكياً جداً إلا أنك في هذا العمل تسلّم المحل، وفي ذاك العمل تلغي الشراكة.

فإذا قال الله عز وجل: ﴿ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾ [البقرة:٢٤٥] أو قال الله عز وجل: ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ فاعلم علم اليقين أن الله هو الرزاق، وهو الذي يمنع الرزق ويسلبه. والعوام يقولون: إذا أعطى أدهش وإذا حاسب فتش، لكن أيها القارئ الكريم إياك أن تظن أن القبض فيه معنى البخل، فإذا تحدثت عن أن الله يقبض، فليس إذا قبض قبض بخلاً، بل يقبض عن حكمة وقدرة وعلم وتقدير، ويبسط عن إكرام وتوسعة وامتحان، فبسطه إكرام أو امتحان وقبضه معالجة أو وقاية، والدليل قول الله تعالى: ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الشورى:٢٧].

إذاً المعنى الأول متعلق بالرزق، وأما المعنى الثاني فمتعلق بالسحاب، قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الروم:٤٨].

هذا السحاب ينتشر في السماء كما يشاء الله عز وجل، وقد يقبضه عن قوم ويبسطه لقوم، مطرة واحدة في منطقة ما ثمانون ملم في ليلة واحدة، ومنطقة أخرى ملم واحد، معنى هذا قبض عن هؤلاء وبسط لأولئك.

والمعنى الثالث، يقبض ويبسط في الأنوار والظلال، قال تعالى فيها يتحدث عن الليل والنهار: ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الفرقان:٤٦].

أين النهار إذا جاء الليل، وأين الإشراق والوضوح؟ وأين الليل إذا جاء النهار؟ تكون في وحشة وفي خوف وفي قلق، فتشرق الشمس فتحس بالراحة، وبالأُنس والطمأنينة، إذاً يقبض ويبسط، يقبض النور ويبسطه.

والمعنى الرابع: أن الله عز وجل يقبض الأرواح، فإذا قبض روح العبد أماته، وإذا بسطها أحياه، فالأرزاق والسحب والظلال والأنوار والأرواح يقبضها ويبسطها.

والمعنى الخامس يتعلق بالأرض أيضاً، فهو -سبحانه وتعالى- يقبضها، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر:٦٧].

فبسط الأرض: أنه جعل الدنيا صالحة لحياتنا، وقبضها: أي أنهى عملها ووظيفتها، فهي مستقرٌّ ومتاعٌ إلى حين.

والمعنى السادس: أن الله سبحانه وتعالى يأخذ الصدقات، أي: يقبضها؛ لذلك قال ﷺ: «إنَّ العَبْدَ إذا تَصدَّقَ مِنْ طَيِّبٍ تَقَبَّلَها اللهُ مِنْهُ وأَخَذَهَا بيَمِينِهِ، ورَبَّاها كَما يُرَبِّي أَحَدُكُمْ مُهْرَهُ أَوْ فَصيلَهُ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَتَصَدَّقُ باللُّقْمَةِ، فَتَرْبُو في يَدِ الله -أَوْ قالَ: في كَفِّ الله- حَتَّى تكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ فَتَصَدَّقُوا» [مسند الإمام أحمد من حديث أبي هريرة].

لكن الموضوع الحساس الذي نحتاجه جميعاً هو أن الله سبحانه وتعالى يقبض القلوب ويبسطها... والخوف والرجاء للمستقبل، فأنت دائماً تخاف من الله عز وجل أو ترجوه، والقبض والبسط للحاضر، فالمؤمن الصادق بين حالتي القبض والبسط.

والحقيقة إذا قبض الله عنك الأحوال الطيبة، شعرت بالوحشة، وبالضيق، وبالحرمان، وشعرت أنك مردود، ثم شعرت أنك مرفوض، ضن الله عليك بالتجلي،

فقد تلوت القرآن وما شعرت بتجلٍّ، وقمت إلى الصلاة وما شعرت بخشوع، ثم أردت أن تذكر الله عز وجل فما شعرت برغبةٍ، فهذه الحالة ما اسمها؟ إنها حالة قبض، يعني أن تحس أن الله عظيم، وأن الله جلَّ جلاله كبير ومتعالٍ، ومن أنت حتى يتجلّى الله عليك، فالله عز وجل مربٍّ، فإذا بسط الله للإنسان الأحوال والسرور والانشراح والأنس واستمر هذا الحال الطيب، تراه بعد حين يقصِّر في عباداته ويتهاون في صلواته، ويتكاسل في أعماله الصالحة، أما حينما ينتابه القبض، فيكون مع القبض الضجر والضيق عندئذٍ يفزع إلى الله سبحانه ليعود إلى حالة الانشراح، إذاً مع القبض الخوف ثم القلق، ويعقب ذلك إنابة إلى الله يمازجها الرجاء والأمل.

إذاً فربنا عز وجل يعالج المؤمن، ولكن هذا الكلام أقوله للمستقيم، أما غير المستقيم فتعروه حالة انقباض لا معالجة لها، بل هي نتيجة طبيعية لمعاصيه، وكل معصية معها انقباض، حتى إن علماء النفس قالوا: إن المنحرفين يشعرون بكآبة.

والآن يسمي علماء النفس الأمراض الشائعة الوبائية في الشباب أمراض الكآبة، وأسبابها الانحراف عن الفطرة العالية التي فطروا عليها، وكل إنسان مفطور فطرة عالية فإذا انحرف عنها وأساء وتعدى وبنى متعهُ الرخيصة على حقوق الآخرين شعر بالانقباض والكآبة، وهذه خارج درسنا فأنا أتحدث عن المؤمنين المستقيمين الورعين، إذ أحياناً تصيبهم حالة الانقباض، وهذه حالة نسميها علاجاً من الله عز وجل، فالله عز وجل يقلِّب المؤمن بين القبض والبسط، فتراه أحياناً متفائلاً، طليق اللسان، واضح السرائر، بشوش الوجه، وتشعر أنه مبسوط الأسارير والصدر والنفس، وأنه سعيد، يمشي واثقاً من مشيته، ويتحدث واثقاً من حديثه، وهذه الحالة اسمها حالة البسط، فالله عز وجل تجلى على قلبه باسم الجميل، إذ جمَّله فأحس بالجمال، والسعادة.

ولكن هناك منزلق، فعندما يشعر المؤمن أنه قريب من الله ومتفوق وفالح وناجح وفائز، والناس مساكين ضعيفون، ضعيفو الهمة والعزيمة، ومقصّرون، وغارقون في المعاصي، وبعيدون منقطعون ملعونون، وهو وحده في سعادة، وهذا الشعور بالانبساط

يصاحبه أحياناً انزلاق، وعُجب، أو كِبْر أو تعالٍ أو استطالة على الآخرين فالعلاج حالة أخرى مضادة وهي القبض، فتراه بعد أيام مستكيناً، فتقول له: خير! ماذا بك؟ فيقول: الحمد لله، لقد كان يمشي قفزاً على الطريق، ويقول: الحمد لله، وهو الآن متضايق ولا يعرف السبب إذ لا معصية ندّت منه ولا ذنباً اقترف.

والكلام مُوجَّه للمؤمنين، فإذا كان الكلام لغير المؤمنين فنقول له: لَّما عصيت الله عز وجل أشعرك بالضيق، وخالفت فطرتك فشعرت بالكآبة وهذا مرض، وليس من إنسان مؤمن يرتكب إثماً أو معصيةً إلا ويشعر أن الأرض لا تسعه على اتساعها، قال الله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [التوبة:١١٨].

فهؤلاء الذين أمر النبي ﷺ أصحابه ألا يكلموهم ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه، فحالة القبض للعاصي والمنحرف والمقصر.

ولو افترضنا أن الوالدة الجليلة طلبت منك حاجةً في منتصف الليل «دواء» مثلاً، فقلت لها: لا أستطيع فإنني أشعر بحاجة إلى النوم، أو ليس هناك صيدلية تفتح أبوابها في هذا الوقت المتأخر، فهذا السلوك يبعث على الشعور بالذنب ويورث صاحبه كآبة، فإذا قصّر الإنسان في أداء واجباته، أو ارتكب معصية أو إثماً أو خرج عن خط الاستقامة أو اغتاب، أو أطلق لسانه في أعراض الآخرين، أو أكل ما ليس له، أو نظر إلى ما لا يحق له أن ينظر إليه، فإذا وقع في معصية أو مخالفة شعر بالقبض، وهذا القبض قبض المعصية.

وأنا أقول: إن الإنسان إذا أطاع الله عز وجل وشعر بأنه تفوق وفاز، وأن الله يحبه، وأن الله يقربه، وأن الله تجلّى على قلبه، فقد ينزلق مع هذا الحال الذي ألمّ به حال البسط، فيستعلي على الناس، فيعتز بنفسه، ويعجب، وعندئذ علاج هذا الانزلاق حالة

مضادة هي القبض، فتراه ساكتاً، أو يتلعثم لسانه إذا تكلم، فيشعر بضيق، ويقوم ليصلي فلا يشعر بطمأنينة، ويقرأ القرآن فلا ترتاح نفسه، فهذه الحالة علاج رباني لمن أعجب بنفسه، وتاه على عباد الله، واستطال باستقامته، هذه حالة القبض.

أما البسط، فحيناً يتألم ويتضايق، ويشعر بالوحشة، ويتضجر قلبه، فقد ينزلق مع القبض إلى حالة مرضية وهي اليأس، فإذا شارف اليأس جاءت حالة مضادة وهي البسط، فاعلم أيها القارئ الكريم أنك بين حالتين؛ القبض والبسط، لأن الله هو القابض وهو الباسط، فإذا كان القبض يناسبك قبضك، قبض الأحوال عنك، وضيَّق عليك الدنيا وأشعرك بالسأم والضجر، وبالوحشة والبُعد إذ أبى أن يتجلى على قلبك، وإذا اقتربت مع القبض إلى اليأس تجلى على قلبك فأشعرك بالقرب والأنس والسرور والانشراح، فأنت أيها المؤمن بين حالتي القبض والبسط، فما العلاج؟ العلاج أنك إذا استحققت من الله حالة البسط، فإياك أن تنزلق منها إلى الغرور أو إلى الاستعلاء أو الإعجاب أو أن تستطيل على عباد الله.

إذاً ربُّ العالمين هو ربُّ النفوس إذ يربّي الأجساد بإمدادها بالمواد، ويربّي النفوس بتقليبها من حال إلى حال، قال الله تعالى: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٣-٢٢٠].

فأنت أيها المؤمن تتقلب من حال إلى حال، من حالة بسط إلى حالة قبض، وإلى بسط وإلى قبض، فأنت موضوع عناية الله عز وجل وتربيته، فلذلك استسلم.

أما إذا جاءك القبض إثر معصية أو مخالفة أو عدوان أو انحراف، فهذا قبض المعصية، وهذا موضوع آخر أشرت إليه من قبل، فأية معصية يعقبها إحساس بالكآبة، وهذه هي الفطرة.

وربنا عز وجل أودع فيك العقل لتعرفه، وأودع فيك هذه الفطرة العالية لتعرف خطأك.

فبالعقل تعرف ربك وبالفطرة تعرف خطأك، إذ ينتابك الانقباض...

وعَنِ النوَّاسِ بنِ سِمْعانَ الأنْصارِيِّ قالَ: سَألتُ رَسولَ الله ﷺ عَنِ البِرِّ والإِثْمِ فقالَ: «البِرُّ حُسْنُ الخُلُقِ، والإِثْمُ مَا حاكَ في صَدْرِكَ وكَرِهْتَ أنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ» [صحيح مسلم].

واعلم أن معك ميزاناً، إذا كذب الإنسان أو اعتدى أو خان أو نظر نظرة لا تحق له أو استطال بلسانه أو... إلخ، فإنه يشعر بالانقباض، وهذا ينتابه إذا كان فيه إحساس.

وأحياناً تنطمس الفطرة، ويتعطل الميزان، فهذا الإنسان لا يعي الخير: عَنْ أبي هُرَيْرَةَ أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قالَ: «إنَّ المُؤْمِنَ إذا أذْنَبَ، كانَتْ نُكْتَةٌ سوْداءُ في قَلْبِهِ، فإنْ تاب ونَزَعَ واسْتَغْفَرَ، صُقِلَ قَلْبُهُ، فإنْ زَادَ زَادَتْ، فَذَلِكَ الرَّانُ الذِي ذَكَرَهُ الله في كِتابِهِ ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين:١٤]» [سنن ابن ماجه].

فالمعاصي تِلوَ المعاصي والمخالفات تلو المخالفات والانغماس في الدنيا والتطاول على خلق الله وترك العبادات وترك الذكر، وهذا كله ينتهي إلى قلب مغلف: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [البقرة:٧].

فإذا امتلأ القلب من حب الدنيا، فليس هناك محلٌّ لشيء آخر فيه، إذاً خُتم القلب ختماً حُكمياً، فالقبض والضيق والوحشة الناتجة عن المعاصي هذه علاجها الطاعات والتوبة، أمّا القبض الذي ليس له سبب ظاهر لمن يمشي في طريق الإيمان فهو معالجة إلهية لطيفة له، وقد قال العلماء: «إنه على المؤمن أن يصبر حتى تنجلي هذه الحالة بتقدير الله عز وجل».

وهناك تعريف لطيف جداً للقابض ذكره القشيري، يقول: «القابض الذي ملك زمام كلِّ شيء»، ومن معاني القابض القدير، فأحياناً أنت لا تستطيع أن تدسَّ الحزن في

قلب إنسان إذا كان سعيداً، ولو كلمته لا يبالي بكلامك، لكن ربنا عز وجل قدير، ومعنى قدير أنه ملك زمام كلِّ شيء، يقبض ويبسط كيف يشاء، يقبض العقل، فلا يفهم المقبوض شيئاً، ويقول لك: ما فهمت.

دخل طالب مغرور الامتحان، فجاء سؤال حول مؤتمر برلين في التاريخ، قال: بقيت ساعة وأنا أفكر أين عقد هذا المؤتمر؟ وهو اسمه مؤتمر برلين، وعقد في برلين..! أحياناً يرى الشيء على خلاف ما هو عليه في مواقف الامتحان، فالإنسان إذا اعتزَّ بعقله وتاه بذكائه يرتكب حماقات يترفع عنها الحمقى، ليُرِيَهُ الله عز وجل أنه هو القابض، يقبض عنك الفهم، ويقبض العقل فلا يفهم، ويقبض القلب فلا يغنم، تراه يقول: «ضاق قلبي»، هذه المشاعر ليس لها سبب واضح، فالبيت واسع، والزوجة ممتازة، والأولاد أصحاء، والدخل يسير فلا مشكلة، ويقول: «ما أكثر ما يضيق قلبي، وأكاد أموت ضيقاً» فتقول له: قلبك بيده، هو الذي يسعدك وهو الذي يقبض عنك كلَّ سعادة. وقد ملك زمام كلِّ شيء، إذْ يقبض العقل فلا يفهم، ويقبض القلب فلا يغنم.

وهناك قلب كبير، مفعم بالسعادة والرضا والإشراق الرباني، وقلب متصحر، كالصخر لا يرحم ولا يلين ولا يتأثر ولا يبكي، وإن يقبض الله القلب فلا يغنم وإن يقبض الصدر فلا يفرح، وإن يقبض الرزق فلا يمنح، «فيقول: أرْمِي بالطلب يميناً فيرتد شمالاً»، وهذا أحد الشعراء ترك لبنان إلى أمريكا، فقال:

أغـرِّب خلـف الـرزق وهـو مشـرِّق ... وأقسـم لـو شرَّقـت راح يغـرِّبُ

فإذا أراد الله عز وجل ألا يرزقك فلو ذهبت إلى أقصى الدنيا، ولو ذهبت إلى بلاد الغنى فإنك تعيش فيها فقيراً، وقد يرزقك في بلدك في أصعب الظروف، لأنه هو الرزاق، هذا هو الإيمان.

قالوا: ويقبض الروح فلا تفرح، فيأتي «التشاؤم والسوداوية» ويقبض النفس فلا تمرح، ولا يفرُّ من حكمه وقضائه خلق من خلقه، حكيم في فعله وتقديره، لذلك قال ربنا عز وجل: ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [الأعراف:١٨٣].

كلمة (متين) هذه صفة الأجسام التي تتحمل قوى الشد، وأما القساوة فصفة الأجسام التي تتحمل قوى الضغط، فالماس قاسٍ، أما الفولاذ المضفور فمتين، ولذلك فبعض الحبال العظيمة تحمل الجسور الكبيرة «التلفريك» (وسيلة مواصلات بين الجبال) مثلاً على أي شيء يُحمل؟ على حبال من الفولاذ المضفور، فالفولاذ المضفور من أمتن المعادن والماس من أقساها، وربنا -عز وجل- وصفَ كيدَهُ بأنه متين، وكأن الله -عز وجل- شبه كيده بحبل متين لا يمكن أن يُقطع والكافر مربوط به، ولكن هذا الحبل مرخى فالكافر يتوهم أنه طليق، فهو يتحرك ويؤذي ويتكلم ويتبجّح ويتفلسف ويتحدى ويتطاول، ويوقع الأذى بزيد وعُبيد وهو يظن أنه يعمل ما يشاء. ويظن أنه على كل شيء قدير، وفي لحظة واحدة يشد الله الحبل المتين فإذا هو في قبضته، وهذا هو معنى القابض في قول الله عز وجل: ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ۝١٨٣ ﴾.

ومعنى القابض يمكن أن يغلق عليك عقلك، وأن يجعل قلبك متصحراً، وأن يصيِّر نفسك سوداوية المزاج متشائمة، وهناك حالات كآبة تدفع أصحابها إلى الانتحار، لكن المؤمن بالله عز وجل في منجىً من ذلك.

وهذا رأي آخر للقشيري، قال: «القبض والبسط حالان يهذب الله بهما الذاكرين» فأَحَدُ إخواننا الكرام عنده معمل متواضع، وأخ آخر عَلِمَ أن هذا المعمل لفلان، في اليوم التالي ذهب إليه، وهو معمل يصنع ألبسة، يبيع بالجملة، وهذا الأخ دخل إلى المعمل وطلب ست قطع، فكأن هذا الطلب أهان صاحب المعمل، فقال: أنا لا أبيع مفرقاً، فودَّعه شاكراً، وانصرف خجلاً، فيقول صاحب المعمل: لقد مرَّ علينا ثلاثة عشرون يوماً وما دخل معملي إنسان ليشتري! أما الآن فأبيع ولو قطعة واحدة، وهذا تأديب الله عز وجل! تتكلم كلمة في غير موضعها فيحجبك عنه أسبوعاً، يتفجر صدرك ضجراً، فإذا كان هناك تقصير أو تجاوز، فيأتي القبض، وما القبض إلا دليل على أن الله رفضك، أي: رفض عملك، ورفض التصرف الذي بدر منك، فما أقبل على قلبك بعد ذلك، وما تجلّى عليك، وهذا لمن عنده حساسية بالغة.

وهناك ميزان توزن به السيارات، تصعد فوقه فيسجل عشرين طناً، وهذا الميزان لا يزن أوقية بن، ولا خمسة غرامات ذهب ولا ماسة ثلاثين قيراطاً، وإذا وضعت عليه كيساً وزنه مئة كيلو فلا يتحرك، وهناك أشخاص عندهم ميزان غير حساس، وهو لا يفكر بربه أبداً، وهذا الإنسان وأمثاله ليس موضوع بحثنا الآني.

أما المؤمن فبعد اللطف التام والوجهة إلى الله عز وجل يملك حساسية مفرطة، فإذا شعر أن قلبه في الصلاة منقبض غير خاشع أدرك أن في تصرفاته شائبة، فلعله فاه بكلمة جارحة، أو خطر في باله خاطر سوءٍ، أو أساء الظن بالله عز وجل، أو لعلّهُ جرّح كرامة شخص، أو كسر قلباً بريئاً، أو أومأ إيماءة مشبوهة. ولذلك أقسم ربنا عز وجل في القرآن الكريم بالنفس اللوامة، فهناك نفس مطمئنة، هي نفس الأتقياء الصديقين، أهل الإحسان، وهناك نفس أمارة بالسوء: هي نفس العصاة، أما نفس المؤمن فلوّامة، وهي دائماً في حساب مع ذاتها عسير، تقرّعه، تعنفه، لعلي تكلمت كلمة لاذعة، أو منعت عطاءً أو أسأت أدبا وتصرفاً، فهو دائماً في معاتبة مع ذاته ومحاسبة مع نفسه، وهذا معنى النفس اللوامة.

قال العلماء: القبض والبسط حالان يهذب بهما عباده الذاكرين، ويفتح بهما عليهم أبواب العلم والحكمة، فإذا هجم القبض على أحدهم فإنه يهجم على صدره من أبواب الجلال وحكمة الكبير المتعال، وتكثر الخواطر فيشتد الخوف، ويتذوق العبد جلال الله عز وجل، فتمنع الذات الإلهية عن العبد ويشعرها بالجلال، وإذا اشتد عليه هذا الحال، أي: لطف الله به، فعند ذلك المقدار الذي يطيقه ينفرج صدره بالبسط، وإذا هجم عليه حال القبض وشعر بالخوف فالله عز وجل حكيم لا يكلِّفه ما لا يطيق، بل يعطيه قدراً من القبض يطيقه، وعندئذ يغشاه حال البسط، وهذا كلام يتوجه إلى أناس لهم خبراتهم مع الله، ولهم صفاؤهم ولطفهم، ولهم صدقهم وحرصهم على طاعة الله، بل لهم ورعهم، وعندئذ يصبح قلبهم ميزاناً وحساساً، ونرجو من الله عز وجل أن نملك هذا الإحساس.

أما قلنا: هناك ميزان لا يتأثر ولا يتحرك ولا بمئة كيلو، إنَّه معدٌّ ليزن حجماً كبيراً ثقيلاً، كسيارة شاحنة، لكن هناك ميزان، تراه عند الصائغ فيوقف المروحة أثناء وزن الذهب؛ لأن الهواء الصادر عنها يغير كفَّة الميزان، وهناك موازين تزن بها ورقة مثلاً فيتحرك مؤشره، فوزنه دقيق، ولو كتب على الورقة كلمة واحدة لرجحت الكفة بوزن المداد الذي على الورقة، فكلما ارتقى المؤمن دقَّ ميزانه، فقل لي: ما مستوى ميزانك أقل لك من أنت، وما مستوى إيمانك؟

الميزان الدقيق دائماً له حساسية: زائد ناقص درجة، ولو افترضنا أن عندنا ميزان حرارة غالياً جداً، وقسنا عليه ميزان حرارة رخيصاً فإنه يتغير درجة، فنقول: حس هذا الميزان زائد ناقص درجة، وحس هذا الميزان زائد ناقص غراماً، فكلما اشتد الحس قلَّ الخطأ، والمؤمن كلما ارتقى أصبح عنده ميزان حساس جداً في محاسبته نفسه.

قال الحسن البصري رحمه الله: «أيسر الناس حساباً يوم القيامة الذين حاسبوا أنفسهم لله عز وجل في الدنيا، فوقفوا عند همومهم وأعمالهم، فإن كان الذي هَمُّوا لَهُمْ مَضَوْا، وإن كان عليهم أمسكوا، وإنما يثقل الحساب على الذين أهملوا الأمور فوجدوا الله قد أحصى عليهم مثاقيل الذر فقالوا: ﴿ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ ﴾ [الكهف:٤٩]» [أورده البيهقي في «شعب الإيمان»].

وعن يحيى بن المختار عن الحسن قال: إن المؤمن قوام على نفسه لله عز وجل، وإنما خفَّ الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا... وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة، إنَّ المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول: والله إني لأشتهيك! وإنك لمن حاجتي! ولكن والله ما من صلة إليك، هيهات هيهات حيل بيني وبينك، ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول: ما أردت إلى هذا مالي ولهذا؟ والله! لا أعود لهذا أبداً إن شاء الله.

إن المؤمنين قوم أوثقهم القرآن وحال بينهم وبين هلكتهم، إن المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئاً حتى يلقى الله عز وجل، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه وبصره ولسانه وجوارحه.

وقال بعضهم: أنت بين أن يقيك وبين أن يبقيك، وهو القابض الباسط، والقابض الذي يقبض الصدقات من أربابها فيربيها، والباسط الذي يبسط النعمة وينميها ويهنيها، إذ يقبض الصدقات ويبسط النعم.

والقابض هو الذي يخوفك من فراقه، والباسط الذي يؤمنك بعفوه وإطلاقه، والإمام الغزالي يقول: «القابض الباسط من العباد من ألهم بدائع الحكم وأوتي جوامع الكلم»، فمثلاً، أنت داعية فإذا حدثت الناس عن رحمة الله وكرمه وعطائه وعفوه، وقلت: لا تخافوا يا إخواني! فالقضية سهلة والله غفور رحيم، ولا يسعنا إلا عفوه وكرمه، ومن نحن أمام عفو الله، فإذا جعل كل دعوته الجانبَ المُشرِقَ، أيكون حكيماً؟!

تحدثنا عن الله عز وجل كيف يقبض الأرواح ويبسط الحياة، ويقبض الأرزاق ويوسعها، ويقبض القلوب أو يفيض عليها من جلاله وجماله.

نصيب المؤمن من اسم الله القابض

والسؤال الملحُّ بعد كلِّ هذا؛ أنت مؤمن فما علاقتك بهذا الاسم؟ أي إذا دعوت إلى الله عز وجل فيجب أن تجري موازنة بين أن تطمِّع الناس برحمة الله وأن تيئسهم من جنته، فاليأس مرض والطمع مرض، فإذا ذكرت الجانب الرحماني فقط وعفوَه وكرمه وتجاوزه وحلمه، ولم تذكر عذابه وعقابه وإيلامه وما عنده من عذاب مقيم فلست محسناً، ولست حكيماً في ذلك، إذاً اجمع بين القبض والبسط حتى في دعوتك إلى الله عز وجل، لأن الإنسان بحسب ما تُلقِّنه، وبحسب ما تغذيه يعوجّ أو يستقيم.

عَنْ عَبْدِ الله بنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعاً، فدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ» قَالَ: فَقَالَ -وَالله أَعْلَمُ-: «لا أَنْتِ

أَطْعَمْتِها وَلا سَقَيْتِها حِينَ حَبَسْتِيها، وَلا أَنْتِ أَرْسَلْتِها فأَكَلَتْ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ» [صحيح البخاري].

ويفهم من ذلك أن النبي ﷺ قد خوفنا.

عن أبي هُرَيْرَةَ قالَ: قَالَ رَجُلٌ: يا رَسُولَ الله إنَّ فُلانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صلاتِها وصِيامِها وصَدَقَتِها غَيْرَ أَنَّها تُؤْذِي جيرانَها بِلِسانِها، قالَ: «هِيَ في النَّارِ»، قالَ: يا رَسُولَ الله فإنَّ فُلانَةَ يُذْكَرُ مِنْ قِلَّةِ صِيَامِها وصَدَقَتِها وصَلاتِها، وإنَّها تَصَدَّقُ بالأَثْوارِ مِنَ الأَقِطِ ولا تُؤْذِي جِيرانَها بِلِسانِها، قالَ: «هِيَ في الجَنَّةِ» [مسند الإمام أحمد].

وعَنْ أبي هُرَيْرَةَ قالَ: جاءَ رُجُلٌ إلى رَسولِ الله ﷺ فقالَ: يا رَسُولَ الله أَرَأَيْتَ إنْ جاءَ رَجُلٌ يُريدُ أَخْذَ مالِي؟ قالَ: «فَلا تُعْطِهِ مَالَكَ» قالَ: أَرَأَيْتَ إنْ قاتَلَنِي؟ قالَ: «قَاتِلْهُ» قالَ: أَرَأَيْتَ إنْ قَتَلَنِي؟ قالَ: «فَأَنْتَ شَهيدٌ» قالَ: أَرَأَيْتَ إنْ قَتَلْتُهُ؟ قالَ: «هُوَ فِي النَّارِ» [صحيح مسلم].

فأنت تقرأ أحاديث النبي ﷺ فتعجب، فأحياناً تخاف خوفاً شديداً، وأحياناً تسمع النبي ﷺ يطمئنك ويبشرك ويلقي عليك من رحمة الله عز وجل الشيء الكثير؛ ليجعلك بين الخوف والرجاء، وهذا أسلوب الحكيم.

فأنت أيّها الداعية اقتد بالنبي ﷺ، وهناك دعاة كلُّ حديثهم عن جهنم، ودعاة كلُّ حديثهم عن الجنة وعن الحور العين، فهؤلاء بهذا الحديث -وحده- أخطؤوا، وهؤلاء بهذا الحديث وحده أخطؤوا، وكما أن الله قابض باسط فيجب أن تكون مرةً في دعوتك تخوِّف عباد الله من معصيته ومرةً تحببهم في طاعته.

ورد في بعض الآثار: «قال داود فيما يخاطب ربّه: يا رب! أي عبادك أحب إليك أحبه بحبك؟ قال: يا داود! أحبُّ عبادي إلى تقي القلب، نقي اليدين، لا يأتي إلى أحد سوءاً ولا يمشي بالنميمة، تزول الجبال ولا يزول، أحبني وأحب من أحبني وحببني إلى عبادي، فقال: يا رب! إنك لتعلم أني أحبك وأحب من يحبك فكيف أحببك إلى عبادك؟ قال: ذكرهم بآلائي وبلائي ونعمائي».

هنا الدِّقة: «ذكرهم بآلائي»، بهذه الآيات الدالة على عظمتي كي يعظموني، وذكرهم بنعمي كي يحبوني، وذكرهم ببلائي كي يخافوني، إذاً لا بد من أن يجتمع في قلب المؤمن تعظيم لله من خلال الكون، ومحبةٌ له من خلال النعم، وخوفٌ منه من خلال النقم.

وأحياناً يريك ربنا إنساناً مصاباً بمرض خبيث، أو توقف كليتين فحياته جحيم ففي كلِّ أسبوع تُغسل فيه الكليتان مرتين فيشعر بانقباض شديد، هناك أمراض وأوبئة وأمراض عضالة، وفقر شديد، والله عز وجل قد يمنع عطاءه حتى يندفع الفقير إلى أن ينقِّب في القُمامة.

وهناك حالات كثيرة، يتجاوز فيها الإنسان حدّه، يؤذي مخلوقاً من مخلوقات الله عز وجل فربنا عز وجل يكلِّفه الثمن باهظاً، فمن حوله يرتدعون، ويخافون، فإذاً هذا البلاء بلاء ردعي، وهذا الإكرام إكرام تشجيعي، ولكنَّ العطاء الكامل يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [آل عمران:١٨٥].

وبعد، إن الله سبحانه إذا أكرم إنساناً في الدنيا فهذا إكرام تشجيعي له ولغيره، وإذا عاقب إنساناً فهو عقاب ردعي له ولغيره، فإذاً يجب أن يكون في القلب حب لله عز وجل وخوف منه وتعظيم له.

قد يمنع عنك، والمنع عطاء، وقد يعطيك، والعطاء بلاء، لذلك قال ابن عطاء الله: (ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك) قال تعالى: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ [البقرة:٢١٦].

هناك حقيقة مهمّة؛ وهي أنَّ الشيء الذي مُنعت عنه، إنّما منعك عنه الله، ثمَّ خلق الأسباب التي تُبعد هذا الشيء عنك، فالمؤمن يؤمن بأنَّ الله هو القابض، فلا يحقد على من حرمه.

إيمانك بأنَّ الله هو القابض وحده يُبعدك عن الحقد، فلا تحقد ولا تنافق، التوحيد يعطيك شخصيَّةً قويَّةً، إذ إنَّ علاقتك مع الله وحده.

ومن آثار الإيمان باسم القابض حسنُ التوكل على الله، قد تصلي فلا تشعر بشيء، تقرأ القرآن فلا تشعر بشيء، تذكر الله فلا تشعر بشيء، هناك انقباض، هناك حجاب، عندها تتوجَّه إلى الله: يا رب ماذا فعلت؟! أيَّ كلمة تفوهت؟! أيَّ ظن أسأت؟! هذا يؤكِّد أنَّ الله يربِّي عباده؛ يربِّيهم بالقبض والبسط.

قد تجد شخصاً مرتاحاً، سعيداً، متفائلاً، مشرقاً، يقول لك: أنا متفائل جداً، لا أحد أسعد مني، يكون وضعه الماديّ عاديّاً جداً، الله وهبه الله زوجة صالحة، ومأوى صغيراً، ورزقاً يكفيه، وهو رغم ذلك أسعد الناس.

وهناك إنسان عنده بيوت لا يعلمها إلا الله، قصور، مركبات، مكانة، قوة، ويقول لك: لست مرتاحاً، إنِّي منقبض.

زار أحدهم إنساناً حجمه المالي أربعة مليارات، قال لي: شكا لي ضيقه وضجره وتأففه من أهله، من بيته، من تجارته، من أوضاع البلد، قال لي: لم أستطع أن أقف على قدمي بعد هذا الكلام.

من مفارقات الحياة أن امرأة طرقت بابه لمساعدة شهرية، فلما زار بيتها، قال لي: البيت صغير جدّاً ومتواضع إلى أبعد حدٍّ، ولا يمكن لإنسان أن يسكن فيه، وهذا البيت فيه سرور، فيه راحة نفسية، الأولاد ثيابهم نظيفة، وصاحب البيت يحمد الله عز وجل، قال لي: مفارقة عجيبة، إنسان حجمه أربعة مليارات، شكا لي لدرجة أنني لم أستطع أن أقف على قدمي، والمرأة شكرت لله أنه أعطاها زوجاً، وأولاداً، أراد هذا الرجل أن يعطيهم ألفي ليرة شهرياً فقالت له الأم: لا، ألف واحدة تكفينا!

قال ملك لوزيره من الملك؟ قال له: أنت، قال له: لا لست أنا، الملك رجل لا نعرفه ولا يعرفنا، له بيت يؤويه، ورزق يكفيه، وزوجة ترضيه.

أمّا الكآبة التي يشعر بها معظم الناس فهي عقاب الفطرة، لخروج الإنسان عن مبادئ فطرته، وهذا اسمه التربية النفسية للمؤمن.

العُجب بالذات أحد أسباب القبض، ينتبه لمكانته، لمنصبه، لحجمه المالي، لذكائه، لأناقته، لثيابه الغالية جداً، لخضوع الناس له، حينما ينتبه لمكانته ولذكائه، ولخبراته، ولحجمه المالي، وسلطته يُحجب عن الله عز وجل، والإنسان كلما اقترب من الله يشعر بسعادة.

أحد أكبر أسباب القبض الشرك، قال تعالى: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٣-٢٢٠].

ومن ثمرات الإيمان باسم الله القابض دعاؤه بدعاء النّبيّ ﷺ:

«اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما بعدت ولا مباعد لما قربت، اللهم إني أعوذ بك من شر ما أعطيتني، ومن شر ما باعدت عني» [أخرجه أبو داود عن أُبيّ بن كعب].

الباسط

ورد هذا الاسم في السنة الصحيحة في قول النبي ﷺ: «إنَّ الله هو المُسَعِّرُ، القابضُ، الباسطُ، الرازق» [أخرجه أبو داود والترمذي عن أنس بن مالك].

من معاني اسم الله الباسط

الباسط اسم فاعل، فعله بسط، يبسُط، والمصدر بسْطٌ، وانبسط الشيء على الأرض اتَّسع، وامتدَّ، وتبسَّط في البلاد أي سار فيها طولاً وعرضاً، وبسيط الوجه: متهلِّل الوجه.

والبسيط هو الرجل منبسط اللسان، وبسط إليّ يده بما أحبُّ أو بما أكره: وصل إليّ، وفي الآية: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ﴾ [المائدة:٢٨].

وبسْطُ الكفِّ تُستعمل تارةً للطلب، كقوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ ﴾ [الرعد:١٤].

وتارةً للأخذ، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام:٩٣].

وتارةً للصولة والضرب، كقوله تعالى: ﴿وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الممتحنة:٢].

وتارةً للبذل والعطاء، قال تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة:٦٣].

وبسْطُ اليد في حقنا نحن -البشرَ- معلوم المعنى والكيفية، أمَّا في حق الله جل جلاله فمعلوم المعنى فقط، لكنَّه مجهول الكيفية.

والله جلّ جلاله هو الباسط؛ يبسط الرزق لعباده بجوده ورحمته، ويوسعه عليهم ببالغ كرمه وحكمته، فيبتليهم على ما تقتضيه مشيئته وحكمته، فإن شاء وسَّع، وإن شاء قتَّر.

أمسكت مرَّة سنبلةً أصلُها حبّةُ قمح واحدة، أنبتت هذه الحبَّة خمساً و ثلاثين سنبلة، عددت إحدى السنابل فإذا فيها خمسون حبة، ضربت خمساً و ثلاثين بخمسين، فإذا هي ألف وسبعمئة و خمسون حبة، وكلُّها من حبَّةٍ واحدة، الباسط في الرزق يعطي بلا حساب.

قارون وسّع الله عليه رزقه فقال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص:٧٨].

هذا كلام يقوله بعض الناس، بجهدي، بكدِّ يميني وعرق جبيني، بخبراتي المتراكمة، بانتمائي إلى أسرة قوية... إلخ.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ [القصص:٧٩].

هذه حاجة عند ضعاف النفوس، أن يظهر ما عنده، كي يستعلي على الآخرين، وهذه صفة مذمومة.

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [القصص:٧٩-٨٢].

الشاهد في الآية ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ .

وفي الحديث الشريف: «مَن سَرّه أن يَبْسُط الله له في رزقه، وأن يَنْسَأ له في أَثَره فليصل رحمه» [أخرجه البخاري والترمذي عن أبي هريرة].

وقد فسَّر العلماء هذا الحديث، أنَّ الإنسان قد يفتح محلَّه التجاريَّ ساعة، فيربح مليوناً، وقد يفتح محلَّه عشر ساعات ويربح مئة ليرة فقط، فالزمن ليس له قيمة، بل القيمة كلُّها في الربح، وكذلك فإنَّ قيمة العمر ليست بمدّته، بل هي بعطائه.

ولما كان يوم أُحد وانكفأ المشركون قال ﷺ: «اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك، اللهم إني أسألك النعيم يوم القيامة والأمن يوم الخوف، اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعتنا، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين، اللهم توفنا مسلمين وأحينا مسلمين وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين» [أحمد عن ابن رفاعة الزرقي].

والباسط هو الذي يبسط يده بالتوبة لمن أساء، وهو الذي يملي لهم فيجعلهم بين الخوف والرجاء، فقد قال ﷺ: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ يبْسُطُ يدَهُ باللَّيْلِ ليَتوبَ مُسيءُ

النهار، ويبسُطُ يدَه بالنَّهار ليتُوبَ مُسيء الليلِ، حتى تطْلُعَ الشمسُ من مغرِبِها» [مسلم عن أبي موسى الأشعري] .

الباسط جلَّ جلاله يبسط النعمة فينميها، فهو يقبض الصدقات، ويبسط النعم، والقابض هو الذي يخوِّفك من فراقه، و الباسط يؤمِّن بعفوه وإطلاقه.

فالإنسان يسعد بطاعة ربه، ويشقى بمعصيته، قال تعالى: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد:٢٨].

الله عز وجل يقبض القلوب بإعراضها عنه، ويبسطها بإقبالها عليه، ففي الكون حقيقة واحدة، إن تقربت من الله سعدت بأيِّ ظرف تعيشه، وإن ابتعدت عنه تشقى بأيِّ ظرف تعيشه، وهذا ملخص الملخص.

فالمؤمن يتقلب بين نوازع الخير، قرينه من الملائكة يأمره بالخير، يهتف له بطاعة ربه، حتى يصبح قلبه مثل الصفا، لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، وهذا هو البسط الحقيقي.

لا أجد أن كلمة هنيئاً لك يستحقها إلا من عرف الله، نحن ألفنا أن نهنئ إنساناً بشراء بيت، بشراء مركبة، بتأسيس شركة، بالزواج، ألفَ الناس أن يهنئ بعضهم بعضاً بهذه المناسبات، لكنَّ الحقيقة الصارخة أنه لا يمكن أن تكون التهنئة حقيقية وصحيحة إلا بطاعة الله.

أنت حينما تُقبل عليه يقذف في قلبك نوراً ترى به الحقَّ حقّاً، والباطلَ باطلاً، والخيرَ خيراً، والشرَّ شرّاً، هذا النور تؤكِّده نصوص قرآنية؛ منها قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ ﴾ [الحديد:٢٨].

وكان رسول الله يقول في دعائه:

«اللهم اجعل في بصري نوراً، واجعل في سمعي نوراً، واجعل في لساني نوراً، واجعل في قلبي نوراً، واجعل عن يميني نوراً، واجعل عن شمالي نوراً، واجعل أمامي نوراً، واجعل من خلفي نوراً، واجعل من فوقي نوراً، واجعل من أسفل مني نوراً، واجعل لي يوم لقاءك نوراً وأعظم لي نوراً» [البخاري عن ابن عباس].

ما من عمل تقوم به دون استثناء إلا وقبله رؤية دفعتك إليه، ما من إنسان يتحرك حركة، يتكلم كلمة، يبتسم، يمنع، يقطع، يصل، إلا وراء عمله رؤية، فبطولة المؤمن أن تكون رؤيته صحيحة، الله نوّر قلبه، إنه ينظر بنور الله، ينطق بتوفيق الله.

نصيب المؤمن من اسم الله الباسط

المؤمن ينبغي أن يشكر عند البسط، وأن يصبر عند القبض، والله عز وجل يقلِّب حال المؤمن، من بسط إلى قبض، حينما يطيع الله كثيراً، ويقبل عليه ويخطب ودَّه، ويحسن إلى خلقه، ويتقن عباداته، ويتلو كتابه، يتجلى الله عليه باسم الباسط، وحينما يتساهل في الاستقامة، ولا يتقن عبادته يؤدبه الله باسم القابض.

يقول سيدنا علي: إن للنّفس إقبالاً وإدباراً، فإن أقبلت فاحملها على النوافل، وإن أدبرت فاحملها على الفرائض.

أُتي عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه بطعام وكان صائماً فقال: «قُتِلَ مُصْعَب بنُ عُمَيرٍ وهو خيرٌ مني، فكُفِّنَ في بُرْدَة: إن غُطِّيَ رأسُه بَدَتْ رجلاه -وإن غُطِّي رجلاه بَدَا رأسُه، وقُتِلَ حمزةُ، وهو خيرٌ مني، ورُوي: أَو رجلٌ آخَرُ شَكَّ إبراهيم، فلم يُوَجد ما يُكفَّنُ به، إلا بُرْدَة، ثم بُسِطَ لنا من الدنيا ما بُسِطَ، أو قال: أُعطينا من الدنيا ما أُعطينا وقد خشيتُ أن يكون قد عُجِّلَتْ لنا طَيِّبَاتُنا في حياتنا الدنيا، ثم جعل يبكي، حتى ترك الطعام» [البخاري عن عبد الرحمن بن عوف].

وقال رسول الله ﷺ: «فوالله مَا الفقْرَ أَخْشى عليكم، ولكني أخشي أنْ تُبْسَط الدُّنيا عليكم كما بُسِطَتْ على من كان قبلكم، فَتَنافَسُوها كما تَنافسوها وتُهْلِكَكُمْ كما أَهْلَكَتْهُمْ» [البخاري عن عبد الرحمن بن عوف].

قد يتألم المؤمن ويتضايق، ويشعر بالوحشة، ويتضجر قلبه، فقد ينزلق مع القبض إلى حالة مرضية وهي اليأس، فإذا شارف اليأس جاءت حالة مضادة وهي البسط، فاعلم أيها القارئ الكريم أنك بين حالتين؛ القبض والبسط، لأن الله هو القابض وهو الباسط، فإذا كان القبض يناسبك قبضك، قبض الأحوال عنك، وضيَّق عليك الدنيا وأشعرك بالسأم والضجر، وبالوحشة والبُعد، وإذا اقتربت مع القبض إلى اليأس تجلَّى على قلبك فأشعرك بالقرب والأنس والسرور والانشراح، فأنت أيها المؤمن بين حالتي القبض والبسط، فما العلاج؟ العلاج أنك إذا استحققت من الله حالة البسط، فإياك أن تنزلق منها إلى الغرور أو إلى الاستعلاء أو الإعجاب أو أن تستطيل على عباد الله.

المؤمن باسم الله الباسط، يشكر الله تعالى في حال البسط في الرزق ويداوم على الطاعات في حال انشراح الصدر، ويقبل إلى الله تعالى الباسط تائباً منيباً مقبلاً غير مدبر.

الرزاق

ورد هذا الاسم في السّنّة الصحيحة، يقول ﷺ: «إنَّ الله هو المُسَعِّرُ، القابضُ، الباسط، الرازق» [أخرجه أبو داود والترمذي عن أنس بن مالك].

وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم مقيَّداً في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [المائدة: ١١٤].

من معاني اسم الله الرازق

الرَّازق اسم فاعل، وفعله رزق، يرزُق، والمصدر رِزْق، والرِّزْق: ما يُنتفَع به.

فقد فرَّق العلماء بين الرِّزق والكسب، فالشيء الذي تأكله، والثِّياب التي تلبسها، والبيت الذي تسكنه، هذا هو الرِّزق الذي انتفعت به، أمَّا الرَّصيد أو الحجم المالي فهذا هو الكسب الذي لم تنتفع به، ولكنَّ الكسبَ سوف تُحاسب عليه كما تُحاسَب على

الرِّزق؛ من أين اكتسبته؟ وكيف أنفقته؟ مع أنَّك لم تنتفع به، فالذي يملك ألف مليون يأكل وجبة محددة، ويرتدي ثياباً واحدة، وينام على سرير واحد، وطاقته في الاستمتاع بالحياة لها سقف.

والرِّزق هو العطاء، واسترزقه: طلب منه الرِّزْق، وقد يُسمَّى المطر رزقاً، لأنَّ المطر يُنبت النبات، فالرِّزق من آثار المطر.

ويقول تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة:٨٢].

قد تهطل أمطار غزيرة، فنستمع إلى من يقول: هناك منخفض متمركز فوق قبرص في طريقه إلينا وهذا سبب الأمطار ويكتفي بذلك، دون أن ينسب النعمة إلى المنعِم، هذا رزق الله، هذا فضل الله، هذه رحمة الله، ثمَّ نعزو الرزق إلى أسباب أرضيَّة.

وقد ورد في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ عقب ليلة مطيرة قال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر. فأما من قال: مُطِرْنا بفضل الله ورحمته: فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب وأما من قال: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كذا وكذا: فذلك كافر بي، مؤمن بالكواكب» [أخرجه البخاري ومسلم عن زيد بن خالد الجهني].

هناك من ينسب ما يجري إلى أسباب أرضيَّة فقط، كزلزال دمَّر كلَّ شيء، ثمَّ يقول لك: اضطراب في القشرة الأرضية فقط.

الإنسان أحياناً يرفض التفسير العُلويَّ، الإلهيَّ، التوحيديَّ، ولا يقبل إلا التفسير الأرضيَّ الشِّركيَّ.

فلابد من أن نعزو الأسباب إلى مسبِّب الأسباب، إلى خالق السماوات والأرض، كي نتعامل معه، ونصطلح معه.

والأرزاق نوعان، أرزاق ظاهرة كالأقوات للأبدان، انظر إلى سوق الخضر، كميَّات من الفواكه، كميَّات من الخضروات، المحاصيل، والقمح، والغنم، أرقام فلكية،

كلُّها رزق العباد، وهناك أرزاق باطنة، هي المعارف والإيمان، كإنسان رزقه الله عز وجل فهماً بكتاب الله، وهذا رزق.

والعلم هو أعلى أنواع الرزق، يقول تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء:١١٣].

فالله عز وجل أعطى المال لمن لا يحبُّ، وأعطاه لمن يحبُّ، أعطى المال لقارون وهو لا يحبُّه، وأعطاه لسيدنا عثمان وهو يحبُّه، أعطى الملك لفرعون وهو لا يحبُّه، وأعطاه لسيدنا سليمان وهو يحبُّه، لكنَّ الذين يحبُّهم وهم الأنبياء، قِمم البشر ماذا أعطاهم؟ قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [القصص:١٤].

فإذا وهبك الله رزقاً ممّا وهبه لأحبابه، فاشكر الله عز وجل، هناك في الأرض من يعبد الجرذان، وهناك من يعبد ذكَر الرجل، و هناك من يعبد موج البحر، وهناك من يعبد البقر، و هناك من يعبد الشمس والقمر، وهناك من يعبد الحجر، لكنَّ الله سبحانه وتعالى أكرمنا بأن نعبد خالق السماوات الأرض.

الله جلّ جلاله هو الرازق، يرزق الخلائق أجمعين، وهو الذي قدّر أرزاقهم، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ [الروم:٤٠].

قد ترسل ابنك إلى بلد أوربيٍّ للدراسة، وحتى يطمئنَّ فإنَّك ترسل له مصروفه لستِّ سنوات دفعة واحدة، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾.

لم يقل: ثم يرزقكم

فالله عز وجل الرَّازق تكفَّل باستكمال الرزق ولو بعد حين، وكلُّ إنسان له عند الله رزق لكن في وقت معين، قال ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا الله وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ فَإِنَّ نَفْساً لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا فَاتَّقُوا الله وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ خُذُوا مَا حَلَّ وَدَعُوا مَا حَرُم» [أخرجه ابن ماجه عن جابر بن عبد الله].

اختر حرفة شريفة، اختر حرفةً فيها نفع للناس، ليس فيها ابتزاز لأموالهم، وليس فيها إلقاء الرعب في قلوبهم، اختر حرفة ينتفع بها من حولك، ولا تختر حرفة تبني دخلك فيها على أنقاض الناس، لأنَّ ألصق شيء بالإنسان رزقُه، وحرفته، وزوجته، فالمركبة تُبدَّل، والبيت يُبدَّل، أمَّا زوجته أمُّ أولاده، وحرفته، فلا تبدَّلان بسهولة، فإن كانت الحرفة مخالفة لمنهج الله فهذه مشكلة تجعلك في حجاب دائم عن الله تعالى.

يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ [فاطر:٣].

قال بعض العلماء: الرّزق اسم يشمل الإنسان وغير الإنسان، لكنَّ هذه الكلمة تعمُّ رزق الدنيا والآخرة، دخول الجنة رزق، النجاة يوم القيامة رزق، العلم في الدنيا رزق، اشتقاق الكمال من الله رزق، الحلم رزق، الورع رزق، قد تجد إنساناً دخله محدود، لكنّه يتمتع بعلم غزير، يتمتع بسمعة طيبة، يتمتع براحة نفسية، يتمتع بتوفيق من الله عز وجل، أو يتمتع بدعوة كبيرة، حجم المال صغير جداً، لكنَّ حجمه عند الله كبير جداً.

والله عز وجل قد يرزق الإنسان مكانة، وبهذه المكانة تُحلُّ مشكلات كبيرة.

ويقول تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود:٦].

جاءت (على) قبل لفظ الجلالة، ومعنى ذلك أنَّ الله ألزم نفسه ذاتياً برزق المخلوقات.

لو دخل معلِّم إلى الصفِّ، وقال: أيُّها الطلاب لكم عندي هدية، فهذا شيء، أمَّا لو قال: ما من طالبٍ في هذا الصف إلا وله عندي هديّة، فهذه العبارة تشمل كلَّ الطّلّاب؛ حتى الطالب الغائب، وحتى الذي لم يُتَحْ له أن يأخذها الآن، فكلمة (مِنْ) تفيد استغراق أفراد النوع.

فلو أنَّ نملة تمشي على صخرة صمّاء، في ليلة ظلماء، فعلى الله رزقها، وعْلٌ يعيش في قِمم الجبال، وهناك ينابيع مياه في قمم الجبال، يوجد في إندونيسيا ثلاث عشرة جزيرة، ما من جزيرة إلا وفيها نبع ماء عذب، وهذا من آيات الله الدالة على عظمته.

حتى الطعام الحرام الذي يتناوله الإنسان إنَّما هو من الله ولكنّه سيُحاسب عليه، مثلاً: بستانٌ فيه شجر تفاح، وفي الشجرة السابعة، الفرع الثالث، الغصن الرابع، تفاحة، وهي رزق لزيد، وزيدٌ قد يشتريها بماله، وقد يأكلها ضيافة، وقد يأكلها هدية، وقد يسرقها، وقد يتسولها، فالبطولة أن تأكل رزقك الذي كتبه الله لك من طريق مشروعة.

زارني أخ متقدم بالسنِّ، قدَّمتُ له ضيافة متواضعة، فأمسك أول لقمة من هذه الضيافة، وقبل أن يأكلها قال: سبحان من قسم لنا هذا، ولا ينسى من فضله أحداً.

اعتقد هذا الاعتقاد، الله عز وجل لا ينسى من فضله أحداً، هو خلقك، تكفَّل لك بالرِّزق، تكفَّل لك بالزواج، تكفَّل لك بالعمل، فلا تضجر، ولا تقلق، ولا تيأس، ولا تتشكَّ.

رزق الأبدان بالأطعمة، ورزق الأرواح بالمعرفة، والمعرفة أشرف الرِّزقين، فإذا خصَّك الله بدخلٍ وفير أكلت به أطيب الطعام، وخصّ عبداً آخر برزق المعرفة فاعلم علمَ اليقين أنَّ العبد الآخر أكثرُ حظوةً عند الله منك، لأنَّه منحه رزق النفوس، ورزق الأرواح، وهي المعارف، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [القصص:١٤].

وقد قال النبي ﷺ: «أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني» [مسلم عن أبي هريرة].

يكون بعض الإخوة في مجلس مبارك؛ فيه نور وسرور ومودَّة، فيه محبة وذكر لله، فيقول لك أحدهم: جلست جلسة لا أنساها مدى الحياة، وفي مجلس آخر طعام نفيس، بأنواع منوعة، ويقول لك: لم أسرَّ.

وقال بعض العلماء: الرازق من غذَّى نفوس الأبدان بتوفيقه، وحلّى قلوب الأخيار بتصديقه.

نصيب المؤمن من اسم الله الرازق

من علم أنَّ الله تعالى هو الرازق اتّجه إليه وحده بطلب الرِّزق، واتّخذ الأسباب التي جعلها الله سبباً لزيادة الرزق، وأوَّل سبب من أسباب الزيادة التقوى، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣].

وكلمة (مخرجاً) توحي أنّ أبواب الأرض كلَّها أُغلقت، يقدِّمُ طلباً فلا يُوافق له، يقدِّم بعثة فيأتي الجواب بالرّفض، يبحث عن عمل فلا يجدْ، يحاول أن يستأجر دكاناً فلا يستطيع، الأبواب كلُّها مغلقة، ولحكمة بَالغةٍ يكون هذا الامتحان الصعب؛ يغلق الله كلَّ أبواب الأرض، ويفتح لك أبواب السماء، فالإنسان المؤمن لا يقنط ولا ييأس، بل يتَّجه إلى الله، ويتقيه ويصطلح معه فيجعل الله له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب.

ومن أسباب زيادة الرزق: صدق التوكل على الله، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣].

لكنَّ التَّوكُّل من عمل القلب، وليس من عمل الجوارح، والمسلمون حينما تخلفوا في فهم دينهم جعلوا التوكل بالجوارح، فلا يفعل أحدهم شيئاً، ثمَّ يقول: سلمت أمري إليك يا رب، ولا يتحرَّك ولا يسعى، مع أنَّ الله عز وجل يقول: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟﴾ [التوبة:١٠٥].

وفي الحديث: «إن الله يَلُومُ على العَجْز، ولكن عليكَ بالكَيْس، فإذا غَلَبَك أَمر، فقل حَسبيَ الله ونعم الوكيل» [أخرجه أبو داود عن عوف بن مالك].

لا يسعى، ولا يتحرك، ولا يدرس، ولا يستطلع، ولا يفعل شيئاً إلا أنه يقول: توكَّلت على الله.

سيِّدنا عمر رأى أناساً يتكففون الناس في الحج، قال: من أنتم؟ قالوا: نحن المتوكِّلون، قال: كذبتم، المتوكِّل من ألقى حبَّة في الأرض ثم توكَّل على الله.

ورأى رجلاً مع جمل مريض، قال: يا أخا العرب ماذا تفعل بهذا الجمل؟ قال: أدعو الله أن يشفيه، قال له: هلّا جعلت مع الدعاء قطراناً؟ أي: دواء.

تأخذ بالأسباب وكأنها كلُّ شيء، ثم تتوكَّل على الله وكأنها ليست بشيء، عندك سفر طويل، ومعك مركبة، تراجعها مراجعة كاملة، تراجع العجلات، المكابح، الزيت، تراجع كلَّ شيء، وحينما تكون جاهزة تتوجَّه من أعماق قلبك إلى الله.

الغرب أخذ بالأسباب واعتمد عليها وألهها، ونسي الله فوقع في الشرك، ونحن ندعي أننا مؤمنون، لم نأخذ بها أصلاً، وتوكَّلنا على الله توكلاً ساذجاً أي تواكلاً فوقعنا في شرّ عملنا.

أحد أسباب زيادة الرزق صلة الرحم، يقول ﷺ: «مَن سَرّه أن يَبْسُط الله له في رزقه وأن يَنْسَأ له في أَثَره فلْيَصِلْ رحمه» [أخرجه البخاري والترمذي عن أبي هريرة].

الإنسان حينما يتفقد أخواته البنات، المتزوجات، يتفقد من يلوذ به، والتَّفقُّد يعني أن تزورهم، أن تتفقَّد أحوالهم المعيشية، والتربوية، والدينية، وأن تمدَّ لهم يد العون، وأن تأخذ بيدهم إلى الله، وصلة الرحم من أعظم الأعمال، وكأنَّ هذه الصلة صلةُ الغني للفقير، والقوي للضعيف، والعالم للجاهل.

ومن أسباب زيادة الرزق الشُّكر، قال تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم:٧].

ما دمت تشكر نعم الله، فهذه النعم لن تزول بإذن الله، بل تزيد، وأنت حينما تدخل بيتك، فتقول: يا رب لك الحمد آويتني بهذا البيت، لك عمل فتقول: يا رب لك الحمد أكرمتني بهذا العمل، معك شهادة عليا فتقول: يا رب لك الحمد يسَّرت لي هذه الدراسة، أمامك زوجة، تحبُّك وتحبُّها ملء السمع والبصر فتقول: يا رب لك الحمد

أكرمتني بهذه الزوجة، فأنت حينما ترى نعم الله، وتشكر الله عليها فهذه النعم لن تتحوَّل عنك إن شاء الله، بل سوف تزيد، وبالشكر تدوم النعم، يقول تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤].

هل يمكن أن أعطيك ليرة واحدة، وأقول لك: عدَّها، ما هذا الطلب؟ كيف أعدُّ ليرة واحدة؟ معنى الآية لو أمضيت حياتك في معرفة بركات نعمة واحدة فلن تستطيع، فلأن تكون عاجزاً عن شكرها من باب أولى.

والاستغفار والتوبة من أسباب زيادة الرزق، قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح:١٠-١٢].

بيت تؤدَّى فيه الصلوات، محلٌّ تجاريٌّ تؤدَّى فيه الصلوات، أيُّ مكان تؤدى فيه الصلوات فهذا مكان له رزق خاص، والدليل: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه:١٣٢].

قد نجد محلاً تجارياً مرزوقاً، الموظفون جميعاً يصلون، صاحب المحل يصلي، لا يوجد مخالفات شرعيَّة، لا يوجد إطلاق بصر في المحرمات، هناك انضباط، مثل هذا المحل أصحابه يؤدون الصلاة شكراً لله عز وجل، وصاحب المحل يتقي الله في البيع والشراء، هذا المحل له معاملة خاصة.

أحد أسباب زيادة الرزق الصدقة، قال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة:٢٤٥].

وفي الحديث: «أنفق بلالُ ولا تخش من ذي العرش إقلالاً» [أخرجه الطبراني عن بلال].

وفي حديث آخر: «يا ابن آدم، أنفقْ أُنفِقْ عليك» [أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة].

بالصدقة تستدرُّ الرِّزق من الله عز وجل.

ومن أسباب زيادة الرّزق قراءة القرآن الكريم، يقول ﷺ: «إن البيت الذي يقرأ فيه القرآن يكثر خيره، والبيت الذي لا يقرأ فيه القرآن يقلُّ خيره» [أخرجه البزار عن أنس ابن مالك].

والشيء الذي يلفت النظر أنك إذا وسعت على عيالك في الإنفاق فإنَّ الله عز وجل يكافئك برزق وفير، وفي الحديث: «ليس منا من وسع الله عليه ثم قتَّر على عياله» [الديلمي عن عائشة].

من تمام الطاعة لله، أنَّ الله إذا وسَّع عليك فوسِّعْ على أهلك، لبِّ حاجتهم المشروعة دون إسراف، دون تبذير، دون خيلاء.

الزواج يحتاج إلى إنفاق كبير، يحتاج إلى تأسيس البيت، إلا أنّ النبيَّ ﷺ يقول: «ثلاثة حقّ على الله عَوْنُهم: المجاهدُ في سبيل الله، والمُكَاتِبُ الذي يريد الأداءَ، والناكحُ الذي يريد العَفَافَ» [أخرجه الترمذي والنسائي عن أبي هريرة].

فالنكاح أحد أسباب زيادة الرزق.

والهجرة من أسباب زيادة الرزق، إنسان مقيم ببلد غربي، دخله فلكيٌّ، له مركبة فارهة، بلاد جميلة، حريات كاملة، حاجاته مؤمنة، لكن هناك فسق وفجور لا يعلمه إلا الله، فخاف على أولاده، فأنهى أعماله، وعاد إلى بلده، والبلاد النامية فيها متاعب كثيرة، فرص العمل قليلة، بيوت غالية جداً، فضحَّى بكلِّ ميزات العالم الغربيِّ، ووضع هذا تحت قدمه، وعاد إلى بلده صوناً لأولاده، وأسرته، ولمستقبل بناته، هذا الذي هاجر في سبيل الله حقٌّ على الله أن يغنيه، يقول تعالى: ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ [النساء:١٠٠].

أخوة كُثر كانوا في أعلى دخل في البلاد الغربية، لكن خافوا على بناتهم وعلى أولادهم، فعادوا إلى بلدهم، فعانوا من شدة في بادئ الأمر ولكن بعد ذلك فتح الله

عليهم أبواب الرزق الواسعة، مكافأة لهم على خوفهم على أولادهم وعلى بناتهم، وعلى دينهم.

إذاً: نصيب المؤمن من اسم الرّازق أن يقدِّم لله تعالى أسباب الرّزق وأن يسعى في الأرض وليعلم بعدها يقيناً أن الرزق مكتوب وأنه سيصل إليه، فلا تسلك إلا السبل المشروعة في الوصول إلى رزقك المقدّر.

الدَّيَّان

عَنْ عَبْد الله بْن أُنَيْسٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ:

«يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ، أَوْ قَالَ: العِبَادُ عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا، قَالَ: قُلْنَا: وَمَا بُهْمًا؟ قَالَ: لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مِنْ قُرْبٍ: أَنَا المَلِكُ، أَنَا الدَّيَّانُ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ، وَلَهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ حَقٌّ حَتَّى أَقُصَّهُ مِنْهُ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ وَلِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عِنْدَهُ حَقٌّ حَتَّى أَقُصَّهُ مِنْهُ، حَتَّى اللَّطْمَةُ، قَالَ: قُلْنَا: كَيْفَ وَإِنَّا إِنَّمَا نَأْتِي الله عَزَّ وَجَلَّ عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا؟ قَالَ بِالحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ» [أحمد في المسند بسند حسن].

من معاني اسم الله الديان

الدّيّان على وزن فعّال مبالغة لاسم الفاعل الدائن، وفعله دانَ يدين، أي جازى يجازي، ويوم الدّين هو يوم الجزاء.

فالدّيّان سيحاسب عن كلِّ الذنوب مهما كثرت، وسيحاسب عن الذنب مهما كبر، قال تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الحجر:٩٢-٩٣].

الدَّيَّان صيغة مبالغة على وزن فعَّال وصيغة المبالغة إذا اقترنت باسمٍ من أسماء الله الحسنى فلها معنى خاص، وصيغُ المبالغة في أسماء الله عز وجل لا تعْني الذي نحن نعْنيه؛ تقول: بالغ فلان، أي: أعطى الأشياء حجماً زائداً، وفلان يزيد على الحقيقة أشياء كثيرة، أمَّا المبالغة في حقِّ الله عز وجل فهي التعظيم؛ التعظيم الكميُّ والتعظيم النوعيُّ.

الدَّيَّان هو الذي يدين له الخلق أجْمعون.

والدِّين هو الجزاء والمكافأة، والدِّين هو العبادة، والعبادة غاية الخضوع لله عزَّ وجلَّ مع غاية الحبِّ، وكلُّ إنسانٍ عبدٌ لله عز وجل بمعنى أن ناصيتَهُ بيد الله عز وجل، وأنه مقْهورٌ في وجودِهِ وفي استمرار وجودِهِ وفي سلامة وجودِه وفي كمال وجودِه لله عز وجل؛ وجودُهُ متوقِّفٌ على إمداد الله له، وكذا استمرار وجودِه وسلامة وجودِه متوقِّفان على حفظ الله له، وكمال وجودِه متوقِّفٌ على إكْرام الله له.

إذاً عَبْدُ القهْر هو العبْد الذي لا يملِك من أمرِهِ شيئاً، والعبد الذي هو في قَبْضَة الله، أقرب شاهِد لهذا الكلام أنَّ نقطةً من الدم إذا تجمَّدت في أحد أوعية الدماغ انقلبت حياة الإنسان إلى جحيم وصار طريح الفراش؛ وإذا تجمَّدت في مكانٍ آخر فإنَّه يفقِد ذاكِرَتَهُ ولا يعرف أولاده، وفي مكانٍ ثالث يفقِد سمعه وبصرَه، فالإنسان لا يملِك شيئاً، قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران:٢٦].

فهذا عبد القَهْر فمن هو عبْد الشكر؟ هو الذي عرف الله ابتداءً، وعرف منهجَهُ اكتساباً، وأقْبل عليه شوقاً، وخضع لأمره عبودية، فهذا عبْد الشكر، وعبد الشكر يُجمع على عِباد، قال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقان:٦٣].

أما عبد القهر فيُجمع على عبيد، قال تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [فصلت:٤٦].

والدِّين: الطاعة والحساب، قال تعالى: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾ [الغاشية:٢٥-٢٦].

من الذي يُحاسَب؟ المقهور، أمَّا القاهِر فلا يُحاسَب؛ الموظَّف إذا فرغ صندوقُهُ فإنَّه يحاسَب لأنه مقهور، يحاسَب و قد يوضَعُ في السجن، فالذي يحاسَب مقهورٌ دائماً، فالدِّين الطاعة والحساب والقَهْر، والدِّين الغلَبَة والاستعلاء، والدِّين المِلَّة والمذهب، تقول: فلانٌ دينُهُ الإسلام؛ هذا ما ورد في معاجم اللغة حول كلمة الدِّين؛ الجزاء والمكافأة والعبادة والطاعة والحساب والقهر والغَلَبَة والاستعلاء والمِلَّة، أما الدَّيَّان فهو القهَّار والحافظ وهو القاضي:

إذا جـــار الأمـــير وحاجِبـــاهُ وقـــاضي الأرض أسْرَفَ في القضـــاء

فوَيْـــلٌ ثـــم وَيْـــلٌ ثـــمّ ويْـــلٌ لقـــاضي الأرض مـــن قـــاضي السـماء

قال تعالى: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [البروج:١٢].

الإنسان حينما يتوهَّم أنه طليق وأنه يفعل ما يريد، ففي ثانيةٍ واحدة تجده في قبضة الله.

ومعنى الدَّيَّان: الذي لا يُضيِّعُ عملاً، بل يجزي عليه بالخير أو الشّرّ.

فأيُّ عملٍ له جزاء ولو كان ابتغاء الدنيا فلَهُ جزاء في الدنيا؛ أيُّ عملٍ على الإطلاق صالحاً كان أم طالحاً، صغيراً أو كبيراً، لو أنَّ الإنسان ترفَّق بنمْلةٍ وهو يتوضَّأ فنجَّاها من الغرق فهذا العمل له جزاؤُهُ، ولو رأى قشَّةً في المسجد فحَمَلها ووضعها في جيبه فهذا العمل له جزاؤُهُ، ولو أنه قبّل ابنه فهذا العمل له جزاؤه، الدَّيَّان هو الذي لا يُضيِّعُ عملاً، قال تعالى: ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ ﴾ [محمد:٣٥].

البِرّ لا يبْلى، والذنب لا يُنسى، والدَّيَّان لا يموت، اعمْل ما شئت كما تدين تُدان، كنت مرةً مع أحد الأصدقاء ارتكب حادث سير، خلاصته أنه رجع إلى الوراء دون أن ينتبه وكانت وراءه سيارة فدخل في مقدمتها، وكسر مصابيحها، وأتْلف بعض أجزائِها، فنزل صاحب السيارة التي ضُرِبَت فنظر إليه ثم قال: أنا أُسامِحُك فاذهب وشأنَكَ مع السلامة؛ لم أفهم سرّ ما جرى! فإذا بي أرى من صديقي دمعْةً تنحدر على خدَّيْه، فقلت: لعله رجُلٌ ميسور الحال سامحك، هلاَّ وفَّرْت على جيبك ألف ليرة أو الفَيْن؟ فقال: ليس الأمر كذلك، بل إنني قبل عامين كنت في بلدٍ مجاور فصدمَتْ مركبةٌ سيارتي وأصابَتْها بالعطب، كان صاحب المركبة الصادمة رجلٌ ديِّن ومعه زوجتُهُ محجبة، وكذا بناتُهُ، فما أردت أن أُفسِد عليهم نزهتَهم فقلت له: انطلق مع السلامة فأنا أُسامِحُك. فذاك العمل لم يضع ثوابه بل بعد عامين جنيت ثواب ما قدمت، وهو ما رأيتَه الآن! وعلى هذا فقِسْ.

البِرّ لا يبْلى، والذنب لا يُنسى والدَّيَّان لا يموت، اعمل ما شئت كما تدين تُدان، وما أكْرَمَ شابٌّ شيخاً لسِنِّهِ إلا سخَّر الله له من يُكْرِمُهُ عند سِنِّه، فهذا شابٌّ وقف بمركبةٍ عامة لشيخ كبير، قد تدور الأيام ويمضي على هذا الحادث خمسون عاماً، ولا بد من أن يقف يوماً شابٌّ بغاية الأدب لهذا الشيخ الذي كان شاباً، ويُقدِّم له آيات التبجيل والاحترام؛ بل إن القَرْض يؤدى أضعافاً، وما قوْلُكم إنَ الله سبحانه وتعالى وصف كلّ عملٍ صالحٍ على الإطلاق تجاه أي مخلوقٍ كائناً من كان بأنه إقراضٌ لله عز وجل قال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة:٢٤٥].

حدثني أخٌ أنه جَهِد في إنقاذ حياة هرةٍ من الموت، وفي اليوم التالي كاد ابنُهُ يسقُط تحت مركبةٍ وتشْطُرهُ شطرين، لكنَّ إنساناً اندفع من محلٍّ تجاري قريب فأمسك ابنه وأنْقذه من الحادث، يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ [فصلت:٤٠].

﴿ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ ﴾ هو فعلِ أمرٍ يفيد التهديد، فكلُّ شيءٍ له ثمن، وكُلُّ عملٍ له جزاء، إنَّ لكلِّ حَسَنَةٍ ثواباً ولكلِّ سيئةٍ عقاباً، وما من عثْرَةٍ ولا اختلاجِ عِرْقٍ ولا خدْشِ عودٍ إلا بما قدَّمت أيديكم وما يعفو الله عنه أكثر، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشورى:٣٠].

لكننا نرى حوادث كثيرة متفرِّقة لا نعلم خلفياتها ومقدِّماتها، ولا نعلم الفصول الأولى من هذه القصة، وقد تنتهي هذه القصة بحادث مؤلم وبمصابٍ كبير أو بإتلاف مالٍ، وقد تنتهي بتدمير إنسان، ولكن لو أنَّ لك نَفَساً طويلاً ومتابعةً مستمرة؛ وتقَصَّيْتَ أحوال ما يصيب الناس، لوجدت العجب العُجاب، ولوجدتَ يد الله تعْمل في الخفاء، ولوجدْت يد الله فوق أيديهم قال تعالى: ﴿ فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأنفال:١٧].

قال العلماء: «الدَّيَّان في صفة الله عز وجل هو: المجازي، والذي لا يُضَيِّع عملاً، بل يجزي بالخير والشر»، وقيل: «هو فعَّال، من الفعل دان: دانَ الناس يدينهم أيْ قَهَرَهم على الطاعة»، وهذا القَهْر قَهْرٌ تَرْبَوي، فلو افترضنا: ابن مُشاكِس وأبٌ حازم وهذا الأب حمل ابنه على الدراسة إلى أن صار إنساناً ذا مكانة مرموقة في المجتمع، والأب من رحمته الشديدة حمل ابنه على طاعته، فهذا الحَمْل مؤداه إلى الخير، عندئذٍ ينقلب الشعور بالقهر إلى شعورٍ بالرضا والامتنان.

وفي حديث ابن عمر: «اللهم دِنْهُم كما يدينوننا» [أورده ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث]، أي اجْزهم بما يُعاملون به مَن قبلَهم، طبعاً كلمة: مالك يوم الدين كلمة كبيرة جداً، فيوم الدين يوم الدَّيْنونة، وأسماء الله الحسنى كلُّها محقَّقة في الدنيا. أما عدل الله فيحقّق في الدنيا ويبدو أشدّ جلاءً في الآخرة؛ هناك تسوية حسابات، وهناك غنيٌّ وفقير، وهناك مستغِلّ ومستَغَل؛ ومحتال ونصاب وطاغية، وظالم ومظلوم، وهناك من يغتصب

أموال الناس، وهناك من يغتصب أعراضهم؛ ويحتال عليهم بذكائه أو بقوَّتِهِ؛ والمؤدَّى واحد إما احتيالاً أو قهراً؛ فهذا الذي أخذ ما ليس له متى سيُحاسَب؟

سمعتُ مرةً من أحد الدعاة مثلاً أَعْجَبَني؛ لو أنَّ أحداً كان في مسرحية ثم أُرْخِيَ السِّتار قبل انتهاء فصولها فإنَّك لا تجد أحداً قام من مكانه، لماذا؟ لأنه ما انتهت المسرحية فكل بداية لها نهاية، وكل مقدمة لها نتيجة؛ وهذا الذي اغتصب وسرق أموال الناس بالباطل متى توزن له الأعمال؟ إنها توزن يوم الدين؛ حيث توفَّى كل نفس ما كسبت، هذا اليوم إذا غَفَلْنا عنه فنحن أشقى الأشقياء، قال تعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾ [الفاتحة:٤].

هناك سؤال وهو: أليس الله هو مالك الدنيا؟ وهل معنى مالك يوم الدين أنه لا يملِك الدنيا؟ الجواب: لا. فهو تعالى يملِك الدنيا والدين والآخرة، لكن في الدنيا تجد من يدَّعي أنَّه مالِكُها، فهناك من يدَّعي أنَّ الأمر بيد فلان، وأساساً معظم الذين وقعوا في الشِّرك الخفيّ يَرَوْن الناس ولا يروْن الله عز وجل، ويرون أنَّ الأقوياء بيدهم الحلّ والعقد والعطاء والمَنْع والإعْزاز والإذلال، وبيدهم الحياة والموت فيما يبدو لهم، وهناك مَن يدَّعي أنَّ الأمر بيده في الحياة الدنيا وهو المشرك، لكن في الآخرة لا يستطيع أحدٌ أن يدَّعي أنَّ الأمر بيدِه، هناك آيةٌ تُشْبِهُ هذه الآية، قال تعالى: ﴿ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الشورى:٥٣].

بحسب الظاهر، إن الأمور صارتْ إلى الله؛ فبِيَدِ من كانت؟ كانت بيد الله أيضاً، فما معنى هذه الآية إذاً؟ في الدنيا الأمر بيد الله وحْده وليس لأحد من الأمر شيء، إلا أن هناك في الدنيا من يدَّعي أنَّ الأمر بيدِه. أما في الآخرة فيبدو الأمر جَلِياً أنه بيد الله عز وجل، ولا أحد يستطيع أن يدَّعي أنَّ الأمر بيدِهِ فهي قضيةٌ نسْبيَّة.

إذاً مالك يوم الدين يومٌ لا يملِكُهُ أحدٌ. أما في الدنيا فقد تجد إنساناً قُتِل وآخر قُهِر وذاك أُخذ مالُهُ والقويُّ هو الذي أخذ ماله؛ أو قتل أو قهر... إلخ، والقوي هو

الذي قهره... هناك في الدنيا قد تجد من يدَّعي أنَّ الأمر بيدِه، أما في الآخرة فلا يستطيع أحدٌ أنْ يدَّعي أنَّ الأمر بيدِه، فهو مالك يوم الدين، وهناك قراءة (ملِكِ يوم الدين) فالمالك هو الذي يمْلك ولا يَحْكم، والملِك هو الذي يحكُم ولا يمْلِك، والله ملِكٌ ومالِك يَمْلِك ويحكُم، أنت أحياناً تنتفع بشيء ولا تملِكُ رقبته، وقد تملِكُ رقبتَهُ ولا تنتفِع به، والشيءُ الثالث أنك قد تملكه وتنتفع به ولا تملك مصيره، لكنَّ الله سبحانه وتعالى مالك يوم الدين وملك يوم الدين، ويملِك كل شيءٍ خلقاً وتصَرُّفاً ومصيراً.

وهذا ابن عباس رضي الله عنهما يفسِّر معنى قول الله عز وجل ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۞ ﴾ فيقول: لا يملك أحد في ذلك اليوم شيئاً كمُلْكِهِم في الدنيا، حيث كانوا يضعون أيديهم على الكثير ويمتلكونه، ويوم الدين يوم الحساب للخلائق، وهو يوم الآخرة، يدينُهُم بأعمالهم، إن خيراً فخيرٌ وإن شراً فشرٌ إلا من عفا الله عنه.

العلماء يقولون: «تخصيص المُلك بيوم الدين لا ينْفي ما عداه»، وهذه نقطة مهمة جداً فإذا قلنا: الله مالك يوم الدين لا يعني أنه لا يملِك الدنيا، لكن في هذا اليوم يتَّضِح لكل إنسان أنه تعالى مالك يوم الدين، أما في الدنيا فيتَّضِح للمؤمنين فقط أنَّ الله مالك الدنيا، فما الفرق بين المؤمن والمشرك؟ المؤمن يرى أن الله وحْده هو الفعَّال، ولكنَّ المشرِك يرى أنَّ آلهةً كثيرةً تفعل ما تريد.

في الحديث الشريف عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: «يأخذ الجبار سماواته وأرضه بيده وقبض بيده فجعل يقبضها ويبسطها ثم يقول: «أنا الجبار أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟» قال: ويتميّل رسولُ الله ﷺ عن يمينه وعن شماله حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى إني لأقول: أساقط هو برسول الله ﷺ؟ [مسلم وابن ماجه واللفظ له].

كان في الأندلس ملِك شهير جداً، كان ملِكاً على أكبر مقاطعة في إسبانيا، اسمُهُ المعتمد بن عَبَّاد وكان ذا عِزٍّ وشأنٍ وسلطان، وكان ذات يوم يتمشى في حديقة قصره

فرأى بِرْكَة ماء وقد أثَّرت فيها الريح فشَكَّلَت خطوطاً متعارضة وكأنها زَرَد (كأنها حديد مزرود)، فقال هذا الملك وكان شاعراً: نسَجَ الرِّيحِ على الماء زرد، فلما أراد أن يُتَمِّمَ البيت ما استطاع، وتعَثَّرَتْ به شاعِرِيَّتُهُ وكانت وراءهُ جارية فقالت له:

نســـج الـــرِّيح عـــلى المـــاء زرَد أي دِرْع لقتـــال لـــو جَمَـــد

فأُعجب بها وتزوَّجَها وأكْرمها أيَّما إكرام، فقد صارت زَوْجة مَلِك، واشْتَهَت يوماً أنْ تعيش حياة الجواري كما كانت قبل أن يتزوجها الملك، وأنْ تدوس في الطين فجاء لها بمِسْكٍ وكافور ومزجهُما بماء الوَرْد، وجعل من المِسْك والورد طيناً، وقال: هذا هو الطين فدوسي فيه، ثم جاء مَلِك من ملوك إفريقيا اسمه يوسف ابن تاشفين وغزا إسبانيا ووضع كلَّ ملوك دويلات إسبانيا العربية في السجن (ملوك دول الطوائف)، والتاريخ يروي هذه القصة فهذا المَلِك صار سجيناً وصار فقيراً ومُعذَّباً، وشَكَتْ بناتُه الجوع، وزوجَتُهُ العري، وضاقَتْ به هذه الجارية ذرعاً إلى أن صارت تقسو عليه، وقالت له مرةً: ما رأيتُ منك خيراً قط، فقال لها: ولا يوم الطين؟! فاسْتَحْيَت وسكَتَتْ.

لهذا في بعض الأحاديث أن النسوة اللاتي رآهن ﷺ أكثر أهل النار هُنَّ مَنْ يَكْفُرْنَ العشير إذا أحْسَنْتَ إلى إحداهُنّ الدهر كلّه ثم رأتْ منك شيئاً قالت: لم أرَ منك خيراً قطّ [انظر صحيح البخاري الحديث (٢٩) عن ابن عباس]؛ وإنْ قُلْتَ لها كلمة قاسية فلن تنْساها إلى الأبد، أما كلُّ الإكرام فإنها تنْساه، أجل تنساه المرأة التي ما عرفتْ ربَّها، وأيُّما امرأةٍ لا تشكر لزوجِها -وهي لا تستغني عنه- لم ترِحْ رائحة الجنَّة.

عن ثوْبان عن النبي ﷺ قال: «المُخْتَلِعاتُ هُنَّ المُنافِقاتُ»، ورُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنه قال: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ اخْتَلَعَتْ مِنْ زَوْجِهَا مِنْ غَيْرِ بَأْسٍ، لَمْ تَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ» [سنن الترمذي].

وروي أن النبي ﷺ قال: «إني لأبغض المرأة تخرج من بيتها تجر ذيلها تشكو زوجها» [رواه الطبراني، عن أم سلمة]. ومن صفات المرأة المؤمنة أنها سِتِّيرة.

وفي القرآن الكريم قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ [البقرة:٢٤٧].

فالإنسان يوصَف بأنَّهُ ملِك وفي الحديث قال ﷺ:

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الأَنْصَارِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ أَنساً رضي الله عنه يَقُولُ: دَخَل رَسُولُ الله ﷺ عَلَى ابْنَةِ مِلْحَانَ فَاتَّكَأَ عِنْدَهَا ثُمَّ ضَحِكَ فَقَالتْ: لِمَ تَضْحَكُ يَا رَسُولَ الله؟ فَقَالَ: «نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي يَرْكَبُونَ البَحْرَ الأَخْضَرَ فِي سَبِيلِ الله، مَثَلُهُمْ مَثَلُ الْمُلُوكِ عَلَى الأَسِرَّةِ» فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ الله ادْعُ الله أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَالَ: «اللهمَّ اجْعَلْهَا مِنْهُمْ» ثُمَّ عَادَ فَضَحِكَ فَقَالَتْ لَه: مِثْلَ -أَوْ مِمَّ- ذَلِكَ؟ فَقَالَ لَهَا: مِثْلَ ذَلِكَ، فَقَالَتِ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَالَ: «أَنْتِ مِنَ الأَوَّلِينَ وَلَسْتِ مِنَ الآخِرِينَ» [صحيح البخاري].

هناك سؤال وهو: كيف نقول: مالك يوم الدين ويوم الدين لم يأْتِ بعْد؟ يجيب الإمام القرطبي عن هذا السؤال فيقول: اعْلم أنَّ مالكاً اسم فاعل مِن مَلَكَ يَمْلِكُ، واسم الفاعل في كلام العرب قد يُضاف إلى ما بعْده وهو بمعنى الفعل المستقبل، ويكون ذلك عندهم كلاماً سديداً معقولاً صحيحاً كقولِك: هذا ضارِبُ زيدٍ غداً، أي: سيضرِبُهُ غداً، واللغة الدارجة كذلك تشير إلى هذا المعنى.

إذاً إذا قلنا: مالِك يوم الدين، أي إنَّ الله جلَّ جلاله حينما يأتي ذاك اليوم فلا مالِك سواه، وعلى كلٍّ: إنَّ لكلِّ سيئةٍ عقاباً، ولكلِّ حسنةٍ ثواباً، واعملوا ما شئتم فالبر لا يبْلى والذنبُ لا يُنسى والدَّيَّان لا يموت، اعمل ما شئت كما تدينُ تدان، والدَّيَّان هو الذي لا يضيع على مخلوقٍ عملَهُ.

لي صديق يقيم ببلدٍ عربي له قريبٌ حالُهُ وسط من حيث التدين والأخلاق والاستقامة، وله أولاد أقلُّ من الوسط من حيث البِرّ، وهذا القريب أصيب بمرضٍ

قبل وفاتِه، فرأى الناس من بر أبنائِهِ به الشيء الذي لا يُصَدَّق، فلا هو يستحق هذا البر، ولا أولادُهُ في هذا المستوى الراقي؛ فمن الذي جعلهم يُقْبِلون على خِدْمَتِهِ إقبالاً عظيماً؟ فهو وسَطٌ في تديُّنِه واستقامتِهِ وفي أُبُوَّتِهِ، وأولادُهُ أقلّ من الوسَط في أخلاقِهم وتديُّنِهم، أما حينما مرض مرضاً عُضالاً فقد أقْبلوا على خدمتِهِ إقبالاً مُنْقَطِع النظير، حتى أصبحت خدمتهم له مضرب المثل!... فهذا الصديق بقي أشهُراً يُحلِّل هذا الموضوع إذ يصعُبُ تفسيرُه. فكان تفسير هذا الخبر أنَّ هذا المريض كان باراً بأبيه فبرّه أولاده، البِرّ لا يبْلى والذنب لا يُنسى.

كلُّ عملٍ له جزاؤُهُ إنْ خيراً فخيرٌ، وإنْ شراً فشر، الدَّيَّان هو الذي يدين خلْقه أي يُخْضِعُهُم أو يُجازيهم ويُكافِئهم أو يحْمِلهم على طاعَتِه أو يُحاسِبُهم، فالله سبحانه وتعالى هو المحاسب، والشيء المهم أنَّ الله تعالى له أوامِر تكليفية وأوامر تكوينية.

والدّيّان يقيم عليك الحجة والبرهان.

فالقاضي العادل يحاكم المذنب محاكمة أصولية، ويدينه بأخطاء ثابتة، فحينما يحكم عليه بعقاب أليم فهذا العقاب مبرَّر، وبطولة القاضي أن يقدِّم له الدليل على أنه مذنب، قال تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء:١٤].

الديان هو الذي خضعت له الخلائق خضوع إقرار، وخضوع قوة.

قد يكون الإنسان قويّاً، ولكن ليس معه -حجَّة، فهذا قمعيٌّ، و قد تكون معه حُجَّة، ولكنَّه ضعيف، لا يستطيع أن يأخذ الحقَّ من القوي إلى الضعيف.

أمَّا ربنا عز وجل فقويٌّ، والحجّة قائمة منه على عباده، قال تعالى: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ﴾ [الأنعام:١٤٩].

نصيب المؤمن من اسم الله الديان

المؤمن الذي يعرف الله الدّيّان، يدين نفسه ويحاسبها حساباً عسيراً في الدنيا، وقد روي في الحديث الشريف:

عَنْ أَبِي يَعْلَى شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ، وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، ثُمَّ تَمَنَّى عَلَى الله» [رواه ابن ماجه والترمذي].

دان نفْسَهُ، أي: ضَبَطَها وأخْضَعَها، وألْزَمَها كلمة التقوى، وحمَلَها على طاعة الله وجعلها مستقيمةً.

العاجز يقول لك: نسأل الله تعالى أن يرحَمَنا وأنْ يغْفِر لنا ونحن مقصِّرون، ونحن عبيد إحسان ولسنا عبيد امتحان، ولا تَسَعُنا إلا رحمة الله عز وجل، يقول هذا وهو كلامٌ حقٌّ لكن يُراد به الباطل؛ فهو لا يخاف الله، ولا ينْزَجر ولا يأْتَمر بها أمر الله، ولا يحمِل نفْسَه على طاعة الله ولا يحْرِص على رضوانِه، وهو يُطلق لشهواتِهِ العِنان ويُرْخي لنفسِه الحبل، وهذا هو العاجز الذي أَتْبَعَ نفْسَه هواها وتمنى على الله الأماني، الكَيِّس من دان نفْسَه.

السَّمَكات الثلاث التي رآها أحدُ الصيادَيْن، فقد توعَّد أنْ يرجِع مع صديقِه ليصطاد هذه السمكات، فسَمِعت السمكات قَوْلَهُما، قال كاتب القصة: إحدى هذه السمكات كيِّسَة، والثانية أكْيَسُ منها، والثالثة عاجزة، أما أكْيَسُهُنَّ فإنها ارتابَتْ وتخوَّفَتْ وقالت: العاقِل يحْتاط للأمور قبل وقوعِها، ثم إنها لم تُعرِّج على شيءٍ حتى خَرَجَت من المكان الذي يدخل منه الماء من النهر إلى الغدير، فَنَجَتْ. وأما الكيِّسَة الأقل عقْلاً وذكاءً فَبَقِيَت في مكانِها حتى عاد الصيادان، فذَهَبتْ لتخرج من حيث خرجت صديقَتُها فإذا بالمكان قد سُدَّ، فقالت: فَرَّطْت وهذه عاقبة التفريط، غير أن العاقل لا يقْنَط من منافع الرأي، ثم إنها تماوَتَت فَطَفَتْ على وجه الماء فأخذها الصياد ووضَعها على الأرض بين النهر والغدير ريثما ينتهي فيأخذها، فوَثَبَت في النهر فَنَجَتْ. وأما العاجزة فلم تزل في إقْبالٍ وإدْبار حتى صيدَتْ. وهذه السَّمَكات الثلاث تمثل ثلاثة نماذج بشرية؛ إنسان يحتاط للأمور قبل وقوعِها، وإنسانٌ يحتاط لها حين وقوعِها وإنسان لا يحتاط لها لا قبل وقوعِها، ولا حين وقوعِها، ولا بعد وقوعِها.

قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف:٢٨].

روي عَنْ عَوْفِ بْنِ مالِكٍ أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَضَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ، فَقالَ المَقْضِيُّ عَلَيْهِ لَمَّا أَدْبَرَ: حَسْبِيَ اللهُ ونِعْمَ الوَكِيلُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «رُدُّوا عَلَيَّ الرَّجُلَ»، فَقَالَ: «ما قُلْتَ؟» قالَ: قُلْتُ: حَسْبِيَ اللهُ ونِعْمَ الوَكِيلُ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ يَلُومُ عَلَى العَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بالكَيْسِ، فإذا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ: حَسْبِيَ اللهُ ونِعْمَ الوَكيلُ» [رواه أحمد].

«إنَّ اللهَ يَلُومُ عَلَى العَجْزِ»، الخُنوع والاستسلام والضعف وعدم السعي وعدم التدبير، وهذا النَّمط الكسول والمُسْتَسْلِم والمُسْتَخْذي، هذا النمط يلوم الله عليه: «إنَّ اللهَ يَلُومُ عَلَى العَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بالكَيْسِ، فإذا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ: حَسْبِيَ اللهُ ونِعْمَ الوَكيلُ».

لو أنَّ إنساناً أُصيب بمرضٍ شديد جداً قبل الامتحان فماذا يفعل؟ هذا قدر الله عز وجل، ولا تقل: حسبيَ الله ونِعْم الوكيل إلا إذا غُلِبْت على أمْرك؛ على الإنسان أن يسعى وليس عليه إدراك النجاح. والله هذا الحديث وحْدَهُ لو فَهِمَهُ المسلمون في شتى أقْطارِهم ولو فهموا أبْعادهُ لكانوا في حالٍ غير هذه الحال، وينتفي عندئذٍ عنهم الكَسَل والتَّواكُل والاستسلام والانهزام والخُنوع والخضوع؛ ليس بيدك من الأمر شيءٌ، وإنما بيد الله كلُّ شيءٍ، فإذا كنت مع الله كان الله معك، وإذا اسْتَعَنْتَ به أعانك، وإن اسْتَنْصَرْتَهُ نصرك، وإنْ اسْتَهْدَيْتَهُ هداك، وإن اسْتَرْشَدْتَهُ أرشَدَك، وإنْ اسْتَلْهَمْتَهُ ألهَمَك:

أوحى الله تعالى إلى داود: ما من عبد يعتصم بي دون خلقي، أعرف ذلك من نيته، فتكيده السموات بمن فيها، إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً، وما من عبد يعتصم بمخلوق دوني، أعرف ذلك من نيته، إلا قطعت أسباب السماء بين يديه،

وأهويت الأرض من تحت قدميه، وما من عبد يطيعني إلا وأنا معطيه قبل أن يسألني، وغافر له قبل أن يستغفرني.

لذلك قالوا: إذا كان الله معك فَمَن عليك؟ وإذا كان الله عليك فمن معك؟!

أكثر الناس الآن يعيشون وقْتَهُمْ ولحْظَتَهم ويوْمَهُمْ وساعَتَهم ويُعْطون أنفُسَهُم ما تشْتَهي، أما الغد فلا يُفَكِّرون فيه إطْلاقاً؛ فمن علامات العاقل الفذ أَنَّهُ يعيش الغد، ومن علامات الأقل عَقْلاً أَنَّهُ يعيش الحاضر، ومن علامات الجاهِل أَنَّهُ يتغَنى بالماضي كما قال بعض شعراء بكر بن وائل:

ألهى بني تغْلِبٍ عن كلِّ مكْرُمَةٍ قصيدةٌ قالها عمرو بن كلثوم

فالجاهِل يتغنّى بالماضي والأقلُّ عقلاً يعيش لحظتَهُ، والعاقِل جداً يعيش المستقبل.

لذلك هناك من يخطط لمستقبله، وهناك من تكون حياتُه ردود فعلٍ دائماً، يكون الفعل من خَصْمِهِ ويُفرَض عليه مكان وزمان الفعل، ومُهِمَّتُهُ ردّ الفعل؛ فهو إنسانٌ ضعيف لا يخطِّط للمستقبل، أمَّا المؤمن فإنه يعيش المستقبل وساعةَ فِراق الدنيا، هذه الساعة التي يغْفَل عنها الناس، قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [ق:٢٢].

أما الصالحون فقد قال أحدهم: والله لو كُشِفَ الغِطاء ما ازْدَدت يقيناً.

فالمؤمن يعيش المستقبل والمصير، وهذه الساعة التي لا بد منها ما نجا منها أحدٌ، لا نبيّ ولا ملِك ولا غنيّ ولا قويّ ولا ضعيف ولا صحيح ولا مريض ولا عاجِز ولا وسيم ولا دميم... فالمؤمن يستعدُّ لساعة الموت بالعمل الصالح؛ بإنفاق علمه وماله ووقته وعضلاته وخبراته وطاقاته وبكلِّ ما يملك؛ يستعدُّ لهذه اللحظة كي يكون القبر روضةً من رياض الجنة، فإن لم يستعدَّ للقبر أصبح القبر حُفرةً من حفر النار، قال تعالى: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [غافر:٤٦].

وهذا أخٌ كان له أُخْتٌ عانِس ويبالغ في إهانتِها هو وزوجته، وينفجر أمام أولادِهِ وزوجتِه عليها ويؤنبها، وهذه الأخت صابرة ليس لها إلا هذا الأخ، وفي إحدى الليالي كانت جالسة على الأرض وهو على كرسي وزوجتُهُ إلى جَنْبِهِ، فأراد أن يشرب كأس ماء فَرَكَلَ أُخته برِجْلِه وقال: ائتِني بكأس ماء، وفي اليوم التالي سافر فوَقَعَ ضحية حادث فقُطِعَتْ رِجْلُهُ التي ركل بها أخته من أعلى الفَخِذ، فالله هو الدَّيَّان، وهذا رجل آخر كان يقود مَرْكبة في الطريق، فوَجَد كلْباً صغيراً يقْبَع على حافة الطريق، ففكَّر هذا السائق أن يُجَرِّب براعَتَهُ في القيادة فقطَع يدي الكلب دون أن يقْتُلَهُ، وأطْلق ضحكةً هستيرية، أَقَسَم لي رجل أعْرِفُهُ وهو عندي صادِق -وكان يركب مع هذا الإنسان- أنه في الأسبوع الثاني، وفي اليوم نفسه من الأسبوع التالي انفجرت معه عجلة السيارة فأوْقَفَها على الطريق ليُصلحها، ورفع السيارة بجهاز الرَّفْع وفَكَّ العجلةَ، وفي أثناء فكِّ العجلة من مكانِها اخْتَلَّ جِهاز الرفْع ووقعت السيارة على يدَيْهِ عند الرسغين، وإلى أنْ وصل إلى المستشفى اسوَدَّت يداه فاضْطُرَّ الطبيب إلى قَطْعِهما؛ الله الدَّيَّان، وهو الواحد الدَّيَّان، والبِرُّ لا يبْلى، والذَّنْبُ لا يُنسى، والدَّيَّان لا يموت، اعْمل ما شئت كما تدينُ تُدان.

المنّان

ورد اسم المنّان في السّنّة المطهرة، في سنن أبي داود، من حديث أنس رضي الله عنه، أنّه كان مع رسول الله ﷺ رجلٌ يصلي، ثم دعا، فقال:

«اللهمَّ إني أَسأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الحمدَ، لا إِلهَ إِلا أَنْتَ، المَنَّانُ، بَديعُ السَّمَواتِ والأرضِ، ذو الجَلالِ والإِكْرَامِ، يا حَيُّ يا قَيُّومُ، فقال رسولُ الله ﷺ لأصحَابِهِ: أَتَدرونَ بمَ دَعَا؟ قالوا: اللهُ ورسولُهُ أعلم، قال: والذي نفسي بيده، لَقَدْ دَعا الله باسمه الأعظم، الذي إِذَا دُعِيَ به أَجَابَ، وإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى» [أبو داود] .

وقد اختلف العلماء في اسم الله الأعظم، فقال بعضهم: الرحمن، وقال بعضهم: الرحيم، وقال بعضهم: المنّان، وقال بعضهم: هو الله، وهناك من العلماء من يجتهد أنَّ اسم الله الأعظم هو الاسم الذي أنت بحاجة إليه، فإذا كان العبد مريضاً فاسم الله الأعظم بالنسبة إليه هو الشافي، وإذا كان العبد فقيراً فاسم الله الأعظم هو الرّزّاق، وإذا كان العبد ضعيفاً فاسم الله الأعظم هو القويّ.

من معاني اسم الله المنان

المنَّان صيغة مبالغة، مِن الفعل منّ يمُنّ مَنّاً، ومنّ، يمنُّ، أي قطع يقطع، ومنّ عليه، أي أحسن وأنعم عليه، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣﴾ [القلم:٣].

أي غير محسوب، أو غير مقطوع، أو غير منقوص، والمنَّة؛ النعمة الثقيلة.

قدَّم إنسانٌ لإنسان هدية بألف ليرة، وهذا عمل طيب، أمَّا أن يعطيك بيتاً، ومركبة، وأرضاً، ورأس مالٍ، بلا مقابل، فهذا عطاء كبير بمقياس البشر.

فالمنُّ هو النعمة الثقيلة، ولا تكون حقيقة إلا لله عز وجل، لأنَّ الله سبحانه وتعالى منحك نعمة الإيجاد، أوجدك، ولم تكن شيئاً مذكورا، منحك نعمة الإمداد، منحك نعمة الهدى والرشاد، فالنعم العظيمة، النعم الجليلة، هي نعم الله عز وجل.

وأكبر نعمة يمكن أن تصل إليها هي نعمة الهدى، لأنَّ المال عرض حاضر، يتوقَّف القلب فتصبح كلُّ أموالك المنقولة وغير المنقولة للورثة، في ثانية واحدة كان إنساناً ملء السمع والبصر فأصبح خبراً على الجدران، كان إنساناً فصار جُثَّةً، وأحيانا يسافر الإنسان راكباً فيرجع بضاعة في صندوق، فلذلك لا يليق بكرم الله أن يكون عطاؤه منقطعاً، والدنيا دار انقطاع، فالموت ينهي غنى الغني، وفقر الفقير، ينهي قوّة القويِّ، وضعف الضعيف، ينهي وسامة الوسيم، ودمامة الدَّميم، ينهي صحة الصحيح، ومرض المريض.

الدنيا دار بلاء وانقطاع، ينتقل الإنسان من كلِّ شيء إلى لا شيء، كان بتوقيع على دفتر الأوراق النقدية يمنح مليارات، فأصبح ملفوفاً بكفن.

فالمنن هي النعم الثقيلة، ولا تصح حقيقة إلا بنعم الآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٧١﴾ [الأحزاب:٧١].

فالمنَّان هو الذي يقدِّم لك نعمة ثقيلة، ولكنَّ هناك مَن يمنّ عليك، فيقول لك مثلاً: لحم كتفك من خيري، وهذا منٌّ بالقول، وهو مستقبَح؛ ولكنَّ العلماء أجازوه في حالة نادرة، حينما تُكفَر النعمة.

وفي الحديث: «ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بي» [أخرجه الطبراني عن عبد الله بن عباس].

وقد قال الشاعر:

أعلّمه الرِّماية كلَّ يوم فلمّا اشتدَّ ساعده رماني
وكم علّمته نظم القوافي فلمّا قال قافية هجاني

فالمنّ بالفعل لا يليق إلا لله، أمّا المنّ بالقول فيفعله معظم السفهاء، قال تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٤].

المنّان هو الله عز وجل، ذو الهبات العظيمة، والعطايا الوافرة، الذي ينعم، ويبدأ بالنَّوال قبل السؤال.

للتقريب: أبٌ كريمٌ، قويٌّ، غنيٌّ، ابنه بحاجة إلى ثياب جديدة، الكمال المطلق يقتضي أن يشتري له هذه الثياب دون أن يسأله، فمن كمال الله عز وجل أن يعطي قبل السؤال.

ويقول تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾﴾ [المدثر:٦].

لا تمنن من أجل أن تستكثر الرّدّ.

أحياناً يدّعي إنسانٌ الذكاء، يقول: أنا الآن أخدمه، لكنَّ لي مصلحة معه، أنتظر في وقت ما أن أستردَّ منه هذه الخدمات عطاءً كبيراً، لكنَّ الله سبحانه وتعالى يمنحك كلَّ شيء، ولا يطالبك بشيء.

وقد روى الإمام البخاري رحمه الله تعالى حديثاً رائعاً عن معاذ بن جبل قال: كنت ردف النبي ﷺ.

«قال يا معاذ: هل تدري ما حقُّ الله على العباد؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم -سأله ثانية وثالثة- قال: فإن حقَّ الله على العباد: أن يعبدوه» [أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن معاذ بن جبل].

أنت حينما تعبد الله تؤدي واجب العبودية، وهذا من حق الله عليك.

القسم الثاني من هذا الحديث يملأ القلب أمناً وأماناً، يملأ القلب طمأنينة، يملأ القلب ثقة بالله عز وجل، كيف بإله عظيم يعطي إنساناً ضعيفاً حقاً عليه؟!

ثم قال: «يا معاذ بن جبل، قلتُ: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: هل تدري ما حقُّ العباد على الله إذا فعلوا ذلك قال: يا معاذ حقُّ العباد على الله إذا هم عبدوه ألا يعذِّبهم»

المنّ هو العطاء الثقيل في حجمه، وسيّدنا موسى قال: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القصص:٢٤].

سقى للفتاتين، فقدّم عملاً صالحاً، وهذا هو الخير، أمّا في الدنيا فهناك شركات عملاقة، ميزانياتها أكبر من ميزانيات دول، أهم شيء أن عطاء الله الذي يليق بكرمه لا ينتهي عند الموت، بل يبدأ بعد الموت.

«ولو كانت الدنيا تَعْدِلُ عند الله جَناح بعوضة ما سَقَى كافراً منها شَربة ماءٍ» [أخرجه مسلم وأبو داود عن جابر بن عبد الله].

ومما منَّ علينا به المنّان ما ورد في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران:١٦٤].

إنّ أكبر عطاء منَّ الله به علينا هو هذا النبي العظيم، قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس:٥٨].

ويقول تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران:١٦٤].

فالرسول بشر، ولولا أنَّه بشر لما كان قدوة لنا، يشتهي المرأة، يشتهي المال، يشتهي الراحة، يشتهي السلامة، لولا أنَّ النبيَّ ﷺ بشر، تجري عليه كلُّ خصائص البشر لما كان سيِّدَ البشر.

الله عز وجل له آيات قرآنيّة، وله آيات كونية، وله آيات تكوينية.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [الجمعة:٢].

يزكيهم، يطهِّر نفوسهم من الأدران، فلا يوجد مؤمن كذّاب، لا يوجد مؤمن محتال، لا يوجد مؤمن لا ينجز الوعد، لا يوجد مؤمن لا يقيم العهد، لا يوجد مؤمن يقسو، والإيمان هو الخلق، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الإيمان، يقول تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ [الأعلى:١٤].

أذكِّركم بقول سيدنا جعفر للنجاشي لمّا سأله عن الإسلام قال: «أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه، وصدقة، وأمانته، وعفافه» [أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن أم سلمة أم المؤمنين].

إن حدثك فهو صادق، إن عاملك فهو أمين، إن استثيرت شهوته فهو عفيف.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة:٢].

والحكمة هي السّنّة، ففي الكتاب تجد أحكاماً كليّة، وفي السّنّة تجد أحكاماً تفصيلية، يقول ﷺ: «تَرَكْتُ فيكُمْ أَمْرَيْنِ لنْ تَضِلُّوا ما تَمَسَّكْتُمْ بهما: كتابَ الله، وسنّة رسولِهِ» [أخرجه مالك عن مالك بن أنس].

نصيب المؤمن من اسم الله المنان

الله عز وجل منَّان، وأنت أيّها المؤمن هل تعطي أو تأخذ؟ ما الذي يسعدك أن تعطي أو أن تأخذ؟ إن كان الذي يسعدك أن تعطي فأنت من أهل الآخرة، وإن كان يسعدك أن تأخذ فأنت من أهل الدنيا.

حينما تُعطي يجب أن تذوب لله شكراً، لأنه سمح لك أن تعطي، والعطاء والأخذ لا علاقة لهما بالذكاء، فقد تجد إنساناً قِمَّة في الذكاء، وهو مضطر أن يبذل ماء وجهه ليأخذ، وقد تجد إنساناً قِمَّة في الذكاء، ومع ذلك فهو فقير، يضطر أن يسأل، ويتذلَّل، وإنسان آخر أقلّ ذكاء، وأقلّ فهماً، لكنَّ الله رزقه، فإذا أعطيت فيجب أن تذوب شكراً لله أنَّه سمح لك أن تعطي، ولم يُلجئك إلى أن تأخذ.

قدّم أحد المحسنين مرَّة بيتاً في موقع جيّد جداً لمشروع خيري، القائمون على هذا المشروع الخيري أقاموا له حفلاً تكريميّاً، وكلُّ المتكلمين أثنوا على إحسانه وعطائه إلا رجلاً واحداً قال كلاماً آخر، قال له: أيها المحسن الكبير، كان من الممكن أن تكون أحد المنتفعين بجمعيتنا، وأن تقف في رتل طويل تنتظر دورك لقبض مبلغ يسير، ولكنَّ الله أكرمك بأنك تُعطي ولا تأخذ.

ومن عرف أنّ الله وحده هو المنَّان فإنّه لا يمنّ على عباد الله بما قدّم، فهناك إنسان يفعل خيراً ولا ينساه، ويذكّر من أحسن إليه بإحسانه على الدوام، وهذا ليس من شأن المؤمن.

ومن المنّ القولي ما ورد في قوله تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ [الحجرات:١٧].

الله منّ عليكم بالعطاء، وأنتم تمنون بالقول، والمنّ القولي مستقبَح، وهو يذهب أجر العمل الصالح، فإن فعلت خيراً فيجب أن تنساه إلى الأبد، وكأنك لم تفعل شيئاً، والأكمل أنّه إذا فُعل معك معروف فينبغي ألا تنساه ما حييت، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ [البقرة:٢٣٧].

أكمل موقف لمن أحسنت إليه ألا ينسى هذا الفضل، وأكمل موقف لمن أحسن أن ينسى، المحسِن يجب أن ينسى، والمحسَن إليه ينبغي ألا ينسى.

ومن أخلاق المحسِن أنّه لو ذكر إنسانٌ فضله فإنّه يقول: لله المنّة، والفضل، ولمّا قال النبي ﷺ للأنصار: «ألم تكونوا ضلالاً» .

لم يقل فهديتكم، بل قال: «فهداكم الله بي» .

فإذا أراد جل جلاله إظهار فضله عليك خلق الفضل ونسبه إليك، والتَّواضع موقف موضوعي، وليس موقف مجاملة.

المنّان هو الله تعالى، والمؤمن يعطي ممّا أعطاه الله تعالى، ولا يمنّ على عباد الله، بل لسان حاله دائماً ما قاله الأنصار لسيدنا محمد: المنُّ لله ولرسوله.

المالك

اسم الله «المالك» ورد في القرآن الكريم مضافاً، وإن كانت الإضافة تحمل معنى الإطلاق في الملكيّة، ولكنّه ورد أيضاً في السّنّة النّبويّة مطلقاً، فمن القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾ [الفاتحة:٤].

وقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ ﴾ [آل عمران:٢٦].

كل شيء يُملك هو مالكه، أما المُلك فيراد به عالم الشهادة غالباً، أو الحياة الدنيا بصفة عامة، والملكوت يراد به في الأعمّ الأغلب عالم الغيب أو عالم الآخرة، والله عز وجل مالك المُلك والملكوت، يعني مالك عالم الدنيا وعالم الآخرة، مالك عالم الشهادة، وعالم الغيب، قال تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ﴾ [الأعراف:١٥٨].

الآن إذا كان الحق سبحانه وتعالى مالكاً لعالم الغيب والشهادة وما فيهما كما بينت الأدلة السابقة، فهو المالك إذاً على سبيل الإطلاق، أزلاً وأبداً.

وقد ثبت ذلك عند مسلم عن أبي هريرة حين ورد اسم «المالك» في الحديث الصحيح مطلقاً، فقد قال ﷺ: «إِنَّ أَخْنَعَ اسم عند الله رجلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الأَمْلاك، لا مالك إلا الله» [متفق عليه عن أبي هريرة].

معنى اسم الله (المالك)

«المالك» في اللغة اسم فاعل، وفعله ملك، يملك، فهو مالك، والله عز وجل مالك الأشياء كلّها، مالكها ومصرّفها، في عالم الإنسان قد تملك بيتاً، ولا تنتفع منه.

لكنّ ملكية الله جلّ جلاله مطلقة، مالك الملك، مالك كل شيء خلقاً، وتصرفاً، ومصيراً.

إنّ ملكية الله جلّ جلاله لعالَم الغيب وعالَم الشهادة، للدنيا والآخرة ملكيّة مطلقة، إذاً مالك الأشياء كلها ومصرّفها على إرادته، لا يمتنع عليه منها شيء، آلاف الأشياء قد نملكها ملكاً ظاهراً ولا نملك التصرّف فيها، لأن مالك الشيء في كلام العرب هو المتصرّف فيه والقادر عليه.

وقد قرأ نافع وحمزة (مَلِكِ يوم الدين) بغير ألف، وقد قرأ عاصم والكِسائيّ: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾ .

والله عز وجل مالك المُلك، ملكه عن أصالة واستحقاق، لأنه الخالق الحيُّ القيُّوم الوارث، علة استحقاق الملك أمران، الأول: صناعة الشيء و إنشاؤه واختراعه، فالعاقل يعلم عقلاً أن المخترع له براءة الاختراع، والمؤلف له حق الطبع والنشر، وفي الحديث: «من أحيا أرضاً مَيْتَةً فهي له» [البخاري عن عمر بن الخطاب].

والله ما من تشريع حضاري، ما من تشريع يقلب الأرض القاحلة جنة كهذا التشريع.

أرض جرداء حفر إنسان فيها بئراً، واستخرج ماءً، وشجّرها، وزرعها، وسورها، لو طبقنا هذا التشريع النبوي بشكل واسع لانقلبت بلادنا جنات خضراء.

الأمر الثاني: حق التصرف في الملك، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف:٥٤].

ويقول تعالى: ﴿۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾ [الكهف:٥١].

والنبي ﷺ يقول: «كانَ الله ولم يكن شيءٌ قَبْلَهُ وكان عَرْشُهُ على الماءِ، ثُمَّ خَلَقَ السماوات والأرضَ، وَكَتَبَ فِي الذِّكرِ كُلَّ شيء» [أخرجه البخاري والترمذي عن عمران بن الحصين].

ولأن الله ملك كل شيء في عالم الشهادة والغيب، فدوام الحياة علة أخرى لاستحقاق الملك، لأن الموت يوجب انتقال الملكية من جهة إلى جهة، أما الله عز وجل فحيّ باقٍ على الّدوام، وهو الوارث الباقي بعد فناء خلقه، فعلّة الخلق، وعلّة دوام الحياة توجبان أن الله مالك كل شيء، أزلاً وأبداً، دنيا وآخرة، شهادة وغيباً.

ومعلوم أنّ كلّ من على الأرض ميّت، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧].

وقوله أيضاً: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [العنكبوت:٥٧].

ولما كانت الحياة وصفاً لذات الله عزّ وجلّ فالله تعالى يقول: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ [آل عمران:١٨٠].

من معاني (مالك الملك) جل جلاله

نعود إلى قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران:٢٦].

المُلك هو الكون. والكون ما سوى الله؛ والكون ممكن الوجود، وما سوى الله هو المُلك. لكنَّ السؤال لِمَ جاء المُلك مفرداً؟ مع أن هناك سماوات، ومجرات، ومذنبات،

وثقوباً سوداء، ومسافات بينيّةً شاسعة، والأرض فيها أودية، وجبال وصحراء وسهول وطيور وحيوانات وإنس وجن.

خلقٌ كثير لا يعلمهم إلا الله: في البحار وحدها أكثر من مليون نوع من السمك. كل هذا الكون سماه الله مُلكاً بلفظ المفرد فما حكمة ذلك؟ الحكمة أن الكون كله متناسق بعضه مع بعض، كل جزء فيه يعمل للمجموع، لأن الله سبحانه وتعالى صنعه؛ فالحيوان للإنسان، والنبات للحيوان، والتراب للنبات، والماء للتراب، وحجم الأرض يتناسب مع طاقة الإنسان، وسرعتها حول نفسها تتناسب مع إمكاناته وهكذا... أهم كلمة في هذا الكون أنه وحدة متكاملة والله سبحانه وتعالى مالك الملك وأمره نافذ فيه. يقول تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى:٥٣].

قد يسأل سائل: بِيَدِ من كانت حتى آلت إليه؟ الحقيقة: هي إليه أولاً وآخراً؛ ولكن أهل الدنيا والمشركين والكفار، والفجار، والمنافقين، وضعاف الإيمان، يرون في الأرض آلهةً كثيرة؛ مراكزَ قوى، وأشخاصاً أقوياء، يأمرون فيُطاعون، ويدمرون، يعطون... يرفعون... يخفضون... أما المؤمن فلا يرى إلا الله في الدنيا، يرى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح:١٠].

يرى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣]..

يرى أنه: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [فاطر:٢].

يرى أنه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤].

يرى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾ [الزمر:٦٢].

يرى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود:١٢٣]. فهذه رؤية المؤمن، لا يرى مع الله أحداً، وهذا هو التوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، لكن العصاة

والمشركين والكفار يرون أشخاصاً أقوياء إرادتهم نافذة فيحسبونهم أنداداً، أما الحقيقة فهي أنه لا ينفذ في كون الله إلا إرادة الله. ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

﴿ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ﴾ [الرعد:٤١].

﴿ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الكهف:٢٦].

فالمؤمن الصادق لا يرى مع الله أحداً، يرى صوراً ودُمىً تُحرَّك في الخفاء، لكن الله هو كل شيء، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣].

لذلك: ﴿ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الشورى:٥٣].

حتى الكفار يوم القيامة يرون أن الأمور كلها بيد الله. أما المؤمنون فهم وحدهم الذين يرون هذه الحقيقة في الدنيا، الكفار تغيب عنهم هذه الحقيقة فيرون الأمور بيد زيد أو عبيد.

التابعيُّ الجليل الحسن البصريّ استدعاه والي البصرة عمر بن هبيرة في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك، وكان قد جاءه البريد يحمل توجيهاً؛ إنْ نَفَّذه، أغضب الله سبحانه وتعالى، وإن لم ينفذه أغضب الخليفة يزيد، وربما عزله من منصب الولاية. فوقع في حيرة شديدة فسأل الحسن البصري، فأجاب الحسنُ البصري جواباً جامعاً: إنّ الله يمنعك من يزيد، ولكنّ يزيد لا يمنعك من الله. بمعنى أنه إذا غضب أهل الأرض جميعاً عليك والله راضٍ عنك، فلن يستطيعوا أن يفعلوا لك شيئاً يضرّك.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أهدي إلى النبي ﷺ بغلة أهداها له كسرى فركبها ثم أردفني خلفه، ثم سار بي مليّاً، ثم التفت فقال: يا غلام! قلت: لبيك يا رسول الله! قال: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، قد مضى القلم بما هو كائن، فلو جهد الناس أن ينفعوك بما لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه، ولو جهد الناس أن

يضرّوك بما لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه، فإن استطعت أن تعمل بالصبر مع اليقين فافعل، فإن لم تستطع فاصبر، فإن في الصبر على ما تكرهه خيراً كثيراً، واعلم أنّ مع الصبر النصر، واعلم أنّ مع الكرب الفرج، واعلم أنّ مع العسر اليسر» [أخرجه الحاكم في «المستدرك» وقال: هذا حديث كبير عالٍ من حديث عبد الملك بن عمير عن ابن عباس {].

فملخص الملخص: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. ومعنى مالك الملك؛ أن هذا الكون العظيم تحكمه إرادة واحدة نافذة فيه هي إرادة الله، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يونس:٢٤].

أتاها أمرنا -لا أمرهم- يقال مثلاً: الدولة الفلانية عندها قنابل نووية كافية لتدمير الأرض خمس مرات الآن هي في الحضيض، في الوحول، هي الآن متفتتة، كل أنواع السقوط في هذه الدولة، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا ﴾ [يونس:٢٤].

فهذا المُلك العظيم؛ فيه إرادة واحدة نافذة؛ هي إرادة الله. برِبِّك أيها المؤمن؛ إذا أيقنت هذا اليقين هل تتوجه لغير الله؟ هل تخشى غير الله؟ هل ترجو غير الله؟ هل تطمح إلى غير الله؟ هذا هو التوحيد؛ طرقه كلها تؤدي إلى الله عز وجل.

يقول العلماء: مالك المُلك؛ هو الذي تنفذ مشيئته في مملكته كيف يشاء وكما يشاء؛ إيجاداً وإعداماً، إبقاءً وإفناءً، والمُلْكُ هنا بمعنى المملكة، والمالك؛ بمعنى القادر التام القدرة. والموجودات كلها مملكة واحدة؛ لأنها متناسقة مرتبطة بعضها ببعض فحجم الأرض متناسب مع الإنسان، فمثلاً لو وجدت قفلاً في بيت، ووجدت مفتاحاً في مكان آخر؛ وهذا المفتاح فتح ذاك القفل، تقول: كلاهما من مصنع واحد، طالما فيهما انسجام.

أحياناً يشتري أحدنا قطعة لسيارته، تأتي هذه القطعة في مكانها الصحيح بالميليمترات. معنى ذلك؛ أن المعمل واحد. والذي صنع واحد، والذي أعطى القياسات

واحد. فهي وإن كانت كثيرة من وجه؛ إلا أنها وحدة واحدة، الكون كله يعمل بالتنسيق، فالانسجام دليل وحدة الخلق.

هناك كلمة واسع، وهناك كلمة واحد؛ وقد وصف الله ذاته بهما، فما معنى كل منهما: خمسة آلاف مليون إنسان كل واحد يحمل قزحية عين تختلف عن الأخرى؛ من أجل ذلك صنعت أقفال لا تفتح إلا على قزحية العين. لأن إنساناً واحداً في الأرض لا يمكن أن يشبهك في قزحية عينك، معنى ذلك أن الله واسع. كما أن لكل إنسان رائحة جلد لا يمكن أن يشْرِكَه فيها أحد من الخلق، وأساس عمل الكلب البوليسي رائحة الجسم، ونبْرَة الصوت كذلك؛ إذ لا يمكن أن تتشابه في الأرض نبرتان، فأصبح لدينا قزحية العين، ورائحة الجلد، ونبرة الصوت، وبصمة اليد، وبلازما الدم، كذلك اكتشفوا الآن مليارين ونصف وحدة نسيجية. يعني أن هناك واحداً فقط في الأرض وحدته النسيجية تشبه وحدتك، وبصمة اليد -هذه الأنملة- فيها مئة نقطة بين جزيرة، وخليج، ورأس، ونتوء، وفرع، وغصن، ولو تشابهت سبع صفات في بصمتين لكانتا لإنسان واحد؛ وبصمة اليد توقيع. فهذه الاختلافات كلها تعني أن الله واسع. بالمقابل تجد أن شركة أدوية تصنع دواءً في بلد ما كندا مثلاً؛ فإذا استعمل هذا الدواء شخص من استراليا نفعه هذا الدواء؛ ما معنى هذا؟ إنه يدل على أن الخلق واحد في البنى الأساسية، وفي الخصائص، إذاً هناك وحدة في الخلق. تجد طبيباً درس الجراحة ببلد ما، أمريكا مثلاً يقول في اختصاصه: إن العصب الفلاني على بُعد ٢ سم من مكان كذا... بالتفاصيل الدقيقة ثم يجري عملية جراحية لإنسان ما بالخليج مثلاً في عروقه وأعصابه كما درسها هذا الطبيب في أمريكا، وتكون النتيجة كما لو أجراها لشخص في أمريكا، وأقرب من هذا وجوه البشر فلكل سماته الخاصة به؛ وكل واحد منا له شكل وطريقة في العيش، فهذا يدل على سعة الخلق وحينما تكون الأجهزة واحدة؛ القلب واحد، والرئتان، المعدة، الأمعاء، الشرايين، الأوردة، الأعصاب، العظام، خصائص العظام؛ زمن التحامها، الطبيب مثلاً من مصر ودرس في روسيا، والمريض في إفريقيا والبنية لدى الجميع واحدة. معنى ذلك أنه يوجد قواعد عامة في الجسم.

فالله عز وجل واحد واسع، أما لو قلت لمهندس ما: ارسم لنا بناء فيمكن أن يرسم مخططاً وآخر وآخر ثم يتوقف. ومثل ذلك هندسة السيارات يرسمون شكلاً بيضوياً ثم شكلَ زوايا حادة ثم يعودون للشكل البيضوي. أي أن طاقة الإبداع محدودة عند البشر. أما في صنع الله؛ فإذا نظرت في أنواع أوراق الأشجار في الأرض تجد أموراً لا تصدق؛ أوراقاً إبرية، وأوراقاً دائرية، وأوراقاً مسننة، وأوراقاً مفلطحة، أوراقاً خضراء مشربة بلون آخر مثلاً، وأوراقاً واسعة، وأوراقاً صغيرة، وأوراقاً كبيرة، وتلك تحمل الألوان الجذابة؛ فلو نظرت في أنواع الأوراق، لأخذك العجب العجاب.

أيها القارئ الكريم: الله عز وجل مالك الملك؛ أي: تنفذ مشيئته في ملكه كما قال العلماء. وقيل: مالك الملك؛ هو المتصرف في ملكه كيف يشاء، ولا راد لحكمه، ولا معقب لأمره. والوجود كله من جميع مراتبه، مملكة واحدة لمالك واحد وهو الله تبارك وتعالى.

لو لاحظت البشر في كيفية تملُّكهم لوجدت أصنافاً شتى، فإذا قلنا: فلانٌ يملك هذا البيت وأَجَّرَهُ، فهو يملك عينه ولا يملك منفعته، المستأجر تجده يملك المنفعة وليس العين المؤجرة، فإذا كنت تملك المنفعة والعين يعني البيت؛ لكنك قد لا تملك المصير؛ بحيث إنه لو صدر قانون استملاك، فإن البيت يضيع من يدك. فهناك مُلك عين، ومُلك منفعة، ومُلك مصير. أما إذا قلنا: الله مالك الملك؛ فهو مالك الوجود خلقاً، وتصرفاً، ومصيراً، مثلاً: بلد يبيع بلداً آخر مجموعة طائرات. كان المعمل مالكاً للطائرات؛ فلما باعها تملكها شاريها. وأصبحت هذه الطائرات بأمر شاريها. لكن الله عز وجل يقول: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٞ ٦٢﴾ [الزمر:٦٢].

كلمة مالك الملك تعني: ما شاء في هذا الملك كان، وما لم يشأ لم يكن، كل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع. هذا هو معنى مالك الملك.

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦﴾ [آل عمران:٢٦].

إذا أعطى الله عز وجل الملكَ لإنسان، يعطيه الهيبة؛ فكلهم يخافونه؛ فإذا أراد أن ينزع منه الملك، ألغى هيبته؛ فكلهم يجترئ عليه.

دخل يزيد بن أبي مُسْلم، كاتبُ الحجاج، على سليمانَ بن عبد الملك، فازدَراه ونَبَت عينه عنه، فقال: ما رأت عيني كاليوم قطٌّ، لعن الله امرأ أجَرَّكَ رَسَنَه، وحكّمك في أمره. فقال: يا أمير المؤمنين! لا تَقُلْ ذلك؛ فإنك رأيتَني والأمر عني مُدْبر، وعليك مقبل، فلو رأيتني والأمر عليّ مقبل، وعنك مُدْبر، لاستعظمتَ مني ما استصغرتَ، واستكبرتَ ما استقللت. وكان يزيد رجلاً دمياً قبيحاً تقتحمه العين، لقد زلت قدمه فنزع الله عنه الهيبة فالإنسان إذا نزع الله منه الهيبة صار شخصاً تافهاً، قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران:٢٦].

إذاً الإعزاز خير والإذلال خير، الإعطاء خير والمنع خير، والإيتاء خير والسلب خير؛ فكل هذا خير. وفي الحديث: «عَجَبا لأمر المؤمن! إنَّ أمْرَه كُلَّه له خير، إن أصابتْهُ سَرَّاءُ شكر، فكان خيراً له، وإن أصابتْهُ ضَرَّاءُ صَبَر، فكان خيراً له، وليس ذلك لغير المؤمن» [أخرجه مسلم عن صهيب الرومي].

مثال على ذلك: تجد الأب يقسو على ابنه في الصغر، كي يجعل منه رجلاً في المستقبل، كل هذه الشدة من الأب هي لصالح الابن، وكل هذه الشدة صنعت منه إنساناً متفوقاً.

يقول أحد المفسرين: مالك الملك؛ هو المَلِكُ الحقيقي، المتصرف بما شاء وكيف شاء؛ إيجاداً وإعداماً، إحياءً وإماتةً، تعذيباً ورحمةً، من غير مشارك ولا ممانع.

لكن هناك وقفة عند كلمة مالك الملك، وهي: هل تملك سمعك؟ هل تملك بصرك؟ هل تملك قوتك؟ هل تملك أعصابك؟ هل تملك سيولة الدم؟ هل تملك نمو خلاياك؟ فأنت إذا أصابتك جِلطة دموية، أوْدت بحياتك. فهذا بسبب تجمّد نقطة في

الدم، وكذلك نمو الخلايا العشوائيّ، إذاً أنت لا تملك شيئاً من جسمك، وإنما يعطيك الله صحّة طيّبة كي تستمتع بها، فهو سمح لك بالاستمتاع بها ولكنه هو المالك لها. فكلمة مالك الملك تعني؛ أنك لا تملك شيئاً، لأنك لو أصبت بخلل بسيط في القلب، أودى هذا بحياتك؛ فأنت لا تملك شيئاً من جسدك، ولا تملك دماغك. كذلك أعرف شخصاً معرفة جيدة وهو من الأفراد المرموقين في البلد، أنه خرج مرة من بيته فنسي عند عودته أين يسكن! حتى تذكر بيت ابنه فدَلَّه ابنه على بيته. فسبحان الله هناك بعض الحالات فيها عِبَر بالغة، مثلاً موت مفاجئ، يموت الإنسان بلا أي سبب. أعرف شخصاً اشتغل لمدة خمسين سنة وجمَّع ثروةً طائلة، وبعدها اشترى بيتاً في المَصيف، وأصبح يشتغل إلى الظهر فقط ليتمتع ببيته هذا، وفي أحد الأيام ذهب إلى المصيف وهناك خطر بباله أن يهتف إلى ابنه، فوقع ميّتاً على الأرض دون أي سبب قبل المهاتفة. إذاً لا يمكن للعبد أن يكون مالكاً مطلقاً.

قال سفيان بن عيينة: بينا أنا أطوف بالبيت إذا أنا برجل مُشرِف على الناس حسن الشَّيب فقلنا بعضُنا لبعض: ما أشبه هذا الرجل أن يكون من أهل العلم! قال: فاتّبعناه حتى قضى طوافه وصار إلى المقام فصلى ركعتين، فلما سلم أقبل على القبلة فدعا بدعوات، ثم التفت إلينا فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قلنا له: وماذا قال ربنا يرحمك الله؟ قال: قال ربكم: أنا الحيُّ الذي لا يموت، أدعوكم إلى أن تكونوا أحياء لا تموتون، ثم أقبل على القبلة فدعا بدعوات ثم التفت إلينا، فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قلنا: ماذا قال ربنا؟ حدثنا يرحمك الله! قال: قال ربكم: أنا الذي إذا أردت شيئاً كان، أدعوكم إلى أن تكونوا بحال إذا أردتم شيئاً كان لكم (وهو إجابة الدعاء). قال ابن عيينة: ثم ذهب فلم نره.

فالإنسان إذا أطاع الله يكون موته تُحفَةً وعرساً، وموته انتقالاً من الدنيا التي هو سعيد بها بمعرفة الله إلى جنة الله في الآخرة، لذلك من الأدعية اللطيفة: اللهم اجعل نعمك علينا متصلة بين الدنيا والآخرة. فالخط البياني للمؤمن في صعود، وموته نقطة على هذا الخط.

لو أنك أعرضت عن الدين وعن الآخرة وعن منهج الله؛ فمهما كسبت من المال ومن المناصب، فكل هذا نهايته قبيحة وتجعلك في قلق. نعم هناك صعود، لكن هناك سقوط بعد الصعود، والموت هو السقوط. لكن المؤمن في صعود ليس بعده سقوط، وهذا الشعور لا يوصف -طمأنينة للمستقبل- المؤمن مطمئن، تمشي في طريق سالكة إلى جنة الله، تمشي على طريق تنتهي بك إلى الجنة. أما أهل الدنيا، فالطريق عريضة، ولكنها تنتهي إلى حفرة سحيقة، وفيها وحوش كاسرة وقلق دائم، لذلك فالمبالغة في النعيم، والمبالغة في الانغماس باللذات؛ عملية تعويض لما يصيبه من قلق وخوف. وهناك من أهل الدنيا من يبالغ بالرفاه والاعتناء بمظاهر الحياة وكأنه سيعيش مئات السنين. هناك قلق وخوف أساسه الشعور بأنّ بَعْدَ هذا الصعود سقوطاً. أما المؤمن فهو مرتاح من هذا القلق؛ لأن حياته صعود بلا سقوط، ونمو بلا تراجع، وسعادة بلا شقاء، وحياة بلا موت.

إن أطعتَ الملك، كنت في معية الملك. وإن أطعت الغني، كنت مع الغني. وإن أطعت القوي، كنت مع القوي. لذلك قالوا: إذا أردت أن تكون أغنى الناس، فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك. إذا أردت أن تكون أكرم الناس، فاتق الله. وإذا أردت أن تكون أقوى الناس، فتوكل على الله. فأنت قوي بالله، وغنيّ بالله، وكريم بالله، وعزيز بالله، أما إن لم تكن مع الله؛ فعزٌّ بعده ذلٌّ، وغنى بعده فقر، حياة بعدها موت، وسعادة بعدها شقاء وهوان.

حينما تؤمن أن الله مالك المُلك، مالك الدنيا والآخرة، مالك عالَم الغيب وعالَم الشهادة، مصيرك إليه، وأمرك إليه، بيده رزقك، بيده حياتك، بيده التوفيق، بيده النصر، بيده النجاح، بيده التفوق، بيده السعادة، بيده الرضا، بيده كلّ شيء، هذا هو التوحيد.

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٣].

أحد أكبر أسباب العذاب النفسي أن تتوهم أن مع الله إلهاً آخر، التوحيد يعطيك الراحة النفسية، التوحيد يعطيك الشجاعة، التوحيد يعطيك عزة النفس، التوحيد

يبعدك عن أن تستجدي مديح الناس، التوحيد يجعلك متماسكاً، التوحيد يجعلك عزيزاً.

اجعل لربك كل عزك يستقر ويثبت ... فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزّك ميّت

ولما ذكر الله ملكيته للأشياء، وأنه هو الذي يمنحها لمن يشاء، ذكر من لوازم المُلك القدرة، فالقدرة من لوازم ملكيته، فالمالك قدير، قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران:٢٦].

مرة كنت في بلد عربي، وحدثني طبيب، قال: لي زوجة على وشك الولادة والوضع عسر جداً، فاستشار أعلى طبيب في هذا البلد، فقال له: القضية سهلة، فلما طلب منه أن يستشير غيره أرغى وأزبد، وقال: ليس في هذا البلد كلِّه طبيب في مستوى علمي، ثم ارتكب هذا الطبيب خطأً لا يرتكبه طالب طبّ، وقد نُزعت من هذا الطبيب شهادته لأول مرة في هذا البلد العربي منذ استقلاله.

ولو أنك عالم لكن حينما تعزو هذا إليك ينزعه الله منك، والقصص كثيرة، قد يغدو الإنسان فقيراً بعد أن كان غنياً، قد يغدو ضعيفاً ملقى في غياهب السجن بعد أن كان قوياً.

أنت في حاجة ماسة إلى درسين، درس بدر ودرس حنين، في بدر قال الصحابة: الله، فنصرهم، وفي حنين قالوا وهم قمم البشر، ومعهم سيد البشر: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا ﴾ [التوبة:٢٥].

اعتدوا بكثرتهم فلم ينتصروا.

من هو سيد أهل العفاف؟ سيدنا يوسف، ماذا قال؟ قال: ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ [يوسف:٣٣].

من هو سيد الموحدين؟ سيدنا إبراهيم، قال تعالى: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ٣٥﴾ [إبراهيم:٣٥].

فأي شيء يُملك، أو أي شيء تتوهم أنك تملكه يمكن أن ينزع منك.

يقول تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ [الملك:١].

سمعك بيده، بصرك بيده، عقلك بيده، يكون الإنسان سيد البيت، أب، أولاد، بنات، أصهار، كنائن، مكانة، تجارة، يختل عقله، يذهب أهله إلى أقرب الناس إليهم يتوسطون لإيداعه في مستشفى المجانين، عقلك بيده، سمعك بيده، حركتك بيده، زوجتك بيده.

يقول تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا﴾ [الأعراف:١٨٨].

فإذا كنت لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً فمن باب أولى أنني لا أملك لكم نفعاً ولا ضراً، سيّد الخلق، وحبيب الحق، وسيّد ولد آدم، الذي اصطفاه على كل الأنبياء والرّسل، والذي أقسم بعمره الثمين، والذي ما خاطبه باسمه أبداً، (يا أيّها النبي)، (يا أيها الرسول)، هذا قمة البشر، ومع ذلك: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا﴾.

﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥﴾ [الأنعام:١٥].

علاقة المؤمن باسم الله (المالك)

علاقة المؤمن بهذا الاسم اعتقاد وسلوك، فالمؤمن ينبغي أن يعتقد أنه عبد في ملك سيده، وكلما تواضع العبد لربه رفعه الله، هل هناك من إنسان رفع الله ذكره كرسول الله؟ وكان في أعلى درجات العبودية لله، علاقة المؤمن بهذا الاسم أن يعتقد أولاً أنه عبد في ملك سيده، مستخلف في أرضه، أمين على ملكه، قد ابتلاه الله فيما

أعطاه، أعطاك قوة، أعطاك مالاً، أعطك ذكاءً، أعطاك طلاقة لسان، أعطاك علماً، أنت ممتحن فيما أعطاك.

الآن هذا الإنسان أيرد الملك إلى المالك، أم ينسب للمخلوق أوصاف الخالق؟

فيتكبر على العباد بنعم الله، ويتعالى عليهم بما منحه الله وأعطاه؟ فالموحد الصادق يتحرى في قوله وفعله توحيد الله في اسمه «المالك»، لا يتوكل إلا عليه، ولا يلجأ إلا إليه، لعلمه أن أمور الرزق بيده، وأن المبتدا منه والمنتهى إليه.

﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾ [الغاشية:٢٥-٢٦].

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس:٣١].

ماذا قال قارون؟ ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ﴾ [القصص:٧٨].

ماذا قال فرعون؟ ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ﴾ [الزخرف:٥١].

ماذا قال أهل وجماعة بلقيس؟ ﴿نَحْنُ أُولُوا۟ قُوَّةٍ وَأُولُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [النمل:٣٣].

ماذا قال إبليس؟ ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف:١٢].

أربع كلمات مهلكات: أنا، ونحن، ولي، وعندي.

المؤمن الموحد لله بهذا اسم «المالك» ينبغي أن يعرف نفسه، وينبغي أن يعرف حقيقتها، وحقيقة النعم وملكيتها.

سألوا راعٍ يرعى الإبل، لمن هذه الإبل؟ قال: هي لله في يدي، الإنسان مهما عرف نفسه حقّ المعرفة، فإنه إلى المالك الأوحد أذل من كل ذليل.

أعرف رجلاً ذهب إلى باريس وجاء بشهادة عليا، تسلم منصب معاون وزير لوزارة مهمة جداً، ويحمل شهادة عليا، وله زوجة تروق له، ومنزل بأرقى أحياء

دمشق، ومركبة فاخرة، فقد بصره، فقال لأحد أصدقائه: والله أتمنى أن أجلس على الرصيف، وأتكفف الناس، وأن يردّ الله لي بصري.

التذلل إلى الله عز، يرفع شأنك، يعلي قدرك، يلهمك السداد في القول والعمل، يطلق لسانك، كن عبد الله، فعبد الله حرّ، إن لم تكن عبداً لله فأنت حتماً عبد لعبد لئيم، إن لم تكن عبداً لله تنبطح أمام القويّ، تتذلّل أمامه، أما إن كنت عبداً لله فأنت في عزّ ومنعة.

والمؤمن إذا آمن باسم الله «المالك» يشكره على ما أعطاه وأولاه، ويصبر عند المنع، لذلك قال ابن عطاء الله السكندري: (ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك وإذا كشف لك الحكمة في المنع عاد المنع عين العطاء)

الملك الحقيقي أن تملك نفسك وهواك، والدليل، سيدنا يوسف ماذا قال في القرآن: ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ ﴾ [يوسف:١٠١].

بعض علماء التفسير قالوا: حينما تملك نفسك وهواك، فأنت ملِك.

ومرة قال أحد زعماء بريطانيا الذي حقق نصراً في الحرب العالمية الثانية، ملكنا العالم ولم نملك أنفسنا.

أحد الشيوخ قيل له: أوصنا، قال: كن ملكاً في الدنيا تكن ملكاً في الآخرة، قال: وكيف؟ قال: ازهد في الدنيا تكن ملكاً في الآخرة، استغنِ عن الرجل تكن نظيره، احتج إليه تكن أسيره، أحسن إليه تكن أميره.

سُئل الحسن البصري رحمه الله تعالى: بمَ نلت هذا المقام؟ قال: (باستغنائي عن دنيا الناس وحاجتهم إلى علمي) ولو جاء وقت استغنى الناس فيه عن علم العالم، واحتاج هو إلى دنياهم، فقد سقط علمه.

المؤمن يعتقد يقيناً أنَّه مملوك لسيِّده ومالكه جلَّ جلاله فيتواضع لله ويتذلَّل بين يديه ويملك نفسه ويمنعها من الوقوع فيما حرَّمه المالك جلَّ جلاله.

المحسن

ورد هذا الاسم في السنة النبوية، فقد ورد عند الطبراني من حديث أنس ﵁ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إذا حكمتم فاعدلوا، وإذا قتلتم فأحسنوا، فإن الله عز وجل محسِن يحبُّ الإحسان» .

من معاني اسم الله المحسن

المحسِن اسم فاعل، فعله أحسن يحسِن، والمصدر إحسان، والحُسن ضدُّ القبح، وحسَّن الشيء: زيَّنه.

وإحسان الله لعباده يبدأ من الخلق، قال الله عز وجل: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة:٧].

جعل لك عينين، ولولا العينان لما أدركت البعد الثالث، أنت بعين واحدة ترى بعدين سطحيين، لكنَّك بالعينين ترى البعد الثالث؛ ترى العمق.

وجعل لك أذنين، وبأذن واحدة يصل الصوت إليك، لكنّك بالأذنين تعرف جهة الصوت.

وجعل العين في محجر لتكون في حرز حريز، وجعل النخاع الشوكي في العمود الفقري، وجعل معامل الكريات الحمراء في نقيِ العظام.

وجعل الرحم في عظم الحوض. أمّا الدماغ فموضوع في صندوق عظمي هو الجمجمة، وبين الدِّماغ والصندوق سائل، هذا السائل من أجل امتصاص الصدمات، فلو أنَّ طفلا وقع على رأسه فهذا الاهتزاز الشديد الناتج عن الصدمة يوزِّعه السَّائل على كامل مساحة الدماغ، فيبقى الطفل سليماً.

﴿ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ [السجدة:٧].

وليس في الشعر أعصاب حسٍّ، من أجل أن تهذِّب شعرك دون مستشفى، ولولا أنَّ الشعر خالٍ من أعصاب الحسِّ لاضطُرَّ الإنسان إن أراد أن يقصَّ شعره إلى تخدير شامل.

قرنية العين جعلها شفَّافة، إذاً: لابد من أن تُغذَّى قرنية العين بطريقة فريدة، لا عن طريق الأوعية، بل عن طريق الحلول، من أجل أن تكون الرؤية شفافّةً شفافية مطلقة.

هو محسن في خَلقه، محسن في الأجهزة، محسن في الحواسّ، محسِن في قوام الإنسان.

﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ٤﴾ [التين:٤].

انظر إلى التفاحة بحجم مناسب، وبقوام مناسب، وبرائحة مناسبة، وبشكل مناسب، وبمحتويات مناسبة، فيها حديد، فيها سكر، فيها معادن، فيها كالسيوم، فيها مغنزيوم.

تصوَّر الإنسان بلا شعر أو بلا جلد، تصوَّر الإنسان بلا جهاز توازن، عندها يحتاج إلى قاعدة استناد تزيد على سبعين سنتيمترًا حتى يبقى واقفاً.

في جسمك جهاز مناعة؛ وهو عبارة عن جيشٍ بكلِّ معاني الكلمة، فيه خمس فرق: فرقة الاستطلاع؛ ومهمَّتها استخباريَّة فقط، يدخل الجرثوم إلى الجسم فتتَّجه كريات بيضاء من فرقة الاستخبارات، وتأخذ (شفرة الجرثوم) ولا تقاتله، تأخذ هذه (الشفرة) إلى مركز صنع المصول، إلى مركز معامل الدفاع في العقد اللمفاوية، وتعطي العقد تركيب الجرثوم، وصفاته الكيماوية، هذه المراكز معامل أسلحة تصنِّع المصل المضادَّ لهذا الجرثوم، المعامل أو العقد اللمفاوية تشكِّل معامل للسلاح، والفرقة الاستطلاعية تشكل جهاز المخابرات في الجسم، وهناك فرقة المقاتلين، وهي الفرقة الثالثة، هذه الفرقة تحمل المصل المضاد، وتتجه إلى الجرثوم فتقاتله، وينشب بينهما قتال، وقد ينتصر الجرثوم، وقد لا ينتصر.

عندنا فرقة رابعة، وهي فرقة الخِدمات، هذه الفرقة تنظِّف أرض المعركة، وتدفن الجثث، وأحياناً يرى الإنسان كتلة بيضاء في جلده، وما هي إلا أثر معركة مع الجراثيم في جسم الإنسان.

هناك فرقة أخرى خامسة، وهي فرقة تكتشف الخلية السرطانية في وقت مبكر جداً وتلتهمها، وفي الإنسان ملايين الخلايا السرطانية، لكن لكلِّ خلية سرطانية قامع يمنعها أن تكون فعَّالة.

لو أن ثقب الأذن كان أوسع بقليل فإنَّ الطفل دون أن يشعر يخرق غشاء طبله، لكنَّ ثقب الأذن أضيق من أيِّ إصبع، بل من أصغر إصبع.

يحمل الإنسان ابنه، والأربطة مدروسة بحيث تحمل جسم الطفل، وقد يكون الأب غضبان فيحمله بعنف، والوزن عندها يتضاعف، لكنَّ وزن الإنسان متناسب مع

متانة الأربطة التي في ذراعه، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾ [التغابن:٣].

هذا الفرخ الذي في البيضة، ينشأ في منقاره نتوء مؤنَّف حادٌّ يكسر بهذا النتوء البيضة، فإذا خرج منها ضمر هذا النتوء، هل هناك من إحسان أكثر من ذلك؟

انظر إلى طعامك، لو أنَّ المحاصيل كالقمح والشعير والعدس والحمص تنضج تباعاً كالفواكه، فهذا شيء لا يُحتمل، لكنَّ المحاصيل تنضج في وقت واحد. لو أنَّ الفواكه تنضج في وقت واحد لكان شيئاً غير محْتَمل، حقل البطيخ يعطيك لتسعين يوماً على مدى أشهر الصيف، كلُّ الفواكه والخضروات تنضج تباعاً، ولو أنَّ كلَّ الفواكه يبدأ نضجها في وقت معين لكان الأمرُ صعبًا، لكن تبدأ بفاكهة معيّنة، بعد شهر فاكهة ثانية، وهذا من الإحسان.

البقرة تعطيك من الحليب ما يفوق ثمن الطعام، لو أنها تعطيك من الحليب أقلّ من ثمن الطعام فلا أحد يقتني بقرة، لو أن الدجاجة تعطي في الشهر بيضة واحدة لكانت مكلفة، وأصبحت غير اقتصادية، كلُّ يوم لها بيضة، وطعام الدجاج لا يساوي الإنتاج الذي ينتجه من البيض، وهذا من الإحسان.

والحُسنى هي الجنة، والإنسان خلق للجنّة، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧﴾ [الليل:٥-٧].

صدَّق أنه مخلوق للجنة، وقد سمّى الله الجنة ﴿الحُسْنَى﴾، لأن فيها الكمال المطلق.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ [ق:٣٤].

الدنيا دار تكليف، والآخرة دار تشريف، الدنيا دار عمل، الآخرة دار جزاء، وعندما تنجح في امتحان الدنيا وتكون محسِناً عندها تستحقُّ الجنة.

﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [يونس:٢٦].

فالذي صدَّق أنه مخلوق للجنة يتّقي أن يعصي الله، ويبني حياته على العطاء.

﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ ﴾ [الليل:٨-٩].

الذي كذَّب أنَّه مخلوق للجنة، واعتقد أنه مخلوق للدنيا استغنى عن طاعة الله، وبنى حياته على الأخذ، وأنت ببساطة يمكن أن تكتشف ما إذا كنت من أهل الدنيا أو من أهل الآخرة، فإذا أسعدك أن تأخذ، وتتوهَّم أنك ذكي جداً حينما تأخذ ما ليس لك فأنت من أهل الدنيا، أمَّا إذا أسعدك أن تعطي فأنت من أهل الآخرة.

وفي الحديث الشريف يقول ﷺ: «الإِحسَانُ أَنْ تعَبْدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ» [مسلم عن عمر].

لاحظ نفسك إن جاءك ضيف مِن علية القوم، فهو على فهم، وعلى علم، وعلى قوّة، وعلى تفوّق، وعلى أخلاق، جاءك زائراً، هل يعقل أن تجلس أمامه بثياب متبذلة؟ هل يعقل أن تجلس أمامه، وتضع رجلاً على رجل؟ لا تستطيع، هل يعقل أن تجلس أمامه وتعبث بالسُّبحة، لا تستطيع، هل يعقل أن تقول كلاماً لا يليق؟ لا تستطيع.

أنت أمام إنسان من علية القوم تضبط كلامك، تضبط جلوسك، تضبط ثيابك، تضبط حركتك، وهو إنسان دخل إلى بيتك فتلاقيه بالنظر إلى جهة واحدة، لأنه ليس من أدب الضيف أن يزيغ البصر عنه.

أفضل حالة من حالات المؤمن أن تشعر أنَّ الله معك، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «اسْتَحْيُوا مِنْ الله حَقَّ الحَيَاءِ، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله، إِنَّا نَسْتَحْيِي وَالحَمْدُ لله، قَالَ: لَيْسَ ذَاكَ، وَلَكِنَّ الإِسْتِحْيَاءَ مِنْ الله حَقَّ الحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَالبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلْتَذْكُرْ المَوْتَ وَالبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنْ الله حَقَّ الحَيَاءِ» [الترمذي].

حينما تشعر أنَّ الله معك، وأنَّ الله يراقبك، فهذه درجة من الإيمان عالية جداً، هذه الدرجة تقتضي الانضباط، وحينما تشعر أنَّ علم الله يطولك، وأنَّ قدرته تطولك فلا يمكن أن تعصيه، بل تكون عندئذٍ محسناً.

ويقول تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ [النحل:٩٠].

أنت مأمور بالعدل، ومأمور مع العدل بالإحسان، وهناك مشكلات تحلُّ بالإحسان لا بالعدل.

أحيانا يكون للإنسان جارٌ سيئ جداً، يستطيع أن يقطع لسانه، لا بالمِقصِّ، بل بالإحسان، فالإحسان يسكت، وأنا أنصح إنسانا عنده جار سيئ أن يقدِّم له هدية.

نصيب المؤمن من اسم الله المحسن

ينبغي للمؤمن أن يكون محسناً، ولن تستطيع أن تقبل على الله إلا إذا كنت محسناً، يقول لك أحدهم: لا أخشع في الصلاة، قل له: إن كنت محسناً فإنَّك تخشع في الصلاة.

قال الله عز وجل: ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ [لقمان:٢٢].

كما أن الله أحسن إليك، فمنحك نعمة الإيجاد، ومنحك نعمة الإمداد، ومنحك نعمة الهدى والرشاد، فينبغي أن تكون محسِناً، وكلمة محسن هي ألصق صفة بالإنسان المؤمن، محسِن في كلامه، فلا بذاءة، ولا تهجُّم، ولا سخرية، ولا فحش، ولا طُرَف قبيحة محرجة تُحمّر الوجه، محسن في تصرفاته، محسن في زيارته، محسن في قيادة مركبته، محسن في تنظيم عمله، محسن في تربية أولاده، محسن في علاقاته، محسن في مواعيده، محسن في دعواته، محسن في أفراحه، محسن في أحزانه.

هناك إحسان في إدارة الوقت، إلغاء الروتين إحسان، تخفيف الأعباء عن المواطن إحسان، وهذا يشمل الأنظمة التي تنظِّمها الدولة.

الإحسان صفة الواحد الديان، وكلُّ إنسان مؤمن ينبغي أن يشتقَّ هذه الصفة من الله عز وجل، والإحسان صفة جامعة مانعة، فكما أنك تكتشف إحسان الله من خلال خلقه، فيجب أن تكون محسناً تُجاه الخلق.

فالزوج يجب أن يكون محسِناً لزوجته، قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾ [النساء:١٩].

والعامل محسِن في عمله، ومن معاني الإحسان الإتقان، يقول ﷺ: «إن الله يحب من العبد إذا عمل عملاً أن يتقنه» [الجامع الصغير بسند حسن عن عائشة].

كما أنَّ الله محسن فينبغي أنت أيها المؤمن أن تتخلَّق بهذا الكمال، فيكون عملك مشمولاً بالإحسان، فإن أعطيت فأعطِ دون أن تمنَّ، وإنْ عاقبت فعاقب دون أن تحقِد، وإنْ عملت فاعمل عملاً متقناً، وإن زرت فكن متواضعاً، لا تصغِّر دنيا هذا الإنسان في نظره إن كان فقيراً، بل انقله إلى الآخرة.

والإحسان مطلوب حتى مع الحيوانات وحتى لو اضطررت لقتلها فيجب أن تكون محسِناً، فالتعذيب ممنوع، لو رأيت عقرباً يجب أن تقتله بضربة واحدة، أمَّا أن تعذِّبه فهذا مناقض لمنهج الله عز وجل.

وقد ورد من حديث شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ: ثِنْتَانِ حَفِظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ الله ﷺ: قَالَ: «إِنَّ الله كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا القِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ» [مسلم في صحيحه].

الإحسان أن يأتي فعلك كاملاً، لو أنَّك دعوت إنساناً إلى طعام مثلاً فقد علّمنا القرآن آداب الدعوة، فقال عز وجل: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ [الذاريات:٢٦].

سيِّدنا إبراهيم راغ، أي انسلّ خفية، فهو لم يستأذن الضيف في إحضار الطعام، لأنَّ الضيف قد يستحيي فيما لو استُؤذِن، جاء بالطعام سريعاً، وهذا من كمال الدعوة، ثمّ إنَّه جاء بطعامٍ طيّب، قال تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ۝٦٩﴾ [هود:٦٩].

ومعنى حنيذ: سمين أو مشوي نضيج.

﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ۝٢٧﴾ [الذاريات:٢٧].

وهنا أدبان آخران؛ قد يكون طبق الطعام بعيداً عن الضيف، فيستحي أن يتمطّى ليصل إليه، يجب أن تقرِّب إليه الطعام، وهناك إنسان يضع الطعام أمام الضيف، أو يضع الفاكهة أمام الضيف، ولا يدعوه إلى تناول الطعام، والضيف يستحي أن يمدَّ يده قبل أن يُدعى.

إذاً: كمال الإحسان في الدعوة ألا تستأذن الضيف في إحضار الطّعام، وأن يأتي الطعام سريعاً، وأن يكون الطعام طيّباً، وأن يقرَّب الطعام إلى الضيف، وأن يُدعى إلى تناوله.

سمعت عن قاضٍ أمر بحجز إنسان، والمحامي طلب إطلاق سراحه، فلم يستجب القاضي ولم يقتنع، قدَّم المحامي طلباً ثانياً، وطلباً ثالثاً، ورابعاً، وخامساً، ولم يستجب القاضي، فموكِّلو المحامي عزلوه، وعيّنوا محامياً جديداً، فقدّم المحامي الجديد طلباً لإخلاء سبيل موكِّله، فبدا للقاضي أن يطلق سراحه، ولكنّه إن فعل يسيء للمحامي الأول، فقال: ائتوني بالمحامي السابق ليقدِّم طلب إخلاء سبيل حتى أُخلي سبيله، هذا منتهى الإحسان.

إذا زرت أختك يجب أن تمتّن علاقتها بزوجها، عن طريق الثناء على زوجها، على أخلاقه، لا على دخله، لا تقل: كم دخله؟ هل يكفيكم هذا المبلغ؟ هذه إساءة، الإحسان أن تلاحظ نفسك على الخطرة، على النظرة، على الكلمة، على الابتسامة.

ويقول تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص:٧٧].

الله عز وجل كان حليماً معك حتى اهتديت، فإذا كان عندك زوجة لم تستقم على أمر الله فاصبر عليها، لا تأخذها بالعنف.

ومن أدعيته ﷺ: «اللهمَّ أَحْسَنْتَ خَلْقِي فَأَحْسِنْ خُلُقِي» [أحمد عن ابن مسعود].

إذاً: نصيب المؤمن من اسم الله (المحسن) أن يكون محسِناً، بالمفهوم الواسع للإحسان، وأن يتذكر إحسان الله إليه حتى يشكره حقَّ شكره.

الشافي

ورد هذا الاسم في السّنّة الصحيحة؛ عَنْ عائِشَةَ رضي الله عنها أنَّ رَسُولَ الله ﷺ كانَ إذا أَتَى مَرِيضاً أَوْ أُتِيَ بِهِ قَالَ: «أَذْهِبِ البَاسَ ربَّ النَّاسِ، اشْفِ وَأَنْتَ الشَّافي، لا شِفاءَ إلاّ شِفَاؤُكَ، شِفاءً لا يُغادِرُ سَقَماً» [رواه مسلم].

من معاني اسم الله الشافي

الشَّافي اسم فاعل وفعله شفى يشفي، والمصدر شفاء، والشِّفاء في اللغة: البُرْء من المرض، يُقال: شفاه الله يشفيه، واشتَفى: افْتَعَلَ منه، فللمبالغة في الشفاء نقول: اشْتفى؛ ومن هنا نقول: مشفى ومستشفى.

سبب المرض في الأصل من الإنسان؛ لأنَّ الله عز وجل يقول حكاية عن سيدنا إبراهيم: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠﴾ [الشعراء:٧٨-٨٠].

قال الذي خلقني وأطعمني، ولم يقل: الذي أمْرَضَني؛ بل قال: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الشعراء:٨٠].

فنسب إبراهيم عليه السلام المرض لنفسه، وهذا من أدب إبراهيم عليه السلام مع ربّه، لكنّه لا يخلو من إشارة لطيفة إلى أنَّ سبب المرض من الإنسان نفسه.

أصل المرض خروج عن منهج الله، وإن صحّ أن نقول: هناك مرض للأجسام ومرض للقلوب، فالمَرَضان مرض الأجسام ومرض القلوب أصلهما خروج عن منهج الله، لأن الله تعالى كاملٌ كمالاً مطلَقاً فإذا خلق شيئاً خَلَقَه كاملاً ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ [الملك:٣]، من الذي يُخطئ؟ ومن الذي يُفسد؟ ومن الذي يطغَى؟ ومن الذي يظلم؟ ومن الذي يسيء؟ هو مخلوقٌ أوْدَعَ الله فيه الشهوات ليرقى بها صابِراً تارةً وشاكِراً تارةً أخرى إلى رب الأرض والسموات، وهذه الشهوات إذا أُودِعت في مخلوق ولم يكن هذا المخلوق متصلاً بالله ولم يَسِر على منهج الله يفسُد.

فالشيء الجامد إذا وضعته في مكانٍ لا يتحرَّك، فليس ضرورياً أن يعلم هذا الشيء الجامد، أما إذا مشى ولم يكن هناك مِقْوَد فالدَّمار حتمي، وما الذي يحرِّك الإنسانَ؟ إنَّها شهواته؛ والإنسان مندفع لتلبية حاجاته وشهواته، وهذا الاندفاع يشبِه الحركة، إنَّه اندفاع دون منهج يسير عليه ودون مِقْوَدٍ وهو العلم، ودون اتصال بالله وهو الهدى، وهذه الحركة دون نهج ودون هدى ستُدَمِّر صاحبها، إذاً الإنس والجن وحدهما اللذان أوْدَعَ الله فيهما حرية الاختيار وأودع فيهما الشهوات، اقرأ قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب:٧٢].

وفي آيات آخرى تجد الجنَّ تشترك مع الإنسان في حمل الأمانة، هذان المخلوقان تحمَّلا الأمانة، والأمانة نفسُ الإنسان؛ وعليه أن يُزَكِّيها وكيف يزكيها؟ بتعريفها بالله

وحمْلِها على طاعته، فالدِّين يحمل جانباً سلوكياً وآخر معرفياً وثالثاً جمالياً، الجانب المعرفي هو السبب والجانب السلوكي هو الأصل والجانب الجماليُّ هو الثمرة.

﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [هود:١١٩].

هذا المخلوق (الإنسان) فيه شهوات وفيه اختيار ولكن مع هذه الحرية أعطاه الله عقلاً، بمنزلة ميزانٍ حساس، وأعطاه فوق هذا الميزان ميزاناً مهيمِناً هو الشرع، فأرسل إلينا الأنبياء ومعهم الكتب، على الرغم من وجود أنبياء وكتب وشريعة وعقل، ومع كلِّ هذا وضع الإنسان كلَّ شيء وراء ظهره وانطلق مع شهواته بلا منهج وبلا هدى وبلا كتاب منير فَفَسَد، ومن مقتضيات حياة الإنسان أنَّ فساده مُحتَمَل لذلك هيَّأ له شِفاءين، هيَّأ له القرآن الكريم شفاءً لنفسه، وهيَّأ له الأدوية شفاءً لجسمِه، فالشِّفاء يقتضي المرض، والمرض في الأصل خروج عن منهج الله عز وجل.

فإذا قلنا: إنَّ هناك أمراضاً كالضغينة والحقد والكبر والكراهية والأَثَرَة والجحود والإجحاف والظلم، فهذه كلُّها أمراض القلب، وهناك مقولةٌ رائعة وهي: إن أمراض القلب ليست بأمراض، بل هي أعراض لمَرَضٍ واحد ألا وهو الإعراض؛ إن أَعْرَضْت عن الله عز وجل تكشَّفت أمراض القلب، فكلٌّ أمراض القلب وكلُّ الصفات الخسيسة في الإنسان هي أعراضٌ لمرضٍ واحد هو الإعراض عن الله، فالإنسان ما لم يتَّصل بالله عز وجل فلن تزكوَ نفسُه، قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [الشمس:٩-١٠].

فلو أنَّه أعرض عن الله ولم يطبِّق منهجه وشَرَدَ عنه شروداً بعيداً، فعندئذ تكون نفسُه قد تعلَّقت بشهواتٍ وأُصيبت بأمراض، والقرآن الكريم شفاءٌ لهذه النفس، فإذا قرأ القرآن عاد إلى الله وسار على منهجه، كذلك هذا الجسم حينما يُخالِف منهج الله عز وجل المتمثِّل بتوجيهات النبي ﷺ في التعامل مع الجسم يمرَض، وما خلق الله داءً إلا وخلق له دواءً.

والشيء الذي يجب أن يكون واضِحاً أنَّ أمراض القلب أخطر من أمراض الجسم، لأنَّ أمراض الجسد مهما تفاقَمت ومهما كانت خطيرةً فإنَّها تنتهي عند الموت، والموت يُنْهي كلَّ ما له علاقة بالجسم، ويُنْهي المرض ويُنْهي الصحة ويُنْهي القوة ويُنْهي الضعف ويُنْهي الغِنى ويُنْهي الفقر ويُنهي الوسامة والدمامة ويُنهي الذكاء والغباء... يُنْهي كلَّ شيء، إلا أنَّ أمراض النفس خطورتُها وآثارها تبدأ بعد الموت، من هنا قال الله عز وجل: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩].

فالقلب له في حياة المؤمن شأن كبير، والقلب يصفو ويتعكَّر ويسمو ويسفُل ويكبُر ويضعُف؛ يكبُر القلب ولا ترى كِبَره فيتضاءل أمامه كلُّ كبير، ويصغر القلب ولا ترى صِغَره فيتعاظم عليه كلُّ حقير، قلبٌ صفا وآخر انحرف، وقلب اسْتَعْلى، وقلب كان في تجلِّيات الله عز وجل، وقلبٌ عرف الله، فلذلك من الأقوال الشهيرة لسيدنا عمر رضي الله عنه: «تعاهَدْ قلْبَك» انظر إلى قلبِك على ماذا ينْطَوي، إنَّ أعلى درجات الإيمان أن تتعامل مع الله مباشرة وأن تنظر إلى الله عز وجل وهو ناظِرٌ إلى قلبك؛ هل فيه غِلٌّ لأحد؟ وهل فيه حِقدٌ لأحد؟ وهل فيه ضغينة وكراهية وكِبْر واستعلاء وأَثَرَة وعجْرَفة؟ فكُلما طهُر القلب تجَلَّى عليه الرّبّ، وصدِّقوني أنه أسعد الناس من كان قلْبُه موْصولاً، يُقال مثلاً: إن فلاناً له قلب كبير، أي: قلبٌ موصولٌ بالله، ومعنى موصول أنّ القلب اصْطَبَغ بصبغة الله، تجد أنَّ من علامات المؤمن إذا رأيْتَه تذكّرت الله، «أولياء الله تعالى إذا رُؤوا ذُكر الله تعالى» [الحكيم الترمذي بسند صحيح من حديث ابن عباس].

وإذا عاملْتَه أَحْبَبْته وحَدِّث ولا حرج عن تواضُعِه وعن لُطْفِه وعن حيائه وعن كَرَمه وبذْلِه وعن عطائِه وعن حُبِّه وعن غيْرَته.

بعضهم قال: «الشّفاء هو الدَّواء لأنَّه أحد نتائج الدواء»، تقول العرب: رعينا الغَيْث، والغيْث لا يُرْعى ولكن رَعَيْنا كلأً سبَّبَه الغيث.

فبعضهم قال: الشفاء هو الدواء نفسُه، ثم وُضِع موضِع العلاج والدواء، أما استشْفى فتعني طلب الشفاء.

ولولا أنَّ الله سبحانه و تعالى جلّت حكمته جعل للأمراض أعراضاً لما أمكن الشِّفاء منها، قال تعالى: ﴿ وَعَلَـٰمَـٰتٍ ﴾ [النجم:١٦].

وهذه الآية واسعة جداً، إذ لولا الأعراض لما اهتدى الإنسان إلى مرضه.

لذلك تعدُّ أخطر الأمراض الأمراضُ التي لا أعراض لها، كالأورام أحياناً.

الإنسان له بنية موحَّدة، أيُّ إنسان في أيِّ زمان و مكان بنيته التشريحية واحدة، فقد يدرس الطبيب الطبَّ في أمريكا، و يعالج المرضى في الصين، و لولا هذا التوحد في بنية الإنسان التشريحية لما أمكن أن نتابع الطب في بلد، وأن نعالج المرضى في بلد، وأن نصنع الدواء في بلد، وأن نستخدمه في بلد، وهذا كلُّه ينضوي تحت اسم الله الشافي.

هناك قوانين ثابتة في الجسم، منها أنَّ النُّسُج تلتئم إذا تمزَّقت، فالتئام النسج من رحمة الله بنا، يُجرح الإنسان فيأتي الطبيب ويخيط هذا الجرح وبعد حين يلتئم الجلد.

الخلية العظمية قد تنام ستين عاماً، فإذا كسر عظم اليد مثلاً فإنَّ هذه الخلايا تستيقظ وتلتئم، وما دور طبيب العظميّة إلا أن يضع العظمة على العظمة فقط.

الاحتياط الذي جعله الله في بعض الأجهزة يدلّ على اسم الشَّافي، فالكلية مثلاً فيها احتياط كبير، حيث يستطيع الإنسان أن يعيش بكلية واحدة.

القلب إذا أُجريت له عملية جراحة وأوقفناه عن طريق التبريد، وبعد انتهاء العملية يُعطى القلب صعقة فيعود و يعمل، لو أنَّ القلب إذا توقف لا يعمل لانتهى العمل الجراحيُّ كلُّه، فالله سبحانه و تعالى الشَّافي سمح له أن يعمل بعد أن تأتيه صعقة كهربائية، ولولا هذه القاعدة لألغي الطب في شأن جراحة القلب.

يقول أطباء جراحة القلب: إنَّ في القلب شرياناً يبدو أنه لا فائدة منه، لكن حينما تُسَدُّ بعض الشرايين يؤخذ هذا الشريان وهو من أمتن الأوعية، ويوضع مكان الشريان التالف، وكأنَّ الله سبحانه و تعالى و ضع في جسم الإنسان بعض قطع الغيار، وهذا من تمام خلق الله عز وجل.

الكبد يقوم بمئات الوظائف، وكلُّ خلية من خلايا الكبد تقوم بكلِّ وظائفه، فلو تشمَّع الكبد، وجاء الطبيب الجراح واستأصل أربعة أخماس الكبد، فالكبد يعيد بناء ذاته في ستة عشر أسبوعاً، ذلك لأنَّ كلَّ خلية في الكبد تقوم بكل وظائف الكبد.

والوظائف الفيزيولوجية في جسم الإنسان تؤكد اسم الله الشافي، الجسم عضو نبيل يستجيب للدواء إذاً الله شافٍ، ما أوقع المرض فينا إلا أن يكون المرض أداة قرب من الله عز وجل و يأتي بعده الشفاء، فالله عز وجل شافٍ، هناك أدوية مبطئة للنظم، هناك أدوية موسعة للشرايين، هناك أدوية مقوية لعضلة القلب، هناك أدوية تعطي الإنسان راحة نفسية، هناك أدوية مهدئة، هناك أدوية مسكنة.

إضاءات على الآيات التي ورد فيها الشفاء

ورد ذِكْر الشفاء في مواطِن كثيرة من كتاب الله فقال تعالى في سورة التوبة: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [التوبة:١٤].

معنى ذلك أنَّ المؤمن حينما ينتصر الحق ويعلو، وحينما يُهزم الباطل ويسقط، ترتاح نفسه، وهذه هي فطرة الإنسان السليمة.

والقرآن سماه الله عز وجل شفاءً لما في الصدور، أحياناً تجد أنَّ الكفار أقوياء وأغنياء ويعيشون حياةً فوق التصور، وهم مستهْتِرون ولا يطيعون الله ولا يصلُّون ويأكلون الربا ويزنون، ومع ذلك بِلادهم جميلة وهم أغنياء ومعيشتهم فيما يبدو راقية وفيها هناءة ورغد، فهذا المنظر يُحدِث اختِلال توازن،وإذا فَتحْتَ القرآن سمعت الله عز وجل يقول: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾ [آل عمران:١٩٦-١٩٨].

وتفتح القرآن وتجد قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنعام:٤٤].

فترتاح عندئذٍ وتستعيد توازنك، تفتح القرآن الكريم تجد قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [إبراهيم:٤٢].

فترتاح كذلك، ترى أن الدنيا جميلة ونضرة وخضِرة وكلُّ شيء فيها مُغرٍ فإذا فتحت القرآن الكريم تجد قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ ﴾ [محمد:٣٦].

فالله نبّهك، وكلُّ الأمراض التي تنشأ في نفس الإنسان يعالجها القرآن ويحُلُّها، أحياناً يكون الإنسان في بدايته لا يملك شيئاً؛ لا مالاً ولا بيتاً ولا عملاً ولا دخْلاً، ويبدو أن الطرق مسدودة أمامه، ولكنه مستقيم في سلوكه مع الله، فتبعث الآيات في نفسه الآمال الكبار عن طريق الثقة بربه الذي بيده الخير، ثم يقرأ القرآن فيجد قوله تعالى يزيده تفاؤلاً وسكينة: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل:٩٧].

فيطمئن ويقرأ قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ ﴾ [النساء:١٤١].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [آل عمران:١٣٩].

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [فصلت:٣٠].

وهذا كلُّه شفاءٌ لما في الصدور، وقوله تعالى: ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ ﴾ [القصص:٦١].

أيَّة آيةٍ تقرؤها تجد أنَّها تشفي النفس من بعض أمراضِها، فربّنا عز وجل جعل هذا القرآن شفاءً لما في الصدور قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [يونس:٥٧].

فالذي أنزل الشِّفاء هو الشَّافي، المؤمن متوازن والمؤمن ليست عنده مشكلات فكرية، ولو أنه رأى كافِراً قوياً ورأى مؤمناً ضعيفاً، ولو أنه رأى منحرفاً غنياً ورأى مستقيماً متقشِّفاً فله موازين خاصة، قد تجد موازين الناس تدعو للانقباض، فهناك من يرى أنَّ المال هو الذي يثقل الميزان، وكذلك الطيش والقوة الرعناء، أمَّا عند الله فالعمل الصالح فيه رجاحة الميزان.

لما سقى سيدنا موسى للمرأتين ابنتي سيدنا شعيب ماذا قال؟ قال تعالى: ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [القصص:٢٤].

ففُهِم من هذه الآية أنَّ الغِنى عند الله غنى الأعمال الصالحة، وأنَّ الفقر هو فقرُ الأعمال الصالحة. والحقيقة أن حجْمَك عند الله لا بحجم أموالِك ولكن بحجم أعمالك، والعُمُر لا قيمة له إلا بمضمونِه الصالح، قد تعيش عمراً قصيراً مفعماً بالأعمال الصالحة، وقد يعيش آخر عمراً مديداً فارغاً من العمل الصالح؛ فهذه كلُّها موازين، والإنسان حينما يختلُّ ميزانه يقع في المتاهات والضيق والتشاؤم والحيرة والاضطراب.

وفي سورة النحل قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [النحل:٦٨-٦٩].

قال ابن القيم: «هناك شفاءان: شفاء النفوس كلام الله؛ وشفاء الأبدان العَسَل»، لكن لو أن الله عز وجل قال: فيه الشفاء للناس لصار العسل شفاء من كلِّ مرض، أما

وقد جاء الشفاء نكِرة ﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾؛ يعني شفاءٌ من بعض الأمراض التي تصيب الناس. وعلى كلٍّ العسل كما يقولون: صيدلية ثانية، فعدد الفيتامينات والمعادن والأنزيمات التي في العسل لا تعدُّ ولا تحصى، ومع ذلك ربنا عز وجل قال: ﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾، وفي سورة فصلت قال تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ [فصلت:٤٤].

فقارئ القرآن لا يحزن، ومن تعلَّم القرآن متَّعه الله بعَقْلِه حتى يموت؛ والقرآن الكريم لا يَقِلّ في عظمته عن عظمة الكون قال تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾ [الأنعام:١].

وقال تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ ﴾ [الكهف:١].

فهذا كتابنا المقرر ومنهجنا ودستورنا وحبل الله المتين والصراط المستقيم والعمل بأمره ونهيه يرفعنا إلى أعلى عِليين، قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت:٤٤].

المعنى المُخالِف لهذه الآية أن المؤمن ينادَى من مكانٍ قريب، إذاً أحد أسباب فهم كلام الله أن تكون قريباً من الله، وإن كان الإنسان بعيداً عن الله فماذا يكون حاله مع القرآن؟ ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ ﴾.

أما إذا كان قريباً من الله عز وجل فإنَّه يفهم كلام الله كما أراد الله، فعلى الإنسان أن يُشمِّر ليكون قريباً من الله عز وجل حتى يفهم عن الله تعالى كلامه، ومن هنا قال

بعض أصحاب النبي ﷺ: «أوتينا الإيمان قبل القرآن»، قال ابن عمر: لقد عشت برهة من دهري وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن وتنزل السورة على محمد ﷺ فيتعلم حلالها وحرامها وما ينبغي أن يقف عنده منها كما تعلمون أنتم القرآن.

وعن جندب بن عبد الله قال: «كنا مع النبي ﷺ نحن فتيان حزاورة فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن فازددنا به إيماناً» فإذا اتصلت بالله عز وجل وأقبلت عليه وقرأت القرآن كنت قريباً من المعاني التي أرادها الله عز وجل، القرآن مع ذلك لا تنقضي عجائبه.

بمناسبة الحديث عن العسل، فقد ورد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فقَالَ: إِنَّ أَخِي اسْتَطْلَقَ بَطْنُهُ -يعني أصيب بإسهال شديد- فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «اسْقِهِ عَسَلاً» فَسَقَاهُ ثُمَّ جَاءَهُ فَقَالَ: إِنِّي سَقَيْتُهُ عَسَلاً فَلَمْ يَزِدْهُ إلا اسْتِطْلاقاً، فَقَالَ لَهُ: ثَلاثَ مرَّاتٍ، ثُمَّ جَاءَ الرَّابِعَةَ، فَقَالَ: «اسْقِهِ عَسَلاً» فَقَال: لَقَدْ سَقَيْتُهُ فَلَمْ يَزِدْهُ إلا اسْتِطْلاقاً فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «صَدَقَ اللهُ وكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ» فَسَقَاهُ فَبَرَأَ [رواه مسلم].

قرأت مقالةً علمية لطبيب متفوِّقٍ جداً في تحليل هذا الحديث أن الإسهالات الإنتانية يكون الدواء المناسب لها المواد السكرية، ففي بداية الأمر يزداد البطن إسهالاً إلى أن تذهب هذه المواد التي سببت الإنتان، بعدئذٍ تُمسِك الأمعاء ما فيها، ويعود الوضع إلى الشكل الطبيعي، فقال رسول الله ﷺ: «صدق الله، وكذب بطن أخيك».

هذا الحديث يمكن أن نقيس عليه أشياء كثيرة، مثلاً الله عز وجل قال: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ ﴾ [البقرة:٢٧٦].

لو قال لك واحدٌ: أنا دفَعْت صدقاتٍ كثيرة وأنا فقير وما عوَّض الله عليَّ، نقول له: صدق الله العظيم وكذبْت أيها الإنسان، لأن زوال الكون أهْوَن على الله من ألا يحقق وعده للمؤمن.

أحد العلماء قال: من دعا إلى الله ولم يُوَفَّق فكأنَّه يُكذِّب قولَه تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾ [غافر:٥١].

إذا دَعَوْت إلى الله بصدقٍ وإخلاص وطبَّقْت منهج الله وكانت السريرة كالعلانية، فلا بد من أن تُوَفَّق فإن لم تُوَفَّق فقد صدق الله، وابحث عن خلل في دعْوَتِك وفي نفسك.

فإذا كان هناك خلل فإمَّا في النيات وإما في المنهج، وحاشا أن يكون في منهج الله عز وجل أيُّ خلل، وقبول الأعمال منوط بشرطين:

- أن تكون خالصة لله تعالى أولاً.
- ثم أن تكون وفق السنة.

فإن كانت خالصة ولم تكن وفق السنّة فعليك أن تراجِع حساباتك، وإن كانت وفق السنّة ولم تكن خالصةً فعليك أن تُراجِع حساباتك، وأنا أقول لكم كلاماً دقيقاً فأنتم مؤمنون ولا أُزكي على الله أحداً، وكل واحدٍ منكم من طموحاته أن يستخدمه الله تعالى في نشر الحق، وأن يُجْرِيَ الخير على يديه وأن يستخدمه ويستعمله في الخير، فإذا تحرَّكْت حركةً سريعةً ومكثفة ولم تلقَ نجاحاً في الدنيا يجب أن تعزوَ عدم النجاح إلى ذاتك.

فإذا لم تنْجَح الدعوة ابْحث عن الخلل وعن التقصير لعلَّ هذا يذكرنا بموقف نبيِّنا ﷺ يوم بدر؛ وهو سيد العالمين وسيد الخلق وأقرب الخلق إلى الله، فقد وقف قُبَيْل المعركة ورفع يديه إلى السماء حتى بدا بياض إبطَيْهِ أو حتى وقع الرِّداء من أعلى مِنْكَبيْه، كما روى ذلك عمرُ بنُ الخطابِ قالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ الله ﷺ إلى المُشْرِكِينَ وَهُمْ الفٌ وأَصْحَابُهُ ثلاثُمِئَةٍ وتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلاً فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ الله ﷺ القِبْلَةَ ثُمَّ مدَّ يَدَيْهِ فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ: «اللهمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللهمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللهمَّ إنْ تُهْلِكْ هَذِهِ العِصابَةَ مِنْ أَهْلِ الإِسْلامِ لا تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ»، فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ مَادّاً يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ القِبْلَةِ حَتَّى سَقَطَ رِداؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَتاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَالقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ ثُمَّ التَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ وَقَالَ: يا نَبِيَّ الله كَفَاكَ مُناشَدَتُكَ رَبَّكَ فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [الأنفال:٩] فأَمَدَّهُ اللهُ بالمَلائِكَةِ [رواه مسلم].

وقد يسأل سائلٌ أيكون الصديق أكثر ثقة بالله من رسول الله ﷺ؟! كيف نُفسِّر هذا الموقف إذاً؟ النبي ﷺ مُتأدِّبٌ مع الله أشد التأدّب، وكان النبي ﷺ يخشى أن يكون هناك تقصير في الإعداد؛ وهو يعلم أنَّ الأمر بيد الله لكن النبي ﷺ خشِيَ أن يكون هناك تقصير في الإعداد لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال: ٦٠].

وبعد فإني أتمنى على الله أن تكون هذه الحقيقة واضحة تماماً؛ العمل لا يُقْبل إلا بشرطين: الشرط الأول أن يكون خالِصاً، والشرط الآخر أن يكون صواباً، فخالصاً ما ابتُغِيَ به وجه الله، وصواباً ما وافق السنّة.

دَعَوْتَ إلى الله فلم تنجح معك الدعوة، أمعن النَّظر في نياتك؛ مَن طَلَبَ العلم ليجاري به العلماء أو ليُماري به السفهاء أو ليصرِف وجوه الناس إليه أدخله الله النار، قد تقول وأنت صادق: أنا أعلم نفسي حق المعرفة إنني أَنطوي على نية طيبة خالصة إذاً الخلل في المنهج، لعلك خالفْت منهج رسول الله ﷺ فلم تنجَح الدعوة، فكلُّ إنسان إذا عزا عدم نجاح الدعوة إلى الله، وادَّعى أنه كان خالِصاً لله فهو يُكذِّب قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾﴾.

المؤمن نقاد، وأول نقْده يجب أن يتجه إلى ذاته، وكل إنسانٍ يتعامى عن أخطائه يتداعى وينتهي، والنجاح أُمثِّله بقمة جبل، فبُلوغ القمة صعبٌ جداً، فلا بد من جُهْدٍ كبير وعرقٍ غزير ولا بد من اجتياز عقبات متلاحقة وصعود طويل عسير ومُثبِّطات عظيمة، لو أنك استطعت أن تصل إلى قمة الجبل فهذا إنجاز كبير، فهل أنت بطل؟ لا، إذ إنّ بطولَتك أن تبقى في القِمَّة، لأن فيها طرقاً زَلِقةً بحكم منحدراتها تجعلك إن لم تحزم أمرك في الحضيض في ثوانٍ معدودات؛ فاحذر الغرور والكِبَر وعدم الانصياع للحق.

فالله هو الشَّافي والمُعافي، والحقيقة أن كلمة الشفاء تتعلق بالمرض والإنسان يمرض حينما يستهين بصحة جسده، وحينما ينْحَرِف في تعامله مع ربه فرحمة الله عز

وجل تقتضي أن يعالجه، هو الشَّافي فالله سبحانه وتعالى يشفي ويُعافي، والمصلي ماذا يقول في الصلاة: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾ [الفاتحة:٦-٧].

فلم يقل: غير الذين غَضِبْت عليهم، إنما قال: غير المغضوب عليهم ولا الضالين، فالإنسان ينْحرِف فيغضب الله عليه ويستقيم فيُثْنى الله عليه.

وفي سورة يونس قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [يونس:٥٧].

ألا فاعلم أيها المؤمن أن: من أوتِيَ القرآن فظن أن أحداً أوتِيَ خيراً منه فقد حقَّرَ ما عظَّمَه اللهُ، فالذي يُؤْتَى القرآن تلاوةً وفهْماً وتفسيراً وتطبيقاً فقد بلغ قِمَّة المجْدِ، لأن السيدة عائشة رضي الله عنها سُئلت عن أخلاق النبي ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن» [رواه مسلم]، قال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقان:٦٣].

تابع هذه الآيات تجد أنها أخلاق عباد الرحمن فتخلق بأخلاقهم.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الأنفال:٢].

اقرأ القرآن وابحث عن أوصاف المؤمنين فإذا كانت هذه الأوصاف منطبقةً عليك فاشْكر الله عز وجل وإلا فابحث عن الخلل.

النبي ﷺ كان إذا عاد مريضاً يدعو له ويقول كما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها أنَّ رَسُولَ الله ﷺ كانَ إذا أَتَى مَرِيضاً أَوْ أُتِيَ بِهِ قالَ: «أَذْهِبِ الباسَ رَبَّ النَّاسِ، اشْفِ وَأَنْتَ الشَّافي، لا شِفاءَ إلاّ شِفاؤُكَ، شِفاءً لا يُغادِرُ سَقَماً» [رواه مسلم].

أنت الشَّافي وحْدَك، وربُّنا عز وجل أحياناً يشفي مريضاً بمرضٍ عُضال وقد كان مُسْتَعْصياً، ولحكمةٍ بالغةٍ ورحمةٍ غامرةٍ يشفي هذا المريض شفاءً ذاتياً على الرغم من أن مرضَهُ عُضال، فمن أجل ماذا؟ من أجل ألا تعتقد أن الدواء هو الشَّافي، إذ إنَّ الشَّافي هو الله، فالله عز وجل يسمَح للدواء أن يفعلَ فِعْلَه، فكلُّ مريضٍ نَسِيَ الله وبحثَ عن الدواء فقد عصى الله.

ومعنى آخر من معاني الشفاء: لو أنَّ إنساناً كان منحرِفاً ثم تاب إلى الله عز وجل فقد شفاه إذا أقبل عليه تائباً، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام:١٢٢].

التوبة تُحيي القلب، فالله شافٍ، ويشفي جسدك ولو أُصيب بأيِّ مرضٍ، ويشفي قلبك من كلِّ مرضٍ، فما عليك إلا أن تبادر إليه وتأوي إليه مستسلماً، قال تعالى: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الذاريات:٥٠].

نصيب المؤمن من اسم الله الشافي

الشَّافي جل جلاله يشفي أجسادنا ويشفي قلوبنا، والمؤمن الذي يعلم أنَّ الله هو الشَّافي يتّجه إليه وحده طالباً منه الشِّفاء، ولكنَّه لا يترك الأخذ بأسباب الشِّفاء، لأنَّ الشافي جل جلاله قد أمره باتِّخاذ الأسباب، إلا أنّه يأخذ بها دون أن يعتمد عليها، والنبي ﷺ يقول: «لكلِّ داءٍ دواءٌ، فإذا أُصيب دواءُ الداءِ بَرَأَ بإذنِ الله عزَّ وَجَلَّ» [رواه مسلم من حديث جابر بن عبدالله].

وهذا الحديث وحده يُعَدّ من أعظم الأحاديث الشريفة، لأنَّه ذو صلة بكلِّ الأمراض قاطبة، فلو سمِعه طبيب ولم يهتدِ إلى تشخيص بعض الأمراض فإنَّه يتّهم نفسه بالتقصير، فكأنَّ هذا الحديث يدفع العلماء والأطباء إلى البحث عن الدواء، ولأنَّ الله عز وجل يقول فيما أخبرنا عنه النبي ﷺ: «لِكُلِّ داءٍ دَوَاءٌ» فإذا سمع هذا الحديث

أيُّ مريض وقرأه فإنَّه يمتلئ قلبه أمَلاً بالله عز وجل أن يشفيه، فما من داءٍ خلقه الله إلا وخلق له دواء.

قال العلماء: فإذا أُصيب دواء الداء؛ أي إذا وُفِّق الطبيب إلى تشخيص المرض أولاً ثم وُفِّق الطبيب إلى اختيار الدواء المناسب ثانياً بَرِئَ، ولكن لا بد من أن يأذن الله عز وجل، فالمريض ارتبط من جهةٍ بالعلم والبحث والدراسة الجادة، وأن هذا المرض له دواء في مخابر الباحثين والعلماء، وارتبط بالله عز وجل لأنه إذا أُصيب دواء الداء بَرِئ، ولكن بإذن الله، فلا بد من أن يأذن الله حتى يبْرأ المريض.

وما عليك إلا أن تتصل به وأن تتجه نحوَه وأن تُخْلِص له، هو الشَّافي يشفي جسدك ويشفي قلبك، شفاء الجسد مُريحٌ في الحياة الدنيا، لكنَّ شفاء القلب سبب سعادة المرء إلى أبدِ الآبدين. ومن هنا تتجلى أهمية الدعاء الشريف: «اللهم! اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولّني فيمن تولّيت» [رواه الأربعة عن الحسن بن علي].

أحياناً أشْعُر أن الشفاء يخلُقه الله خلقاً، كما أن المرض يُخْلق، فقد تجد المرْءَ بعد مرضٍ عُضال يعود كما كان قبل المرض فلا شفاء إلا شفاء الله سبحانه.

اسم الشَّافي اسمٌ عظيم، وأنا لا أُقلِّل من قيمة شفاء الجسم، لأن الإنسان يحيا بهذا الجسد، واحفظ قوله ﷺ في دعائه الشريف: «واجْعَلْه الوارث منا» [رواه الترمذي، من حديث ابن عمر]، ولكنَّ شفاء القلب قِمَّة أنواع الشفاء، وهذا الشفاء سبب سعادة المرء إلى أبد الآبدين، فالبطولة أن يكون قلبك معافىً من كل أمراضِه، لأن القلب المريض لا يستطيع أن يُقْبِل على الله عز وجل.

الرفيق

ورد هذا الاسم في السّنّة الصحيحة، ففي صحيح البخاري ومسلم من حديث عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «يَا عَائِشَةُ، إِنَّ الله رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى العُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ» [مسلم].

من معاني اسم الله الرفيق

الرَّفيق هو اللطيف، والرَّفيق هو الذي يرافقك، والرَّفيق هو الذي يتصرَّف برِفق، يقول الله عز وجل: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد: ٤].

معكم بعلمه، والإنسان لا يحتمل أن يكون معه إنسانٌ بشكل دائم، لكنَّ الله معنا بلطف دون أن نشعر.

رحمته لعباده رفق، ومغفرته لعباده رفق، وقبول توبته من عباده رفق.

ما من جهة يمكن أن تكون معك في سفرك، وتستخلفها في بيتك إلا الله، ومن أدعية النبي ﷺ ما ثبت عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا سَافَرَ فَرَكِبَ رَاحِلَتَهُ قَالَ:

«اللهمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ، اللهمَّ اصْحَبْنَا بِنُصْحِكَ، وَاقْلِبْنَا بِذِمَّةٍ، اللهمَّ ازْوِ لَنَا الأَرْضَ، وَهَوِّنْ عَلَيْنَا السَّفَرَ، اللهمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ» [الترمذي، أبو داود].

قال بعض العلماء: «الرَّفيق هو اللطيف بعباده، القريب منهم»، فالله عز وجل يحول بين المرء وقلبه، هو أقرب إليك من حبل الوريد، أقرب إليك من خواطرك، وما من إنسان يدخل على إنسان اختصاصيٍّ في الطِّبِّ أو الهندسة أو المحاماة إلا ويحتاج إلى أجرة، إلا أنك إذا لجأت إلى الله فإنَّه يتولاك دون عوض ولا مقابل، لأنَّه رفيق بك.

لذلك فإنَّ الذي يعصي ربه في رابعة النهار، نهاراً جهراً، وينسى أن الله معه، وأن الله يراقبه، هذا ليس بكامل الإيمان، لذلك من أرقى مستويات الإيمان أن تؤمن أن الله معك، قال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٧-٢٢٠].

وفي الحديث الشريف الذي روته أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها:(فكانت آخر كلمة تكلم بها ﷺ اللهمَّ الرَّفيق الأعلى) [متفق عليه].

أمّا آثار لُطف الله في مخلوقاته فكثيرة ومن أمثلتها:

الطفل الصغير له أسنان لبنيَّة، وهذه الأسنان تسقط دون ألم، وما من طبيب أسنان إلا وهو مضطرٌّ أن يعطي المريض مخدِّراً حتى يقلع السِّنَّ، أمَّا الطّفل فيتفاجأ بسنِّه مع لقمة طعامه، وهذا نوع من اللطف، الهواء لطيف، يحمل الطائر، بل إنَّه يحمل

طائرة وزنها ثلاثمئة وخمسون طنّاً، وأنت تمشي ضمن الهواء، وتستنشق الهواء، ولا ترى الهواء.

والله عز وجل رفيق في أفعاله، لذلك يقدِّر لعباده أرزاقهم، ويهديهم لما يصلحهم، فالإنسان ينام، فتتباعد الخلايا العصبية، والسيالة في النوم لا تتخطى الفراغ، فينام مرتاحاً، أمَّا إذا كان الصوت عالياً جداً فهذا الصوت العالي يوقظه.

هذاك الرَّفيق إلى مصالحك، جعل في العظم عصباً حسيَّاً، فإذا حدث كسر فالألم الشديد الذي لا يحتمل يجعلك تدع العظم المكسور كما هو، وأن تدعه كما هو فهذا أربعة أخماس معالجته.

هو رفيق بنا، ببنية أجسامنا، بوظائف أجسامنا، الإنسان يتوضأ براحة، لكن لو وضعت ماء بارداً على ظهره فإنَّه لا يحتمله، فأعصاب الحسِّ في الأماكن المكشوفة التي تقتضي التنظيف الدائم ضعيفة جداً، وفي الأماكن المستورة قويَّة جداً.

هذا المرفق لولاه كيف تأكل؟ لابد أن ينبطح الإنسان كالهرَّة ليأكل، لكنَّ له مرفقاً، وهذا المرفق يوصل الطعام إلى فمك، وإلا ليس هناك طريق ثان.

البطيخ ينمو على الأرض، ولو كان ينمو على الأشجار فقد تقتل حبَّة البطيخ إنساناً.

تأكل تفاحة، طعمها طيب، ورائحتها طيبة، وحجمها معتدل، وقوامها يتناسب مع الأسنان، وفيها فوائد.

نصيب المؤمن من اسم الله الرفيق

الحلم رفق، والمعالجة بحكمة من الرفق، والعفو من الرفق، والمغفرة من الرفق، والتسامح من الرفق.

وفي الحديث الذي مرَّ بنا (إن الله رفيق يحبُّ الرِّفق في الأمر كلِّه) يحبُّ الرِّفق في تربية الأولاد، يحبُّ الرِّفق في معاملة الزوجة، يحبُّ الرِّفق في التَّعامل التِّجاريّ.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «رَحِمَ الله عَبْدًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ، سَمْحًا إِذَا اشْتَرَى، سَمْحًا إِذَا اقْتَضَى» [صحيح البخاري].

من صفات المؤمن أنَّه رفيق لطيف، وإذا كان معك فظلُّه خفيف، لا ينتقد، لا يحاسب، لا يقسو، المؤمن ليِّن العريكة، يألف ويُؤلف.

الفرق بين المؤمن وغير المؤمن جوهريٌّ وكبير جداً، تُعامِل المؤمن فتراه لطيفاً، ترى ظلَّه خفيفاً، تراه سمحاً، تراه عَفوّاً، متسامحاً.

وعَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ» [مسلم].

توصَّل إلى أهدافك بالرفق، انصح، عظ موعظة حسنة، جادل بالتي هي أحسن.

لا تكن فظّاً غليظ القلب، النبي ﷺ وهو سيد الخلق، وحبيب الحق، وسيد ولد آدم، أوتي المعجزات، أوتي الوحي، كان جميل الصورة، كان فصيح اللسان، كان رحيماً، كان حليماً، كان متواضعاً، ومع كلِّ هذه الصفات يقول الله له: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [آل عمران:١٥٩].

فكيف بإنسان ليس نبياً، ولا رسولاً، ولا يُوحى إليه، وليس فصيحاً، وليس جميل الصورة، وليس رحيماً... ومع ذلك فهو فظٌّ غليظ القلب؟!

إذا دخلت إلى البيت فقل: السلام عليكم، إذا أردت أن توجِّه ابنك فقل: يا بني، هذا الشيء يؤذيك، أنا ناصح أمين لك، دون أن تضرب وتشتم وتقسو.

إنّ صفات المؤمن متميّزة، البيت الذي فيه رفق فيه حبٌّ وهدوء، فيه راحة نفسية، فيه أولاد ينشؤون نشأة صحية، يرون أباهم وأمهم على وفاق، وعلى وئام.

أولا: ينبغي أن يكون الإنسان رفيقاً بنفسه، فقد يفعل من الأعمال ما لا يحتمل تبعتها، فنفسك مطيتك إلى الله فارفق بها، وهناك أعمال تسبِّب بعدًا عن الله، وأعمالٌ تسبِّب حجاباً بينك وبين الله، فارفق بنفسك، ولا تحمّلها ما لا تطيق، فهذا الذي يستقيم على أمر الله عز وجل، هذا الذي يقف عند حدود الله، هذا الذي يتقرَّب إلى الله يُسعد نفسه بالقرب إلى الله، أما إذا عمل أعمالاً لا ترضي الله فقد أقام باختياره وبفعل يده حجاباً بينه وبين الله، فحمّل نفسه من آلام البعد وجفوة المعصية ما لا يطيق. فأول حظ من حظوظ المؤمن من هذا الاسم أن استقامته على أمر الله تجعل الطريق إلى الله سالكة، إذًا: هو ينعم في جنة القرب، وفي الدنيا جنَّة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، يقول تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦﴾ [محمد:٦].

الإنسان يسعد بقربه من الله، فإذا فعل بعض المعاصي والآثام، أو إذا قصَّر في بعض الحقوق كان الحجاب بينه وبين الله، فحمّل نفسه مالا تطيق، ومن ناحية ثانية قد يحمِّل الإنسان نفسه من العبادات ما لا يطيق.

فعَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا امْرَأَةٌ، قَالَ: «مَنْ هَذِهِ؟ قَالَتْ: فُلَانَةُ، تَذْكُرُ مِنْ صَلَاتِهَا، قَالَ: مَهْ، عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ، فَوَالله لَا يَمَلُّ الله حَتَّى تَمَلُّوا، وَكَانَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيْهِ مَادَامَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ» [متفق عليه].

وعَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «سَدِّدُوا، وَقَارِبُوا، وَاعْلَمُوا أَنْ لَنْ يُدْخِلَ أَحَدَكُمْ عَمَلُهُ الجَنَّةَ، وَأَنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَى الله أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ» [متفق عليه].

افعل من العبادات ما تستطيع أن تستمرَّ عليه، أمَّا هذا الذي يفور، ثم يضعف، وخطُّه البيانيُّ صاعد صعوداً حادّاً، ثم يهبط هبوطاً مريعاً، فليس هذا من الحكمة.

فالإنسان له مجلس علم يحافظ عليه، له أذكار يحافظ عليها، له تلاوة قرآن يومية يحافظ عليها، والاستمرار ينشأ عنه حالة اسمها التراكم، تراكم العبادات، تراكم الأذكار، تركم التلاوات، هذه تفعل فعلاً عجيباً، وتقرِّب المرء من الله عز وجل.

أول بنود الرفق: ارفق بنفسك، لا تحمّلها من المعاصي والآثام ما لا تطيق، لا تجعلها في جفوة عن الله عز وجل، ولا تحمّلها من العبادات ما لا تطيق، عندها تكون هناك نكسة.

حتى في الإنفاق، قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥].

أنفق في سبيل الله، لأنَّك إن لم تنفق تُلقِ بنفسك إلى التهلكة، وقال بعض المفسرين: أنفق في سبيل الله، فإنك إن أنفقت مالك كلَّه تلقِ نفسك في التهلكة، ورسول الله ﷺ لم يقبل من صحابي ماله كلَّه، إلا الصديق فقط.

تهلك إن لم تنفق، وتهلك إن أنفقت مالك كلَّه.

ثمَّ إنَّ أقرب الناس إليك زوجتك، هذه رفيقة العمر، هذه شريكة العمر، ينبغي أن ترفق بها، إنَّها أولى الناس بحسن معاملتك، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ» [متفق عليه].

فالإنسان بحكمة يسعد بزوجة من الدرجة الخامسة، ومن دون حكمة، وعن طريق العنف يشقى بزوجة من الدرجة الأولى، لذلك فإنَّ أكبر عطاء إلهي هو الحكمة، قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩].

ومما ذكره العلماء في قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء:١٩].

ليست المعاشرة بالمعروف أن تمتنع عن إيقاع الأذى بها، بل أن تحتمل الأذى منها.

والحبُّ تصنعه أنت بيدك، بابتسامه، بإلقاء سلام، بالتسامح، بالمعاونة، عَنْ الأَسْوَدِ قَالَ: سَالتُ عَائِشَةَ: مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَصْنَعُ فِي أَهْلِهِ؟ قَالَتْ: «كَانَ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ، فَإِذَا حَضَرَتْ الصَّلَاةُ قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ» [البخاري].

كان يكنس داره، ويرفو ثوبه، ويحلب شاته، وكان في مهنة أهله، فمعاونة الزوجة برفق شيء رائع جداً، بل إن النبي ﷺ جعل الخيرية في البيت، فعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي» [الترمذي].

يمكن لأخلاق الإنسان خارج البيت أن تنضوي تحت مصلحته، لطفه وأناقته، وسلامه وابتسامته جزء من عمله، حتى ينتزع إعجاب الناس، ويحقِّق مصالحه، لكن في البيت لا رقابة عليه، فبطولة المؤمن أن يكون في البيت رفيقاً بأهله، محتمِلاً لبعض أخطائهم، قال تعالى: ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق:٦].

كان ﷺ إذا دخل بيته بسَّاماً ضحَّاكاً، وكان في مهنة أهله، وهذا نوع من الرفق، وكمال الإنسان يتبدى أوضح ما يتبدى في بيته، وينبغي أن تكون بيوتات المسلمين جنَّة بالودِّ، فلو جئت بطعام نفيس، لو أسكنتهم بيتاً فخماً، هم يريدون مودَّتك، يريدون ابتسامة، يريدون الحبَّ، أطعمها طعاماً خشناً، وكن لطيفاً معها أفضل ألف مرة من أن تطعمها طعاماً نفيساً ثم تقسو عليها، ومن سعادة المرء أن يحبَّ زوجته، لأنها حليلته، ولأنها أمُّ أولاده.

وينبغي أن تكون رفيقاً بأولادك، علِّم ولا تعنِّف، استخدم المكافآت بدل العقوبات، لا تقل: لو أنَّ ابناً لم يصلِّ الفجر سوف أضربه، بل قل: من صلى معي الفجر فسوف أكافئه بمبلغ من المال أو بهدية، اجعل العلاقة بينك وبين أولادك علاقة طيبة، لا شكَّ أنَّ كلَّ أب يحبُّ أولاده، لكنَّه يقسو عليهم اجتهاداً، وهذا خطأ كبير، حتى إنَّ

الأمَّ التي ترضع ابنها، برقَّة ولطف فمن نتائج هذا الإرضاع أخلاق رضية، أما إذا أرضعته بعنف فربما كان هذا الإرضاع سبباً في قسوته.

ومن الرِّفق الرِّفق بالوالدين، قال تعالى: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ ﴾ [الإسراء:٢٣].

عطف جلَّ جلاله الإحسان بالوالدين على عبادة رب العالمين، فرفع البرَّ بهما إلى أعلى مستوى.

إذًا: لابد من الترفُّق في معاملة الوالدين، حتى لو عِصيتهما في معصية لله فينبغي أن تترفق في عدم تلبية رغبتهما لا بعنف ولا بقسوة.

﴿ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ ﴾ [لقمان:١٥].

صدِّقوا أنَّ الذي يموت والداه وهما راضيان عنه فإنَّه يشعر بسعادة طول حياته، لأنه أدَّى واجبه بالكمال والتمام.

ومن الرِّفق أن ترفق بمن جعلهم الله تحت إمرتك، فلو كنت مديراً وتحت يدك عشرة موظفين، هؤلاء أتباعك، وأنت موكَّل بهم، والحديث الذي ينخلع القلب له قوله ﷺ: «اللهمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ» [مسلم عن عائشة].

قد يحمّل المدير العام الموظفين شيئاً لا يُطاق، يطالبهم بأشياء فوق طاقاتهم، ويمنع عنهم الإضافات، ويحمّلهم مالا يطيقون.

في الامتحانات قد يكون مستوى السؤال فوق طاقة الطلاب، تجد البيوت فيها مآسٍ، لأن المدرِّس أحيانا يرى بطولته في وضع أسئلة تعجيزية، وهذا خطأ كبير، وهذا المدرِّس غير رفيقٍ بطلابه.

سيدنا عمر سأل واليا أراد أن يمتحنه، قال له: ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارق أو ناهب؟ قال: أقطع يده، قال له عمر: إذًا إن جاءني مِن رعيتك مَن هو جائع أو عاطل فسأقطع يدك، إن الله قد استخلفنا عن خلقه لنسدَّ جوعتهم، ونستر عورتهم، فإن وفَّينا لهم ذلك تقاضيناهم شكرها، إنَّ هذه الأيدي خلقت لتعمل، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً التمست في المعصية أعمالاً، فاشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية.

المعطي

ورد هذا الاسم في السّنّة الصّحيحة، عَنْ مُعَاوِيَةَ رضي الله عنه يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ يُرِدْ الله بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَالله الْمُعْطِي، وَأَنَا القَاسِمُ، وَلَا تَزَالُ هَذِهِ الأُمَّةُ ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ الله وَهُمْ ظَاهِرُونَ» [متفق عليه].

من معاني اسم الله المعطي

المعطي اسم فاعل من الفعل الرباعي أعطى، يعطي، والمصدر إعطاء، وفي الحديث: «وَاللهُ الْمُعْطِي وَأَنَا القَاسِمُ» .

مثال ذلك: الأصل أنَّ هذا الماء من عطاء الله، نحن وضعناه في خزَّانات، وسُقناه إلى البيوت بأنابيب، ووزّعناه بقوارير، هذا عمل ثانويٌّ، لا يعدُّ من صلب الماء، فالماء منحة من الله عز وجل، وكلُّ شيء الأصل فيه أنه عطاء من الله، ونحن قمنا بعرضه، بتعليبه، بتغليفه، بإيصاله إلى المستهلِك، أمَّا الأصل فإنَّ الله هو المعطي.

والمُعطي جل جلاله أعطانا النعم الكبرى الصارخة، أعطانا نعمة الإيجاد، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ [الإنسان:١].

أنت موجود، لك كيان، لك اسم، لك زوجة، لك أولاد، لك بيت، لك مكانة، عندك قناعات.

أحياناً أتصفَّح كتاباً، وأطَّلع على تاريخ تأليفه، فإذا كان تاريخ التأليف قبل ولادتي فإنني أتَّخذ موعظة كبيرة، إذ أسأل نفسي: أين كنتِ في هذا التاريخ؟ ليس لي اسم في الأرض كلِّها.

منحك الله نعمة الإيجاد، ثمَّ أمدَّك بما تحتاجه، أعطاكَ جهاز تنفس، جهاز هضم، هناك ماء، وطعام، ولحوم، وخضراوات، ومحاصيل، وأنت بحاجة إلى طرف آخر فخلق المرأة من أجلك، وخلقك من أجلها، فأنجبت أولاداً ملؤوا البيت فرحة، إذاً: منحك نعمة الإيجاد، ومنحك نعمة الإمداد، ثمَّ منحك نعمة الهدى والرّشاد.

أحياناً يُشَقُّ الطَّريق، بعد حين توضَع الشاخصات، هنا منحدر زلق، وهنا تقاطع خطر، وهنا الطريق ضيقة، فهذه الشاخصات هداية للسائقين، فبعد أن منحك نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، منحك نعمة الهدى والرشاد.

وأعطاك هذا الكون وهو بنصِّ القرآن الكريم مسخَّر للإنسان تسخير تعريف وتكريم، قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية:١٣].

والمسخَّر له أكرم من المسخَّر، الإنسان سُخِّر له ما في الكون، فهو المسخَّر له، وهو أكرم عند الله من الشيء المسخَّر، والإنسان هو المخلوق المكرَّم المكلَّف.

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ [الأحزاب:٧٢].

لأنه قَبِل حمل الأمانة، كان المخلوق الأول تكريماً وتكليفاً، قال سيدنا علي رضي الله عنه: رُكِّب الملَك من عقل بلا شهوة، ورُكِّب الحيوان من شهوة بلا عقل، ورُكِّب الإنسان من كليهما، فإن سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة، وإن سَمت شهوته على عقله أصبح

دون الحيوان، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧﴾ [البينة:٧].

وفي المقابل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦﴾ [البينة:٦].

بين أن تكون أرقى من الملائكة، وأن يكون الإنسان الذي كفر بربه دون أحقر حيوان والفرق كبير جداً.

لو أنَّ إنساناً قدّم لك جهازاً متطوِّراً جدّاً، وفيه قفزة نوعية بخصائصه، وهو من اختراعه، فقدَّمه لك هدية، يجب أن ينتابك شعوران، شعور التعظيم له على هذا الإنجاز العلميِّ الكبير، وشعور الامتنان، لأنَّه قدّمه لك مجّاناً، ولأنّ الله سبحانه وتعالى سخَّر للإنسان الكون بما فيه تسخير تعريف وتكريم، فردُّ فعل التعريف أن تؤمن، وردُّ فعل التكريم أن تشكر، ولمجرد أنَّك آمنت وشكرت فقد حقَّقت الهدف من وجودك، وإذا حُقِّق الهدف من الوجود تتوقَّف كلُّ أنواع المعالجة والتأديب، يقول تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ﴾ [النساء:١٤٧].

وفي الحديث القدسيّ يقول الله تعالى:

«يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ» [رواه مسلم عن أبي ذر].

لا تعتب على أحد، بل لُمْ نفسك على تقصيرك، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۝٣٠﴾ [الشورى:٣٠].

المعطي جل جلاله يعطينا نعماً دنيوية، كالصحة، والقوة، والمال، والجمال، ويعطينا نعماً إيمانية، كالسكينة، والأمن، والرضا، والسعادة، يعطينا نعماً لا تعدُّ ولا تُحصى، لكنَّ نعم الله عز وجل ما كان منها في الدنيا فإنَّه ينقضي بانقضاء الدنيا.

يقول الله عز وجل: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر: ١٥-١٦].

جاء الجواب مع الردع: ﴿كَلَّا﴾ [الفجر: ١٧].

يا عبادي، ليس عطائي إكراماً في الدنيا، ولا منعي حرماناً، عطائي ابتلاء، وحرماني دواء.

فالله سبحانه وتعالى يعطي الصحة، والذكاء، والقوة، والجمال، والمال للكثيرين من خَلقه، ولكنَّه يعطي السكينة بقدر لأصفيائه المؤمنين، يعطيك نعماً إيمانيَّة، يعطيك الرضا، فأنت راضٍ عن الله، راضٍ عن نفسك، بمعنى أنك قبلت قضاء الله وقدره، راضٍ عمّا نزل بك من محِنٍ، ليقينك القطعيِّ أنَّ هناك حكمة بالغة وراءها.

حينما نؤمن أنَّ كلَّ شيء بقضاء من الله وقدر، وأنَّ الإيمان بالقدر يذهب الهمّ والحزن، نكون قد عرفنا حقيقة العطاء، فعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ» [أخرجه أحمد في مسنده].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى الله مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِالله، وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ الله، وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ» [رواه مسلم].

ليس في قاموس المؤمن كلمة (لو).

يقول تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ﴾ [العنكبوت:٤٥].

مِن معاني هذه الآية أنَّ ذِكركَ لله عز وجل أكبر من كلِّ شيء، وأنَّ الله يذكرك، لكنَّ ذكر الله لك أكبر من ذكرك له، فإذا ذكرته فقد أديت واجب العبودية، لكنَّه إذا ذكرك أعطاك الأمن، والأمن نعمة خاصة بالمؤمنين.

﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟﴾ [آل عمران:١٥١].

أما المؤمنون: ﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام:٨١-٨٢].

إن ذكرك منحك الحكمة.

﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًاۗ﴾ [البقرة:٢٦٩].

ذكر الله لك يمنحك السكينة، سعادة ما بعدها سعادة، لا يعرفها إلا من ذاقها، إذا ذكرك الله عز وجل أعطاك الرضا.

والعلم أعظم عطاء يعطيه الله لعبده، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء:١١٣].

لأن الله سبحانه وتعالى أودع في الإنسان قوَّة إدراكيَّة، وما لم يبحث عن الحقيقة، وما لم يطلب العلم فقد هبط من مستوى إنسانيته إلى مستوى لا يليق به.

كرامة العلم أعظم كرامة عند الله، فإذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم.

يقول تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ﴾ [المجادلة:١١].

فالله سبحانه وتعالى اعتمد في القرآن الكريم العلم والعمل قيمتين مرجِّحتين بين خلقه، فبطولة الإنسان أن تأتي مقاييس التفوق عنده كما هي في القرآن.

الناس في الدنيا يعظِّمون الأغنياء والأقوياء، لكنَّ القرآن الكريم بيّن لنا أن رتبة العلم أعلى الرتب، قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩].

هناك علم بخلقه، وعلم بأمره، وعلم به، العلم بخلقه وبأمره يحتاجان إلى مدارسة، إلى كتاب، وإلى معلّم، وإلى شهادة، وإلى امتحان، لكنَّ العلم به يحتاج إلى مجاهدة.

والبطولة ألا يكون طلب العلم في أوقاتك الهامشية، بل يجب أن يكون طلب العلم جزءاً من خطَّتك في الحياة، لأنَّ هناك إنسانا بحسب فراغه يطلب العلم، لكنْ عنده أشياء أساسيّة لا يعلو عليها شيء، أمَّا المؤمن فطلب العلم جزء أساسي من حياته، ولا يعلو عليه شيء، وقد قال سيدنا علي رضي الله عنه: يا بنيّ، العلم خير من المال، لأنَّ العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق، يا بنيّ، مات خُزَّان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة.

في الإنسان حاجات سفلى، وحاجات عليا، فالحاجة العليا الكبيرة هي طلب العلم، وما لم يطلب الإنسان العلم فإنَّه لا يرقى إلى مستوى إنسانيته، والإنسان دون علم وُصِف في القرآن الكريم بأنه: ﴿كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٤)﴾ [الفرقان:٤٤].

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة:٥].

﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ [الأعراف:١٧٦].

بل قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون:٤].

والله سبحانه وتعالى قد يمنع ليعطي، ويأخذ ليعطي، ويخفض ليرفع، ويذلُّ ليعزَّ، لأنَّ الإنسان قبل حمل الأمانة، فإنَّ قصَّر في حملها، جاءت المعالجة الإلهيَّة.

لو أنَّ الله سبحانه وتعالى لم يربِّ عباده فإنَّ مصير معظمهم إلى النار، لكن هذا ربّاه بمرض، وهذا بقلق، أو بشبح مصيبة، أو بضيق، والله عز وجل يسوقنا إلى بابه سوقاً، وهذا من نِعم الله عز وجل علينا.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «يَا ابْنَ آدَمَ، مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟ يَا ابْنَ آدَمَ، اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ، وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي؟ يَا ابْنَ آدَمَ، اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي، قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي؟» [أخرجه مسلم].

وهذا يؤكِّد أنّ الله عز وجل حينما يأخذ من الإنسان بعض صحَّته فإنَّه يعوِّضه أضعافاً مضاعفة من القرب والسكينة.

«أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟»

الله عز وجل يأخذ ليعطي، يمنع ليعطي، يخفض ليرفع، يضر لينفع، هذه الأسماء الأَولى أن تذكر مَثْنى مَثْنَى.

ويدخل التّوحيد في معنى العطاء، لأنّه لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، فعلاقتك إذاً مع الله، وقد قال ابن عطاء الله السكندري: ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك، وهذا من معاني قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان:٢٠].

فالمصائب والحرمان والمتاعب نِعَمٌ باطنة.

سيدنا سعد بن أبي وقّاص إذا دخل على النبي ﷺ كان يداعب، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله قَالَ: أَقْبَلَ سَعْدٌ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هَذَا خَالِي، فَلْيُرِنِي امْرُؤٌ خَالَهُ» [الترمذي].

وفدَّاه بأبيه وأمه، فقال: «ارْمِ سَعْدُ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي» [أخرجه الشيخان عن علي بن أبي طالب].

وبعد وفاة رسول الله ﷺ قال له عمر كلمة توحيد، قال له: يا سعد، لا يغرنَّك أنه قد قيل: خال رسول الله، فالخلق كلُّهم عند الله سواسية، ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعته.

أحياناً تأتي المصيبة فتكون سبب الهداية، وحينما تكشف لك حكمتها تذوب كالشمعة محبَّة لله، يقول تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة:].

يجب أن تؤمن إيماناً قطعياً أن المصائب نِعَمٌ وعطاء، وأنَّ الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين، وأنَّ المصائب تعني أنك ضمن عناية الله، وأن المصائب تعني أنك ضمن رحمة الله، يقول تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ ﴾ [الأنعام:١٤٧].

ومِمَّا تقتضيه رحمة الله.

﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [الأنعام:١٤٧].

فإذا كُشفت لك الحكمة في المنع عاد المنع عين العطاء.

وفي آية ثانية: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ ﴾ [التغابن:١١].

يهدي قلبه إلى حكمة المصيبة.

حينما تؤمن أنك بعين الله، وبعنايته، وبرعايته، وبحكمته، وأنَّ الذي ساقه إليك محض محبة، ومحض حكمة، ومحض خير فإنَّك ترضى عن الله.

كان أحدهم يطوف حول الكعبة ويقول: يا رب، هل أنت راضٍ عني؟ كان وراءه الإمام الشافعي، قال له: يا هذا، هل أنت راضٍ عن الله حتى يرضى عنك؟ قال

له: سبحان الله! مَن أنت يرحمك الله؟ قال له: أنا محمد بن إدريس، قال له: كيف أرضى عن الله، وأنا أتمنى رضاه؟ قال له: إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله، والدليل: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [المائدة:١١٩].

عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ؛ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» [مسلم].

أحيانا يمضي الإنسانُ سنوات طويلةً في الدراسة في بلد أجنبي، ولا دخل له، ووالده فقير، فيشتغل هذا الطالب في مطعم، أو يشتغل حارساً، ويدرس في النهار، وضعه المنظور مؤلم جداً، لكن هذا مستقبله مشرق جداً، حينما ينال الشهادة، ويعود إلى بلده، ويعيّن بمنصب رفيع، وله دخل وفير، وله مكانة اجتماعية، ينسى كلَّ التعب الذي أصابه، قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى:٥].

وهذه الآية لرسول الله ﷺ، ولكنها تنسحب على كلِّ مؤمن بقدر إيمانه واستقامته وإخلاصه.

إضاءات على الآيات التي ورد فيها عطاء الله تعالى

قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه:٤٩-٥٠].

أعطى الله كلَّ شيء خلقه أي أعطاه الخلق الكامل.

كما في قوله ﷺ: «أَعْطُوا الأَجِيرَ أَجْرَهُ قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ عَرَقُهُ» [ابن ماجه عن ابن عمر].

لم يقل: أعطوه أجراً، بل أجره الذي يعادل جهده، أجره الذي يحقِّق له كرامته.

إذاً أعطاه خلقه الكامل المناسب له، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤].

الأنف فيه عشرون مليون عصب شمٍّ تقريباً، ينتهي كلُّ عصب بسبعة أهداب، والهدب مغمَّس بمادة تتفاعل مع الرائحة، فتشكِّل شكلاً هندسياً، هذا الشكل هو رمز الرائحة، يشحن إلى الدماغ؛ إلى الذاكرة الشمّية، وعندنا عشرة آلاف بند، وهذا الشكل الهندسيُّ يعرض على الذَّاكرة الشَّمّيّة إلى أن يتوافق مع شكل الرائحة فتقول: هذه رائحة النعناع مثلاً، فالشمّ آلية معقدة جداً.

وضع الله عز وجل في لبّ السّنّ عصباً حسيّاً، فإذا بدأ النَّخر، ووصل إلى العصب فإنّك لا تنام الليل، فتسارع إلى الطبيب، ولولا هذا العصب لخسر الإنسان أسنانه دون أن يشعر، فالعصب الحسيُّ جهاز إنذار مبكر.

وأنت غارق في النوم يجتمع اللعاب في فمك، فتذهب رسالة إلى الدماغ، أنَّ اللعاب زاد على حده، فيأتي أمر من الدماغ، يفتح البلعوم لسان المزمار، يغلق القصبة الهوائية، يفتح المريء فتبلع ريقك، وأنت نائم.

البروستات تقع بين مجرى البول ومجرى ماء الحياة، عند اللقاء الزوجي تفرز مادة مطهّرة، ومادة مغذية، ومادة معطرة.

﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠ ﴾ [طه:٥٠].

ويقول تعالى: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝١٨ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۝١٩ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝٢٠ ﴾ [الإسراء:١٨-٢٠].

قد يختار إنسان احتراف الغناء، ثم يموت، وتبقى أغانيه تصدح إلى يوم القيامة، وقد يختار إنسان القرآن، ثم يموت، وتبقى تلاوته تذاع إلى يوم القيامة.

هناك إنسان بنى مسجداً، وآخر بنى ملهى، والإنسان مخيَّر، فاختر ما شئت، وافعل ما شئت، لكن كلُّ شيء له حسابه عند الله تعالى.

ويقول تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر:١].

إنَّ أيّ عطاء ينتهي بالموت فليس عطاءً، لكنَّ عطاء الله عطاء أبديٌّ مستمر.

قال تعالى: ﴿ ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ۝١٠٨﴾ [هود:١٠٨].

كلّ إنسان لا بد أن ينتقل من بيت إلى قبر، والبيت معتنى فيه جداً، فيه زوجة وأولاد، وغرفة ضيوف، وغرفة جلوس، مطبخ، حمام، مركبة واقفة عند الباب، نزهات، فإذا توقَّف القلب وُضع الإنسان في القبر، فماذا في القبر؟!

الذكاء والتوفيق والعقل أن تعيش المستقبل، لا أن تعيش الماضي، ولا أن تعيش الحاضر، فالذي يعيش الماضي غبيٌّ، لأنه ما مضى فات والمؤمَّل غيب، ولك الساعة التي أنت فيها، والذي يعيش المستقبل هو أعقل العقلاء، ماذا في المستقبل؟ مغادرة الدنيا، ماذا أعددنا لهذه الساعة؟ الجنة عطاء غير محدود، لكن ما الخسارة؟ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ۝١٥﴾ [الزمر:١٥].

إنسان باع بيته، وباع معمله، وباع بيت المصيف، وباع بيتاً على البحر، وباع كلَّ أدواته ومركباته، وفَقَد هذا المبلغ بطريقة أو بأخرى، يشعر بخسارة لا تُحتمَل، أمَّا الآخرة فالخسارة فيها أشدّ، خُلق الإنسان للأبد فخسر الأبد، من أجل سنوات معدودة أمضاها في المعاصي والآثام.

كـــن مـــع الله تـــر الله معـــك واتـــرك الكـــل وحـــاذر طمعـــك
وإذا أعطـــاك مـــن يمنعـــه ثـــم مـــن يعطـــي إذا مـــا منعـــك

نصيب المؤمن من اسم الله المعطي

الأقوياء أخذوا ولم يُعطوا، والأنبياء أعطَوا ولم يأخذوا، والمؤمن يبني حياته على العطاء، يقول تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦﴾ [الليل:٥-٦].

بنى حياته على العطاء، فالعطاء سمة عميقة من سماته، فيعطي من وقته، ويعطي من ماله، ويعطي من خبرته، ويعطي من قوّته في سبيل مرضاة الله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ﴾ [البقرة:٢٤٥].

فأيّ عمل صالح فهو في حقيقته قرض لله عز وجل.

عَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ قَالَ: «آخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ سَلْمَانَ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ، فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَذِّلَةً، فَقَالَ لَهَا: مَا شَأْنُكِ؟ قَالَتْ: أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا، فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا، فَقَالَ: كُلْ، قَالَ: فَإِنِّي صَائِمٌ، قَالَ: مَا أَنَا بِآكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ، قَالَ: فَأَكَلَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ، قَالَ: نَمْ، فَنَامَ، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ، فَقَالَ: نَمْ، فَلَمَّا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ، قَالَ سَلْمَانُ: قُمْ الآنَ فَصَلَّيَا، فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: صَدَقَ سَلْمَانُ» .

أنت تتلقى من الله العطاء، لكن ينبغي أن تتخلق بهذا الكمال الإلهي، أن تعطي، لذلك كان ﷺ يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، المؤمن كريم، والكرم أحد أساسيات إيمانه، لأنه أيقن أن الدنيا ممرٌّ للآخرة، وأنَّ ثمن الآخرة هو العمل الصالح، وأنَّ حجمك عند الله بحجم عملك الصالح، فبقدر تضحياتك ترقى عند الله.

الله عز وجل يحاسبك على زوجتك، عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: «دَخَلَتْ عَلَيَّ خُوَيْلَةُ بِنْتُ حَكِيمِ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ حَارِثَةَ بْنِ الأَوْقَصِ السُّلَمِيَّةُ، وَكَانَتْ عِنْدَ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ، قَالَتْ: فَرَأَى رَسُولُ الله ﷺ بَذَاذَةَ هَيْئَتِهَا، فَقَالَ لِي: يَا عَائِشَةُ، مَا أَبَذَّ هَيْئَةَ خُوَيْلَةَ! قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، امْرَأَةٌ لَا زَوْجَ لَهَا، يَصُومُ النَّهَارَ، وَيَقُومُ اللَّيْلَ، فَهِيَ كَمَنْ لَا زَوْجَ لَهَا، فَتَرَكَتْ نَفْسَهَا، وَأَضَاعَتْهَا، قَالَتْ: فَبَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ فَجَاءَهُ، فَقَالَ: يَا عُثْمَانُ، أَرَغْبَةً عَنْ سُنَّتِي؟ قَالَ: فَقَالَ: لَا وَالله يَا رَسُولَ الله، وَلَكِنْ سُنَّتَكَ أَطْلُبُ، قَالَ: فَإِنِّي أَنَامُ وَأُصَلِّي، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَنْكِحُ

النِّسَاءَ، فَاتَّقِ اللهَ يَا عُثْمَانُ، فَإِنَّ لِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِضَيْفِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَصُمْ وَأَفْطِرْ، وَصَلِّ وَنَمْ» [أحمد].

حقوق العباد مبنية على المشاححة، وحقوق الله مبنية على المسامحة، فالزوجة لها حق، والابن له حق، وأنت أيها الطبيب هذا المريض له حق عندك، يجب أن تنصحه، وأنت أيها المحامي هذا الموكِّل له حق عندك، وأنت أيها المدرس هذا الطالب له حق عندك.

«فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ»

لكن في النهاية من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله ومنع لله، فقد استكمل الإيمان، فعطاء المؤمن يكون وفق مبادئه، يعطي لله، ويمنع لله، يرضى لله، ويغضب لله، يصل لله، ويقطع لله، ليس عنده عمل عشوائيٌّ، وعادات وتقاليد مسيطرة عليه، يتحرَّك وفق مبادئ وقيم.

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ للهِ، وَأَبْغَضَ للهِ، وَأَعْطَى للهِ، وَمَنَعَ للهِ فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ» [أبو داود].

وفي الحديث: «أنفق، أنفق عليك» [متفق عليه].

والله عز وجل يسترضى بالصدقة، وهذه خبرة عند المؤمنين، والله عز وجل حينما ترجو منه شيئاً، وتتوسَّل لهذا الرجاء بصدقة تنفقها على نية التوفيق، أو تحقيق ما تصبو إليه، فالله عز وجل يُسترضى.

إذاً: كما أن الله أعطاك نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمى الهدى والرشاد فينبغي أن تبني حياتك على العطاء، والناس على اختلاف مللهم ونحلهم، وانتماءاتهم وأعراقهم وأنسابهم وطوائفهم لا يزيدون على رجلين؛ رجلٍ عرف الله فانضبط بمنهجه، وأحسن إلى خلقه، وبنى حياته على العطاء فسعد في الدنيا والآخرة، ورجلٍ غفل عن الله، وتفلت من منهجه، وأساء إلى خلقه، وبنى حياته على الأخذ فقط فشقي وهلك في الدنيا والآخرة.

السَّيِّد

ورد هذا الاسم في السُّنَّة المطهَّرة، يقول مُطَرِّفُ بن عبد الله بن الشِّخِّير: «قال أبي: انطلقتُ في وفَدِ بني عامر إلى رسولِ الله ﷺ فقلنا: أنتَ سَيدنا؟ فقال: السَّيِّد الله، قلنا: وأفضلُنا فَضلا، وأعظمُنا طَوْلا، فقال: قولوا بقولكم، أو بعضِ قولكم، ولا يَستَجْرِيَنَّكم الشيَطان» [أخرجه أبو داود عن مُطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير].

من معاني اسم الله السيد

السَّيِّد لغة: صفة مشبَّهة للموصوف بالسّيادة، أصله ساد يسود فهو سيْوِد، قلبت الواو ياءً، وأدغمت في الياء، فأصبحت سيِّد، والسَّيِّد على الإطلاق هو الله، لأَنَّه مالك الملك، بل مالك الخلق، ولا مالك للخلق سواه، هو سيِّد الخلق، لأَنَّه مالك أمرهم، وبأمره يعملون، وعن قوله يصدُرون، يملكهم ملكاً مطلقاً، خلقاً، وتصرُّفاً، ومصيراً، وقد يُوصف الإنسان بأَنَّه سيِّد، لكن مع الفارق بين الخالق والمخلوق.

لذلك فإنَّه لمزلق خطير أن يعظِّم الناس بعضهم بعضاً، فالنّبيُّ ﷺ وهو سيِّد الخلق، وأحبُّ الخلق إلى الله، وسيِّد ولد آدم، يقول: «السَّيِّد الله».

أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه كان مع أصحابه في جلسة، فقال أحدهم: والله ما رأينا خيراً منك بعد رسول الله، فغضب وأحدّ فيهم النظر، إلى أن قال أحدهم: لا والله، لقد رأينا من هو خير منك، فقال: من؟ فقال: أبو بكر، قال: كذبتم جميعاً وصدق، والله كنت أضلّ من بعيري، وكان أبو يكر أطيب من ريح المسك، فعدّ رضي الله عنه سكوت أصحابه على قول من قال: ما رأينا خيراً منك بعد رسول الله؛ عدّ سكوتهم كذباً.

ويقول ﷺ: «إذا رأيتم المدّاحين فاحثوا في وجوههم التراب» [مسلم عن المقداد].

وفي حديث آخر أنَّ رجلاً مدح آخر عند النبيِّ ﷺ فقال له: ويحك قطعت عنق صاحبك، قطعت عنق صاحبك مراراً [مسلم عن عبد الرحمن بن أبي بكرة] .

والنهي عن المدح في الحديثين محمول على خشية الفتنة على الممدوح، وعلى المبالغة في المدح، أما المدح بغير مبالغة لمن تؤمن في حقه الفتنة فلا بأس به.

وحينما انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى قال الصديق قولاً يلفت النظر: من كان يعبد محمَّداً فإنَّ محمَّداً قد مات.

كلما تذلَّلت لله رفعك الله، وكلَّما كنت عبداً له أعزَّك، وكلَّما مرَّغت وجهك في أعتابه رفعك، وليس من إنسان على وجه الأرض رفع الله ذكره كما رفع ذكر رسول الله، لقد أقسم خالق السماوات والأرض بعمره، فقال: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الحجر:٧٢].

ولم يخاطبه باسمه، بل قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ ﴾ [الأحزاب:٥٩].

﴿ ۞ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [المائدة:٦٧].

ولقد كان رسول الله ﷺ أكثر الناس عبودية لله تعالى، وأكثرهم تواضعاً له.

لا بدَّ أن نعرف قدر النبي ﷺ، وهذا لا يعني أن نخرجه عن بشريَّته، يقول ﷺ: «إنما أنا بشر، أرضى كما يرْضى البشر، وأغْضَبُ كما يغضب البشر» [أخرجه مسلم عن أنس بن مالك].

ولولا أن النبي بشر، تجري عليه كل خصائص البشر، لما كان سيد البشر، هو بشر يقول ﷺ: «لقد أُخِفْتُ في الله ما لم يُخَفْ أَحدٌ، وأُوذِيت في الله ما لم يُؤذَ أحد، ولقد أتى عليَّ ثلاثون من يوم وليلة، ومالي ولبلال طعامٌ إِلا شيء يُواريه إِبطُ بلال» [أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك].

ولقد سمح الله جل جلاله للنبيِّ الكريم ﷺ بهامش محدود جداً للاجتهاد، فإذا اجتهد وأصاب أقرّه الوحي على اجتهاده، وإن كان الأولى بخلاف ما اجتهد الوحي صحَّح له هذا الاجتهاد، كقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة:٤٣].

قال بعض العلماء: هذا الهامش الاجتهادي الضيِّق جداً الذي سمح الله له به من أجل أن يكون هناك فرق بين مقام الألوهية، ومقام النبوة، وهذا من حكمة الله عز وجل.

لِمَ لا يكون أحدنا شيئاً مذكوراً؟ لِمَ لا يكون أحدنا بطلاً؟ لِمَ لا ينتصر على بشريته؟ فالنبي ﷺ كان بشراً لكنه كان سيِّد البشر.

إذاً العلاقة عكسية، كلما تواضعت لله رفعك، وكلما تكبرت وضعك، كلما قلت: الله، تولاك الله، فإذا قلت: أنا تخلَّى عنك.

المسلمون في أشد الحاجة إلى هذا الدَّرس، تقول: الله فيتولاك الله، تقول: أنا بخبرتي، بقوتي، بجماعتي، بأسرتي، بمالي، بسطوتي، بسلطتي، بمنصبي، فيتخلَّى الله عنك.

النبي ﷺ قِمَّة البشر وأصحابه نخبة البشر، ومع ذلك لم ينتصروا في أُحد، لأنهم عصوا، فلو انتصروا لسقطت طاعة رسول الله، وفي حنين لم ينتصروا لأنهم وقعوا في شرك خفي.

ولو أنهم انتصروا لسقط التوحيد، فإذا عامل الله أصحاب رسول الله الذين بذلوا الغالي والرخيص، والنفس والنفيس، إذا عامل الله أصحاب رسول الله، وهم قمم في

مجتمعاتهم هكذا، لماذا نطمع أن يأتينا النصر على طبق من ذهب، ونحن غارقون في المعاصي والآثام؟

﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد:٧].

ويجوز إطلاق السّيّد على الإنسان، لكن دون إطلاق، والنبيُّ ﷺ قال لبني قريظة: قوموا إلى سيدكم يعني سعداً [البخاري عن أبي سعيد].

فالإنسان سيد سيادة مقيدة، نسبية، بل مجازية، وأما الآية الكريمة التي تؤكد هذه السيادة المطلقة فهي قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣].

كل مخلوق مهما كان قوياً، ولو كان ملحداً، ولو كان كافراً، فهو عبد لله، هو عبد القهر، فإن لم يكن عبداً لله، فهو شاء أو أبى سيكون عبداً لعبد لئيم، ومن كان عبد الله فهو حر.

نصيب المؤمن من اسم الله السيد

تقرَّبْ إلى الله، تقرَّبْ إلى السَّيِّد المطلق، بأن تكون سيِّداً في قومك، متميِّزاً بأخلاقك، بوفائك، بحلمك، برحمتك، بتواضعك.

في كل مجتمع، هناك شخص كبير، أكبر من أكبر مشكلة، له قلب كبير، يتضاءل أمامه كلُّ عظيم، وهناك إنسان صغير جداً له قلب صغير يعظم عليه كلُّ حقير.

السَّيِّد من بني البشر هو الشَّريف، الذي تأبى نفسه أن يفعل منكراً، والفاضل الذي يتفضَّل بما عنده على الآخرين، الكريم، المِعطاء، الحليم، الصبور، الذي يتحمَّل أذى قومه.

إذاً يمكن أن يُوصَف الإنسان بأنَّه سيِّد حينما يتحلَّى بمكارم الأخلاق.

فالإنسان لا يكون سيِّداً إلا إذا كان أخلاقيّاً، كريماً، رحيماً، حليماً، متواضعاً، ودوداً، صادقاً، أميناً، فالسيادة قمَّة في الأخلاق، السيادة رحمة، السيادة أن تحمل هموم من حولك.

هناك إنسان يهتمُّ بنفسه فقط، والأرقى منه من يهتمُّ بأسرته، والأرقى من هذا وذاك من يهتمُّ بأقاربه، والأرقى من هؤلاء جميعاً من يهتمُّ بأهل بلده، لكنَّ النبي ﷺ كان يحمل همّ البشرية كلِّها، كان يقول: «لو تعلمون ما أعلمُ لضَحِكتم قليلاً، ولبَكَيْتمْ كثيراً» [أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أنس بن مالك].

فكلما ارتفع مقامك تتسع دائرة اهتمامك، فالذي يخرج من ذاته ليحمل همّ المسلمين، ليخفف عنهم أعباءهم، ليدعوهم إلى الله عز وجل، ليبيِّن لهم، له عند الله مقام كبير.

الطيب

ورد هذا الاسم في السنة المطهرة، ففي الحديث الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الله طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا...» [مسلم].

من معاني اسم الله الطيب

الطَّيِّب صفة مشبّهة للمتّصف بالطيب والفعل: طاب يطيب، والمصدر طِيْب، تقول: ما أطيبه، أي ما أجمله، ما أزكاه، ما أنفسه، ما أحلاه، ما أجوده، والله جل جلاله طيِّب في ذاته، طيِّب في أسمائه وصفاته، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه:٨].

والله طيِّب في خَلْقه، قال تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل:٨٨].

والله تعالى هو الطَّيِّب، بمعنى أنَّه قدّوس منزَّه عن النقائص والعيوب، وقد طيَّب الدنيا للموحدين، فألهمهم رشدهم، وأحياهم حياة طيِّبة، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧].

وطيَّب الآخرة، فجعلها خالدة لروّادها، إلى أبد الآبدين.

والطَّيِّب أحلَّ لعباده الطَّيِّبات، قال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [الأعراف:١٥٧].

إذ كلُّ شراب مسموح به، لكنَّه جل جلاله حرَّم عليك من الشّراب ما كان مسكِراً، مئات الأنواع من اللحوم حلال طيِّب، وحرَّم عليك لحوماً قليلة كلحم الخنزير، فالمحرَّمات بالنسبة إلى المحلّلات قليلة جدّاً.

وكأن الطَّيِّب تطيب النفس به، إنسان اشتهى المرأة، فتزوَّج، هذه الشهوة يمكن أن يصل إليها من طريق مشروعة، لأنَّه ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناةً نظيفةً تسري خلالها، يقارب زوجته، ويصلي قيام الليل، ويبكي في الصلاة، لأنَّه وفق المنهج.

أحببتَ المال، اكسبه من طريق مشروعة، تتزوَّج وتشتري بيتًا، تنجب أولاداً تسعد بهم، تأكل طعامًا طيِّباً من دخلٍ مشروع. تصوَّر إنساناً جائعاً جداً، وأمامه طعام من لحم مشويّ مع مقبّلات، طعام نفيس جداً، وطيِّب جداً، اللحم نفسه لو تركته في الهواء ساعاتٍ طويلةً، والجوُّ حارّ فإنَّه يتفسَّخ، ويكون له رائحة لا تُحتمل؛ تكاد تخرج من جلدك من نتنها.

قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ [المائدة:١٠٠].

الكثرة لا تحيل الخبيث طيّباً، والكثرة لا تجعل المحرَّم حلالاً، وكثرة الباطل لا تجعله حقّاً، فلا تَقُل: أنا مع مجموع الناس، قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:١١٦].

كن مع الأقليَّة المؤمنة، كن مع الأقليَّة الملتزمة، كن مع الأقليَّة الوقَّافة عند كتاب الله وسنَّة رسوله.

هناك إنسان طيّب طاهر صادق متواضع أمين، إن حدَّثك فهو صادق، إن عاملك فهو أمين، إن استثيرت شهوته فهو عفيف، قال الله عز وجل: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران:١٧٩].

الله عز وجل عنده امتحانات، تكلَّم ما شئت، ادَّعِ ما شئت، لكنَّ الله متكفِّل أن يجعلك في ظرف يكشف حقيقتك، وهذا هو الابتلاء، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المؤمنون:٣٠].

وهناك أماكن طيبة، وبلدة طيبة، ما صفات البلدة الطَّيِّبة؟

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ خِيَارَكُمْ، وَأَغْنِيَاؤُكُمْ سُمَحَاءَكُمْ، وَأُمُورُكُمْ شُورَى بَيْنَكُمْ فَظَهْرُ الأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ بَطْنِهَا، وَإِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ شِرَارَكُمْ، وَأَغْنِيَاؤُكُمْ بُخَلاَءَكُمْ، وَأُمُورُكُمْ إِلَى نِسَائِكُمْ، فَبَطْنُ الأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ ظَهْرِهَا» [الترمذي].

البلدة الطَّيِّبة التي يكون فيها أمراء طيبون، وأغنياء سمحاء، والأمر شورى بين أهلها.

وكذلك الإنفاق يجب أن يكون من الطيِّبات، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ [البقرة:٢٦٧].

هناك كسب طيِّب بتجارة مشروعة، وهناك نادٍ ليلي دخلُ صاحبِه كبيرٌ، وهناك ملهى وتجارة مخدرات ورشوة، ومكاسب كثيرة جداً لا ترضي الله عز وجل.

وهناك كلام طيِّب وكلام خبيث، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ ﴾ [إبراهيم:٢٤-٢٥].

قد تنتهي الكلمة بالإنسان إلى طاعة الله وإلى التوبة، وإلى الصلح مع الله، فما من شيء أعظم عند الله من كلمة الحق، قل الحق ولا تخشَ في الله لومة لائم، وكلمة الحقِّ لا تقطع رزقا، ولا تقرّب أجلاً، الكلمة الطَّيِّبة تطير في الآفاق، والكلمة الخبيثة تطير في الآفاق، لذلك: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ

رِضْوَانِ الله لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَرْفَعُهُ الله بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ الله لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ» [البخاري].

يقول لك أحدهم: أنت أخلاقيٌّ لأنك ضعيف، وأنت ضعيف لأنك أخلاقيٌّ، هذه كلمة خبيثة تزهِّد الناس بمكارم الأخلاق، لكن أنت قوي، لأنك أخلاقي، وأخلاقي لأنك قوي، وليس هناك خُلق أساسه الضعف، بل تعفو عن مقدرة، وتعطي عطاء من لا يخشى الفقر.

وهناك المساكن الطَّيِّبة في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٍۚ﴾ [الصف:١٢].

ومن الأحاديث الصحيحة قول النبي ﷺ: «إِنَّ الله لَمْ يَفْرِضْ الزَّكَاةَ إِلَّا لِيُطَيِّبَ مَا بَقِيَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ» [أبو داود عن ابن عباس].

فالمال الذي تؤدَّى زكاته يطيب، يبارَك فيه، تنتفع به، يحفظه الله، يسلم من التلف، قال تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ﴾ [التوبة:١٠٣].

تطهِّر الغنيَّ من البخل، والبخل مرض خبيث يصيب النفس، كما أنَّ الورم الخبيث يصيب الجسم، وقد يكون قاضياً، كذلك الشُّحُّ مرض خبيث يصيب النَّفْس، فأندم الناس من عاش فقيراً ليموت غنياً، وأكبر عقاب للبخيل أنَّ من حوله يتمنون موته، فإذا أصابته وعكة وجاء الطبيب، وقال لأقربائه: قضية بسيطة، ينزعج الأولاد جداً، وكأنَّهم يريدونها قاضية! الزَّكاة تطهِّر الغنيَّ من الشُّحِّ، تطهِّر الفقير من الحقد، فيرى أنَّ الغنيَّ يعطف عليه، يعطيه من ماله، وتطهِّر المال مِن تعلُّق حقِّ الغير به.

إذا بقي في المال حق للفقير، ولم يؤدَّ لربما تلف المال كلُّه.

لأنَّ الله طيِّب، فقد طيّب مالك، أنفقته بيسر، فبارك لك الله فيه، انتفعت به، وسلم من المصادرة، ومن التلف، ومن الحريق، والله عزَّ وجلَّ كما أنَّه إذا أعطى أدهش، كذلك؛ إذا أخذ أدهش.

وفي حديث آخر عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ وَلَا يَقْبَلُ الله إِلَّا الطَّيِّب، وَإِنَّ الله يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ» [البخاري].

أنت أيها المؤمن، إذا اصطلحت مع الله، وتبت إليه، وأقبلت عليه، وطبَّقتَ أمره، واجتنبت نهيه، وأحسنت إلى خلقه، عندها تكون طيِّبا، قال تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ ﴾ [الزمر:٧٣].

أي: أصبحتم طيبين.

إنَّ محصلة معرفتك بالله، محصلة طاعتك له، محصلة إقبالك عليه، محصلة عملك الصالح أن تكون في النهاية طيِّباً، لأنَّ الجنَّة لا يدخلها إلا الطَّيِّب:

هناك بيت طيِّب، ليس مكشوفاً على أماكن لهو، أو أماكن منحرفة، وزوجة طيبة، وصديق طيب ينفعك، ويعينك على فعل الخير.

وفي صحيح البخاري: «الحَمْدُ لله كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ» .

ومن أدعية النبي ﷺ: «اللهمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا، وَرِزْقًا طَيِّبًا، وَعَمَلًا مُتَقَبَّلًا» [أحمد عن أم سلمة].

هناك أعمال مقدَّسة، وأعمال فيها خير، وأعمال فيها نفع للناس، وأعمال فيها هداية، وهناك في المقابل أعمال أساسها ابتزاز أموال الناس، أو إلقاء الرعب في قلوبهم، فهذا رزق طيب، وذاك كسب خبيث.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ ﴾ [البقرة:١٦٨].

نصيب المؤمن من اسم الله الطيب

لا يتجلَّى الله سبحانه وتعالى على إنسان إلا إذا كان طيِّباً لأنَّه جلَّ جلاله ذاتٌ كاملة، بإمكان المسلم أن يقف في الصلاة، وأن يركع، ويسجد، ولكن إن لم يكن طيِّباً فلن يتجلَّى الله عليه، ولن يلقي في قلبه النور، ولن يمنحه القرب، بينما الأقوياء ببساطة بالغة يمكن أن تتقرَّب إليهم برفع صورة لهم فرضاً، أو بكتاب، أو بثناء، أو بكلمة تلقيها في حضرتهم، ولا يشترط بعدها أن تكون طيِّباً أخلاقيَّاً، لكنَّ الإله العظيم لا يقبلك إلا إذا كنت طيِّباً، لا يقبلك إلا إذا كنت ورعاً، لا يقبلك إلا إذا كنت طاهر السريرة، لا يقبلك إلا إذا كنت مستقيماً.

لك أن تفعل كلَّ شيء في الحقل الديني، أمَّا أن تشعر بقرب من الله عز وجل، وأنت لست طيِّبا، بل فيك خبث واحتيال وكذب ودجل ونفاق، فهذا لن يكون، فلن تستطيع أن تصل إليه إلا إذا كنت طيِّباً ورعاً مستقيماً طاهراً ملتزماً، والفرق صارخ بين أتباع الأنبياء وأتباع الأقوياء، أتباع الأنبياء يسعون إلى الكمال، لأنَّ الله تعالى لا يقبلهم إلا إذا كانوا كذلك، ولا يتجلَّى عليهم، ولا يمنحهم توفيقه، ولا يمنحهم تأييده، ولا يمنحهم قربه إلا إن كانوا طيِّبين.

بينما أتباع الأقوياء يرفعون شعارات فقط، يرفعون صوراً، يتكلمون بالمديح، لكنَّهم في علاقاتهم ليسوا كما ينبغي.

أتباع الأنبياء شيء، وأتباع الأقوياء شيء آخر، الأنبياء أعطوا ولم يأخذوا، الأنبياء ملكوا القلوب، الأنبياء عاشوا للناس، أما الأقوياء فأخذوا ولم يعطوا، الأقوياء ملكوا الرقاب، الأقوياء عاش الناس لهم، والناس جميعاً تبع لقويٍّ أو نبيٍّ.

كالأب تماماً يطعم كلَّ أولاده، و لكنَّ له ابناً صالحاً مستقيماً طاهراً بارَّاً، فمودَّة الأب لهذا الابن كبيرة، لكنَّه يطعم الكلَّ ويسقيهم.

والإنسان يأكل ويشرب من خيرات الله، لكن أن تتصل بالله، أن تذوق طعم القرب منه، أن يلقي في قلبك نوراً، أن تكون مسدَّداً موفَّقاً راشداً، فهذا يحتاج إلى طُهْر.

وهذا من معاني قوله ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الله طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا...» .

وفي الحديث عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَجَدَ تَحْتَ جَنْبِهِ تَمْرَةً مِنْ اللَّيْلِ فَأَكَلَهَا فَلَمْ يَنَمْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، فَقَالَ بَعْضُ نِسَائِهِ: يَا رَسُولَ الله، أَرِقْتَ الْبَارِحَةَ، قَالَ: إِنِّي وَجَدْتُ تَحْتَ جَنْبِي تَمْرَةً فَأَكَلْتُهَا، وَكَانَ عِنْدَنَا تَمْرٌ مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ فَخَشِيتُ أَنْ تَكُونَ مِنْهُ» [أحمد].

أنت لا تعلم حينما تكون طيِّباً ماذا ينتظرك من الله عز وجل، ينتظرك التوفيق، والنصر، والتأييد، تنتظرك السكينة، والسعادة.

بإمكانك أن تفعل كلَّ شيء، تذهب إلى الحج، تصوم رمضان، تصلي الفرائض، فإن لم تكن مستقيماً فلن تقطف ثمار هذه العبادات، لأن الله طيِّب ولا يقبل إلا طيِّباً، فهذا الذي يأكل أموال النَّاس بالباطل، يعتدي على أعراض الناس، هذا الذي يقول كلاماً لا يرضي الله عز وجل ليس طيباً، لذلك لن يستطيع أن يقطف من ثمار العبادات شيئاً.

تريد أن تخطب ودَّه كن طيباً، تريد أن تنال رضوانه كن طيِّباً، تريد أن يتجلَّى على قلبك كن طيِّباً، تريد أن تخشع في الصلاة كن طيِّباً، تريد أن يقبل صيامك كن طيِّباً، تريد أن يقبل حجَّك كن طيِّباً.

أعظمُ ما في المؤمن أنَّ سريرته كعلانيته، وأنَّ خلوته كجلوته، وأنَّ باطنه كظاهره، ليس عنده ازدواجيَّة أبداً، لأنه طيِّب، ما يفعله في البيت يفعله أمام الناس، ما يفعله أمام الناس يفعله في البيت، ليس عنده شيء للاستهلاك الخارجي، وممارسة خاصة في خلوته أو مع أسرته.

ومن تطبيقات هذا الاسم أن ينفق الإنسان من أجود ماله، بعض التّجّار يعطون الفقراء ملابس باليةً، وفي الحديث: «إِنَّ الله طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا» .

ويقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ ﴾ [البقرة:٢٦٧].

معنى تيمَّموا أي تتحرَّوا الخبيث.

ومن تطبيقات هذا الاسم ألا تبخل على نفسك وعلى عيالك بالطَّيِّب، إذا وسَّع الله عليك.

ومن تطبيقات هذا الاسم: يقول تعالى: ﴿وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ [النور:٢٦].

عندك بنت حفظت كتاب الله، معها شهادة عليا شرعية، يأتيك تاجر جاهل، عنده بيت وسيارة، لكن لا يقدّر علمها، بل يهينها، وأحياناً يحتقر علمها، ويسيء إليها إساءة بالغة!

من التطبيقات العملية إذا كان عندك بنت صالحة مؤمنة محجبة مثقفة ثقافة عالية حافظة لكتاب الله فلا تفرط فيها، لا يغرينّك المال، هذه الفتاة الطَّيِّبة تحتاج إنسانا يقدّر علمها.

لكنَّ أعظم عمل طيِّب تقوم به أن تعرف الله، إنك إن عرفته عرفت كلَّ شيء، وإن غفلت عنه غفلت عن كلِّ شيء، يا رب، ماذا فقَد من وجدك؟ وماذا وجد من فقدك؟ وإذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟

الحكم

هذا الاسم ورد في السنة النبوية الصحيحة عن الرَّبيع بْنِ نَافِعٍ عَنْ يَزِيدَ يَعْنِي ابْنَ المِقْدَامِ بْنِ شُرَيْحٍ عَنْ أبيهِ عَنْ جَدِّهِ شُرَيْحٍ عَنْ أبيهِ هَانِئٍ أَنَّهُ لَمَّا وَفَدَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ مَعَ قَوْمِهِ سَمِعَهُمْ يَكْنُونَهُ بأَبِي الحَكَم، فَدَعاهُ رَسُولُ الله ﷺ فقالَ: «إنَّ اللهَ هُوَ الحَكَم وَإِلَيْهِ الحَكَم، فَلِمَ تُكْنَى أَبَا الحَكَم»؟ فَقَالَ: إنَ قَوْمِي إذا اخْتَلَفُوا في شَيْءٍ أَتَوْنِي فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ، فَرَضِيَ كِلا الفَرِيقَيْنِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَا أَحْسَنَ هَذَا، فَمَا لَكَ مِنَ الوَلَدِ؟» قَالَ: لِي شُرَيْحٌ وَمُسْلِمٌ وَعَبْدُ الله، قَالَ: «فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ»؟ قُلْتُ: شُرَيْحٌ، قالَ: «فأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ» [سنن أبي داود].

فقد كان ﷺ ينادي أصحابه بأحب الأسماء إليهم وكان يغيِّر بعض الأسماء، كما قال لزيد الخيل: بل زيد الخير.

من معاني اسم الله الحكم

أصل الحَكَم المنعُ. وحكمه، أي: منعه. والحَكَمةُ: هي الحديدة التي تمنع الفرس من الفساد والجري الشديد ومخالفة راكبه.

الحَكَم من صيغ المبالغة، واسم الفاعل حاكم وهو الذي يحكم، ويفصل، ويقضي في سائر الأمور، والفعل حكم، يحكم، حكماً، والحكم: العلم والفقه، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [القصص:١٤].

والحُكم هو القضاء بالعدل، قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء:٥٨].

في محكمة الجنايات في دمشق كُتِب فوق رأس المذنبين: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ .

حتى يقرأها القاضي، وفوق رأس القاضي هناك لوحة كبيرة يقرؤها المذنبون كُتب عليها قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .

والمحاكمة هي المخاصمة إلى الحاكم.

قال بعض العلماء: «الحَكَم؛ صاحب الفصل بين الحقِّ والباطل».

قد يكون للباطل جولةٌ وصولة، ربما يسمح الله له أن يعلو، ربما أرخى الله له، لكن إلى أمد. لأنه حَكَم؛ ولا بد من أن يزهق الباطل، لأنَّ الله موجود. لو أنَّ الباطل استشرى وامتدَّ وطغى وبغى إلى أمدٍ طويل، فهذه الفكرة تتناقض مع وجود الله، أن يستشري الباطل، وأن يمتد ويمتد وأن يطغى وأن يبغي، أن يضع كلَّ الخطط فتنجح، هذه الحقيقة تتناقض مع وجود الله؛ لا بد من أن يظهر الله آياته وما أكثر الآيات.

والله سبحانه وتعالى، ألقى على النبي ﷺ هذا القرآن الكريم، فهو آياته، وكلامه. وخلق الكون، والكون آياته. وأفعاله كلُّها آياته. أفعاله كلُّها تدلُّ على كمالاته، على عدالته، على حلمه، على رحمته، على قدرته، على علمه، فلك أن تعرف الله من آياته الكونية، ولك أن تعرفه من آياته القرآنية، ولك أن تعرفه من آياته التكوينية.

هو جل جلاله صاحب الفصل بين الحقِّ والباطل... أحياناً زوجان؛ كلٌّ يدَّعي أنه مظلوم، وكلٌّ طرفٍ معه الحجج والبراهين والوقائع، لكنَّ المظلوم فعلاً يوفِّقه الله، والظالم يسحقه الله... شريكان؛ كلٌّ يدَّعي أنه على حقٍّ، وأنَّ شريكه الآخر ظلمه، ويأتي كلٌّ منهما بالحجج التي تؤيد حقَّه، وقد يفتري ويخترع أدلةً غير صحيحة، يوهم الناس، ولكنَّ الله هو الحَكَم. فالشريكان؛ الظالم يُهلكه الله، والمظلوم يوفِّقه الله. توفيق الله للمظلوم؛ هو حُكْمُ الله فيه. إهلاك الظالم حُكْمُ الله فيه، وكذلك زوجان افترقا، توفيق أحدهما في زواج آخر، حُكْمُ الله فيه. هلاك الثاني في زواجٍ آخر، حُكْمُ الله فيه.

إنسان يدَّعي أنَّه ورع، وأنه على حقٍّ، علامة حكم الله له أنه يوفِّقه، وعلامة حكم الله على آخر مبطل أنَّه يخذله... فالله صاحب الفصل بين الحقِّ والباطل، بين البارِّ والفاجر.

قد يُتوفَّى أبٌ ويترك أولاداً، أحد أولاده الأقوياء يأخذ المال كلَّه، ويحرم إخوته، تدور الأيام، هؤلاء المظلومون إخوة ذاك الأخ الباغي الظالم، يوفَّقون في أعمالهم، وهذا الذي أخذ المال الحرام، يُتلف الله ماله، وأحياناً يُضطرُّ إلى أن يعمل عند أحد إخوته... فالذي أخذ المال كلَّه وحرم إخوته منه، يخذله الله، ويتلف ماله، فيُضطرَّ إلى أن يعمل عند إخوته الذين حرمهم من إرث أبيهم، فالله هو الحَكَم.

وهناك حُكْمٌ نهائيٌّ يوم القيامة، لكنّ الحَكَم في الدنيا هو نصر الله أو خِذلانه، توفيقه أو عدم توفيقه، تيسيره أو تعسيره، وما أكثر الشواهد، حياتنا زاخرةٌ بهذه الشواهد... الذي كسب مالاً حلالاً قليلاً، يبارك الله له فيه. والذي كسب مالاً حراماً كثيراً، قد يتلِفُ الله ماله. الذي برَّ والديه يهبه الله أولاداً أبراراً. والذي عقَّ والديه قد يهبه الله أولاداً عاقّين؛ هذا حكم الله له.

فالله سبحانه وتعالى هو الحَكَم، صاحب الفصل بين الحقِّ والباطل، صاحب الفصل بين البارِّ والفاجر، المجازي كلَّ نفسٍ بما عملت، وهناك آيات كثيرةٌ جداً تؤكِّد

هذا المعنى... فقد قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الجاثية:٢١].

وقال تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ ﴾ [السجدة:١٨].

وقال تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [القلم:٣٥-٣٦].

مثلاً شابٌّ مؤمنٌ مستقيمٌ، ويخاف الله ويرجو رحمته، ويتحرّى الحلال، ويبحث عن زوجةٍ صالحة، لا يكذب، تراه ضابطاً لجوارحه، ضابطاً لدخله وإنفاقه، وشابٌّ آخر متفلِّتٌ لا عقيدة تردع، ولا دين يمنع، ولا استقامة، ولا عبادة، ولا حلال ولا حرام، يفعل ما يشاء. فإذا تساوى هذان الشابان في التوفيق وفي النصر والتأييد، وفي التمتُّع في الحياة الدنيا. إن تساويا ولم يكن هناك فرقٌ بينهما، هذه الفكرة تتناقض مع وجود الله ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الجاثية:٢١]. .

إنسان دخله حلال؛ أيعقل أن يُعامل كما يُعامل صاحب الدخل الحرام؟! إنسان ضبط سلوك أهله وأولاده وبناته؛ أيعقل أن يُعامل من قبلهم كما يُعامل إنسان تفلَّت من أوامر الشرع، وأطلق لزوجته ولبناته العنان؟

هذا مستحيل فالحَكَم توفيقه حُكْمٌ، تيسيره حكم، تعسيره حكم، إلقاء الأمن في قلب المؤمن حُكم. إلقاء الخوف والفزع في قلب المشرك حكم. أن يُقدِّر للإنسان حياةَ ضنك؛ معيشةً ضنكاً حكم، إن دعوته فاستجاب لك فدعاؤك صادق ومخلص، وإن لم يستجب فهناك سببٌ حال دون أن يُستجاب لك وهذا حُكْم.

أب عنده ولدان، ولد بار، والثاني عاق، فإذا دخل البار رحَّب به وسأله عن أحواله كأن يقول: أين أنت وكيف حالك؟ وكيف أولادك؟ وكيف أهلك؟ هل تناولت طعام الغداء؟ أما إذا دخل العاق يتمنى ألا يدخل عليه، فانكماش الأب من

ولده العاق حكم، وترحيبه بولده البار حكم، التوفيق حكم والتعسير حكم، إلقاء الأمن في قلب المؤمن حكم، وإلقاء الفزع في قلب المشرك حكم.

لكن هذا المعنى أوسع مدى وأرحب بينَ مخلوقاتِ الله سبحانه... ولربما استعصى على المرء أن يصدق أنَّ شاةً قرناء لو نطحت شاةً أخرى جلحاء لاقتُصَّ منها، الحَكَم بين مخلوقاته لا بين بني البشر فحسب، ولا بين الإنس والجنِّ فحسب، بل بين كلِّ مخلوقاته أياً كانوا، اقرأ إن شئت قول الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران:١٧٩].

مؤمن مخلص، ومؤمن مقصِّر، هل هما عند الله سيّان؟ لا... لا بد من أن يُميِّز الله بينهما، يضع الأول في ظرف فيتألَّق، ويضع الثاني في ظرف فيسقط، امتحنهما وفرَّق بينهما.

قال أحد العلماء: «الحَكَم؛ هو الحاكم المحكَّم، والقاضي المسلَّم، لا رادَّ لقضائه، ولا معقِّب لحكمه».

في الدنيا قد يحكم القاضي، ولكنَّ محكمة النقض تنقُض حكمه، وقد يحكم رئيس محكمة النقض، ولا يُصدَّق حكمُه، لكنَّ الله سبحانه وتعالى لا معقِّبَ لحكمه، وإذا أراد الله بقومٍ سوءاً فلا مردَّ له، ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ [الرعد:٤١].

لو التقيت رسولَ الله ﷺ وهو سيد الخلق وحبيب الحق، وعرضت عليه مشكلتك، وكانت خصومةً بينك وبين أحد الناس، وانتزعت من فمه الشريف حكماً لمصلحتك، ولم تكن محقّاً لم تنجُ من عذاب الله، فمن هو الحَكَم إذاً؟ هو الله.

قال العلماء: «الحَكَم؛ هو الذي لا يقع في وعده ريب»، إذا وعد وفَّى... لأنَّ ربنا عز وجل يطمئننا، إذا حدَّثنا عن المستقبل، جاء الفعل ماضياً ففي قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل:١]. .

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾... لقد جاء... ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، معنى ذلك أنه لم يأتِ، لكن ليقين وقوعه استخدم الفعل الماضي (أتى)، وعبر عن المستقبل بالماضي لأنه بمثابة الأمر الواقع الذي لا محيد عنه، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي﴾ [المائدة:١١٦].

فالحَكَم إذاً؛ هو الذي لا يقع في وعده ريب، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء:٨٧]، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:١١١]، ولا في فعله عيب.... أكرر: لا في وعده ريب، ولا في فعله عيب.

«والحَكَم؛ هو الذي حكم على القلوب بالرضا والقناعة».. هذه الدنيا بمنزلة مرحلة إعدادية بالنسب للحياة الأبدية، والمؤمن عرف أنها حياةٌ دنيا، حياة إعداد، حياة تمهيد، لذلك رضي عن الله، رضي عن حياته، عن عقله، عن إمكاناته، عن دخله، عن بيته، عن زوجه، عن أولاده، عن بناته، فهو راضٍ.. من الذي ألقى في قلبه الرضا؟ الله سبحانه وتعالى، لقربه من الله ألقى في قلبه السكينة والرضا.

قال: «الحَكَم؛ هو الذي حكم على القلوب بالرضا والقناعة وعلى النفوس بالانقياد والطاعة».

من بعض معاني هذا الاسم العظيم: الحَكَم... النافذ حكمه، فالإنسان أحياناً يصدر تعليمات فلا تنفّذ، أو تنفَّذ في مركز المدينة، وفي أطرافها لا تنفّذ، ما أكثر التعليمات التي تصدر والتي لا تنفَّذ. فبالطبع ليس كلُّ إنسان حكمه نافذ. ولو أن الإنسان أراد أن ينفذ حكمه، لاحتاج إلى جهاز كبير جداً، يعني الساعة الثالثة في منتصف الليل لا يوجد شرطي مرور، فإذا كانت الإشارة حمراء يمكنه أن يتجاوزها ويتخطّاها، وبذلك نكون قد خرقنا حكم قانون السير، فمن غير المعقول وضع شرطي عند كل إشارة ليلاً ونهاراً. إذاً الحُكْم لم يُنَفَّذْ، فالإنسان أضعف من أن يُنفِّذ حكمه، أما الله سبحانه وتعالى، فالحَكَم النافذ حكمه، ولا يحول دون تنفيذه حائل.

لذلك عظمة الدين... أنَّ أساسه الوازع الداخلي، لأن المؤمن يعلم أن الله معه ويراقبه، وفي القصة المشهورة عن سيدنا عبد الله بن عمر والراعي... قال له: بعني هذه الشاة، قال: ليست لي، قال: خذ ثمنها، قال: ليست لي... والله إنني في أشدِّ الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب لصدَّقني، فإني عنده صادق أمين؛ لكن أين الله؟

وإني أعتقد أنه ما من نظام وضعيٍّ، إلا ويعتمد على الرادع لا على الوازع. والردع مرتبط بأشخاص، أو بأجهزة، أو بآلات، يعني من الممكن أنه إذا انقطعت الكهرباء في إحدى المدن التي توصف بالرقي، والمجتمع الحضاري، فمن الممكن أن ترتكب في ليلة واحدة مئتا ألف سرقة، لقد انقطعت الكهرباء في إحدى مدن الغرب ولمدة ساعات معدودة وارتكبت مئتا ألف سرقة في تلك الليلة، فلا يوجد الوازع، ولكن هناك الرادع. والرادع أساسه المراقبة، فلما انقطعت الكهرباء أُلغي الرادع فتفلَّتت النفوس، أما عظمة هذا الدين فهي أنه مبنيٌّ على الوازع.

أرسل لي أخٌ أراد ألا أعرفه رسالةً قال لي فيها: والله لقد أرجعت لورثةٍ عشرين مليون ليرة، وهم لا يعلمون عنها شيئاً، وقد مات أبوهم فجأةً وأبوهم من النوع الذي لا يُعلِم عن أمواله إطلاقاً، وقد رددت المبلغ لهم كاملاً. ما الذي جعله يردُّ هذا المبلغ؟ الوازع أم الرادع؟ فالرادع غير موجودٍ، فليس هناك إيصال بالمبلغ، وليس مداناً بشيءٍ أمامهم إطلاقاً، ولا هناك علمٌ لأحد بالمبلغ، ولا عند أحدٍ خبرٌ أبداً، لكن الوازع الديني حمله على أن يردَّ هذا المبلغ.

تجد عند المؤمنين مواقف لا تصدق، لكنها معقولةً جداً؛ لأنَّ المؤمن يراقب الله عز وجل. إنسان متزوج شعرت امرأته كأنَّه متزوج من أخرى، هكذا شعرت وبعد أن تقصَّت فإذا توقُّعها في محلِّه، ولم تفاتحه في هذا الأمر، ثم توفِّي هذا الزوج؛ فمن شدة ورعها أرسلت حصَّة ضرَّتها بعد الوفاة، ومن شدة ورع الثانية قالت: والله طلَّقني قبل أن يموت. ولم تأخذ شيئاً، هذا هو الإسلام.

الحَكَم؛ هو النافذ حكمه، الذي لا رادَّ لقضائه، ولا معقِّب لحكمه، والذي يفصل بين الحقِّ والباطل.

ولدى متابعة شرح هذا الاسم الحَكَم تبرز لدينا نقطةٌ مهمة جداً... فلو أنَّ أباً ارتكب ابنه غلطاً ما، فضربه ولم ينطق ببنت شفة، فالضرب لم يُفِدْ.. فمن لوازم إقامة العدل، ومن لوازم التربية الصحيحة، أن يُبيِّن الأب لابنه لماذا ضربه، ماذا فعل؟ فعل كذا وكذا فاستحقَّ العقاب، لكن قال العلماء: الحَكَم؛ هو الذي يبين لكلِّ نفسٍ ما عملت من خيرٍ أو شر، كيف يبيِّن؟... أحياناً الإنسان يُلقى في روُعه، فعندنا وحي للأنبياء، وهناك وحي إلهام فقد قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ [القصص:٧٨].

وهناك وحي غريزة، فقد قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ [النحل:٦٨].

وأيضاً هناك وحي أمر لقوله تعالى: ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ ﴾ [الزلزلة:٥].

أما الوحي إلى النبي؛ فهذا وحي الرسالة، وليس لنا علاقة به في بحثنا هذا، لكن الإنسان تأتيه أحياناً مصيبة، ويلقى في قلبه أنَّها من أجل كذا فيعرف حقيقة ما يجري له ولعله يعتبر!

فمعنى الحَكَم: الله عز وجل مربٍّ، يعاقب، ويُلقي في روع الإنسان لماذا فعل معك كذا وكذا.

أحد الأشخاص تأخَّر في أداء زكاة ماله ولم يؤدّها، فسيارته أصيبت بحادث وهذا شيء طبيعي. أما أن تأتي أجرة التصليح مع الطلاء مع قطع الغيار مطابقة لمبلغ الزكاة بدقة على مستوى الليرة الواحدة، وهو نفسه مبلغ التصليح، فهذا تعليم من الله... بخلت بزكاة مالك فدفعت المال بلا طائل، فالله عز وجل حكَم يعاقب، ويُلقي في روع الإنسان أنه فعل كذا كذا وهذا جزاء وناله.

إن عملت عملاً طيباً، يُلقي في روعك أنه راضٍ عنك، وإن عملت لا سمح الله عملاً سيئاً، يريك مناماً مخيفاً أحياناً، أو انقباضاً فتشعر بضيق، والدنيا كلُّها لا تسعه،

فضيق القلب، أو انشراح الصدر هو من أساليب ربنا التربوية، فهو يربي، فإن كان عملك طيباً تجدك منطلقاً، والناس قد يكونون في همّ وغم، وأنت مستثنى وليس لك علاقة بشيء، وإذا لم يكن عملك طيباً فهناك انقباضٌ ومرارة وضيق.

أما من أجمل الآيات دلالةً والمتعلقة بهذا الاسم فهي قوله تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا ﴾ [الأنعام:١١٤].

أحيانا يكون مع شخص وثائق... فيقول لك: إن لديه ومعه وثائق، والقاضي يعرفه، ويترافع عنه المحامي فلان، وما أدراك ما فلان، وهو مطمئن، فهل اتخذ هذا الإنسان الله حكماً؟ لا... لقد اتخذ القاضي حكماً، فقد يفاجأ بحكم غير متوقع ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾.

فالإنسان ليس له الحق في أن يحتكم إلى غير الله، فإذا احتكم إلى غير الله فقد حكَّم في أموره مَنْ ليس حاكماً، فأحياناً الذي اعتمدت عليه يخيب ظنَّك، وقد قال تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [يونس:١٠٩].

لذلك أجمل دعاء أن تقول إذا ألمَّ بك مكروه، أو نزلت بك ظُلامة: حسبي الله ونعم الوكيل.

فالله ينصرك، والله عز وجل من أسمائه الحق... فما معنى الحق؟ معنى الحق أنه لا بد من أن يظهر الحق، لا بد من أن يظهر الحق لأنه هو الحق، فلا تخشَ أحداً، فالعاقبة للمتقين، والأيام تدور ولا تستقر إلا على إنصاف المظلوم، وعلى إهلاك الظالم، وعلى رفعة المؤمن، وعلى إذلال الكافر، وهذا التاريخ أمامكم.

أصحاب النبي رضي الله عنهم الذين التفّوا حوله، وعزّروه ونصروه، ودافعوا عنه، وآمنوا به، وأحبّوه، وافتدوه بأرواحهم، أين هم الآن؟ في أعلى عليين، والذين حاربوه وخذلوه وأخرجوه، وقاتلوه وكذّبوه أين هم؟ في أسفل السافلين، هذا هو التاريخ.

وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران:١٣٩].

قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾، معنى ذلك؛ أنَّ هناك وقتاً أمضيته فيه ظلمٌ ويكون الإنسان مظلوماً. فالسيدة عائشة ألم تُظلم؟ فلماذا أخَّر الله الوحي شهراً؟ من أجل أن تُكشف النفوس. أخَّر براءتها شهراً بأكمله، المؤمنون ظنُّوا بأنفسهم خيراً، والمنافقون روَّجوا لهذا الخبر وأشاعوه وأرجفوا في المدينة، والله عز وجل كشف النفوس على حقيقتها. لو أنَّ هذا الخبر أُشيع في المدينة، وفي اليوم التالي جاءت البراءة، فبذلك يكون أربعة أخماس الناس لم يمتحنوا، لكن لا، والخبر كان ينتشر ويزداد انتشاراً، والتهمة كبيرة جداً فهي تهمة الفاحشة! وهي زوجة رسول الله ﷺ وابنة الصديق، الطاهرة العفيفة والبريئة، ولكن الخبر شاع، والنبي ﷺ مقيَّد ليس معه دليل إثبات ولا دليل نفي، وزوجته، وهي أقرب الناس إليه، وهي عِرضه وما زال الخبر ينتشر ويشيع، فانظروا إلى دقَّة قول الله: ﴿وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ حتى حرف غاية... أي أن هناك وقتاً فقد تكون مظلوماً، وقد يكون المبطل هو الأقوى، وكلمته هي النافذة، وأنت لا أحد يسمع لك، والناس كلُّهم ضدَّك، ممكن ذلك فعليك أن تصبر ﴿وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾، وبعد ثلاثين يوماً نزلت براءتُها.. وفصل الله القضية واتضحت الحقيقة.

والآية تقول: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ [التين:٧-٨].

كأنه من سنن الله مع خلقه؛ أنه يُرخي الحبل لك، بإمكانك أن تفعل ما تشاء، أو تعصي الله، وأن تقول كلاماً غير معقول، وأن تأتي بالإفك والإثم، وأنت قوي وصحيح، والفحص الدموي مئة بالمئة، مالك يزداد، قوَّتك تزداد، ولكن هذا الشيء لا يستمرُّ إلى ما لا نهاية، بل استمراره إلى حين، فالحبل مرخَى إلى أجل، ففي أيَّة لحظة يُشدُّ الحبل، فإذا أنت في قبضة الله.

هذه القصة تتكرَّر كلَّ يوم.... ومن الممكن لإنسان أن يؤذي الناس، ويكون شديد الذكاء ويحتال عليهم إلى حين، ثم يقع في شرِّ عمله، ثم يفضحه الله، فدائماً وأبداً؛ الطائع لله هو الفائز.

هناك مقولة نصها: «كفاك على عدوِّك نصراً؛ أنَّه في معصية الله»، لو كنت أضعف منه وهو الأقوى، لو كان هو الأغنى، وأنت الأفقر. لو كان هو الأذكى، وأنت الأقل ذكاءً. فالعاقبة للمستقيم.

انظروا في هاتين الكلمتين من الآية: ﴿وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ﴾ أي: اصبر إلى أن، فحتى حرف غاية... ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ حتى يتصرف، حتى يقصم ظهر الظالم، وينصر المؤمن ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

سيدنا يوسف... ماذا حكم عليه إخوته؟ أن يقتلوه، ألقوه في غيابة الجب ليموت... بعد حين ماذا كان النتيجة؟ دخلوا عليه فإذا هو عزيز مصر، مقامه كبيرٌ جداً، فمصر كانت أكبر مملكة وهو رئيس وزرائها فقالوا له: ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف:٩٠].

وقال أبوه سيدنا يعقوب: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [يوسف:٦٧].

لذلك: إذا أردت أن تكون أقوى الناس، فتوكَّل على الله. وإذا أردت أن تكون أغنى الناس، فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك. وإذا أردت أن تكون أكرم الناس، فاتقِ الله.

هناك حكم كوني وحكم شرعيّ؛ فالحكم الكونيُّ واقع لا محالة، فكلُّ شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق، ولا يليق بألوهية الإله العظيم أن يقع في ملكه ما لا يريد، وفي

الحديث: «ولكل شيء حقيقة وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه» [أخرجه الطبراني عن أبي الدرداء].

جعل هذا عقيماً، جعل هذا وسيماً، جعل هذا دميماً، جعل هذا متألقاً، جعل هذا محدوداً، هذا حكم إلهي.

لكن حينما يكشف الله للإنسان يوم القيامة الحكمة مما ساق له من شدائد، أو الحكمة من الحظوظ التي منحه إياها، حينما يكشف الله لهذا الإنسان يوم القيامة لماذا زوى عنه هذا؟ ولماذا أعطاه هذا؟ ينبغي أن يذوب كالشمعة محبة لله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يونس:١٠].

هذا حكم كوني، أي جعلك ذكراً ولم يجعلك أنثى، جعلك من هذا الأب وهذه الأم، جعلك في هذه البلدة، جعلك في التسعينيات، في الثمانينيات، من اختار لك زمن الولادة؟ ومكان الولادة؟ والأب والأم والجنس؟ هذه أشياء أنت مسير بها، هذا حكم إلهي، لكن حينما تكتشف الحقائق، تكشف الحكمة من القضاء والقدر يوم القيامة، المؤمن يقول كلمة واحدة: يا رب لك الحمد على ما سقت لي.

لذلك من الأدعية النبوية: «اللهمَّ ما رَزَقْتَني مما أُحِبُّ فاجعَلْهُ قُوَّة لي فيما تُحِبُّ، وما زَوَيْتَ عني مما أُحِبُّ فاجعَلْهُ فَرَاغا لي فيما تُحِبُّ» [أخرجه الترمذي عن عبد الله بن يزيد الخطمي].

وفي الحديث: «عَجَبا لأمر المؤمن! إنَّ أمْرَه كُلَّه له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابتْهُ سَرَّاءُ شكر، فكان خيراً له، وإن أصابتْهُ ضرَّاءُ صَبَر، فكان خيراً له» [أخرجه مسلم عن صهيب الرومي].

هناك حكم ثانٍ هو الحكم التشريعي، أو التكليفيّ، يوجد فرائض، ويوجد سنن، هناك مستحبات، هناك مكروهات، هناك افعل، هناك لا تفعل، هناك مئات الألوف من الأحكام، المنهج الإسلامي منهج واسع جداً، مثلاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة:١].

الله عز وجل أمرنا بأمر صريح، أن تلتزم بالعقد الذي أبرمته مع المسلم، المسلمون عند شروطهم، هذا أمر إلهي.

وإليك بعض أحكام الله في حقِّ العباد:

قال العلماء: حُكم الله؛ أنه ليس للإنسان إلا ما سعى... الله عز وجل ليس عنده تمنِّيات، ولا محاباة، ولا تمييز فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

وقال تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النجم:٣٩-٤٠].

هذا من حكم الله.. ومن حكم الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار:١٣-١٤].

وكذلك قول الله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل:٩٧].

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النساء:١٢٤]... حكم الله... ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل:٩٧]، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى ﴾ [طه:١٢٤]... حكم الله... ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾، وقال تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ ﴾ [طه:١٢٣]... حكم الله... ﴿ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [طه:١٢٣]، من لم يتبع هدى الله عز وجل، حُكْمُ الله؛ يضلُ عقلُهُ، وتشقى نفسهُ.

﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ ﴾... حكم الله... ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة:٣٨]... هذا حكم: من لم يتبع هدى الله عز وجل يندم على ما فات ويخشى من ما هو آت.

هذا هو القرآن بين أيديكم، أي أنَّ الله عز وجل أعطانا أحكاماً جاهزة، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [المائدة:١٢]... حكم، وقال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾ [محمد:٧]... حكم، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ﴾ [النور:٥٥]... حكم.

ما قولكم أن نقرأ القرآن ونتبع أحكام الله في خلقه، كلها قوانين فقد قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٣٣﴾ [يونس:٣٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ۝٣﴾ [الزمر:٣].

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ۝٥٢﴾ [يوسف:٥٢].

أي: أية خيانةٍ على وجه الأرض؛ لا يمكن إلا أن تُكْشَفَ، هذا حكم الله، أية مخادعة تعود على صاحبها؛ فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النساء:١٤٢].

وأيُّ مكرٍ يعود على صاحبه فقد قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾ [فاطر:٤٣].

هذه كلها أحكام الله عز وجل... إن الله مع الصابرين، إن الله مع المتقين، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٣﴾ [البقرة:١٥٣].

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝١٩٤﴾ [البقرة:١٩٤].

حكم الله على المعتدين؛ أنه لا يستجيب لهم لأنه لا يحبهم، هذا حكم الله عز وجل... فقد قال تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝٥٥﴾ [الأعراف:٥٥].

كان ﷺ يدعو بهذا الدعاء: «اللهم فَاطِرَ السماوات والأرضِ، عَالِمَ الغَيبِ والشهادَةِ، أَنتَ تَحكم بَينَ عِبَادِكَ فيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفون» [أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن عائشة أم المؤمنين].

«كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد، قال: ' اللهم لك الحمد، أنتَ نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، اللهم بك آمنت، ولك أسلمت وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت، وما أخَّرت، وما أسررت، وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت، ولا إله غيرك» [أخرجه مسلم وابن خزيمة عن عبد الله بن مسعود].

نصيب المؤمن من اسم الله الحكم

قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأحزاب:٣٦].

هذا هو حكم الله، فالمؤمن مذعِن لحكم الله، قضية أعطى الله فيها حكماً، إن وضعتَ هذه القضية على بساط البحث، فلست مؤمناً... ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ ﴾. هذا حكم الله عز وجل وكفى، نعم أكرر وأقول: إن وضعتها على بساط البحث فلست مؤمناً.

إعجاز الخلق يقابله إعجاز للتشريع، فالحكم الإلهي في القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ليس هذا التشريع منتجاً بشرياً، إنه منتج سماوي، وحي السماء، هذا التشريع الإلهي لا يخضع للبحث ولا للدرس، لا يخضع للتعديل، ولا للتطوير، ولا للتحديث، لا يخضع للحذف ولا للزيادة.

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ ﴾ [الأحزاب:٣٦].

شيء حكم الله به في القرآن حكماً قطعياً، لا يمكن أن يكون هذا الموضوع قابلاً للبحث، التشريع الإلهي وحي السماء، لا يقبل لا البحث، ولا الدرس، ولا التعديل ولا التطوير، ولا الزيادة، ولا الحذف، إنه من عند الله جل جلاله، يقول تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩].

القلب السليم هو القلب الذي لا يشتهي شهوة لا ترضي الله، القلب السليم الذي لا يصدِّق خبراً يتناقض مع وحي الله، القلب السليم الذي لا يحتكم إلا لشرع الله، القلب السليم الذي لا يُحكّم غير شرع الله، ولا يعبد إلا الله.

اسم الله الحَكَم، يقتضينا أن نحتكم إلى الله فهذا أول موقف... أما إذا حُكِّمنا.. فعلينا أن نحكم بالعدل، يجب أن نحتكم إلى الله لأنه يعلم كلَّ شيء، يعلم السرَّ وأخفى، ويقتضينا إذا حُكِّمنا في قضية ألا ننحاز مع أحد. ،

عن خَلَف بْنِ خَلِيفَةَ حَدَّثَنا أَبُو هاشِمٍ قالَ: لَوْلا حَديثُ ابْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أبيهِ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قالَ: «القُضاةُ ثَلاثَةٌ اثْنانِ في النَّارِ وَوَاحِدٌ في الجَنَّة، رَجُلٌ عَلِمَ الحَقَّ فَقَضَى بِهِ فَهُوَ في الجَنَّةِ، وَرَجُلٌ قَضَى للنَّاسِ عَلَى جَهْلٍ فَهُوَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ جَارَ فِي الحَكَم فَهُوَ في النَّارِ»، لولا أن النبي قال ذلك لقُلْنَا: إنَّ القاضِيَ إذا اجْتَهَدَ فَهُوَ فِي الجَنَّةِ [سنن ابن ماجه].

أي قاضيان إلى النار... إنسان حكم بلا علم، وإنسان حكم على علم ظلماً، كلاهما في النار... والذي عرف الحقَّ فحكم به فهو في الجنَّة.

أحد القضاة وكان معروفاً في مدينته أنه يحبُّ الرُّطب في بواكيره، طُرِق بابه، فتح الغلام الباب، رأى رجلاً معه طبقاً من رطب -وهذا شيء نفيس جداً في بواكيره، وهو غالٍ كثيراً، ومن نوع جيد- فرجع إلى القاضي قال له: يا سيدي بالباب رجل ومع طبقٌ رُطب. فقال له: صفه لي. قال: صفته كيت وكيت. فعرف أنه أحد المتخاصمين عنده، فقال: رُدَّ الطبق إليه. بعد حين قابل الخليفة وطلب إعفاءه من منصب القضاء. قال: ولِمَ وأنت الورع النزيه العالم الفقيه المجتهد؟ قال: لقد جاءَني قبل أيام رجل أهداني طبقَ رطبٍ، وفي اليوم التالي جاء مع خصمه ليحتكما إليّ، تمنيتُ أن يكون الحقُّ مع صاحب الطبق الذي قدَّمه إليّ، هذا مع أني رددته فكيف لو قبلته؟... كان القضاة هكذا يحاسبون أنفسهم.

أنت حَكَم بين ابنتك وصهرك، وتكلَّمت البنت وفق هواها، فزمجرتَ وأرعدت وغضبت وقلت: هذا الصهر ليس عنده أدب، وسوف أقوم بتربيته وحرمانه من زوجته ستة أشهر... فهل سمعتَ منه قبل أن تحكم.

قال أحدهم لأحد الشيوخ: يا سيدي قد لطمني أحدهم على وجهي، فلطمته، أعليَّ شيء؟ قال له الشيخ: لا ليس عليك شيء. ثم ظهر أنَّ الذي ضربه هو أبوه. فالفتوى على قدر الوصف.

سمعت من ابنتك حديثاً وتكلَّمت على زوجها في حديثها وأطالت، ألا يقتضي الحكم العدل أن تسمع من زوجها، ماذا فعلت به؟ سمعت من والدتك، فاسمع من زوجتك فأنتَ أحياناً تكون حكماً بين زوجتك وأمك، وبين ابنتك وصهرك، هؤلاء أقرب الناس إليك، أو تكون رئيساً لدائرة وعندك موظفان يتشاجران دوماً، فإذا سمعت من واحدٍ منهم، فاستمع للآخر، ولا تعاقب على الفور بعدما سمعت من الأول، فماذا تعلَّمنا من سيدنا سليمان؟ فقد قال تعالى: ﴿ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [النمل:٢٧].

فإذا كنت حكماً يجب أن تحكم بالعدل، وإن احتكمت فلا تحتكم إلا لله، فكيف تقول لله: يا ربِّ! أنا حكَّمتك؟ كيف تحتكم لله؟ ثم لا تنصاع للحق. الأحكام لله يعني أن تنصاع لكتابه، والاحتكام لرسوله يعني أن تخضع للسنَّة، فقد قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء:٦٥].

وعند النزاع في قضية ما... قال تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [النساء:٥٩]... فردُّوه إلى الله، أي إلى قرآنه، وإلى رسوله أي سنَّته. فإذا كنت مؤمناً، فتَرُدُّ الأمر المتنازع فيه إلى الله ورسوله.

وبعد، فإن التجربة والاطلاع على أحوال الناس أظهرت أنه إذا كانت قضيَّته تُحلُ بالقضاء المدني، يقول لك أحدهم: نحن في بلد فيه قانون وقضاء؛ فيذهب إلى المحكمة. وإذا كانت القضية لا تحلُّ لصالحه في القضاء المدني، ويعلم أنها تحل عند العلماء فيذهب إليهم ويقول لك: أنا أريد حكم الشرع. فلماذا تريد أن تحتكم مرةً للشرع، ومرة للقانون؟ إذا كنت مؤمناً صادقاً، تحتكم إلى الله دائماً، إلى كتاب الله وإلى سنَّة رسوله ﷺ. واعلم أن الله سبحانه قال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [المائدة:٥٠]. فالزم كتاب الله وسنّة نبيِّه.

الجواد

ثبت هذا الاسم في السّنَّة الشريفة، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله جل جلاله جواد يحبُّ الجود، ويحبُّ معالي الأخلاق و يكره سفاسفها» [أخرجه البيهقي عن ابن عباس].

من معاني اسم الله الجواد

الجواد اسم فاعل من الفعل جاد يجود، والمصدر الجود، والجود أن تأتي بالقول الحسن والخلق الحسن، والفعل الحسن، والجود أيضاً هو الكرم، فالجواد معطاء سخيّ، تسخُو نفسه في العطاء، أريحيٌّ يرتاح للعطاء.

ورجل جواد أي كثير العطاء.

لكنَّ الجود بالنفس يعني أن تلزم نفسك بالجهاد في سبيل الله، والجود بالنفس أقصى غاية الجود، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) ﴾ [آل عمران:١٦٩].

فالشهيد بذل أثمن ما يملك؛ بذل حياته.

إنَّ الله جل جلاله جواد، منح الخلائق نعمة الوجود، فأنت موجود، ووجودك منحة من الله، لكن هذا الذي لا يفقه حقيقة وجوده إنسان شارد، لقد أوجدك ليسعدك ويرحمك، قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ ﴾ [هود:١١٩].

خلقهم ليسعدهم، خلقهم ليرحمهم، خلقهم ليسلمهم، خلقهم ليجعل لهم جنتين: جنة في الدنيا وجنة في الآخرة.

يقول ﷺ فيما رواه الإمام البخاري من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «يَدُ الله مَلْأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ» .

وفي الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ البَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ الله، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ» [أخرجه مسلم عن أبي ذر].

لكن الشيء المهمَّ، أن الله سبحانه وتعالى عليم بموقع جوده، فقد تجد إنساناً جواداً سخيّاً، لكن يعطي عطاء عشوائياً، والله سبحانه وتعالى وهو أحكم الحاكمين، يأتي عطاؤه بحكمة بالغة، وباستحقاق، وبحكمة، وبخيريَّة.

النّبيّ ﷺ عقب بعض الغزوات استعرض الأسرى، كانت من بين الأسرى امرأة وقفت وقالت: يا رسول الله، هلك الوالد، وغاب الوافد، فامنن علي منّ الله عليك، وخلِّ عني، ولا تشمت بي أحياء العرب فإن أبي كان سيد قومه، يفك العاني، ويعفو عن الجاني، ويحفظ الجار ويحمي الديار ويفرج عن المكروب، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ويحمل الكَلَّ، ويعين على نوائب الدهر، وما آتاه أحد بحاجة فردَّه

خائباً، أنا سفَّانه بنت حاتم الطائي، فقال النبي ﷺ: «يا جارية، هذه صفات المؤمنين حقاً، ثم قال: ارحموا عزيز قوم ذل وغني افتقر، وعالم ضاع بين الجهال» .

فمنّ النبيّ ﷺ عليها، وأكرمها، وحملها بما تحتاج، وأرسلها إلى قومها، فحينما رأت هذا العطاء وهذا الكرم، استأذنته بالدعاء فقالت:أصاب الله ببرك مواقعه، ولا جعل الله لك إلى لئيم حاجة، ولا سلب نعمة عن كريم قوم إلا جعلك سبباً في ردِّها [ذكر هذه القصة ابن هشام في سيرته، والطبري في تاريخه].

ورد عن سيدنا علي رضي الله عنه: والله والله مرتين لحفر بئرين بإبرتين، وكنس أرض الحجاز في يوم عاصف بريشتين، ونقل بحرين زاخرين بمنخلين، وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا أبيضين، أهون عليّ من طلب حاجة من لئيم لوفاء دين.

وسُئل أحدهم: ما الذّلُّ؟ قال: أن تقف بباب اللئيم ثم يردّك، يقول الفرزدق مادحاً الحسين بن علي:

ما قال لا قطُّ إلا في تشهُّده ... لولا التشهُّد كانت لاؤه نعم

هو جواد هداك إلى طريق يفضي إليه، هداك إلى طريق طاعته، هداك إلى طريق الجنة، هداك إلى سلامتك، هداك إلى سعادتك، قال تعالى: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [المائدة:١٦].

المؤمن في سلام مع نفسه، ما عنده اختلال توازن، ما بنى مجده على أنقاض الآخرين، ما بنى غناه على إفقارهم، ما بنى عزَّه على إذلالهم، المؤمن في قلبه من الراحة النفسية ما لو وزعت على أهل بلد لكفتهم، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [يونس:٢٥].

﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾ [هود:٥٦].

يرى ابن القيم رحمه الله، أن الجواد، أعطاك الأوامر والنواهي لترقى بفعل الأوامر، وترقى بترك النواهي، بيّن لك الحلال والحرام، لترقى بأخذ الحلال وترك الحرام، الله عز وجل جواد أرادك أن تكون في جنة عرضها السماوات والأرض.

من معاني الجود: سهولة البذل، أحياناً الشحيح تقنعه، تأتيه بالأدلة، ترجوه، تتوسَّل إليه أن يساهم بمشروع خيري، بصعوبة بالغة، بجهد جهيد، ثم يعطيك النزر القليل لكن من معاني الجود: سهولة البذل والإنفاق، وتجنُّب ما لا يحمد من الأخلاق.

أنا لا أصدق أن ترى مؤمنا شحيحاً، لا أصدق أن ترى مؤمناً جباناً، البخل والجبن يتناقضان مع أخلاق المؤمن، المؤمن كريم وشجاع، كريم لأنه يرى المعطي.

«أنفق بلال، ولا تخشَ من ذي العرش إقلالا» [رواه الطبراني، عن ابن مسعود].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: إِنَّ الله قَالَ لِي: «أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ» [متفق عليه].

نصيب المؤمن من اسم الله الجواد

إنَّ الله جل جلاله جواد، يحبُّ الجود، وما أزال أركز على هذه النقطة، يمكن أن تعبد الله بأن تتخلَّق بكمال مشتقٍّ من كماله، هو جواد، يحبُّ الجود، يحبُّ العطاء، فالمؤمن يبني حياته على العطاء.

تقسيمات الأرض لا تنتهي، دول الشمال، ودول الجنوب، العرق الآري، العرق الملوّن، الأغنياء، والفقراء، الأقوياء، والضعفاء، الأصحاء، والمرضى، تقسيمات البشر لا تنتهي، أمَّا البطولة فأن تعتمد تقسيمات خالق البشر، خالق البشر عنده مؤمن أو كافر، مستقيم أو منحرف، يعطي أو يأخذ، ينصف أو يجحد، يصدق أو يكذب، فإن الله جواد يحبُّ الجود، فإذا أردت أن تتقرب إلى الله فتخلَّق بالكمال الإلهي.

المؤمن يحبُّ أن يدعو إلى الله، يحبُّ أن ينفق ماله، ووقته، وخبرته، وجهده، بنى حياته على العطاء، بالتعبير المعاصر استراتيجيته العطاء، يعطي وهو في قمة السعادة هل أنت مؤمن؟ تعطي من وقتك، من خبرتك، من جهدك، من معلوماتك، فإذا

أسعدك أن تعطي فأنت من أهل الآخرة، وإذا أسعدك أن تأخذ فأنت من أهل الدنيا، ببساطة بالغة يمكن أن تقيّم نفسك ما إذا كنت من أهل الدنيا أو من أهل الآخرة، فما الذي يُسعِدك أن تعطي أو أن تأخذ؟ إن الله جواد يحب الجود.

هناك إنسان ذو هموم عالية جدا، وهناك إنسان تافه.

﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥)﴾ [الكهف:١٠٥].

لا يبالي الله بأي أودية الدنيا هلك الإنسان الشارد، لأنه غارق في ملذاته، غارق في سفاسف الأمور، في أشياء لا تقدم ولا تؤخِّر، والضابط في هذا أنك حينما تُقبل على شيء فهذا الشيء هل يصل معك إلى القبر؟ أو يبقى عند شفير القبر؟

هناك إنسان يعتني ببيته عناية بالغة، لم يرتكب معصية، لكن هذه العناية البالغة التي امتصّت كلَّ وقته، هل تكون معه في القبر؟! لكنَّ العمل الصالح يدخل معه في القبر.

القضية قضية مهمة جداً، أنا ما الذي ينفعني في المستقبل؟ عمل صالح، طاعة لله، تلاوة للقرآن، دعوة إلى الله، تربية للولد، إعطاء من المال، ما الذي يدخل معي في القبر؟ إنّ الإنسان حينما يأتيه ملك الموت يقول: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠].

البطولة ألا تندم، وذلك إذا عملت لأُخراك، و متى تندم؟ إذا عملت لدنياك، لأن الدنيا تغرُّ وتضرُّ وتمرُّ، قال تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٣٣)﴾ [لقمان:٣٣].

الدنيا تغر، تظنُّها بحجم أكبر من حجمها، هذا الحجم الكبير في مقتبل الحياة، بعد حين تراها بحجم أقلّ من حجمها، لكنك عند مغادرة الدنيا لا ترى الدنيا شيئاً، لا ترى إلا الله.

البطولة أن تصحَّ رؤيتك وأنت في مقتبل حياتك حتى يأتي عملك صحيحاً.

عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ كَانَتْ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ الله غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ الله فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنْ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ» [الترمذي].

بشكل منطقي وحتمي الذي يتَّصل بصاحب الأسماء الحسنى يجب أن يكون أخلاقياً، الصفة الصارخة في المؤمن أنه إنسان أخلاقي، وإن صح التعبير كلمة الإيمان مرتبة، مرتبة علمية، ومرتبة أخلاقية، ومرتبة جمالية، المؤمن صادق لأنه موصول بالله عز وجل، يشتقُّ منه الكمال، هذا المعنى ورد عند ابن القيم رحمه الله فقال: «الإيمان هو الخلق، فمَن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الإيمان».

لذلك في بعض الأدعية عَنْ عَبْدِ الله بْنِ يَزِيدَ الخَطْمِيِّ الأَنْصَارِيِّ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: «اللهمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يَنْفَعُنِي حُبُّهُ عِنْدَكَ، اللهمَّ مَا رَزَقْتَنِي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ قُوَّةً لِي فِيمَا تُحِبُّ، اللهمَّ وَمَا زَوَيْتَ عَنِّي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ فَرَاغًا لِي فِيمَا تُحِبُّ» [الترمذي].

وهذا مستنبط من قوله تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ [القصص:٧٧].

آتاك علماً فابتغ به الدار الآخرة، آتاك خلقاً فابتغ به الدار الآخرة، آتاك فصاحة فابتغ بفصاحتك الدار الآخرة، آتاك مالاً، آتاك جاهاً، آتاك خبرة، آتاك وسامة، أيّ شيء آتاك الله به فابتغِ به الدار الآخرة.

يروى أن عالماً سأله رجل عن الزكاة، فقال: عندنا أم عندكم؟ قال: سبحان الله! ما عندنا وما عندكم؟ قال: عندكم الزكاة ربع العشر، أما عندنا فالعبد وماله لسيده، وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ [الأنعام:١٦٢].

إذًا هناك شيء تحبه، وما سمح لك أن تأخذه، فالفراغ الناشئ عن انشغالك به ليكنْ في سبيل الله.

الإنسان يطمح أن يكون ذا دخل غير محدود، لكن مشيئة الله والحكمة بالغة جعله ذا دخل محدود، فالمال الذي كان يمكن أن يشغله عن الله، والوقت الناتج عن عدم انشغاله بهذا المال الوفير ليكنْ في سبيل الله، ليطلب العلم.

إذاً: «إِنَّ لله مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أَعْطَى» .

«وَكُلٌّ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ».

السبوح

ورد هذا الاسم في السُّنَّة المطهَّرة، ففي صحيح مسلم عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ: «كَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ» [رواه مسلم وأبو داود، والنسائي].

من معاني اسم الله السبوح

السُّبُّوح من التسبيح، والتسبيح هو التعظيم والتنزيه.

ولا بدَّ من وقفة متأنيَّة هنا؛ إذ إنَّ الله سبحانه وتعالى حينما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾ [الأحزاب:٤١].

فالأمر في الآية لا ينصبُّ على الذِّكر فحسب، بل على الذِّكر الكثير، لأنَّ المنافق يذكر الله، يقول الله عز وجل واصفاً حال المنافقين: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء:١٤٢].

فالمطلوب هو الذِّكر الكثير، وإذا أُمرنا أن نسبِّح الله فالمقصود هو التعظيم والتنزيه.

السُبُّوح: هو الذي يُسبَّح ويُقدَّس، و السُّبُّوح، مبالغة مِن سبّح يسبِّح تسبيحاً، أي أنَّه مهما سبَّحتَه فلا يمكن أن تصل إلى ما ينبغي من تعظيمه وتنزيهه، لأنَّ السُّبُّوح من صيغ المبالغة.

وإذا قال واحد منا: فلان سبَّح، أي أكثر من تسبيح الله، لكن في هذه اللغة العظيمة التي اختارها الله لغة لكلامه، بكلمة يمكن أن تعبِّر عن جملة، هذا اسمه النحت، فإذا قلت: سبحان الله، فيقال: فلان سبحل، فإذا قلت: أدام الله عزك، فيقال: فلان دمعز، فإذا قلت: لا حول ولا قوة إلا بالله يقال: فلان حوقل، فإذا قلت: لا إله إلا الله يقال: فلان هلّل، فإذا قلت: الله أكبر فيقال: فلان كبّر.

التسبيح، هو التعظيم، تعظيم الله في كلِّ كمالاته، هو غني عن تعظيمنا، لكنَّنا إذا عظَّمناه سعدنا بقربه في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [إبراهيم:٨].

لكن إذا سبَّحناه فمن أجلنا، من أجل سعادتنا، من أجل سرورنا، من أجل طمأنينتنا، من أجل أن نكون موفَّقين في حياتنا، قال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى:١].

هذا أمر إلهي بالتسبيح، فحينما تسبِّح الله فأنت في عظائم الأمور، لا في سفاسفها.

قد يشتغل الإنسان بالسفاسف، ثم يندم حينما يرى أنَّه ضيَّع حياته في سفاسف الأمور، ونسي الآخرة التي هي العطاء الكبير، فإذا فات الإنسانَ هذا العطاءُ فاته كلُّ شيء، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر:١٥].

حينما تفكِّر في كمال الله، في رحمته، في حلمه، في قوَّته، في قدرته، في لطفه، في جبروته، في انتقامه، هذه كلُّها كمالات الله، والله عز وجل يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠].

إنَّ جزءاً كبيراً من عبادتك أن تسبِّح الله عزَّ وجلَّ، فلو حدَّثتنا عن عظمة الله في الكون، فحديثك تسبيح لله، إن قرأت كتاباً في الفقه، وعظَّمت هذا الأمر الإلهيَّ فأنت بهذا تسبِّح الله، فأيّ شيء يقرِّبك من الله فهو تسبيح، أي ذكر لله تسبيح، أيّ ذكر لآياته تسبيح، أي شرح لقرآنه تسبيح، والسبح هو الفراغ، قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا ۝٧﴾ [المزمل:٧].

معك مجال لا ينتهي، المال ينتهي، تأكل فتشبع، ترتدي ثياباً جديدة، تنام على السرير، هذا هو السَّقف، لو كانت معك المليارات، لو أنَّك تملك أموال أهل الأرض، لا يمكن أن تأكل إلا وجبة تملأ بها معدتك، ثم تنام على سرير واحد، وترتدي ثوباً واحد.

الدنيا محدودة، ولها سقف، لكنَّك إذا خرجت من ذلك لمعرفة الله فهناك اللانهاية، هناك تتَّصل بخالق السماوات والأرض.

والتَّسبيح تنزيه الله عن الصاحبة والولد، قال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن:٣].

والتَّسبيح تنزيه الله عن كلِّ ما لا ينبغي له، فقد يقول لك أحدُهم: فلان خَلَقه الله كافراً، وكتب عليه الكفر، وجاء إلى الدنيا، وحقَّق إرادة الله، فاستحقَّ النار إلى أبد الآبدين، هذا عكس التسبيح، لأنه وصف لله بما لا يليق به، قال تعالى: ﴿وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ۝١٧﴾ [سبأ:١٧].

وقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ۝١٤٨﴾ [الأنعام:١٤٨].

أن تتوهم أنَّ الله أجبر عباده على أفعالهم، فكيف يحاسبهم وقد أجبرهم؟ لمن الحجَّة إذاً؟ قال تعالى: ﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ﴾ [الأنعام:١٤٩].

ومن التَّسبيح أن تنزِّهه عن الظُّلم، قال تعالى: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر:١٧].

﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ [التوبة:٧٠].

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ [النساء:٤٩].

﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء:٤٧].

التَّسبيح أن تنزه الله عن الصاحبة والولد، وأن تنزه الله عن كلِّ ما لا ينبغي له، بل أن تنزِّهه عن الشَّريك والنّدّ والضّدّ.

السُّبُّوح له أوصاف الكمال والجمال، فالإنسان يحبُّ الكمال والجمال والنَّوال، وهو العطاء، والله سبحانه وتعالى مصدر للجمال والكمال والنَّوال، أفعاله كاملة، والاتصال به يسعد، فله أوصاف الكمال والجمال بلا نقص، وله الأفعال المقدسة عن الشّرّ والسّوء، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران:٢٦].

لم يقل: والشّرّ، لأنَّ الشَّرَّ المطلق لا وجود له في الكون.

ويقول تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ﴾ [الإسراء:٤٤].

ألا يستحي الإنسان أن يكون كلُّ شيء في الكون يسبِّح الله عزَّ وجلَّ، وهو غافل عن الله؟!

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ﴾ [الحج:١٨].

﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ﴾ [البقرة:٧٤].

حجر يهبط من خشية الله بنصِّ القرآن الكريم، والإنسان قلبه كالحجر، لا يتأثَّر ولا يرحم، ولا يبكي، ولا يخشع.

إنَّها آيات قرآنية تتحدَّث عن تسبيح الكون لله، فإذا كان الإنسان غافلاً فما موقفه يوم القيامة؟

ألا يستحي الإنسان أن يكون كلُّ ما في الكون يسبِّح الله عزَّ وجلَّ وهو غارق في شهواته ونزواته؟!

يقول ﷺ فيما رواه الإمام مسلم عنه ﷺ: «حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ».

سُبُحات وجه الله هي أنوار وجهه جل جلاله ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾ [الأعراف:١٤٣].

لذلك قال تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [الأنعام:١٠٣].

لكن العقول تصل إليه من خلال الكون، تعرفه، وفي الدنيا لا يستطيع كائناً من كان أن يرى الله إلا في الآخرة، قال تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣﴾ [القيامة:٢٢-٢٣].

هذا الإله العظيم ألا يُخطب ودُّه؟! ألا تُرجى جنَّته؟! ألا تُخشى ناره؟!

والصلاة تسبيح، قال تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ﴾ [الروم:١٧].

ينبغي أن تسبِّح الله في المساء؛ في صلاتي المغرب والعشاء: ﴿وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ١٧﴾ [الروم:١٧].

وهي صلاة الفجر.

﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا﴾ [الروم:١٨].

﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الروم:١٨].

الظهر والعصر.

قالوا: سبِّحْه بأسمائه، ونزِّهه عن الأسماء التي لم يسمِّ نفسه بها.

وما من طريق أقرب إلى تسبيحه جل جلاله من أن تتفكَّر في مخلوقاته.

فكلَّما فكَّرت في خلقه ازددت تعظيماً له، لأنَّ التَّفكُّر في خلق السماوات والأرض أقصر طريق إلى الله، وأوسع باب ندخل منه على الله، ولأنَّ التَّفكُّر في خلق السماوات والأرض يضعك وجهاً لوجه أمام عظمة الله.

مَن منَّا يصدِّق أنَّ في الدِّماغ مئة وأربعين مليار خلية لم تُعرف وظيفتها حتى الآن، وأربع عشرة مليار خلية قشريَّة فيها المحاكمة، والذاكرة، والذَّاكرة مساحتها بحجم العدسة فيها سبعون مليار صورة، الذاكرة، والمحاكمة، والتفكر، والاستنتاج، والاستنباط، والاستقراء، والحكم، والانفعالات، والرؤية، والسمع، والبصر، كلُّها في هذه القشرة الدماغية، فإذا قرأت هذا الموضوع ألا تعظِّم الله عز وجل؟ ألا تقول: سبحان الله.

في الغدة النخامية هرمون للكظر، إذا كان الرجل يمشي في الطريق، أو في بستان ورأى ثعبانا، هذا الثعبان تنطبع صورته على شبكية العين إحساساً، فالشبكية لا تقرأ الصورة.

ثمَّ تنتقل الصورة إلى الدماغ، وهناك تقرأ، هناك ملفات الثعبان، ومفهومات الثعبان، جاءته من دراسته، ومن مشاهداته، ومن قصص سمعها، الدِّماغ ملك الجهاز العصبي ويدرك الخطر، فيلتمس من ملكة الجهاز الهرمونيّ وهي الغدَّة النُّخامية أن تواجه الخطر، الغدَّة النُّخامية وزنها نصف غرام، وهي من أخطر الغدد، هي ملكة

الغدد، الملكة تفرز هرموناً إلى الكظر فوق الكلية، فالكظر يعطي خمسة أوامر، أمراً إلى القلب فيرتفع النبض إلى مئة وثمانين نبضة، أمراً إلى الرئتين، فيزداد الوجيب، أمراً إلى الكبد لإطلاق كمية سكر إضافية، أمراً إلى الكبد ليطلق هرمون التَّجلُّط، أمراً إلى الأوعية المحيطيّة كي تضيق لمعتها، فالدم يذهب إلى العضلات لا إلى الجلد، فالخائف يصفرُّ لونه.

لذلك يمكن أن تسبح الله عن طريق التفكر في خلق السماوات والأرض، والله سبحانه وتعالى أتقن كل شيء، قال تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ [الملك:٣].

السُّبُّوح من التسبيح وهو التعظيم والتنزيه، ومعنى السُّبُّوح هو الذي يُعظَّم كثيراً، ويُنزَّه كثيراً، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾﴾ [الحاقة:٣٣].

العبرة أن تُعظِّم الله، أن تعظِّم أمره، أن تُعظِّم حرماته، أن تُعظِّم كتابه، أن تُعظِّم دينه.

أراد الله عز وجل أن تأتيه طائعاً، أن تأتيه مختاراً، أن تأتيه بمبادرة منك، بيّن لك الله عز وجل أنَّه يحبُّك، وينبغي أن تحبَّه، يقول ابن القيّم رحمه الله: (من أعجب العجب أن تعرفه ثم لا تحبَّه، ومن أعجب العجب أن تحبَّه ثم لا تطيعه) وما عبد الله من أحبَّه ولم يطعه، وما عبد الله من أطاعه ولم يحبَّه.

ويقول تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة:٧٤].

التَّسبيح ينصبُّ على التعظيم أولاً، والتنزيه ثانياً، وما لم تعظم ربك فلا يمكن أن تنتفع من الدين بشيء، قال تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج:٣٢].

هل من الممكن أن تلخص مشكلات المسلمين في العالم الإسلامي اليوم بكلمات؟ هان أمر الله على المسلمين فهانوا على الله، الإنسان حينما يشرد عن الله لا يقيم الله له يوم القيامة وزناً.

البطولة أن تأتي مقاييسك التي تعتمدها وَفق مقاييس القرآن الكريم، يقول الله عز وجل: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب:٧١].

ليس الفوز العظيم أن تشتري أرضاً، ويرتفع سعرها مئة ضعف، ولا أن تملك شركة عملاقة دخلها فلكي، ولا أن تستمتع بمباهج الدنيا حتى قِمَّة رأسك، الفوز العظيم أن تعرف الله، الفوز العظيم أن تطيعه، الفوز العظيم أن تزحزح عن النار، قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران:١٨٥].

والنّبيُّ ﷺ كان يقول عند الكرب: «لا إله إلا الله العظيمُ الحليم، لا إله إلا الله ربُّ العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم» [متفق عليه من حديث ابن عباس].

ماذا نفهم من هذا الثناء الذي هو في معرض الدعاء، فالثناء دعاء:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني ... حياؤك إن شيمتك الحياء
إذا أثنى عليك المرء يوماً ... كفاه من تعرضه الثناء

وحينما كان سيدنا يونس في بطن الحوت نادى في الظلمات قائلاً: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾... قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ فالثناء دعاء، وذلك ورد في الآيتين الكريمتين: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء:٨٧-٨٨].

فالنبي ﷺ حينما كانت تشتدُّ به الأمور يقول:

عَنِ الحَارِثِ عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: «ألا أُعَلِّمُكَ كَلِماتٍ إذا قُلتَهُنَّ غَفَرَ اللهُ لَكَ وَإِنْ كُنْتَ مَغْفُوراً لَكَ؟ قَالَ قُلْ: لا إِلَهَ إلا اللهُ العَلِيُّ العَظيمُ، لا إِلَهَ إلا اللهُ الحَليمُ الكَريمُ، لا إِلَهَ إلا اللهُ سُبْحَانَ الله رَبِّ العَرْشِ العَظِيمِ» [سنن الترمذي].

ماذا يعني هذا الدعاء؟ يعني شيئين، التوحيد والتسبيح، أي: أنَّ أمرك بيد جهة واحدة وهذه الجهة كاملة، هل من حقيقة تُلقَى في نفس الإنسان أشدُّ طمأنة له من هذه الحقيقة، أمرك كلُّه بيد الله ولا يستطيع أحدٌ غير الله أن يتدخَّل في أمرك مع الله، والله -سبحانه وتعالى- صاحب الأسماء الحسنى والصفات الفُضلى، رحمن رحيم، عليٌّ عظيم، حليمٌ كريم، فنحن إذا عرفنا الله وصلنا إلى كلِّ شيء.

نصيب المؤمن من اسم الله السبوح

السُّبُّوح من التسبيح والتسبيح هو التعظيم، والبطولة أن تعظِّم ما ينبغي أن يُعظَّم، وأن تحتقر ما ينبغي أن يُحتقَر، البطولة أن تكبِّر ما ينبغي أن يكون كبيراً، والبطولة أن تصغِّر ما ينبغي أن يكون صغيراً.

الإنسان العظيم يتمتَّع بقلب كبير، يتضاءل أمامه كلُّ كبير، بينما الإنسان إذا شرد عن الله عز وجل وغفل عنه فله قلب صغير، هذا القلب الصغير يصغر أمام كلِّ صغير، وبين أن يصغر كلُّ كبير أمامك، وأن يكبر كلُّ صغير أمامك، فرق كبير.

قال تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت:٣٥].

فالمؤمن له من الله حظٌّ عظيم، اشتقَّ من كماله، اشتقَّ من رحمته، اشتقَّ من عدله، اشتقَّ من حبِّه، اشتقَّ من لطفه، اشتقَّ من غناه، المؤمن غني بالله، قويٌّ بالله، عزيز بالله، المؤمن شخصية فذَّة، نصيبك من الله عظيم فكنت عفيفاً، نصيبك من الله عظيم فكنت منصفاً، نصيبك من الله عظيم فكنت عفواً، نصيبك من الله عظيم فكنت متواضعاً، نصيبك من الله عظيم فكنت رحيماً.

فالحظُّ هو النَّصيب، وأنت بقدر ما تشتقُّ من الله معرفة وكمالاً تكون ذا شأن عظيم بين أقرانك.

فهرس